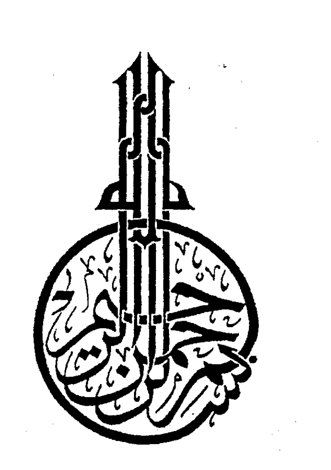
فضيلة الشيخ
محمد محمد المدني

مِن وَحْيِ الإسلام

جمع وإعداد
الشيخ أحمد مصطفى فضلية

تقديم
فضيلة الشيخ
معوض عوض إبراهيم
من كبار علماء الأزهر





من وَحْي الإسلام

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

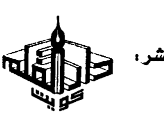
ملتزم التوزيع :



دار القلم للنشر والتوزيع

٣٦ شارع القصر العيني – ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب – القاهرة
تليفاكس / ٢٧٩٥١١٠٥ – محمول : ٠١٠١٤٦٩٠٤٥

الناشر :

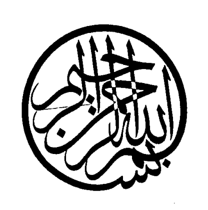


دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

إهداء

إلى روح العالم المجدد
والكاتب الفقيه المصلح
داعية الوحدة والتقريب
بين المذاهب الإسلامية
الشيخ / محمد محمد المدني
بحوثه الباقية التي كتبها
«من وحي الإسلام»
وهي جديرة بالذيوع والانتشار



﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

[البقرة : ١٤٣]

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

[القصص : ٧٧]

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

[الأعراف : ٣١-٣٣]

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فإن الأمة من الأمم لا يعلوا قدرها، بموقع ولا بآثار ولكنها تعلو قدراً برجالها وبخاصة العلماء الذين تعاقبوا على أرضها بناة صالحين، مجددين لآثار من سلف ومضيفين الجديد الطارف ما حصلوه هم من علم ومعرفة هما الرصيد المدخر والذخائر الحقة التي تجل قدراً على مر الأيام والليالي، ويلقون بجهدهم فيها ربهم سبحانه وتعالى فيجدون عنده خيراً وأعظم أجراً، وتأتي الأجيال بعد الأجيال وهم على الألسنة بكل ما عناه وإبراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه قائلاً ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٨٤).

والأمة الإسلامية منذ قامت غنية بالعلماء والأئمة الذين تعطر ذكراهم إيمانا وعلمًا وصلاحًا وإخلاصًا وعملاً جوانب الدنيا ونحن بخير ما ترسمنا خطا هؤلاء في الحرص على طلب العلم وتيسيره للناس. وإحياء مناهجهم في الإصلاح والتوجيه وتوفير أمن العباد والبلاد من كل غاز أو دخيل.

وإذا كنت قد نبهت في هذه الكلمات القليلة إلى أن خير ما يزين أمة من الأمم إنما هم علماؤها بكل ما تتسع له كلمة العلم من معان التضلع والإمتلاء بعلوم الفقه وتفسير القرآن الكريم ودراسة السنة النبوية والسيرة المحمدية، وعلوم اللغة العربية وعلوم السياسة والإدارة وإقامة العدل بين الناس بقدر ما يعين الله عز وجل على كل ذلك فإن الشيخ العلامة (محمد محمد المدني) رحمه الله يخطر بالبال ويثير في نفسي كل معان الإكبار والإجلال بقدر ما كان امتداداً صالحًا لعلماء القرن العشرين من أبناء الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر وتلاميذه الكبار من أمثال الشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ على سرور

الزنكلوني والشيخ محمد عبد الله دراز وغيرهم من أولئك الذين يجدد فكرهم وعطائهم العلمي بحق الشيخ محمد محمد المدني .

وإذا كنت حرمت لقاءه فإنني سعدت بقراءة كثير مما كتب وأثرى به المكتبة الإسلامية فقهًا وأدبًا ومناهج إصلاح ورؤى خيرة تجمع طوائف الأمة على كلمة سواء وأذكر أن الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر تعرف عليَّ من خلال ما كنت أكتبه إلى مجلة نور الإسلام لسان حال الوعظ في الأزهر وكان يدعو سكرتير التحرير مرة بعد مرة أن يكتب إليَّ على لسانه أن أكتب أكثر من مقال للمجلة في ذلك الموضوع . وكان أثر تعرفه عليَّ عن هذا الطريق أنه طلب إلى سنة ١٩٥٥ أن أستعد للسفر مبعوثًا من الأزهر للوعظ والتدريس في الكلية الشرعية ببيروت لبنان واعتذرت طيلة عام كامل للشيخ أكرمه الله عن ابتعاث يعني تقديره لي وثقته في قدرتي على السفارة العلمية في لبنان الشقيق، لكنني بعد عام وفي سنة ١٩٥٦ لبيت دعوته وسافرت مستعينًا بالله عز وجل إلى بيروت وفيها لقيت المسلمين شيعا وأحزابًا إلى جوار الكثرة الكاثرة من أهل السنة . كانت هناك يومئذ جماعة حزب التحرير الذي كان على رأسه الشيخ النبهاني رحمه الله .

ورأيت جمهرة كبيرة من الشيعة وكان الشيخ (محمد جواد مغنيه) رحمه الله من أكثرهم اتصالاً بي على نحو يكاد يكون يوميا، وقد وجدت شيئًا غير يسير من شغب شباب حزب التحرير الذين كانوا بعضهم مرة بعد مرة يراني في درس من الدروس في الجامع الكبير في بيروت أحدث الناس عصرًا فإذا بالواحد منهم يومًا وراء يوم يقف فيلقي سؤالاً لو أنه جلس لأجبته وهديته إلى رشد ولكنه لوقوفه وسؤاله الذي ما يكاد يلقيه وينتهي منه إلا وهو يولي الأدبار تاركًا من إنكار الناس ونقمتهم عليه ما هو أهله .

ولقد قال لي الشيخ البنهاني رحمه الله : (أن الأزهر لا يؤدي واجبه)، فعجبت لهذه الكلمة من شيخ وقور، وقلت له على الفور : إن الأزهر يؤدي واجبه في كل بلاد الإسلام وغيرها وأقل الشواهد على ذلك - أنني واحد من رجال الأزهر بين

عديد من إخوانه في لبنان.

وقد كانت جماعة التقريب في مصر في أوج ازدهارها.

وكتب إليَّ فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج أن ألقى الجماعات المتفرقة في بيروت داعيا إلي أن يمدوا أيديهم إلى تلك الحركة المباركة ولقيت الأخوة الشيعة في أكثر من لقاء وكتبت للشيخ تاج رحمه الله التقرير ملخصه أن القوم يريدون أن ندع كل ما عندنا ونمضى معهم في أخذهم لعلوم الإسلام على منهجهم.

وكان عجبا أن يعلم الشيخ المدني بما دار بيني وبين الشيخ تاج رحمه الله فكتب إليَّ أن أواصل بهؤلاء الأخوة عسى الله أن يجعلنا وإياهم على كلمة سواء من الدين الذي أدى رسالته النبي محمد ﷺ وكان جواب الشيخ محمد المدني رحمه الله ضوءاً أعاد إليَّ تقديري من بعد للشيخ المدني ومكانته بين أعوان الشيخ شلتوت الذي ما جاد الزمان بمثله نشاطا وتجديدا وإصلاحًا إذا ما استاذنا عالم عصره وأستاذ زمانه وإخوانه الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله وقد كان الشيخ المدني ينزله من عقله وقلبه المنزلة التيأنزلته من قلوب الملايين والخير دائما يذكر بالخير وآية ذلك في أقل القليل أن الشيخ المدني بعلمه ورغبته الجادة في التقريب بين المذاهب الإسلامية وإدارته لكلية الشريعة بالأزهر.

كان من القلة القليلة التي أخذت من الدكتور دراز ومن الشيخ شلتوت وغيرهم من كبار علماء العصر ما جعلنه مذكوراً إلى جوار أمثال الشيخ محمد أبو زهرة - الذي لم يأخذ حقه في زمن غطت السياسة وأساليب الحكم الجديدة من جلاله ونباهة ذكره ما تغطيه كف إنسان يخيل له فهمه أنه يستطيع بها أن يحجب نور الشمس عن التألق في جميع جوانب الحياة.

وأحسب أن الذي فاتني وفات الكثيرين من أخبار الشيخ المدني وآثاره العلمية سيعوضنا عنه خيراً ذلك الجهد المشكور والحصر الدائم من ابننا الشيخ أحمد مصطفى فضلية على أن يبدد الدياجي لتذهب أضواء الشيخ المدنى رضًا في كل جانب من جوانب الحياة.

وهكذا يبارك الله في أعمار وآثار الكبار الذين عاشوا للعلم وباتوا عليه فوهبهم الله عز وجل وهم في جواره الخلود بين الناس شداة العلم النافع وطلاب المعرفة الحقه وأنصار الصواب الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله وكان سبيل رضوان الله عز وجل في الخلف كما كان في السلف ربنا آتنا من لدنك رحمه وهيىء لنا من أمرنا رشداً

وصلى الله وسلم وبارك على خيرة الله من خلقه ورضى عن آله وصحبه وبارك لنا في آثار أوائلنا

نبعث للنور وتهدي إلى التي هي أقوم

اللهم آمين

معوض عوض إبراهيم

من كبار علماء الأزهر

الشريف

مقدمة

بقلم: الشيخ أحمد مصطفى فضلية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه .

وبعد : فمن البر بأجيال الصحوة الإسلامية الحاضرة والقادمة على طريق عودة الإسلام ليقود الحياة للتي هي أقوم، أن نقدم لها العلم النافع من تراث أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة، ليكون مصدر إشعاع فكري ونور هدى، ولقد أبقى العلم النافع ذكرى أصحابه وإن لفهم الثرى وغيبتهم الأجداث بل وصنفت لهم آثارهم المتجددة، وأنوارهم العلمية المتوقدة، أعماراً بعد انتهاء أعمارهم.

لقد كان الأمير شكيب أرسلان رحمه الله يُنزل الكتاب منزلة الأبناء من نفسه ويقول:

يقولون إن المرء يحيا بنسله وليس له ذكرًا إذا لم يكون نسل

فقلت لهم :

نسلى بدائع حكمتي فإن لم يكن نسل فإنا بها نسلو

والشيخ العالم والفقيه المصلح محمد محمد المدني ممن شغفوا بالعلم منذ صباه المبكر، وفي شتى ظروف حياتهم، سعة وضيقًا وصحة وسقمًا، وعلى كل حال، فترك لنا علمًا نافعًا يحقق أمل الشباب المسلم في المعرفة الهادفة والثقافة الهادية البانية وللشيخ رحمه الله مؤلفات طيبة أثرى بها المكتبة الإسلامية فقهًا وأدبًا ومناهج إصلاح، ورؤى خيرة تجمع طوائف الأمة على كلمة سواء تركت له بعد وفاته حسن الأحدوثة ولسان الصدق في الآخرين، ولازالت إلي يوم الناس هذا تمد شعاعًا يمضي المتقون من نوره إلى الصالحات من القول الطيب والعمل الصالح من هذه الآثار الميمونة المباركة التي طبعت (المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء) و(القصص الهادف كما تبينه سورة الكهف)، (وسطية الإسلام) و(من فقه عمر) وتفسير بعض سور القرآن (التعريف بسورة آل عمران وسورة الأنعام

والأهداف الأولى للإسلام وجولات روحية في سورة محمد، وله العديد من البحوث الإسلامية الهادفة مثل: (التفكير في الشريعة الإسلامية وتعدد الزوجات والطلاق والاجتهاد في الإسلام، والقرآن يخلق المجتمع المتفائل) - وكلها تبرز بجلاء عقلية الشيخ الاجتهادية، وسلامة منحاه التأليفي. فهو بحق عالم فقيه مجدد، وكاتب مصلح، وداعية مستنير، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى بعث تراثه التأليفي من جديد والعمل على نشره وإذاعته دعمًا للصحوة الإسلامية، وتمكينًا للنهضة الإسلامية الصاعدة الواعدة إن شاء الله.

ومن الآثارالتي جمعها ونشرها نجله الأستاذ فوزان المدني - (معجزة القرآن) و(خصائص القرآن الكريم)، وشاء الله أن أتعرف على الأستاذ فوزان في مسجدي الذي أخطب فيه خطبة الجمعة بمدينة الإسكندرية فأخبرني برغبته الجادة في جمع تراث والده العلامة الشيخ المدنى في أمهات الصحف والمجلات الإسلامية التي نشر فيها مقالاته وبحوثه (كمجلة الرسالة - والأزهر - ومنبر الإسلام - والوعي الإسلامي - ولواء الإسلام - والعرفان اللبنانية ورسالة الإسلام) فاستعنت بالله وتوكلت عليه ثم شمرت عن ساعد الجد وبدأت رحلة البحث والتنقيب وكانت لجهود الأستاذ فوزان الفضل الأكبر في جمع هذا التراث الذي عكفت على قراءته وترتيبه وتبويبه وتصنيفه إلى عدة كتب نافعة إن شاء الله رب العالمين.

وقد جعلت هذا التراث الذي لم يسبق نشره مجموعًا فيما أعلم على هذا النحو:

(١) من وحي الإسلام.

(٢) الحياة من القرآن.

(٣) التشريع القرآني دعائم استقراره ... وملامح في إعجازه.

(٤) من هدي القرآن.

(٥) كنوز من التفسير.

(٦) دراسات في القرآن الكريم .

(٧) عدالة الإسلام .

(٨) تاريخ الفقه الإسلامي في مصر .

(٩) النفس الإنسانية في ضوء القرآن والسنة .

(١٠) سائح في رياض القرآن .

وها هو أول الغيث، هذا الكتاب الذي أسميته (من وحي الإسلام) منه يأتي في أوانه المقدور يعمق الإيمان بعظمة الإسلام وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان . وحاجة الناس الماسة إلى هديه السماوي، ونوره القرآني وأدبه المحمدي . واستأذن القارئ العزيز أن أعرفه بمادة هذاالكتاب ليدلف إلى جوه الإيماني برغبة وشوق فاقول . . .

في الباب الأول :

جمعت ما كتبه الشيخ عن منهج القرآن في التعريف بالله ويضم (منهج القرآن في التعريف بالله ـ والله في القرآن الكريم ـ وأسماء الله الحسنى) .

أما الباب الثاني :

فجعلته تحت عنوان عناية القرآن بالعقيدة وضم موضوعات ستة (القرآن وقضية البعث ـ القرآن وعقيدة البعث ـ شرك العقيدة وشرك العمل ـ عبدة الأهواء ـ لا وساطة بين الخالق والمخلوق ـ موقف الإسلام من أهل الكتاب) .

والباب الثالث :

إن الدين عند الله الإسلام، ويضم هذه الموضوعات (دين الله واحد وهو الإسلام ـ الإسلام دين التوحيدوالوحدة ـ أهداف الإسلام الكبرى ـ أهداف الإسلام الحق ـ الخير الجمال .

الباب الرابع :

بعنوان الجاهلية والإسلام ويتحدث عن (ظن الجاهلية ـ حكم الجاهلية ـ تبرج الجاهلية ـ حمية الجاهلية) .

الباب الخامس:

جعلته تحت عنوان « الإسلام مصدر قوة المسلمين » ويتحدث عنها تحت العناوين الآتية : الإسلام والمسلمون، ومركز المسلمين في العالم، ونهضتاه زميلتان في بلاد العروبة والإسلام.

الباب السادس :

جعلته تحت عنوان « لإسلام والحياة الروحية » ويتحدث عن (البناء الروحي الذي شيده الإسلام - مقوماتنا الروحية أمام المادية العالمية - العقيدة الإسلامية وأثرها في سمو الإنسان - لا ولاية بين الحق والباطل - الحب بين العباد والرب) .

الباب السابع :

وجعلته تحت عنوان « الإسلام والحريات » ويتناول (الإسلام محرر العبيد - الإسلام دين الإنسانية والسلام - الإسلام يعتمد في دعوته وتعاليمه على الشعوب لا على القادة والحكام - الحقوق الطبيعية للمواطنين - القوانين التي وضعها الإسلام ضماناً وتنفيذاً للحقوق الطبيعية للمواطنين) .

الباب الثامن :

وجعلته تحت عنوان « الشباب أسناد دعوات الإصلاح » وفيه تحدث الشيخ عن الشباب باعتبارهم أسناد دعوات الإصلاح من خلال هذه الموضوعات (كيف نربي الشباب - الشباب في كل زمان هم أسناد دعوات الإصلاح - التخطيط الإسلامي الكامل لتربية الشباب - واجب الشباب في إطار النهضة الإصلاحية الجديدة - أيها الشباب اضربوا على يد الكذاب) .

الباب التاسع :

جمعت فيه مقالات وبحوث تتناول « قيم ومفاهيم إسلامية » مثل : (الترف والمترفون - الرأي العام من تعاليم الإسلام - المثالية في نظر الإسلام - التكافل في الإسلام - الوعي الصحي في تعاليم الإسلام - فلسفة الوحدة في الإسلام - فرحة

المؤمنين بانتصار الحق على الباطل - عوامل النجاح في الحياة - التوكل على الله بين النظرية والتطبيق - السماحة - لا تيأسوا من روح الله - المحبة والإخاء، سل نفسك من أي نوع إيمانك؟ الشبهات والشهوات - دفاع من التعصب) .

أما الباب العاشر والأخير :

فقد أوردت فيه ردود الشيخ عما يقال عن الإسلام ومن هذه العناوين (الإسلام دين الرحمة - الإسلام بين المستشرقين والمستغربين - من مخالطات المستشرقين - بمناسبة الحكم في قضية كتاب « الفرقان » .

تحقيق في قضية مشهورة عن رواية الحديث وختمت الباب بأسئلة وأجوبتها بمناسبة صدور كتاب الشيخ المدني (وسطية الإسلام) .

وأمل أن يكون في تقديم مادة هذا الكتاب على هذا النحو مفيداً ومثمراً لطلاب العلم من الشباب المؤمن من أبناء الصحوة الإسلامية التي نرجوا خيرها وحسن فهمها للإسلام.

وقبل أن أضع القلم أسجل شكري وتقديري للعون الصادق من نجل الشيخ الأستاذ (فوزان محمد محمد المدني) فجزاه الله خيراً عن بره لوالده في أثمن ما يحبه أبوه رحمه الله وفي أجود ما ينفع الإسلام والمسلمين.

فجزاه الله خير الجزاء عن بره بأبيه وحبه وتقديره للعلم والعلماء، كما أسأل الله الأجر والمثوبة لأسرة دار القلم بالقاهرة لحسن تشجيعهم واهتمامهم بنشر تراث أعلام الإسلام من العلماء المجددين، كما أسأل الله أن يجعل جُهدي المتواضع في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه
الفقير إلى عفو الله
أبو عبد الرحمن
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية

محلة دياي - دسوق
٢٤ من شوال ١٤٢٧هـ
١٦ نوفمبر ٢٠٠٦ م



الشيخ محمد محمد المدني(*)

سيرة في سطور

بقلم: الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية

من حق أجيال الإسلام الحاضرة والقادمة أن نذكّرهم بسير الرجال من العلماء المجددين والدعاة الفاهمين، والفقهاء المصلحين، ومن هؤلاء الشيخ العلامة محمد محمد المدني رحمه الله وطيب ثراه. نؤرخ لحياته التي عاشها في ظل الإسلام عالمًا كبيراً من علمائه، منذ شبابه المبكر، وفي هذه الحياة الخصبة الحافلة بالعطاء مجال صالح للأسوة والاقتداء لطلاب العلم.

وها هي سيرته في سطور:

* سنة ١٩٠٧م ولد الشيخ محمد محمد المدني بقرية سنبادة مركز المحمودية في ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٠٧م.

* سنة ١٩١٩م أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن تبلغ سنه الثانية عشر.

* سنة ١٩٢٧م: لما أحس في نفسه بقدرة علمية - وهبها الله له تمكنه من سبق زملائه، ترك الانتظام في الصفوف الدراسية وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في إبريل ١٩٢٧م، وعلى هذا النحو أيضًا تقدم للحصول على الشهادة العالمية التي حصل عليها بتفوق باهر في أكتوبر ١٩٢٧ ماكثًا بالجامعة أقل من سنة دراسية وهو ما لم يتحقق لغيره، فقد كان عمره وقت التخرج من الجامعة الأزهرية عشرين عامًا وهو ما لم يتحقق لغيره أيضًا.

* سنة ١٩٣٠م - حصل على العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) من قسم التخصص بالأزهر في علوم البلاغة والأدب.

* سنة ١٩٣٣م - رشحه شيخ الجامع الأزهر محمد الأحمدي الظواهري للسفر

(*) اعتمدنا في تأريخ حياة الشيخ بالسنوات على أوراقه الخاصة والتي حصلنا عليها من نجله الأستاذ فوزان محمد المدني حفظه الله.

إلى الصين للاشتغال بتدريس العلوم الدينية والعربية.

* سنة ١٩٣٣م صدر قرار تعيينه مدرسًا بالمعاهد الدينية. فعمل أولاً بمعهد الإسكندرية ثم معهد القاهرة.

* سنة ١٩٣٥م شارك في حفلة تكريم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الجامع الأزهر.

* سنة ١٩٣٥م في الثامن من فبراير - قرر المجلس الأعلى بالأزهر فصله من التدريس بمعهد الإسكندرية بسبب مشاركته في ثورة الأزهر.

* سنة ١٩٣٥م أول مايو - قرر المجلس الأعلى بالأزهر إعادته إلى التدريس بمعهد الإسكندرية.

* سنة ١٩٣٦م - رقي مدرسًا بكلية الشريعة وبقى بها تسع سنوات مدرسًا لمادة أصول الفقه في مختلف فرق الكلية، ثم لمادة المقارنة بين المذاهب الفقهية في أعلى فرقة بها.

* سنة ١٩٣٧م - أصدر الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي قراراً بتعيينه مستخدمًا مؤقتًا في الجامع الأزهر بصفة مدرس.

* سنة ١٩٤٠م - وقع اختيار الشيخ عبد المجيد سليم ليعمل إلى جانبه في أعمال الشهادات النهائية بالجامع الأزهر.

* سنة ١٩٤٣م - نقل مفتشًا للعلوم الشرعية والعربية بالأزهر الشريف فقضى في هذا العمل أربع سنوات ثم عاد إلى كلية الشريعة.

* سنة ١٩٤٤م قررت مشيخة الأزهر ندبه مدرسًا بمعهد الإسكندرية بعد أن عمل مدرسًا بكلية الشريعة.

* سنة ١٩٤٥م - أخلى طرفه من معهد الإسكندرية ليباشر عمله مدرسًا بكلية الشريعة مرة أخرى.

* سنة ١٩٤٨م - تقدم لنيل عضوية جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف

وألّف رسالة علمية بعنوان (القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف) قبلها فضيلة الأستاذ الأكبر، ولما كانت سنه حينئذ لم تصل إلى الخامسة والأربعين التي يشترطها القانون، ولم يؤخذ برأيه في احتساب سنه على أساس الأعوام الهجرية.

* سنة ١٩٤٨م يونية: اختاره الإمام الأكبر الشيخ (مأمون الشناوي) ليتولى رئاسة تحرير مجلة (رسالة الإسلام) لسان حال جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة.

* سنة ١٩٤٨م - وقع عليه اختيار الشيخ مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر ليقوم بالتفتيش على المعاهد الدينية بالأزهر.

* سنة ١٩٤٨م - رشح من قبل وزير المعارف العلامة (عبد الرازق أحمد السنهوري) ليتولى تدريس العلوم الشرعية بكلية الحقوق ببغداد.

وقال وزير المعارف في خطاب الترشيح:

« ... ولما كان فضيلة الأستاذ محمد محمد المدني المفتش بالأزهر ممن نثق بهم، ونعتمد على كفايتهم العلمية، ونرى أنه خير من ينهض بهذا الواجب، مؤديًا به رسالة الأزهر، وممثلاً له أحسن تمثيل ... ».

* سنة ١٩٤٩م - تولى منصب سكرتير عام مساعد للجامع الأزهر وهو أول عالم أزهري يشغل وظيفة مدير مكتب شيخ الأزهر في فترة تولي الشيخ الإمام عبد المجيد سليم مشيخة الأزهر الشريف.

* سنة ١٩٤٩م - أختير عضواً عالمًا ببعثة الشرف الموفدة للأراضي الحجازية في موسم الحج فأدى فريضة الحج أول مرة وكان أمير الحج صاحب السعادة الدكتور عبد الوهاب عزام بك رحمه الله، وبعد عودته من الحج بعث إليه برسالة كان مما جاء فيها « ... إن من الذكريات ما لا ينسى مدى الحياة، وإني لست أنسى أني كنت في صحبة رجل كريم نبيل عالم أديب يمتاز بالخلق العالي والشرف الأصيل وهو الدكتور عبد الوهاب عزام بك بارك الله في حياته للإسلام والمسلمين... ».

* سنة ١٩٥٠م - شارك في اجتماع الهيئة العليا الأزهرية لإنقاذ فلسطين

بالجامع الأزهر.

* سنة ١٩٥١م - تم اختياره من المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية عضواً وسكرتيراً للجنة العلوم الدينية، مع كوكبة من علماء الأزهر يذكر منهم شيخ الأزهر ووكيله وأصحاب الفضيلة (عيسى منون ومحمد عبد الفتاح العناني ومحمود شلتوت وأحمد حسين علي وأحمد محمد شاكر ومحمد زاهد الكوثري).

* سنة ١٩٥١م - طلب من الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر إعفائه من العمل مديراً لمكتبه وإعادته إلى التفتيش فأجيب إلى طلبه مع شكر وتقدير شيخ الأزهر.

* سنة ١٩٥١م - اختاره الإمام عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر مساعداً للشيخ محمد نور الحسن لامتحان الشهادات النهائية للمعاهد الأزهرية.

* سنة ١٩٥٢م - كان من العلماء الذين عارضوا استقالة الشيخ الإمام عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الشريف.

* سنة ١٩٥٤م - أعيد للتدريس بكلية الشريعة كأستاذ مساعد بعد أن ألغيت وظيفة السكرتير العام المساعد للجامع الأزهر.

* سنة ١٩٥٦م - عين أستاذاً للشريعة الإسلامية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

* سنة ١٩٥٦م - أُختير من قبل المؤتمر الإسلامي ليكون أحد كتاب مجلته الشهرية العالمية باللغة العربية والإنجليزية.

وكان مما جاء في خطاب الترشيح:

« ... وإني أهيب بكم وأنتم علم من أعلام الفكر الإسلامي وأحد كتابه أن تساهموا بما يعن لكم من موضوعات وبحوث تثرون بها الفكر الإسلامي المستنير، وتجددون بها فهم الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين... ».

* سنة ١٩٥٦م - صدر القرار الجمهوري بتعيينه شيخاً لكلية الشريعة بدلاً من

الشيخ محمد علي السايس الذي أحيل إلى المعاش.

* سنة ١٩٦١م – صدر قرار رئيس الجمهورية بتعيينه عميداً لكلية الشريعة فترة ثانية.

* سنة ١٩٦١م – ندب فضيلته مستشاراً للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

* سنة [١٩٦٧–١٩٦٨م] أعير لجامعة الكويت لتدريس مادة أصول الفقه والفقه المقارن.

* سنة ١٩٦٨م – عين عضواً عالمًا ببعثة الشرف المصرية لموسم الحج عام ١٣٦٨هـ – ١٩٦٨م.

* سنة ١٩٦٨م – طويت آخر صفحات حياته الحافلة بالكفاح والجهاد في سبيل إنهاض أمة الإسلام في ١ / ٥ / ١٩٦٨م.

* سنة ١٩٨١م – كرمته الدولة فمنحه الرئيس محمد أنور السادات وسام الدولة.

* سنة ١٩٩١م – كرمته الدولة فمنح اسمه الرئيس محمد حسني مبارك وسام الدولة.

حقائق مضيئة من سيرة منيرة:

١– أثبتت له مجلة الرسالة في الأعداد الصادرة في الثلاثينات والأربعينات مقالات عديدة مسجلاً بذلك صفحات مجيدة في تاريخ إصلاح الأزهر والجهاد في سبيله وذلك على أثر انتقاله من معهد الأسكندرية إلى معهد القاهرة – عرفها الناس وعرفوا بها الشيخ المدني في العالم الإسلامي شابًا في سنه، شيخًا في علمه.

ويعد الشيخ محمد المدني رحمه الله أول من أدخل الدراسات القانونية في كلية الشريعة بجامعة الأزهر على نحو يخدم الفقه الإسلامي ويعين على

المقارنة بينه وبين غيره ويبرز مزاياه.

٢- كما يعد الشيخ المدني أول من أدخل دراسة فقه الشيعة في كلية الشريعة مستوفيًا بذلك أركان المقارنة في الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية، وبذلك فتح للناظر في الشريعة الإسلامية آفاقًا جديدة أعانته على ما هو بصدده وجعلته ملمًا بما يدور حول التفكير الغربي من تيارات ملائمة أو معارضة، وبذلك عرف رجال الأزهر الشريعة أسلوبًا جديدًا استعانوا بمعرفته على عرض ما عندهم عرضًا جديدًا وتنظيمه تنظيمًا يفيد في تقريب الانتفاع به.

٣- كما كانت له وقفات جريئة في تاريخ الإصلاح في الأزهر والجهاد في سبيله، أشهرها موقفه تجاه قانون تطوير الأزهر في ١٩٦١م، والتعديلات التي أدخلت على مناهج الدراسة بكلية الشريعة عام ١٩٦٣م ولم يقبلها وكانت سببًا في «عزله» من عمادة كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

٤- له بحوث وكتابات علمية في الصحف والمجلات مع صفوة من رجال الفكر وعلماء الدين الإسلامي كالشيخ عبد المجيد سليم والشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ محمد عبد الله دراز والشيخ محمود شلتوت، ومن الأدباء أحمد حسن الزيات وعلي الطنطاوي، وعباس العقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم ممن عاصرهم من الجيل الذي تأثر به ومن عاصره. أثبت هذا كبرى المجلات مثل: الرسالة، ونور الإسلام، والفتح والأزهر، ورسالة الإسلام، ومنبر الإسلام، ولواء الإسلام، والوعي الإسلامي اتسمت بالعمق وقوة الإيمان والإخلاص المجرد والعلم الغزير والوعي الكامل بالقضايا التي كان يعاني منها العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

٥- كان رحمة الله عليه من كبار المتحدثين في الإذاعة والتلفزيون، وكان من أوائل المتحدثين في إذاعة جمهورية مصر العربية، وأثبت له كتاب أحاديث الصباح في المذياع بعضًا من إنتاجه المشترك مع الشيخ محمود شلتوت، وأحاديثه الكثيرة التي ضمتها مكتبة الإذاعة سواءًا في الفتاوى أو في تفسير القرآن

الكريم، وسلسلة أحاديثه بعنوان صفحات مشرقة من تاريخ المرأة المسلمة، وسلسلة تحديد المفاهيم وغيرها مما لا غنى للدارس عنها.

٦- له مؤلفات إسلامية كثيرة ضمت فكرًا إسلاميًا حديثًا مع المحافظة على أصول الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أثبت منها أن الإسلام دين الله المرتضى الصالح لكل زمان ومكان.

وبعون الله وتوفيقه سنوالي نشرها من دار القلم بالقاهرة إن شاء الله رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه
الفقير إلى عفو الله
أبو عبد الرحمن
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية

محلة دياي - دسوق

٨ من ذو القعدة ١٤٢٧ هـ
٢٩ من نوفمبر ٢٠٠٦ م



الباب الأول

حديث القرآن عن الله

١ ـ منهج القرآن في التعريف بالله

٢ ـ الله في القرآن الكريم

٣ ـ الله في القرآن الكريم

٤ ـ أسماء الله الحسنى

منهـج القـرآن في التعـريف بالله

للقرآن الكريم منهج في التعريف بالله يتكون من أربع نقاط أساسية، هي :

١ ـ تقرير قانون وقائي يحول بين الإنسان وأن يضل في متاهات الفلسفة ، ويشغل عقله وفكره فيما لا طائل تحته .

٢ ـ مخاطبة الإنسان من ناحية عقله .

٣ ـ مخاطبة الإنسان من ناحية عاطفته .

٤ ـ مخاطبة الإنسان من ناحية مصلحته، وإليكم الحديث إجمالاً عن كل نقطة من هذه النقاط الأربع :

أولاً ـ القانون الوقائى :

أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله قائمة علي وصفه تعالى بكل جميل، وتنزيهه عن كل قبيح، وقد أمرنا بأن نفكر في آثار الله، ونهينا أن نفكر في ذاته، لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصرف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا، وأن نسبح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضلالاً، أو نخاف تيها، أما ذات الله فهي فوق العقول التي ألفت التقدير والتكييف والتحديد والقياس والتشبيه. هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية للإيمان، ولو أن امرأ لقي ربه وهو يعلم أنه إله واحد قادر خالق متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص دون أن يعلم ما وراء ذلك من تفصيل في شأن الصفات، لكان إيمانه مقبولاً عند الله. وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بعقولهم في هذا المجال، كأنهم حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنه صفاته، فعقدوا ماشاءوا بين الذات والصفات من روابط، واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو

غيرها، وفي أنها قائمة بها أو مستقلة عنها، وفي أنها قديمة بقدمها أو كقدمها، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم، وشغلوا بها الناس وفتحوا بها على العقول أبواب الشكوك والفتن وهم في ذلك أن يشبهوا فقد قاربوا، وقالوا على الله بغير علم، كما زعم الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، أو الذين قالوا: الملائكة بنات الله، فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله، ويحاول أن يتصور الألوهية تصوراً مادياً، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي!

يقول الله تعالى في وصف نفسه وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون وما يدركون.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٨) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴾ (الإخلاص) .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ⑩⓪ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ①⓪① ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ①⓪② لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٠-١٠٣) .

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه، وكل ما ذكر في ذلك ليس من أصول الدين، وإنما هو من قبيل المعارف النظرية، والمسائل الكلامية، ومن الخير للمسلمين - ولا سيما في هذا العصر الذي اشتغل الناس فيه بما ينفعهم من العلم والعمل - أن يتخففوا منها، بل يتخلوا عنها، ويوسعوا مداركهم وعقولهم عن الارتطام في خلافات بسببها

وليعلموا أن الله ليس بسائلهم يوم يعرضون عليه عما خاض فيه المتكلمون من هذه النظريات: ليس بسائلهم عن الجزء الذي لا يتجزأ، ولا عن الخلا والملا والجوهر والعرض، وهل يبقى العرض زمانين أو لا يبقى، وهل القدرة مع الفعل أو قبله، وهل الصفات زائدة على الذات أو ليست زائدة، وهل الاسم على المسمى أو غيره، فإن كان سائلاً عن ذلك أحداً من خلقه، ومستخيرا إياه خبره، فليسعنا ما يسع أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وابن عباس وابن عوف وابن مسعود وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وخير لنا أن نحشر معهم بذلك جاهلين، من أن نحشر مع النظام، أو الجاحظ أو القفال، أو غيرهم ولو كانوا أئمة في العلم والتقى، وسبحان من لا تدركه العقول، ولا تحيط به الأوهام والظنون!

ثانيًا: مخاطبة الإنسان من ناحية عقله:

من الناس من ينكر أن للكون ربًا ويعتقد أن الكون ما هو إلا محض مصادفات تولد بعضها من بعض، ومازال هذا التوالد المصادفي يحكمه، ولن يزال كذلك حتى ترى عليه مصادفة تدمره وتفنيه!

وهؤلاء فئة من الناس متخبطة تقول ما لا يقبله عقل، ولا تسلم به فطرة، وأنك لا تجد واحداً منهم ولا من غيرهم يصدقك إذا آتيت له في أي شيء عادي بحديث عن أمر له بعض التفاصيل والتراكيب والدقائق، تحكمه المصادفة في نشأته واستمراره.

قل لهم أو لغيرهم ـ على سبيل التجربة والاختبار ـ أنني كنت سائرًا في صحراء مترامية الأطراف، لا يعرف أولها من آخرها وقد ألهب الهجير ما فيها من رمال فجعله كرماد النيران المشتعلة وليس بها شجر يستظل بظلاله السائرون، ولا ماء يستقى منه الشاربون، فبينما أنا كذلك ارتقب الموت فيها جوعًا وظمأ وضحاء إذا أحجار تجتمع وحدها دون جامع لها، ثم يقع بعضها على بعض في نسق بنائي، فتتألف منها جدران قصر منيف، ثم إذا ألواح وعروق وكتل من الخشب، تترادف على هذه الجدران، مقطعة مسواة متجاورة، فإذا هي سقف مرفوعة، وأبواب مصنوعة. ونوافذ صالحة لأن تفتح وتغلق في سهولة ويسر، وبينما أنا انظر إلى هذا

البناء يتألف ويتكون على هذا النحو، إذا الفرش والبسط والأرائك والستائر تفرش وتبسط وتنظم، وإذا الماء البارد، والطعام الفاخر والخدم والحشم وكل ما يتصوره متصور من نعيم القصور يأتي بعضه في أثر بعض، دون آت به، ولا منظم له، وإذا أنا في ظل من النعيم، أطعم هنيئًا، وأشرب مريئًا، وأنام ملء جفوني سعيداً قرير العين مطمئنًا، لا خوف يقلقني، ولا شيء يزعجني!

قل لهم أو لغيرهم هذا على سبيل التجربة والاختبار، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون مستنكفين مستهزئين؛ في أية ليلة هادئة رأيت هذا الحلم الجميل؟ فإن قلت لهم: آه ليس حلما رأيته، ولا خيالاً تخيلته، قالوا لك: إذن هي خرافة سيطرت على عقلك لم تستطع لها دفعًا، فعليك أن تستريح حتى تهدأ أعصابك!

فإذا كان مثل هذا لا يقبله عقل عاقل في شأن قصر محدود صغير، فما بالنا بالكون الأعظم وما فيه من أفلاك وكواكب وأجواء وآفاق وعوالم؟ وكيف يمكن أن نتصور هذا كله، مع ما نراه عليه من الدقة والنظام والترتيب والاتساق العجيب - قد كان على سبيل المصادفة، فلا خالق، ولا مبدع، و ولا مصور، ولا بارئ!

ولذلك نرى منهج القرآن الكريم في اقتلاع جذور هذا اللون من التفكير، هو منهج إثارة العقول والأنظار إلى عجائب هذا الكون وما أبدعه الله فيه:

انظر إليه يقول:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق: ٦-٨).

﴿فَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨، ٥٩).

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣، ٦٤).

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨، ٦٩).

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝٧١ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ (الواقعة: ٧١، ٧٢).

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (لقمان: ١١).

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

وهكذا يلفت القرآن الكريم أنظار الناس في هذه الآيات وفي غيرها من مئات الآيات الأخرى، إلى ما في الكون من صنعة محكمة، ونظام بديع مطرد شامل لكل شيء، وأن العقول ليس من شأنها أن تتقبل الزعم بأن هذا الإطراد في السنن والنظم ملايين السنين، إنما كان من عن طريق مصادفات وتفاعلات!

ثالثًا: مخاطبة الإنسان من ناحية عاطفته:

مع أن القرآن الكريم يريد من الأفراد أن يكونوا لبنات صالحة في بناء المجتمع، وأن يكونوا أقوياء في أنفسهم مستمسكين بالفضيلة والمثل الرفيعة، متنزهين عن كل ما يشينهم، نراه يريد مجتمعًا متمسكًا بأهداب الأمل دائمًا لا ييأس من روح الله، ولا يشعر أفراده بأنهم مكبلون مترصدة عليهم الهفوات محاسبون على الصغيرة والكبيرة حسابًا عسيرًا فيه كثير من القسوة، وكثير من الصرامة.

ولذلك نجد دعوة القرآن دائمًا، دعوة وسطًا، فلا هي بالدعوة التي تعتمد التخويف إلى درجة التيئيس والإقناط اللذين يفضيان بالمرء إلى الإبلاس والتحير والبلبلة، ولا هي بالدعوة التي تطلق للإنسان عنان شهواته وآماله ورغباته إلى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به إلي الارتطام والتردي والعجز عن مكابدة ما

لابد منه من الصعاب .

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق له قيمته وله كرامته، وله حق الاعتراف بميوله وحق الاعتراف بغرائزه، وحق الصفح عن أخطائه، والتقبل منه، ولكنه مع ذلك ليس بالمدلل المرفه المتروك سدى، وإنما هو مسئول مخاطب مكلف في حدود ما يطيق، وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخلقية والخلقية .

وفي هذا النطاق نجد القرآن الكريم يعرف الإنسان بالله من جانب عاطفته تعريفًا يجعله يحبه ويعشقه ويدرك فيه جوانب الجمال، كما يدرك فيه جوانب الجلال :

* فالله غفور رحيم .

* والله هو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

* والله هو الذي يغفر الذنوب جميعًا، ولا ينبغي لمؤمن أسرف على نفسه أن يقنط من رحمته ومغفرته .

* والله هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو مع هذا أقرب إليه من حبل الوريد ، لو دعاه لأجابه، ولو تاب تاب عليه، ولو تقدم إليه شبرًا تقدم إليه ذراعًا، وهو الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل إلى غير ذلك، مما يدل على أن القرآن الكريم لم يكن هدفه أن يقيم مجتمعا ملائكيًا لا يخطئ أفراده، ولا هو بالذي يشترط في المتقى ألا يقع منه الذنب أصلاً، وإنما يرمي إلى تخفيف ذلك، ووضع الضوابط والقيود التي تهذب من الغرائز، وتحول بينها وبين الاندفاع التأثر المشتط المؤذي، وهو في سبيل ذلك ينظر إلى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الإنسان الذي خلق ضعيفًا، والذي هو محل لتأثيرات داخلية نفسية - وهي الشهوات والمطامع - وخارجية شيطانية - ومنها المغريات الجنسية أو الأدبية - ولهذا

يعلن في صراحة ووضوح أنه يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)، بل يظن أنه يغفر كل ما غير الإشراك به لمن شاء **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** (النساء: ٤٨).

وقد لفت المبرزون من الصحابة والعلماء أنظار الناس إلى هذا، ومنه ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها:

(١) **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** (النساء: ٤٠).

(٢) **﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾** (النساء: ٣١).

(٣) **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** (النساء: ٤٨).

(٤) **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾** (النساء: ٦٤).

(٥) **﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** (النساء: ١١٠).

وهكذا يعرف المؤمن ربه غفوراً رحيمًا، حليمًا كريمًا، ودودًا جوادًا، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فيحبه وتهتز بحبه عاطفته، ويمتلئ مع هذا الحب إجلالاً له وتعظيمًا لشأنه، وإذا كان الإجلال والإعظام عن طريق العاطفة والحب كان ملء النفوس وشفاء الصدور، وراحة الجوانح!

رابعًا: مخاطبة الإنسان من ناحية مصلحته ومن أوضح آيات القرآن في بيان أهداف التشريع:

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم، والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلو ميلاً عظيمًا، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا ﴾.

فهذه الآيات تذكر الغاية من التشريع ووضع الحدود وقواعد التعامل في المجتمع، فليست هي مجرد الرغبة في تقييد الناس وإخضاعهم للسلطان الإلهي، ولو كانت كذلك لما كانت إلا حقًا، لأن الناس جميعًا مخلوقون لله تعالى وفي حدود سلطانه التكويني قبل السلطان التشريعي ولكنها غاية تنبعث عن صفتي الرحمة والحكمة، فالله تعالى يريد أن يبين لهم البيان الشافي، ولا يكلهم إلى أنفسهم وتجاربهم دون أن يعينهم بوحيه وتشريعه وبيانه، فقد تهتدي العقول ولكنها كثيراً ما تضل وكثيرًا ما تختلف وكثيراً ما ترى شيئًا وتغيب عنها أشياء، فلا بد إذن من بيان من العليم الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يضطرب علمه بشيء.

والله تعالى يريد أن يهدي عباده سنن التاريخ ويقرب لهم تجارب من كانوا قبلهم ويريد أن يتوب عليهم، أي يغفر لهم ويطهر مجتمعهم مما كان عليه سلفهم في الجاهلية، بينما يريد أهل الشهوات والأهواء أن يخرجوهم عن الصراط المستقيم وأن يميلوا بهم عن سنة الفطرة ميلاً عظيمًا، والله تعالى يريد أن يخفف عن عباده لأنه يعلم أن الإنسان مخلوق ضعيف.

وإذن فالتشريع إنما هو للبيان والهداية والتطهير والإصلاح والعصمة من الميل والانحراف وتجاوز الصراط المستقيم والسنن الطبيعية، وهو مع ذلك كله تشريع قائم على ملاحظة ما في الناس من ضعف طبيعي يجعلهم غير قادرين على تحمل المشاق التي تزيد على الطاقة أو تنقل عن مألوف الاحتمال.

ولا شك أن هذه الآيات التي تتناول هذه المعاني في بيان الغاية من التشريع، والفائدة التي تتحقق للناس منه، والرحمة التي تصاحبه وتلامسه، من شأنها أن توجه الناس إلى الإيمان بالله تعالى مشرعًا حكيمًا، كما آمنوا به ربًا خالقًا، وإلهًا رحيمًا.

الله في القرآن الكريم
(١)

١ ـ لا نجد في القرآن الكريم حديثًا مباشرًا عن ذات الله تعالى؛ لأن الذات الإلهية لا يمكن وصفها ولا يتصور كنهها ولا الإحاطة بها، ولو على وجه من التقريب، وإنما نجد القرآن الكريم يأتي بحديثه في هذا الجانب على وجه السلب والنفي، فيقول مثلاً: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ فيعطينا بهذه الجملة القصيرة، قانونًا وقائيًا عامًا نستعمله كلما احتجنا إلى مدافعة وهم من الأوهام، في تصور ذات الله تعالى، ومحاولة معرفة كنهه جلا وعلا.

ويقول: ﴿**سبحان الله عما يصفون**﴾ فيعطينا بهذه الجملة القصيرة أيضًا ما ندافع به أولئك الذين يحاولون تصوير الله، أو تمثيله بأحدمن خلقه.

وكلمة «سبحان الله» معناها تنزيه الله، وتقدير اللفظ فيها: أعتقد تنزه الله أو أنزه الله تنزيها، أو نحو ذلك، وهو معنى سلبي لأن التنزيه هو نفي كل ما لا يليق عن الله تعالى ويقول جل شأنه: ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ**﴾ (الأنعام: ١٠١)، فيرشد أصحاب العقول إلى استحالة أن يكون له ولد، مستدلاً على ذلك بأنه ليس له صاحبة وهو معنى سلبي أيضًا.

ويقول: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص: ٣، ٤)، فينفي عن ذاته أن تكون متولدة من غيره، أو أن يتولد عنها غيره أو أن يكون له مماثل وكفء.

٢ ـ وفي القرآن الكريم آيات تنسب إلى الله تعالى: الوجه واليد والعين والجهة والمعية والمصاحبة والعندية والاستواء ونحو ذلك مثل قوله تعالى: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن: ٢٧)، ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ (البقرة: ١١٥)، ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (الفتح: ١٠)، ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤)، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (هود: ٣٧).

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة: ٧)، ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور: ٣٩)، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥)، إلخ.

ولكن القران نفسه يرشدنا إلى الصراط السوي في فهم هذه الآيات وأمثالها حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٧).

وخلاصة ما تنصح به هذا الآية أن نقول فيما اشتبه علينا ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: فنحن نؤمن به، وأن نرده مع هذا الإيمان به إلى المحكم من الكتاب الذي جعله الله «أما» له تشبيهًا بالأم التي يفزع إليها ابنها وفرعها طلبًا للأمن والسكن في أحضان أصله ومنشئه.

فإذا أردنا طمأنينة النفس في شأن آيات الوجه والعين واليد وأمثالها فلننظر إليها من أفق الآية الأخرى الصريحة القاطعة المحكمة ﴿**ليس كمثلة شيء وهو السيمع البصير**﴾ .

ولذلك يقف السلف منها موقف التسليم، ويقولون : لله وجه ويد وعين كما أخبر في كتابه وليس كمثله شيء ويقولون: استوى ولا نسأل كيف استوى.

أما الخلف فيقولون: الوجه واليد والعين أسماء استعملت في جانب الله على وجه من المجاز للدلالة على الذات أو القدرة أو العناية أو نحو ذلك، فهما إذا متفقان على أصل التنزيه القطعي، وإنما يختلفان في فهم ماظاهره ينافي هذا

التنزيه.

٣ - وقد عني القرآن الكريم - على أسلوب مباشر - بنوعين من الصفات فيما يتحدث به عن الله تعالى:

النوع الأول: الصفات التي تملأ القلوب بعظمة الله تعالى وجلاله وتبهرها بجماله وكماله.

النوع الثاني: الصفات التي تدل على ربوبيته للعالمين خلقًا وإيجادًا، وإنعامًا وامتدادًا.

وإنما عنيت آيات القرآن الكريم بالتحدث إلى الإنسان بهذين النوعين من صفات الله تعالى لمعنى تهدف إليه هو أن تقرر في نفسه أن لا إله إلا الله.

وذلك أن الإله هو الذي تأله إليه النفوس وتنجذب معتقدة أن له سلطانًا حقيقيًا يستطيع به أن ينفع ويضر دون قيد عليه من غيره، ولا عجز يعتريه في نفسه مع اتصافه بالكمال المطلق والعدل المطلق، وأن عليها لذلك أن تترضاه وتخضع له الخضوع المطلق.

فالنوع الأول من الصفات يراد ببيانه والحديث عنه في القرآن الكريم أن يقتنع الإنسان بأنه حينما يتجه إلى الله بالعبودية إنما يتجه إلى الإله الكامل العظيم ذي الجلال والجمال فهو يتجه إلى من هو جدير باتجاهه، ويأله - أي يعشق وينجذب - إلى من هو حقيقي بعشقه وانجذابه.

وأهل التصوف لهم في ذلك عبارات، منبعثة عما تجلى لهم من مقامات معرفة الصفات ومن ذلك قول العارف بالله عمر بن الفارض:

فقت أهل الجمال حسنا وحسنى   فبهم فاقـــة إلـى معنكـا

يحشر العاشقـــــون تحت لوائى   وجميع الملاح تحت لواكا

وقول الآخر:

لو يسمعون كما سمعت كلامها   خروا لعزة ركعًا وسجودًا

والنوع الثاني يراد به إقناع الإنسان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بمعنى آخر فيه طمأنينة لنفسه وسكون لقلبه هو أن هذا الذي عرف عظمته وجلاله في نفسه، هو مصدر وجود هذا العالم كله ومصدر بقائه، ومصدر إسعاده وإمداده، فهو الخالق المبدع، وهو المحسن المنعم، وهو المتفضل بإرسال رسله إلى خلقه ليهتدوا بهم إلى معرفته، وليرشدوهم إلى طريق الخير والفلاح، ومن كان كذلك فهو الجدير بأن يعبد وحده، لأن العبادة مزيج من الشكر والخضوع؛ والشكر إنما ينبعث عن الإحسان، وإذا كان الإحسان عظيما جليل الشأن انحنت له الرؤوس إعجابًا به وخضوعًا لمصدره أو هي بتعبير آخر مزيج من الشعور بالعظمة والقوة والكمال وتمام الإحسان، ولذلك تتخذ صوراً من الثناء على الله بالقول حينًا، وبالانحناء ركعًا وسجودًا، والذكر والشكر تأملاً وعرفانًا اعترافًا بأنه تعالى هو العظيم وهو الوهاب.

اقرءوا في النوع الأول من الصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن:

﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ (البقرة: ١٦٣)، فهي تثبت «الوحدانية» مع الرحمة الشاملة، واقرءوا:

﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

عشر جمل متتابعة في آية واحدة، هي: آية الكرسي المشهورة التي ذكرت الأحاديث النبوية فضلها وتحدثت عن بركاتها في التحصين والحفظ، وأنها تشتمل على اسم الله الأعظم، فأول جملة منها: هي إثبات الوحدانية، ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ أي ليس في الوجود من له سلطة عليا مطلقة يفعل بها ما يشاء، دون قيد ولا عجز، ويستحق بمقتضى ذلك أن يفرد بالعبودية إلهًا واحد هو الله ـ وهذه هي الحقيقة الأولى التي جاءت الأديان وبعثت الرسل وأنزلت الكتب لتقريرها:

والجمل التسع التالية لهذه الجملة الأولى، هي احتجاج لهذه الحقيقة وبراهين على ثبوتها فالله هو الحي القيوم، والحياة تختلف باختلاف المتصفين بها، فحياة النبات نوع من الحياة وحياة الله تعالى هي أكمل حياة لأنه هو واهب الحياة لكل من سواه وما سواه، ولأنهم جميعًا مستندون في حياتهم إليه، وليس هو مستندًا في حياته إلى شيء، ولأن حياته لا تنقطع، وكل حي يدركه النفاد، كما أن حياته أزلية لا أول لها، وحياة غيره محدثة بعد أن لم تكن.

والله تعالى قيوم؛ لأنه قائم بنفسه ومقيم لغيره وهي صفة تلخص جميع فنون التصريف وألوان التدبير في الخلق، وهي أبلغ من القائم والقوام والقيم بحكم الصيغة التي يعرفها أهل الذوق العربي.

ولما كانت حياة الحي وقيومية القيوم لا تدل بطريق بمباشر على استمرار التيقظ لكل شيء وانتفاء الغفلة ولو في فترة ما، جاءت جملة أخرى تصف الله تعالى: بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، أي أن حياته وقيوميته لا تفتران في وقت ما فلا يمكن أن تغلبه سنة وهي تباشير النوم وأوائله، وحينما يقبل على الجفون فيداعبها، ولا نوم وهو أشد من السنة قهرًا للأحياء وغلبة عليهم وأخذًا لهم، فهذا وذاك منفيان عن الله تعالى على سبيل الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ثم جاءت الجملة الرابعة تقرر ملك الله لكل ما في السموات وما في الأرض، وتقرير الملك شيء جديد بعد إثبات الحياة والقيومية الكاملين.

ثم تأتي الجملة الخامسة منكرة أن يكون لأحد أمر مع هذا المالك الحي القيوم فتقول: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ وقد كانوا يعتقدون أن ما يتخذونه من آلهة، سيكونون شفعاءهم عند الله، فأنكر الله عليهم ذلك؛ لأن شفاعة الشافع: إما أن تكون لدى سلطان عادل أو سلطان جائر، فإن كانت عند سلطان عادل فشأن الشافع أن يقول له إنك فعلت ما فعلت، اعتقادًا منك بأنه المصلحة، ولكنني أعلم أن هذا الذي أشفع فيه معذور بكذا أو لم يقصد كذا فإذا قبل منه صاحب السلطان ذلك، كان هذا لأنه علم ما لم يكن يعلم من أمر المشفوع فيه

وهو أمر لا يليق بالله تعالى، إذا هو الجهل بعينه.

وإن كانت الشفاعة عند سلطان جائر، فيجوز أن يقبلها ويترك الذنب لأجل مرضاة الشفيع وذلك إفساد لا يليق بالله تعالى .

ولم تقدر الآية هذا الشق الثاني، لأن الكلام إنما هو في الشفاعة لدى الله جل علاه وهو أعدل الحاكمين، فبقي الشق الأول وهوالشفاعة لدى الله الحكم العدل، فجاءت الآية بالجملة السادسة تعليلاً لإنكار أن يشفع عند الله أحد إلا بإذنه، بأنه يعلم كل شيء فلا يمكن أن يخفى عليه من أمر المشفوع فيه ما يجعله ينزل على حكم الشافع، فهو تعالى كما هو منزه عن الظلم منزه عن الجهل، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ثم جاءت الجملة السابعة نفيًا لأن يكون في الوجود من يعلم شيئًا من علم الله على وجه الإحاطة به إلا ما شاء الله أن يعلمه أحدا من خلقه، وهذا حكم شامل للشفعاء.

وقد جاء في القرآن آيات أخرى تتحدث عن شأن الشفاعة، متضمنة علم الله وانفراده بالسلطة، مثل قوله تعالى : ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٢٦ - ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾ (طه: ١٠٩)، ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

والمراد بقوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾، و﴿ **إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾، و﴿ **إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾، فيه كلام كثير وخلاف بين العلماء، وأوفق الآراء أن نحمله على الدعاء، الذي يقبل الله تعالى عقبه ما سبق في علمه الأزلي أنه سيفعله مع القطع بأن الشافع لم يغير شيئًا من علمه ولم يحدث تأثيرًا ما في إرادته تعالى، وبذلك تظهر كرامة الله لعبده في إيقاعه الفعل عقب دعائه ـ وبهذا فسر الشفاعة ـ ابن تيمية(١).

---

(١) ص٢٣ ج٣ من تفسير المنار.

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: إن لهذا الاستثناء واقعًا وهو أن نبينا عليه الصلاة والسلام يشفع في فصل القضاء فيفتح باب الشفاعة، فيدخل فيه غيره من الشفعاء كالأنبياء والأصفياء، كما ثبت في الأحاديث وهي مسألة أنكرها المعتزلة وأثبتها أهل السنة، والله تعالى يأذن لمن يشاء ويطلع على علمه باستحقاق الشفاعة من يشاء، كما يعلم من الاستثناء في هذه الآية وأمثالها[1].

وتأتي بعد ذلك الجملة الثامنة، وهي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وهي تعبير تمثيلي لشمول سلطان الله وعمومه في السموات والأرض، وليست تكراراً مع قوله تعالى من قبل: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فإن الحديث في إحداهما عن السموات والأرض وفي الأخرى عما فيهما.

وقد تعددت الآراء في المراد بقوله تعالى: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ هل هو علم الله . أو ملك من ملائكته أو جسم كثيف أو لطيف.. إلخ وخير لنا أن نختار بين أن نتبع رأي السلف فنسلم ونقول: له تعالى كرسي كما أنبأ عن نفسه ولا ندري ما كنهه ناظرين إلى ذلك من أفق ﴿ليس كمثله شيء﴾ أو نتبع رأي الخلف فنقول كما قيل في الاستواء على العرش إن ذلك تمثيل ملك الله على حد ما يعرفه الناس من شأن الملوك.

والجملة التاسعة ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ ضرورية في تتميم المعنى المراد من بيان عظمة الله تعالى، إذ أن الملك بذاته لا يقتضي القدرة على حفظ المملوك، ولا أن هذا الحفظ سهل يسير على المالك لا يشق عليه ولذلك أفاد الله تعالى أنه هو حافظ السموات والأرض كما هو مالكهما، وأن هذا الحفظ لا يؤوده ولا يحمله على أن يتكلف له ما يشق عليه أو يثقله.

والجملة العاشرة ختام لهذا كله، ولذلك تضمنت بالإجمال ما تقدمها من تفصيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ .

وبيان ذلك أن صفة (العلو) قد ثبتت لله تعالى من أنه لا إله إلا هو، ومن أنه

---

(١) ص٢٣ ج٣ من تفسير المنار.

الحي الذي لا يستند في حياته إلى غيره، الكامل الحياة لأنه وهب منها لكل حي سواه، الباقي الذي يزول كل ما عداه، ومن أنه القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم به كل ما سواه، ومن أن حياته وقيوميته لا يغلبهما عارض يعرض فيؤدي إلى الغفلة ولو في فترة يسيرة ومن أنه مالك لكل ما في العالم وهذه صفات العلو الكامل عن كل ما في الوجود، وصفة (العلي) تخليص لها.

أما صفات العظمة فهي كونه تعالى ذا هيبة وجلال، لا يستطيع معهما أحد أن يسبقه بالقول فيشفع عنده إلا بإذنه، وكونه عالما لكل شأن، من شئون خلقه، وكون علمه لا يحاط به بل يعلم منه فقط ما شاء هو أن يعلم وأن ملكه عام شامل للسموات والأرض وأنه يحفظهما ولا يثقله حفظهما[1] .

فهذه صفات العظمة، ولذلك كانت الجملة الأخيرة في آية الكرسي﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ إجمالاً ـ كما قلنا ـ لصفات العلو والعظمة التي فصلت من قبل .

واقرءوا إن شئتم قوله تعالى :

﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (النور : ٣٥) .

فالسموات والأرض تعبير عن الكون كله علويه وسفليه وما خلق الله من شيء، والله نورها والنور هو روح كل موجود وسره، فلو تصورنا موجوداً مظلماً لا نور له، لما كان في المعنى إلا صورة مساوية للعدم. وقد أثبت العلم أن كل موجود فلابد له

(١) هناك فرق بين قوله تعالى : ﴿ **له ما في السموات وما في الأرض** ﴾، وقوله جل شانه : ﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض** ﴾ وقد بينا هذا الفرق فيما ذكرناه عن الجملة الثانية، ونزيد هنا أننا جعلنا الجملة الأولى تعبيراً عن صفة من صفات العلو؛ لأن الذي يملك ما في السموات والأرض عال عن كل ما في السموات والأرض، وجعلنا الجملة الثانية من صفات العظمة لأنها حديث عن سعة كرسي الله وشمول ملكه لذات السموات والأرض، وعظمة الملك مؤذنة بعظمة المالك.

من النور على نحو من الانحاء، وأن انقطاع النور انقطاعًا تامًا عن الموجود إنما هو مرحلة نهايته وفنائه، وهذا المعنى قد أشار إليه النبي ﷺ في بعض دعائه الذي توجه به إلى ربه حيث يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ان تنزل بي غضبك، أو تحل على سخطك» والشاهد في قوله ﷺ: «أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة» إذا هو تفسير لقوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنه لولا نور وجه الله لما أشرقت الظلمات، ولا صلح أمر الدنيا والآخرة.

وقد وصفت الآية الكريمة هذا النور بوصف مثلته به ـ ولله المثل الأعلى ـ مداره على إثبات قوته وصفائه، وتكامله وتمام بهائه، فبلغت من ذلك الغاية، وقربت الأمر أعظم تقريب.

ثم اقرءوا في النوع الثاني من الصفات مثل قوله تعالى :

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ٣-١٦) .

وبعد أن يعد ذلك كله متتابعاً متلاحقاً يشد بعضه في البيان أزر بعض، يعقب عليه مباشرة بقوله : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٧، ١٨)، فنعلم من ذلك أنه إنما ذكر صفات الخلق، وعدد مظاهر صفات الأنعام، ليقنع الناس بأنه هو الجدير بأن يفرد بالعبودية، وأن المنطق لا يسوي بين من يخلق ومن لا يخلق ومن ينعم ومن لا ينعم.

وهناك آيات أخرى تناولت هذا المعنى على وجه الإجمال حينًا، وعلى وجوه من التفصيل أحيانًا، مثل قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات: ١٢٥)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)، وهذه الآية الأخيرة هي مطلع سورة الأنعام التي جعلت تصب في هذا المعنى وتضع من أولها إلى الآية المائة منها، ثم جاءت الآية التالية لهذه المائة بالنتيجة المقصودة.

فبعد أن بينت السورة أن الله هو خالق السموات والأرض وعددت مظاهر قدرته وتصرفه من مثل: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً﴾ (الأنعام: ٢) ، ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ١٣)، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ (الأنعام: ٥٩)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (الأنعام: ٦١)، ﴿الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام: ٦٥)، ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام: ٩٥)، ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ (الأنعام: ٩٧)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (الأنعام: ٩٨)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ (الأنعام: ٩٩) .

بعد أن بينت هذا كله، وتخلله من البيان ما أراد الله أن يتخلله، استغرق ذلك مائة آية، جاءت الآية الحادية بعد المائة بالنتيجة فقالت: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢) .

الله في القرآن الكريم
(٢)

بعض الناقدين للإسلام يقولون: إن الإسلام يصور الإله بصورة رهيبة فهو الجبار المنتقم القاهر.. إلخ .. فأين هذا من المسيحيين الذين يسمون الإله باسم «الأب» الدال على معاني الرحمة والحب لأبنائه؟

٢ ـ والواقع أن هؤلاء النقاد إما غافلون أو متغافلون عما وصف به الإسلام رب العالمين.

فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وقبل أن ندخل في بيان ما توحي به هذه الآية نسارع فنقول : إن الله تعالى سمى نفسه ﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وكلمة رب هذه تدل على معنى التربية والتعهد وتنطبق على ما لله تعالى من فضل على جميع العوالم، بإعدادها وإمدادها، فمن تأمل كيف أنعم الله بالتهيئة والإمداد في كل عالم: من عالم النبات إلى عالم الحيوان إلى عالم الجماد، إلى عالم الكواكب إلى غير ذلك من العوالم؛ فإنه يرى آثار الرحمة الإلهية واضحة ويكفي أن ننظر إلى ذلك مثلاً في خلق الجنين وتكوينه ورزقه وحفظه في رحم أمه وولادته وإرضاعه إلخ .. لنرى أن الله يغمره بالرحمة والتربية غمراً، وأنه بعد ذلك يتعهده في كل خطوات حياته إلى أن ينتهي، بألوان من التعهد والعناية لا تذكر بجانبها عناية الأب بابنه لأن الأب محدود وقدرته وعلمه محدودان وإذن فوصف الله تعالى بأنه رب العالمين هو أبلغ وأقوى في إفادة معاني الرحمة والعناية والتعهد من وصفه عند المسيحيين بالأب، هذا إلى ما في لفظ الأب من الإيحاء بعلاقة لا يستحبها الإسلام، بل يجب تنزيه الله عنها، ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ⁽١⁾ اللَّهُ الصَّمَدُ ⁽٢⁾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ⁽٣⁾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص).

٣ - وإذا نظرنا بعد ذلك إلي ما توحي به الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ فإننا نستطيع أن ندرك كيف حرص القرآن الكريم على أن يصف لنا الإله بمجموعة من الأسماء أو الصفات التي نستطيع أن نقول : إنها ينابيع الخير والعدل والحق والجمال والجلال، فهو لايريد أن نرى من الإله جانباً واحداً فيكون إدراكنا لعظمته جانبيًا، أي مرتبطًا بجانب، ولكنه يريد أن نرى من الإله كل الجوانب؛ لأن من رأى جانبًا واحداً، أو بعض الجوانب، لم يكن مدركًا للعظمة من جميع نواحيها، وبعبارة أخرى يعلمنا الإسلام أن ننظر إلى صفات الله كلها كمجوعة ولا نكتفي بالنظر إلى جانب واحد منها، وإلا كنا قاصرين عن إدراك كمال الله تعالى أو مقصرين فيه.

يروى أن بعض المتصوفة كان من شأنه أن يتأمل في صفات الله واحدة بعد واحدة، فربما استغرق بضع سنين لا ينظر إلا في صفة « الرحمن » أو « الرحيم » فيتأمل في آثار الرحمة الإلهية تأملاً عميقًا، ويقف عند كل أثر من هذه الآثار وقفة الخاشع المعجب، ويستمر على ذلك لا يشغل نفسه بتأمل صفة أخرى من صفات الله لمدة أعوام حتى إذا امتلئ بهذه الصفة قلبه، وعمق الإيمان بها في أعماق نفسه، انتقل إلى صفة أخرى كصفة « العزيز » مثلاً، فجعل يتأمل مظاهر هذه العزة في الكون وفي الناس مدة أخرى وهكذا . . .

هذا المسلك الصوفي مسلك حسن من غير شك، ولكنه في نظري ليس أحسن المسالك وإنما يجتلي المؤمن عظمة ربه كاملة إذا شغل نفسه بمظاهر صفات الله كلها وتقلب بفكره فيها فيتأمل مظاهر الرحمة والنعمة، ويتأمل مظاهر البأس والنقمة، ويتأمل مظاهر العدل ومظاهر الجبروت، وهكذا.

وقد يدلنا على هذا المعنى أن القرآن الكريم حين يذكر صفات الله تعالى يذكرها غالبًا متتابعة دون عطف بحرف، فيقول: ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾، ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾، ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ وأظهر مثال لذلك هو ما جاء في آخر سورة الحشر حيث يذكر الله تعالى مجموعة من أسمائه الحسنى متتابعة مترادفة دون تفريق بين سابق منها ولاحق فيقول: ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ**

﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٣، ٢٤).

٤ ـ فأخذ الأمور على وجه من الجانبية هو الذي جعل هؤلاء الناقدين ينظرون إلى أن الإسلام يصف الإله بالأوصاف المخيفة ويغفلون أو يتغافلون عن الأوصاف الأخرى أو الأسماء الأخرى، ومن واجبهم أن يعلموا أن الكمال المطلق يقتضي أن يتصف الكامل بجميع الصفات الحسنى وإلا لكان ناقصًا في جانب كاملاً في جانب، فنحن إذا علمنا أن فلانًا من الناس شجاع ولم نعلم بغير هذه الصفة فيه، فإننا ربما تصورناه مهيبًا مفزعًا مخيفًا، ولكن إذا علمنا أن هذا الشجاع يتصف بأوصاف أخرى مثل: الجود والرحمة والعلم والحكمة فإن قيمته تزداد في نظرنا، ونطمئن إلى أن شجاعته ليست من النوع الخطر، على معنى التهور مثلاً، وكذلك لو علمنا أن فلانًا من الناس رحيم القلب، ولم نعلم بغير ذلك من صفاته فربما تصورناه لشدة رحمته متراخيًا أو ضعيفًا عن غيره أو طمعنا في رحمته فلم نخف من سطوته، ولكننا لو علمناه مع الرحمة قويًا شديد البأس في موضع البأس، ازداد تقديرنا له، وازددنا علمًا بجوانبه وإدراكًا لمجموعة صفاته التي بها يتميز عن غيره.

وإذا أردنا أن نعبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، فإننا نقول: قد يوجد مزيج من الدواء هو مجموعة من مقادير مختلفة من أنواع وعناصر مختلفة، فإذا عرفناه على هذا التركيب باسم معين، فلا يمكن أن نطلق هذا الاسم على آخر فقد بعض عناصره، أو فقد نسبة المقادير التي ركب على حسابها.

ولله المثل الأعلى، فمن نظر إلى صفة واحدة من صفاته فإنه لا يستطيع أن يزعم أنه أدرك الله في كماله وجلاله.

٥ ـ وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحداً ـ من أحصاها دخل الجنة»(١).

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الشروط ب/ ما يجوز في الاشتراط والثنيا في الإقرار (٢٥٣١).

والمفسرون يوردون هذا الحديث وما في معناه حين يتكلمون عن تفسير قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ولكنهم مع ذلك يوردون أحاديث أخرى تدل على أن لله تعالى أكثر من هذا العدد من الأسماء الحسنى، ومن أشهر الأحاديث التي تدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود وفيه «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» ولذلك يحاولون التوفيق بين هذه الأحاديث، بأن الحديث الأول غير حاصر للأسماء في هذا العدد، وإنما يذكر هذا العدد فقط، وبعضهم يستخلص هذا العدد من القرآن فإذا رأى العدد زاد عن تسعة وتسعين حاول إرجاع بعض الصفات إلى بعض وأنها في معنى واحد باعتبار الأصل ، مثل (الغافر والغفار والغفور) و(الشاكر والشكور) ونحو ذلك.

ولي رأي في هذه المسألة أبديه في إيجاز: وهو أن الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ لا تقصد إلى تحديد أسماء معينة أو صفات معينة تشير إليها بذلك ولا تقصد إلى معنى الاسم الذي هو لفظ يطلق على الذات لتعريفها، كما نسمي إنساناً من الناس محمداً مثلاً، وإنما تقصد الآية - والله أعلم - إلى تقرير أن الله تعالى هو مصدر كل المعاني الكاملة المعبر عنها بالأسماء الحسنى، فما من معنى من معاني الخير والحق والجمال والجلال إلا وهو لله أصلاً ومن الله مبدأ ومصدراً.

والتعبير بالأسماء هنا شبيه أو قريب من التعبير بالأسماء في قصة آدم حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١)، فليس المراد هناك ما تبادر إلى أذهان كثير من المفسرين من أنه علمه اسم كل شيء حتى القصعة وكذا وكذا .. ولكن المراد - والله أعلم - أنه علم آدم ، أي علم الإنسان وركز في طبعه ومواهبه وسائل التعرف للحقائق واكتناه الأشياء والمعارف والخواص، وهذا ما ميزه به على الملائكة الذين لم يهبهم هذه الموهبة، ولم يطبعهم على ما طبع عليه الإنسان منها، وقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ معناه: وكان علم آدم، أي طبعه وفطره على طبع وفطرة تجعله عالما بالأسماء كلها، ولا يصح أن نفهم أنه علمه الأسماء أي ألقاب

الأشياء بعد مناقشة الملائكة؛ لأنه حينئذ بمثابة أن يعترض عليك أحد في تفضيل فلان عليه فتريد أن تبرهن له على أن فلانًا هذا خير منه؛ فتعلمه بشيء لا تعلمه المعترض، فإن له ولكل عاقل أن يقول لك: أنت علمته ولم تعلمني، ولو علمتني مثله لكنت مثله أو يقول: إنني وإياه متساويان ولكنك منحته علمًا لم تمنحني إياه، وجددت له هذا العلم حيث سألتك عن سر تفضيله، وهذا لا يعطيه مزية وأفضلية من دوني.

هذه خلاصة الفكرة عن الأسماء في قصة آدم، وهي تقرب من الأسماء بمعنى المعاني فالله وصف نفسه بأن له الأسماء الحسنى، أي جميع المعاني الفاضلة الخيرة والتي لا يرقى إليها من سواه؛ لأن الحسنى مؤنث الأحسن، فكأنه قال ما من صفة من الصفات الحسنة إلا وهي في الله تعالى، وصادرة منه وهو ينبوعها الأول، وهي فيه جل شأنه على الوجه الأكمل والأحسن لا يشاركه في ذلك مشارك.

وبهذا التفسير نعلم أن الأحاديث ليس لها غرض في الحصر والعدد وإنما تريد بيان الكثرة على حد «سبعين مرة» أو «سبعة وسبعين» إلى غير ذلك مما جاء على مألوف العرب في إفادة الكثير بالسبعين والتسعين .. إلخ.

٦ - وإذن فالأسماء الحسنى التي تذكر في القرآن والحديث ما هي إلا عبارات عن هذه المعاني التي تصور الكمال المطلق في الله في كل جانب.

ولهذه الأسماء إيحاءات إلى الكمال؛ فإن الإنسان ومآله إلى الله أي منجذب إليه متحلق بأخلاقه، والإيمان يزيد هذه الطبيعة في الإنسان، فهو يتأثر بمولاه ويتتبعه، فإذا علمت أن الله عليم، فقد علمت أن العلم كمال يجب أن ينشد، وهكذا حتى صفات الانتقام والأخذ الشديد هي أيضًا مثل تحتذى، على أن توضع في مواضعها كما يضعها الله تعالى في مواضعها، فإذا كان أحد من الناس يحسن أخذ الظالم المستحق للأخذ، ويحسن كيف يشتد في أخذه انتقامًا من شدة ظلمه، فإن هذا يعد وصفًا حسنًا فيه إذا وضعه في موضعه.

وقصارى القول أن للأسماء الحسنى التي يتسم بها الله جل جلاله إيحاء بعظمة

الله وجلاله، كما أن لها إيحاء بأخلاق الجمال والكمال.

٧ - بعد هذا نعود إلى الذين ينقدون الإسلام بأنه يصف الإله بأوصاف تخيف ويوازن بين الإسلام والمسيحية التي وصفت الإله بأنه الأب، هو لفظ مفيد لمعنى الحنو والرحمة.

نعود إلى هؤلاء كرة أخرى فنقول لهم: بأي حق تتحدثون عن تنزيه الله، وأنتم الذين نسبتم إليه ما ينافي التنزيه في كتبكم؟ .

- لقد ذكرت التوراة في الإصحاحين: الثاني والثالث من سفر التكوين قصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة، وذكرت أن الله أجاز لآدم أن يأكل من جميع الأثمار إلا ثمرة شجرة معرفة الخير والشر وقال له: لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت، ثم خلق الله من آدم زوجته حواء، وكانا عاريين في الجنة؛ لأنهما لا يدركان الحسن والقبح، وجاءت الحية ودلتهما على الشجرة وحرضتهما على الأكل من ثمرها، وقالت: إنكما لا تموتان، بل إن الله عالم أنكما يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتعرفان الحسن والقبح، فلما أكلا من ثمرة الشجرة انفتحت أعينهما، وعرفا أنهما عاريان، فصنعا لأنفسها مئزرًا، فرآهما الرب وهو يتمشى في الجنة، فاختبأ آدم وحواء منه، فنادى الله آدم أين أنت؟ فقال آدم: سمعت صوتك فاختبأت لأني عريان، فقال الله من أعلمك بأنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة؟ ثم إن الله بعد ما ظهر له أكل آدم من الشجرة قال: هو ذا آدم صار كواحد منها عارف بالحسن والقبح، والآن يمد يده فيأكل من شجرة الحياة، ويعيش إلى الأبد، فأخرجه الله من الجنة، وجعل على شرفتيها ما يحرس طريق الشجرة، وذكر في العدد التاسع من الإصحاح الثاني عشر: أن الحية القديمة هو المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله.

انظر كيف تنسب كتبهم إلى الله أنه كذب على آدم وخادعه في أمر الشجرة، ثم خاف من حياته وخشي معارضته إياه في استقلال مملكته فأخرجه من الجنة، وأن الله جسم يتمشى في الجنة، وأنه جاهل بمكان آدم حين اختفى عنه، وأن الشيطان المضل فضح آدم، وأخرجه من ظلمة الجهل إلى المعرفة وإدراك الحسن

والقبح (ص ٣٦ من كتاب البيان في تفسير القرآن) .

وإننا لنجد هذا اللون كثيراً في كتب العهدين القديم والجديد، ونرى كيف يصفون الأنبياء، فإبراهيم كذب على فرعون، وعرفه أن سارة أخته بينما كانت زوجته، فاتخذها فرعون زوجة له، وآتى إبراهيم أموالاً من غنم وبقر وحمير وعبيد إلخ، ولما علم فيما بعد أنها زوجة إبراهيم، ردها له وعاتبه في أنه لم يعرفه بهذه الحقيقة.

وإذن فإبراهيم في نظر هؤلاء متصف بصفة الكذب، وبصفة السكوت على انتزاع زوجته منه.

وفي قصة لوط يذكرون أنه زنى بابنتيه بعد أن سقتاه خمراً، وأنه أحبلهما ولدين: أحدهما (موآب) أبو المؤابيين، والثاني (بني عمي) وهو أبو (بني عمون).

وفي قصة إسحاق أنه أراد أن يعطي بركته أحد أبنائه وهو عيسو، فخادعه يعقوب، وأوهمه أنه عيسو وسقاه خمراً، فأعطاه هو البركة، ولم يعطها لعيسو، ولما راجعه عيسو في ذلك، قال له ما معناه: لقد انتهى الأمر.

وفي ذلك معنى أن الأنبياء يزنون ويسكرون ويخدعون، وإن بركة الرب تعطى جزافاً، والنبوة تؤخذ عن خديعة.. وهكذا.

فمن أين لهم هذا الهراء وهذا التخريف.

وكيف مع هذا يعيبون على الإسلام ما وصف به الإله الحق؟

أسماء الله الحسنى

هي الينابيع الأولى للمثل العليا

بعض المتصوفة يتوسع في شرح معنى قوله تعالى : ﴿ **إلينا مرجعهم** ﴾ و﴿ **وإن إلينا إيابهم** ﴾ فيقول : إن جميع الخلق راجعون إلى الله ، حتى قبل أن يخرجوا من الحياة، فليس معنى هذا التعبير الرجوع إلى الله بعد الموت فقط، ولكنه شامل الرجوع إلى الله في كل حال فالإنسان ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ مخلوق من مادة هي الطين، ولكن الله نفخ فيه من روحه بعد أن سواه، وفي ذلك يقول الله جل جلاله لملائكته الكرام : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (الحجر : ٢٩)، وهذا الروح الإلهي الذي اتصل بالإنسان منذ أول خلقه هو الذي جعل منه مخلوقًا نزاعًا إلى ربه، رجاعًا إليه في جميع أحواله، يستوي في ذلك من أطاع الله، ومن عصاه ، فالمطيع بينه وبين الله شعاع يصله بفضله وإحسانه ومحبته، والعاصي أيضًا بينه وبين الله شعاع يصله برحمته وحلمه وصبره وغفرانه .

وقد أوحى إلى هذا المعنى الصوفي الدقيق بمعنى قريب منه يمكننا أن نستنبطه، ذلك هو أن الله تعالى متصف بكل كمال، منزه عن كل نقصان، والمظهر التعبيري الذي جاء به كتاب الله تعالى في الأسماء الحسنى، التي اشتهر بين الناس أنها تسعة وتسعون اسمًا لقوله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا ـ مائة إلا واحدًا ـ من أحصاها دخل الجنة » وقد ورد القرآن الكريم بأكثر هذه الأسماء في مواضع متفرقة منه ، مثل : العزيز، والحكيم، والعليم، والرحمن، والرحيم، وغير ذلك، من الآيات الكريمة التي عنيت بذكر طائفة كبيرة من أسمائه جل شأنه قوله تعالى في آخر سورة الحشر ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ** ﴾ فالمؤمن البصير بربه يتعلق بأسمائه ويتعشقها ويرى فيها سلواه وهداه، ويستمد من التأمل فيها قوة في حياته تيسر له الصعاب، وتهون عليه الشدائد، وتدفعه إلى القيام بما أقامه الله فيه دون تبرم أو ضعف .

ومن أراد معرفة الله تعالى عن طريق أسمائه الحسنى فعليه ألا ينظر إلى صفة واحدة، أو صفتين، أو جملة معينة من الصفات، بل يتأمل جميع صفاته، ويتعشق جميع أسمائه، ويحاول إرجاع كل مظهر من مظاهر تعريف الله إلى مبدئه واسمه الذي نبع منه هذا المظهر ذلك أن لله تعالى صفات متقابلة، فهو مثلاً: القابض والباسط، وهو الغفور الرحيم، والمنتقم الجبار، فمن نظر إلى أحد هذه المتقابلات لم يكن بذلك مستوفياً حق العرفان، وإنما مثل ذلك - والله أعلى وأجل - كمثل من ينظر إلى شيء عظيم من أحد جوانبه، فلا يقال أنه عرفه كاملاً، واستوعب صورته استيعاباً تاماً، وصفات الله تعالى مع تعددها وتقابلها إنما هي عبارات تقريبية لنا لنتمثل بها جوانب عظمته الكاملة، ولا يمكن أن تجلى هذه العظمة إذا نظرنا إلى صفة أو بعض صفات بمفردها، فالله تعالى رءوف رحيم حتى حين يتجلى بمظهر المنتقم الجبار؛ لأن انتقامه وجبروته مع الطغاة والمستكبرين العتاة، فيهما رأفة ورحمة بالمجتمع، وبالضعفاء الذين يصيبهم الظلم والطغيان، وهو بنفس المظهر حكيم وعدل وعليم وخبير ولطيف وحي وقيوم .. إلخ

وأصل الذكر في الإسلام يرجع إلى مثل قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ فهو توجيه إلى معرفة هذه الأسماء معرفة إيمان بها، وعشق لها، وتوسل بها، ومداومة عليها، وليست هذه الأسماء بذاتها أو بحروفها وألفاظها هي المقصودة، وهي التي تسمى ذكراً، وإنما الذكر تفكر وتأمل وعرفان وإيمان واطمئنان.

من ذلك كله يتبين أن أسماء الله الحسنى، هي الينابيع الأولى للفضيلة والمثل العليا، بما لها من توجيه المؤمنين بالله إلى معاني الخير والاستقامة على الصراط السوي، حيث يقول المؤمن: ما تسمى الله باسم «الصبور» إلا وهو يحب الصبر، ويحب من عباده أن يتخلقوا به، وماتسمى باسم «الرحيم» إلا وهو يحب الرحمة ويحب من عباده أن يتصفوا بها، وهكذا أسماء: الحكيم، والعليم، والودود، ﴿**السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٣، ٢٤).

ولا شك أن كل اسم من أسمائه تعالى هو تعبير عن الغاية القصوى في معناه، وأن تسمى الله تعالى به هو إيذان بثبوته له على وجه الكمال المطلق الذي لا يحده حد، وقد يتصف الخلق بصفات ملتبسة من هذه الأسماء، فترى من وصف بأنه «عزيز» أو «حكيم» أو «رءوف» أو «رحيم» أو نحو ذلك، ولكنه اتصاف محدود متناه، في جانب بعض الصفات لا في جميعها، أما الله تعالى فله كل الأسماء الحسنى، وكل منها باستناده إليه يمثل معناه الأكمل، ولذلك وصفت هذه الأسماء بأنها «الحسنى» والحسنى مؤنث الأحسن.

والمعنى الذي نريد أن نستنبطه من ذلك هو أن الله تعالى هو مصدر المثل العليا، وأن أسماءه الحسنى ما هي إلا ينابيع لكل ما هو فضل وكمال، وجلال وجمال، وأنه تعالى حين أنبأنا في كتابه العزيز أنه تسمى بها، أو أنها له، وهو صاحبها؛ قد وجهنا بذلك إلى حبه لمعانيها، ورضاه عما توحى به إلى الناس من سلوك يجب أن يسلكوه في حياتهم ليكونوا «ربانيين»، وليكونوا متعلقين به راجعين إليه، متجاوبين معه بالروح الذي نفخه فيهم حين خلقهم.

وبذلك ندرك أن الأسماء الحسنى إيحاء مستمرًا للناس بمعانيها الجليلة، وتوجيهًا لهم إلى الاقتباس منها، والأخذ بمبادئها .والسير في الحياة على ضوئها.

وواضح أن قوله ﷺ «من أحصاها دخل الجنة»، ليس معناه من عدها، أو من حفظها أو من تلاها وقرأها، ولكن معناه من وعاها وعلى المؤمن بها، المصدق بثبوت معانيها لله تعالى وجه الكمال، الهادف إليها فيما يأتي به أو يتركه من الأفعال ، وهذا يقتضى درسها والتأمل فيها وتتبع مظاهر كل صفة منها في هذا الكون، والاتجاه إلى التخلق بأخلاق الله، اتجاهًا عمليًا على بصيرة، ولا شك أن من أدرك ذلك ووفق إليه يصل به إلى مرتبة من اليقين تدفعه إلى سلوك الصراط المستقيم الذي يفضي به إلى الجنة.

وغيرها من الأسماء التي توحي بصفات يحبها الله لعباده كما أحبها لنفسه.

وهناك أسماء الجلال، كالملك والقدوس والمهيمن، والمتكبر، وهذه لها إيحاء من نوع آخر يرجع إلى تربية المهابة وتعويد المؤمنين على استحضار عظمة الله وقوته، فإيحاؤها عقيدي لا سلوكي، وهي مثل عليا في ذاتها، وفيما توحي به من معانيها الثابتة لله تعالى، ومن شأن المؤمن أن يشعر معها بعظمة الله شعوراً عميقًا، وأن يكون إيمانه بوحدانية الله إيمانًا صادقًا وأن يرى أن هذه الأسماء على حقيقتها الكاملة ليست لأحد إلا لله، وإن أي مخلوق يوصف بشيء من مبادئها فإنما يوصف به على نحو من التجوز أو النسبية، كما يطلق اسم النور على الضوء المنبعث من السراج، وعلى الضوء المنبعث من المس، وشتان بين نور ونور!

كما يتبين أن دعاء الله بالأسماء الحسنى، أو إحصاء هذه الأسماء، ليست معناه ترديد ألفاظها، أو سردها وتلاوتها وإنما معناه المداومة عليها وتعشقها وتتبع معانيها ومظاهرها، والتخلق بها حيث توحي بالتخلق، والاطمئنان بها إلى الله حيث تشعر بعظمة ذي الجلال والإكرام، وبذلك يكون الذكر في الإسلام له وظيفة توجيهية إيجابية، وليس مجرد أقوال تتردد، وألفاظ بها نتعبد.

الباب الثاني

عناية القرآن بالعقيدة

١ ـ القرآن وعقيدة البعث
٢ ـ القرآن وقضية البعث
٣ ـ شرك العقيدة وشرك العمل
٤ ـ عبدة الأهواء
٥ ـ لاوساطة بين الخالق والمخلوق
٦ ـ موقف الإسلام من أهل الكتاب



القـرآن الكريم
وقضيـة البعـث

١ـ عناية القرآن بقضية البعث والدار الآخرة التي يفرض علينا أن نؤمن بها ما هي إلا حقائق ثابتة في نفسها لها وجود واقعي، وهي تفترق في هذا عن المبادئ والأحكام التي هي من قبيل الإنشاء، والتي تشرع للناس بعد أن لم تكن، وتتغير بتغير الزمان والمكان، وتقبل النسخ في عهد الرسالة.

وإذا أردنا أن نعبر عن هذا المعنى بالتعبير الفني المستعمل في علم أصول الفقه فإننا نقول: إن العقائد من باب الإخبار، وبالإخبار لا تقبل النسخ، ومعنى كونها من باب الإخبار أن الشارع لا ينشئها ولكن يخبر بها، ويحدث عنها، ويكشف للناس عن واقعها وحقيقتها، وإنما كانت غير قابلة للنسخ لأن النسخ هو الإبطال والإزالة ورفع الحكم الأصلي، والحقائق لا تزول ولا تبطل ولا يمكن رفع حكمها.

ويأتي بعد ذلك دور التكليف بها، وإيجاب اعتناقها على جميع المكلفين.

وإذن فالعقائد يتصل بها حكمان: حكم طبيعي أو عقلي، وذلك هو ثبوتها في نفسها وتقررها في واقع الأمر وعدم قابليتها للإلغاء والإبطال، وحكم تكليفي فقهي هو كون الإيمان بها بعد انكشافها وتبين واقعها واجبًا على كل مكلف.

٢ ـ والحقائق الثابتة في نفسها كثيرة في هذا العالم الذي نعيش فيه، وفيما وراءه، وليس من شأن الدين ولا من غرضه الذي يرمي إليه أن يعرف الناس بكل الحقائق، ويقررها لهم، ولكنه إنما يهتم بنوع خاص من الحقائق هو الذي يترتب عليه تربية خلقية يصلح عليها الفرد والمجتمع.

فالأديان لا يهمها أن أعتقد مثلا أن هناك كوكبًا اسمه «المريخ» أو أن هذا الكوكب فيه حياة، أو ليست فيه حياة، ولا تترتب على هذا الاعتقاد ـ إيجابيا كان أو سلبيًا ـ تكليفًا ولا حسابًا.

ولا يهمها أن أعتقد أن الأرض كروية الشكل، أو ليست كروية، ولا أن أعتقد أن لها دورتين، أو دورة واحدة... إلى غير ذلك من القضايا العلمية، والحقائق الكونية.

وليس معنى ذلك أن الدين لا يهتم بالعلم، ولا يلقي بالاً إلى ما في الكون من حقائق وسنن، ولكن الكلام إنما هو في اعتقاد شيء من ذلك اعتقاداً دينياً أو عدم اعتقاده، فما دام لم يرد به نص قاطع ولم يصادم الاعتقاد به أصلاً من أصول الدين، فالأمر فيه طلق، ولا ضير في الدين من إثباته أو إنكاره.

٣ - والحقائق التي عني الدين ببيانها، ولم يترتب عليها تربية خلقية، وتهذيباً وتقويماً في العمل والسلوك، ترجع إلى جوامع ثلاث، لكل منها ما يتصل به ويأتي مكملاً له، وهي: الألوهية، والوحي، والبعث.

فالألوهية حقيقة يتصل بها كثير من الحقائق، كصفات الإله الوجودية والسلبية، وهذه الدائرة أو هذه الجامعة من شأنها أن توجه الإنسان إلى الصراط المستقيم؛ لأنه إذا علم أن للكون إلهًا واحداً، وأن كل ما سوى هذا الإله الواحد خاضع له مدين لحكمه؛ عرف قيمة نفسه بالنسبة للآخرين، وسار في حياته في ظل الشعور بالمساواة، لا بالضعف، ولا بالذلة، ولا بالهوان، ثم عرف قيمة نفسه بالنسبة إلى ربه وخالقه الذي يحب أن يكون إلهه ومقصده في جميع أعماله وتوجيهاته بالألوهية وصفاتها وما يتصل بموضوعها حقائق ثابتة، وهذه الحقائق لها قيمتها التوجيهية في حياة الإنسان، ولذلك بينها الدين، وكشفها للناس، ثم أوجب عليهم الإيمان بها، ولا يقبل فيها مهادنة ولا مجاملة ولا تبديلاً ولا تحويلاً، ولم يكلهم في شأنها إلى أنفسهم، كما وكلهم في الحقائق الدنيوية.

وقل مثل ذلك في الوحي، فهو حقيقة واقعة، ومن شأن الإيمان بها أن يوجه الإنسان إلى التماس هداية الله وتقبلها، وعدم اتباع الهوى، والتفرق بالنزعات، ولذلك عني الدين بها فقررها وبينها، وطلب إلى الناس أن يؤمنوا بها.

وقل مثل ذلك في البعث والدار الآخرة وما يتصل بها، فهي حقائق غيبية

يترتب على معرفتها والإيمان بها مصلحة عظمى للناس، إذ بها يعرف كل إنسان أنه محاسب على ما يعمل من خير أو شر، وأن الأمر ليس عبثًا، وأن الناس لن يتركوا سدى وبهذا يتجه في حياته اتجاهًا مستقيمًا، ويعلم أنه إن خالف هذا الاتجاه المستقيم، فهو معرض لخطر شديد، ولخسران مبين.

هذا هو السر في الاهتمام بتلك الحقائق الثلاث، أو بتلك العقائد الأساسية في جميع الأديان، ومنه يتبين السر في عناية القرآن بقضية البعث والدار الآخرة، وما أعد الله فيها من ثواب وعقاب.

(ب) منهج القرآن الكريم في معالجة المنكرين لهذه الحقيقة:

إن إنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك إلى ألوان ثلاثة من التفكير:

اللون الأول: هو استبعاد الأمر لما فيه من غرابة، ولأنه يخالف المألوف المعهود، فصاحب هذا اللون من التفكير يقول: هذا أمر لم أعهده ولم يعهده أحد من الناس قبلي، فما سمعنا أن ميتًا قام من رمسه، ولا نستطيع أن نتصور جسمًا يتعفن ويصيبه الانحلال والفساد ثم البلى والذهاب في تراب الأرض، ثم يعود فتلتئم أجزاؤه، ويتماسك بعد الانحلال، بل بعد الفناء، وترجع إليه الحياة كما كانت إن هذا لأمر بعيد.

وقد جاء هذا الاستبعاد على لسان المنكرين في غير موضع من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾ (الإسراء: ٤٩)، ﴿**أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (السجدة: ١٠)، ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾ (ق: ٣)، ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ**﴾ (سبأ: ٧، ٨)، إلى غير ذلك من الآيات.

وطريقة القرآن في الرد على هؤلاء ومعالجة هذا الاستبعاد أن يقول لهم: إنكم

قد غفلتم عن كثير من آيات الله التي تشاهدونها بأعينكم، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة، لكثرة حدوثها، وتكرر رؤيتها.

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة فينزل الله عليها الماء فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات:

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: ٥ -٧).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٩-١١).

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون وكذلك هو المعنى الذي صح أن رسول الله ﷺ نادى به في قومه حين أمر أن يصدع بدعوة الحق بعد أن كان مستخفياً بها، فقال: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون».

هذا قريب مما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢).

وهناك آيات كثيرة في الرد على الذين ينكرون البعث استبعاداً، أساسها أن الله لا يعجزه شيء، وليس شيء عليه بالبعيد، فهو القوي القادر الذي خلق الخلق وأنشأه من العدم، فكيف يصعب عليه أن يعيده؟

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧).

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) .

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الإسراء: ٤٩-٥١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٩-٨٥) .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩) .

اللون الثاني: من ألوان التفكير التي يرجع إليها إنكار هذه القضية إنه لا فائدة ولا ثمرة يمكن أن تقصد من البعث ومن أن يُحشر الناس إلى دار أخرى.

وهذا اللون من التفكير منبعث عن نظرية فلسفية عميقة الجذور في التاريخ خلاصتها: أن الكون قد وجد مشتملاً على جميع العوامل التي تؤدي إلى تفاعله ذاتيًا وتلقائيًا، فليس هناك مؤثر فيه من خارجه، بل كل ما فيه هو منه، وهو قائم على التوالد والتفاني الذاتيين، فالناس مثلاً يحيون بالتوالد الذي هو نتيجة التزاوج بين الذكر والأنثى، ثم يمروا بأدوار الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة حتى يصلوا إلى الانهيار التام فالموت، وكل ذلك بفعل الزمن الذي مروا به، والحياة التي لبسوا ثوبها، واحتملوا تصاريفها وأثقالها، وإذن فليس وجودهم إلا نتيجة حتمية للتفاعل الحيوي، وليس موتهم أيضًا إلا نهاية طبيعية لهذا التفاعل، فالعدم سابق للأحياء لاحق لهم بحكم التوالد الذاتي، وإذا كان الله هو الذي خلق العالم، فقد خلقه وأودعه جميع الخواص والعناصر التي صار بها مستقلاً متفاعلاً ذاتيًا.

وينبغي أن يفرق هنا بين الإيمان بالله كخالق، وبين الإيمان به كمصرف مدبر لكل صغيرة وكبيرة لهذا الخلق، فإن من الفلاسفة من يؤمن بالله خالقًا ويزعم مع ذلك أنه خلق الأشياء وتركها لمصيرها وتفاعلها الذاتي، وأن أجل كل شيء هو مدى طاقته وصلاحيته للبقاء والتفاعل الحيوي، فإذا بطل هذا من شيء فقد حان حينه، وحق عليه الفناء بمقتضى السنن الكونية الطبيعية ليس إلا(١).

وهذه النظرية هي التي يشير إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ (الجاثية: ٢٤).

وقد جاء هذا التعبير في آية أخرى مع التصريح بإنكار البعث، وذلك قوله تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ (المؤمنون: ٣٧).

وربما سأل القارئ عن مراحل الانتقال الفكري في هذه النظرية، وكيف تنتهي إلى إنكار الحكمة من البعث، وله الحق كل الحق في ذلك، فإنها نظرية قائمة على الخداع والمغالطة ينتقل فيها الفكر هكذا:

«كل ما في الكون إنما هو منه على سبيل التفاعل مع حكم الزمن، وليس هناك مؤثر خارجي».

ويلزم من ذلك أنه ليس هناك حكمة يمكن أن تتصور للبعث وحشر الناس إلى دار أخرى، لأن تصور الحكمة فرع عن إرادة الفاعل القاصد، وهنا لا فاعل يمكن أن يكون قاصداً».

وإذن فلا حكمة، وبالتالي فلا بعث».

وهذا اللون من التفكير الفلسفي يختلف تمام الاختلاف عن اللون الأول، فاللون الأول تفكير سلبي بدائي يستطيعه العقل العادي، لأنه لا يكلف جهداً، ولا

---

(١) وفي هذا شيء من الشبه بالدهريين الذين يرون العالم قديمًا أزلاً، باقيًا أبداً، ولكن الدهريين منكرون للإله، لذلك قلنا إن هذه الفكرة لها أصل معرق في التاريخ ولم نقل إنها هي بعينها فكرة الدهريين، كما قد يفهم من ذكر الدهر في قول الآية: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

يستلزم عمقًا، أما اللون الثاني فهو تفكير الذين يقابلون الدعوى بإنكار يصاحبه فرض عقلي مخالف، فهو لا يكتفى بمجرد الاستبعاد، ولكن يخرج أمر الحياة تخريجًا آخر حتى ينفي حكمة البعث، فينتفي أن البعث حقيقة مقصودة، وواقع لابد منه.

وقد كان من حكمة القرآن أنه لم يترك هذا اللون من التفكير تركًا تامًا حتى كأنه لم يكن، ولم يكثر في الوقت نفسه من ترديده، ولم يفض في بيان وجهة أصحابه، كما أفاض في وجهة المستبعدين.

بيان ذلك أن الإشارة إلى هذا التفكير لم تجئ إلا في موضعين اثنين، هما الموضعان اللذان ذكرناهما، أحدهما في سورة «المؤمنون» ، والآخر في سورة «الجاثية»، أما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾ (االأنعام: ٢٩)، فليس من هذا القبيل، وإنما هو من قبيل اللون الأول، فلم يذكر فيه نظرية الحياة والموت التلقائيين، ولا أن الإهلاك مرجعه إلى الدهر، كما ذكر في الموضعين الآخرين.

وإذن فالقرآن الكريم يذكر هذا اللون الفلسفي مقتصداً فيه، غير حريص على الإكثار من ترديده، بل نستطيع أن نقول إنه يكتفي فيه بالإشارة دون الإفصاح والإيضاح، فما هو السر في ذلك؟

السر في ذلك أن القرآن يخاطب الفطرة في الإنسان، ولا يحب أن يثير على هذه الفطرة غبار الفلسفة، ولا أن يشغلها بتعقل المعاني المتكلفة، فهو يكتفي بالإشارة إلى أصل الفكرة، ثم يهاجمها ويهدمها، وهو حين يهاجم ويهدم لا يقتصد في ذلك ولا يكتفي فيه بأدنى الجهد، ولكن يطيل ويكرر ويحيط الفكرة الباطلة بالحجة من بين يديها ومن خلفها، وتأتي حجته ملائمة للفطرة، سهلة على العقول، لأنه يريدها خطاباً للناس جميعًا من كل مستوى عقلي، ولا يخص بها تفكيراً معينًا دون سواه.

ولعل مما يؤيد ذلك أن القرآن حين يسوق هذه الفكرة في سورة «المؤمنون»

يسندها إلى قوم من أقوام الرسل السابقين، ويصفهم بأنهم الملأ الكافرون من قوم هذا الرسول، أي أصحاب الكثرة والسلطان، ثم يصفهم بأنهم هم المترفون في الحياة الدنيا، ويفهم من قولهم أنهم كانوا دعاة ثائرين على الحق، متجردين لدعوتهم، متكلفين للشبه والأباطيل في سبيلها، ولكي يصاحبنا القارئ في فكرتنا نثبت الآيات التي جاءت في هذا الشأن، وذلك قوله تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ[1] ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (المؤمنون: ٣١-٣٨).

وأفكار المترفين من شأنها أن تسير في اتجاه الهوى والغرض إذا وجهت إليهم دعوة يخشون أن تزيلهم عن مكانتهم، وتعكر عليهم صفو ترفهم وغناهم، والقرآن حرب على هؤلاء المترفين، لأنهم في الحقيقة مصدر الجحود والإفساد والإلتواء عن الصراط المستقيم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦)، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٥)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ

(١) الضمير في قوله: «من بعدهم» لقوم نوح، والقرن الآخرون قيل هم قوم عاد، وقيل هم قوم ثمود، ولكل من القولين ما يستند إليه استنباطه، ولا يتعلق هنا غرض بتعيين القائلين.

﴿أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون ﴿٤٧﴾ أو آباؤنا الأولون ﴿٤٨﴾ قل إن الأولين والآخرين ﴿٤٩﴾ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ (الواقعة: ٤٥-٥٠).

وقد جاء ذكر هذه الفكرة الفلسفية في سوة الجاثية بين آيات من قبلها وآيات من بعدها، قد حشدت فيها الحجة بعد الحجة على نحو قوي، وأسلوب فريد، وتتبع عجيب، وتلك هي الآيات كاملة.:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴿٢١﴾ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (الجاثية: ٢١، ٢٢).

ونقف هنا وقفة يسيرة لنقول: إن الرد على هذه الفكرة ذو شقين:

أحدهما أن الله خلق السموات والأرض بالحق أي لا عبثًا ولهوًا كما تستلزم هذه الفكرة: فكرة أن كل ما في الكون وما يحدث في الكون، فإنما هو من الكون وبه، كما هو فيه - وأنه لا شأن للخالق بالخلق بعد أن خلقه وأودعه عناصره ومادة تفاعله، وفي آية أخرى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون: ١١٥)، وفي آية ثالثة: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴿١٦﴾ لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ (الأنبياء: ١٦، ١٧)، فالمعنى: كيف يكون ذلك، وهل هذا إلا العبث واللهو تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

والشق الثاني من الرد إثبات الحكمة من البعث، وهي المجازاة على الأعمال.

وقد قدمت الآية هذين الشقين، وساقتهما بأسلوب العطف المبني بأنهما شقان وناحيتان، حيث قالت: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (الجاثية: ٢٢).

ونعود بعد ذلك إلى الآيات: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

والحديث في هذه الآية عمن أضله الله على علم، يشعرنا بأن أصحاب هذه الفكرة كانوا من الذين يستخدمون العلم في التلبيس والمجادلة.

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

وقد عاجلهم الله بعد ذكر فكرتهم بالرد المنبئ عن خلوها من الدليل والبرهان العلمي: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

ومن هنا نأخذ أن الذين يتشدقون بالفروض العقلية، ويحاولون أن يثيروا بها على العقائد الدينية جدالاً وسفسطة، إنما يضربون في أودية من الظن والخيال، ومن العجيب أنهم يعترفون بأن أحكامهم في ذلك إنما تقوم على افتراضات ذهنية، وتعليلات متخيلة، ومع ذلك يأخذون بها، ويتركون ما جاء عن الله ورسوله، بحجة أن العلم شيء والدين شيء آخر، فهل الفروض والتخيلات تنتج علماً، والنقول الصحيحة عن العليم الخبير لا تنتج هذا العلم؟

الواقع أن هذا التواء في التفكير، وأن هذا الالتواء قديم، ولهذا الخلف سلف هم على آثارهم مقتدون ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤).

ونعود إلى الآيات فنستكملها أمام القارئ ليتابع الفكرة فيها:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الجاثية: ٢٥-٢٧)، أي والمالك الحكيم القادر لا يترك ملكه سدى، ولا يملكه عبثاً ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٧).

يتبين من هذا أن منهج القرآن في هذه الفكرة، يقوم على الاقتصاد في ذكرها وعدم التفصيل لها، كراهية منه لأساليب المتكلفين والمغربين، وحرصًا على أن يكون خطابه به موجهًا إلى الفطرة في صفائها، وألا يهيج على هذه الفطرة ما لا يلائمها، أو ما يشق عليها، ولكنه يهاجم هذه الفكرة هجومًا عنيفًا من ناحية بيان أن الله خلق الخلق بالحق - أي وما لا غاية له لا يكون بالحق، وإنما يكون لهوًا وعبثًا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٠) وأن الحكمة إنما تتحقق حيث يكون الخلق ابتلاء واختبارًا، يعقبه بعث للحساب والجزاء.

واقرأ في ذلك مثل قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١).

وانظر معنى اللام في قوله «ليجزى» وربط هذه الغاية بكون العالم مملوكًا له جل وعلا، فإن هذا ينبئ عن فكرة الرد عليهم كما أوضحناها.

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، فقد بين جل شأنه أن الخلق الذي يوكل إلى نفسه دون رجوع إلى مالكه، إنما يصدر عن العبث، تعالى الله وتنزه.

اللون الثالث : من ألوان الإنكار لقضية البعث والجزاء، هو إنكار المعاندين لجاجًا ومكابرة بعد وضوح الحجة، فيقول المنكر : لا أصدق هذا، ولا أقبله مهما قيل فيه، أو يقسم على نفيه، أو ما إلى ذلك من أقوال الإنكار عن لجاج وعناد.

وموقف القرآن الكريم من هؤلاء المكابرين أنه يجابههم بالدعوة ويكررها عليهم مرة بعد مرة، ويقسم عليها في مقابلة قسمهم، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله كما لو كانوا يشاهدونه تخويفًا لهم وإرهابًا.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ (التغابن: ٧).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٣٨).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ١٢)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصور أهوال القيامة، وحيرة الكافرين، واعترافهم بعد رؤية العذاب المبين» .

القرآن الكريم وعقيدة البعث

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتمامًا عظيمًا، فقلما تجد سورة من سوره -إذا استثنينا بعض قصار المفصل- إلا تذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما، وكثيرًا ما نجد فيه سورًا تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه، ما بين تذكير وبيان وضرب للأمثال ونفي للشبه وغير ذلك.

وإنما عني القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين:

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حبًا في الخير والصلاح، كما يترك الشر والفساد كراهية في الشر والفساد، فهو لا يلتمس جزاء ولا شكورًا حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح، ولا يخاف حسابًا ولا عقابًا حين يترك الشر ويعزف عن الفساد، وإنما يترك هذا ويفعل ذاك مجاراة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا.

(٢) وصنف يعمل الخير، ويترك الشر، ناظرًا إلى الجزاء مقدرًا أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو، وينظر إلى العواقب التي تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه.

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد، أما الصنف الثاني فإنه الكثرة الغالبة والشأن في الناس، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية، كل منهم يريد أن يكون متمتعًا بالخيرات والحسنات، بعيدًا عن الشرور والمصائب، وأمثلهم هو الذي يرجو من وراء الاستقامة رضا الله، دون نظر إلى نفع مادي اكتفاء بحسن الأحدوثة، وطيب الذكر.

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار دارًا، يرى فيها المرء جزاء عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق، لينظروا إليها، ويقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها. فلو أن الناس جميعًا قد استقرت فيهم هذه العقيدة، وآمنوا بها إيمانًا لا يخالجه شك، لاستقامت أمورهم، وكثر فيهم الخير والإحسان، وقل بينهم الشر والفساد، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا، وتخلبهم بزخارفها ومتاعها، وكثير منهم يعتريه الشك في البعث ودار الجزاء، ويستنيم إلى الحاضر والواقع الذي يعيش فيه، ولا يلمس سواه، فلا يصدق أنه سيبعث بعدالموت، وأنه سيعرض للحساب.

وإنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور:

(١) إما مخالفته لما ألف من السنن، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتًا بعث من رمسه، وعادت إليه الحياة كرة أخرى، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا.

(٢) وإما استبعاده واستعظام أمره، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتتحلل وتفسد وتفنى في الأرض وتختلط بالتراب، فلا تكاد عقولهم تسلم في سهولة ويسر أمر عودتها وتركبها وصيرورتها جسمًا حيًا يسعى ويدرك.

(٣) وإما كونه أمرًا لا تدعو إليه حاجة الناس، وليس وراءه مصلحة ترجى.

(٤) وإما العناد في أمره، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان.

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم:

(١) فقال للذين حسبوه مخالفًا للسنن المألوفة: إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله تشاهدونها بأعينكم، وقد صارت لديكم أمورًا مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها.

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة، فينزل الله عليها الماء، فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: ٥-٧).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٩-١١).

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون، وذلك هو المعنى الذي صح أن رسول الله ﷺ نادى به قومه أول مبعثه إذ يقول: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون» وقد جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٢).

وهذه هي الحبة الجافة يحولها الله بالإنبات إلي زرع نضير، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الانعام: ٩٥).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تلفت إلى نظائر البعث والنشر فيما ألف الناس.

(٢) وقال للذين يستبعدون ذلك، ويستعظمون أمره: إن الله لا يعجزه شيء، وليس شيء عليه بمستبعد، فهو القوي القادر الذي خلق الخلق، وأنشأه من العدم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧)، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٤٩-٥١)، ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ۝ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۝ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٩-٨٥)، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (الحج: ٥).

إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر قدرة الله، وتذكر بنشأة الخلق، وترد عليهم في استبعادهم الأمر، واستعظامهم إياه في مثل قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٥-٣٧).

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة، ولا تقضي به حكمة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١)، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٦-٨).

إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر حكمة البعث، ورجوع الناس إلى الله، في يوم مشهود ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً.

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابهم بالدعوى ويكررها عليهم، ويقسم عليها في مقابلة قسمهم، ويصور لهم يوم القيامة وأهوالها، كما لو كانوا يشاهدونه إشعاراً إليهم بأنهم يكابرون فيما يعلمون، وأن الله لا يعول على مكابرتهم، بل يسوق لهم الكلام في هذا الشأن حسب الواقع الذي يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل: ٣٨)، ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** ﴾ (التغابن: ٧)، ﴿ **وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (الأنعام: ٢٩، ٣٠)، ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٠ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة: ١٠-١٢).

إلى غير ذلك من الآيات التي تصور أحوال القيامة، وحيرة الكافرين، واعترافهم بعد رؤية العذاب.

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة، ويقرره على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التي لا تقبل الشك، ولا يقبل الله فيها تأويلاً ولا شقاقاً، ويستقصي كل ما يدل عليه، ويثبته في القلوب، ويزيل عنه الشبهات.

شرك العقيدة وشرك العمل

لا أظن أنه بقي على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهًا مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله، ولكن هناك نوعًا من الشرك ما يزال باقياً، وهو أشد خطورة من الناحية العملية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار.

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهًا نوعان:

شرك في العقيدة ، وشرك في العمل.

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة، كهولاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل، التي كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها، ويقفون أمامها خاشعين، ويتخيلون رضاها وغضبها، وبركاتها ولعناتها، فترتعد فرائصهم منها خوفًا وفرقًا، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان في التخبط والعماية كهذه العقيدة، ولم نجد أحداً في التاريخ يعتقدها إلا ذووا الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة، ولذلك يسخر الله منهم دائماً، ويصفهم بالجهل والعمى، وأن لهم قلوبًا لا يعقلون بها، وآذانًا لا يسمعون بها، وأعينًا لا يبصرون بها، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وهذه العقيدة مودية بصاحبها في الدنيا قبل أن تودي به في الآخرة، وحسبنا وهو يؤمن في قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة، ويملك له النفع والضرر، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة، وشخصية هزيلة، ومثل هذا لا يرجى منه أي خير، بل هو دائمًا عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد. ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويرا رائعًا يمثل جميع معاني

الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ (الحج: ٣١) .

هذا هو شرك العقيدة وهو أول انحراف عن سواء السبيل، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد في هذه الحياة.

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحي بالإيمان بالله إيمانًا صحيحًا لا يخالجه شك، ولا يفسده شرك، فإن الإنسان مفكر، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجد إلا بمؤثر، ولا يجد شيئًا أمامه يمكن أن يسند إليه هذا التأثير، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجودًا بعد عدم مثله تمامًا، فيذعن في قرارة نفسه لهذه القوة الغيبية التي تأتي الرسل وتنزل الأديان فتسميها الإله الذي خلق الخلق، وتفكيره يهديه أيضًا إلى قضية أخرى هي قضية الوحدانية، فيؤمن بها إيمانًا عقليًا عن طريق النظر في أدلتها المعروفة، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته، عن حكم عقله وتفكيره في هذا الشأن الذي يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجده، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل.

وأما كون هذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التباس العقل، واعوجاج الفكر، وباعث على سوء التصرف، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيء التصرف عيشة سعيدة صالحة بين قوم عقلاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون.

أما شرك العمل فهو إيثار ما سوى الله على الله، وإن اعتقدت أن الله واحد، وأن الأمر بيده، فإنه لا يكفي أن تؤمن النفس إيمانا سلبيا داخليا بأن الله هو مالك النواصي والأقدام، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل، بل يظهر في الأعمال والتصرفات عكس ذلك، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ولا حياة به، إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات واقتراف الآثام.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يقتل القاتل حين قتل وهو مؤمن»[1]، ويقول في حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن، والله لايؤمن، قالوا من هو يارسول الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه»[2]، إلى غير ذلك من الأحاديث الي تربط الإيمان الحق الذي يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وقد وصف القرآن الكريم المائلين إلى الأهواء، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله، واتخاذ غيره إلهًا إذ يقول: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)، ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (الكهف : ٢٨)، ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤) ، ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ** ﴾ (الروم: ٢٩) .

ووصفت السنة أيضًا هؤلاء بمثل ذلك فقد جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة: «تعس عبد الدينار والدرهم، تعس عبد الخميصة»[3].

فهؤلاء مشركون، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن، والمعتقد في الحجر، لأن عابد الوثن يضر نفسه، ويفسد حياته، أما هؤلاء فإنهم يبثون الفساد والوهن في صفوف المجتمع، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة.

أقول هذا بمناسبة ما سرى في مجتمعنا المصري من فساد وأخلاق سيئة، عمت الصغير والكبير، وأصبح أمرها من التسليم والقبول في المجتمع كأمر العقائد الثابتة، ومن حاول التنفير عنها، أو النصح بالتخلص منها، عد في قومه كالنافخ في الرماد،

---

(١) البخاري عن ابن عباس ك/ الحدود ب/ إثم الزناة (٦٣١١).

(٢) البخاري عن أبي شريح ك/ الادب ب/ إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥٥٥٧).

(٣) البخاري عن أبي هريرة ك/ الجهاد والسير ب/ الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٦٧٣).

أو الضارب في الحديد البارد، ووجد من الناس من يلومه، ويهجن فعله، ويرميه بالتجاوز والاغترار.

وقد أصبحت مهمة العلماء ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية، أو من أخلاق الفجور التي مُنِيَ بها الشباب، وغض عنها الآباء والأمهات، أو عن الفساد المتصل بالحاكمين في الرشوة والمحسوبية، والإهمال والتضييع؟

إن الذي يريد أن يصلح شيئًا من ذلك، أو يحاول خلع الناس منه؛ ينظر إليه نظرة تعجب، ويتهم بأنه يعيش في زمان غير زمانه، ويفكر بعقل غير عقول أهله، وهكذا انقلب المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، واتبع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله، فليس ينفعهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله ربًا واحدًا، كما أنهم مؤمنون به خالقًا وموجدًا.

إني لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله، وإلا فقل لي بربك أيها القارئ: ما الذي يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق، حين همَّ بعض الفتيان في حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المجتلبات للرقص من أوربا.

أتغرينا المدنية والرقي الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد، ثم نتمسك بأخطائنا في شأنهما تمسك المرء بعقيدته، ونؤثرهما على الدين؟

عبدة الأهواء

يقول أهل العلم : إن من المقاصد التي جاءت لها الشرائع، إشعار الناس بأنهم عبيد لله اختياراً، كما أنهم عبيد له اضطراراً.

ومعنى هذا: أن الناس جميعًا مخلوقون لله عز وجل، وأنهم معتمدون في بقائهم مدة ما يعيشون على فضل الله ورحمته وإمداده، فإذا انقطع عنهم هذا الفضل وذلك الإمداد طرفة عين هلكوا، وأصبح علمهم وتجاربهم ومالهم من حيل أو عمل باطلاً لا يغني عنهم فتيلاً، ولا ينفعهم نقيرًا؛ وهم لذلك عبيد لله في الواقع، لا يرجع الأمر في ذلك إلى الاختيار منهم، فهم مربوطون بهذا الكون لا ينكثون عنه، مأخوذون بسنته رضوا أم أبوا.

ومن جهة أخرى هم خاضعون لإرادة الله في وجودهم وهيئاتهم، ودرجات عقولهم وحظوظهم؛ فإن أحد لم يوجد في هذ الحياة باختيار منه، ولم يختر الهيئة التي صور عليها من طول أو قصر، أو جمال أو دمامة، أو قوة أو ضعف؛ وإن أحداً لم يختر لنفسه أن يكون على درجة كذا من العقل، أو أن يكو ذا قسط معين من حظوظ الحياة، فالحياة تجري على ما أراده الله لها، والناس يجرون كما خلقهم الله، والكل خاضعون خضوعًا فعليًا اضطرارياً لما هم عليه، أو لما هم فيه، لايحاولون ولا يستطيعون منه فكاكًا.

هذا الخضوع الواقعي الاضطراري هو عبودية الناس، بل عبودية كل شيء لله سبحانه خلقًا وتكوينًا؛ أما العبودية التي قصدت الشرائع أن يشعر بها الناس:

فهي عبودية الطوع والاختيار، وذلك إنما يكون بالنزول على حكم الله، مع الثقة بأنه الخير والحق والرشاد.

إن النفوس البشرية نزاعة دائمًا إلى اتباع الهوى، فقد فطرت على ما تسميه «بالأنانية» فكل امرئ يريد أن يكون هو الفائز بأكبر قسط من متاع الدنيا، وكل

امرىء يريد أن يكون هو الناجي من جميع آلامها وصعابها، وهو لهذا ينظر إلى الأشياء بعين نفسه، ويزن الضار والنافع بمقدار ما يعود عليه هو من النفع والضرر، وقلما يخرج الإنسان على هذه الطبيعة، وإن تحمل وتجمل وتهذب ولبس ثوب الإيثار، فإنه سيظل في أسر هذه الطبيعة ولو بعقله الباطن، وتصرفاته «اللاشعورية»؛ ولهذا لم يكن بد من أن يحال بين هذه الطبيعة السارية في جنس الإنسان ، وإفساد هذا الكون؛ ولهذا كانت الشرائع، وكان أهم شيء فيها هو محاربة «الهوى» لأن الإنسان إذا تحرر من هواه، فقد تحرر من أخطر أنواع الشرك بالألوهية، وألقى بنفسه بين أحضان الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، وكان عبداً لله اختياراً كما هو عبداً له اضطراراً.

وإننا لنجد في القرآن الكريم بيانًا واضحًا لهذا المعنى؛ فالله سبحانه وتعالى يصف «الهوى» بأنه إله إذ يقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣)؛ وذلك تصوير بليغ لانسياق الإنسان، واندفاعه وراء ميوله ورغباته؛ كما يندفع العابد في تحقيق أمر معبوده، طلبًا لرضاه، وتقربًا إليه.

وقد يتصل بهذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١)، فإن هذه الآية إذا نظر فيها مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، تبين أنها تشير إلى خطر الأهواء وشدة إفسادها للسموات والأرض إذا حكمت، فإن الله لم يذكر فساد السموات والأرض على هذا النحو إلا حين تحدث عن التعدد في الألوهية، واتباع الحق أهواء المبطلين.

وقد حذر الله من هذا الفساد نبيًا ملكًا من أنبيائه الكرام، هو داود عليه السلام إذ يقول: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وإذا كان ملك الله - جل جلاله - وهو السموات والأرض ومن فيهن وما لا يعلم إلا الله معرضًا لأشد الفساد إذا اتبع الحق أهواء المبطلين فأولى بذلك ملك الناس ولو كانوا ملوكًا أنبياء.

وقد صرنا إلى زمان اتبعت فيه الأهواء، وسيطرت على الدول والأمم فيه النزعات والمذاهب البشرية، فمن نازية إلى فاشية إلى ماركسية إلى ديمقراطية تتلون بلون الإنجليز تارة، وبلون الفرنسيس تارة، وبلون الأمريكان أحيانًا، بل يكون لها معنى في الغرب، ومعنى في الشرق، ويعرفها المستعمرون على وجه، والمستعمرون على وجه آخر، أو على وجوه أخر، وهكذا ظلمات من الأهواء بعضها فوق بعض، والشعوب تتلظى بنيران المتخاصمين عليها، والمتعصبين لها، لا تفيق من حرب إلا إلى حرب، ولا تعالج مشكلة إلا لتقع في مشكلات، وكلما امتد الزمان بهذه الأهواء المتضاربة، والنحل المتغالبة، تفنن أصحابها في ابتكار وسائل الهلاك والدمار، والحرب الغازية تتلوها «القنبلة الذرية» ثم حروب الأمراض والأوباء تبث في الناس فتعمى بها الأبصار، وتشوى بها الجلود والأبشار، وينتقل بها سكان الأكواخ والقصور، إلى الأرماس والقبور. ذلك وما يعانيه الناس من الفاقة والضيق، والخوف والعوز، أشد عليهم وأنكى من هذا الموت المرتقب؛ فإنه ما من شعب الآن إلا وقد ضوت منه الجسوم، وخوت البطون، وشحبت الوجوه، واضطربت الأعصاب، وغامت العيون، وكأنما هي سنون يوسف غير أنها ليست سبعًا، وقد مضى منها حتى اليوم عشر، ولا يدري أحد إلا الله إلام تمتد، وهل تخف حدتها أو تشتد.

لعمري ما نكبت البشرية بذلك إلا من اتباع الأهواء، وازورار الناس عن أن يكونوا عبيدا لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً.

إن أمر الناس والأديان اليوم دائر بين أمة خلعت رداءها، ونبذت أحكامها وتكاليفها، وتحللت منها علانية في غير خفاء ولا تورع، وأمة تمسكت بها رسمًا لا حقيقة، واحتفظت بها كتقليد ورثته فأبقت على صورته؛ ولا تكاد تجد أمة تتمسك بدينها، وتبني جميع أمورها عليه، وتدير شئونها حسب رسومه ومن عجب أنهم يعتبرون ذلك رقيا في الحياة، وتخلصًا من آثار القرون الأولى، وانفلاتًا من قيود الرجعية: وإذا رأوا داعيًا إلى الدين ومنذراً ينذرهم علهم يرجعون سخروا منه ورموا بأباطيلهم في وجهه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم** ﴾ (محمد: ١٤).

لقد قلت ومازلت أقول: «إن العالم لفي حاجة إلى دعوة صادقة مخلصة ترسم له سبل الحياة السعيدة، وتصنع له أسس الاستقرار والسكينة، وتجمع في تعاليمها بين المادة والروح؛ فلا تسمح لإحداهما بأن تطغى على الأخرى، ويشعر في ظلالها كل فرد بأنه لبنة في بناء المجتمع، وتأخذ الفطرة الصافية فيها حظها الطبيعي في كل ناحية من نواحي الحياة، فلا أثرة ولا استئثار، ولا معاندة لما طبع الله عليه الأمم من التفاوت في المال، والمواهب والاختصاص، ولا تحكم ولا تمرد، ولا عصبية لجنس على جنس، ولا امتياز للون على لون، ولا غمط لحق، ولا انتصار لباطل، ولا ترويج لرذيلة، ولا تنكر لفضيلة. ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقة المنقذة إلا في «الإسلام» ولو ظل قرونًا من الدهر ينظر إلى «الكتلتين» ويرجع البصر كرتين، فليت شعري إلام يضيع المسلمون في ديارهم وأوطانهم منكمشين يطرقها عليهم الطارقون، فإما فتحوها لهم كارهين، وإما ظلوا من ورائها خائفين يترقبون.

ألا إنهم لأرباب دعوة، وأصحاب فكرة، ودعوتهم هي النور المبين الذي به تمحى ظلمات الجهل والشرك والهوى والفساد، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التي حار فيها المتطببون: فليخوضوا بدعواهم كل مخاض، وليعرضوها على العقول بيضاء نقية؛ كما جاء بها محمد ﷺ، وليلقوا بها في وجوه أهل الباطل وما اصطنعوا من دعوات الهوى والضلال، فإن الحق سيزهق الباطل، وإن عصا موسى ستلقف ما يأفكون.

لا وساطة بين الخالق والمخلوقين

من العقائد التي قررها القرآن الكريم؛ وكان لها أثر بعيد في إصلاح أحوال البشر: تلك التي تصف الله تعالى بأنه قريب من عبده، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، دون وساطة أحد من الخلق.

ومن الآيات التي تقرر هذا قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٦).

وفي هذه الآية الكريمة يبدأ الله تعالى بمخاطبة رسوله ﷺ فيقول له: «وإذا سألك عبادي، فهو يتحبب إليهم، ولا ينتظر سؤالهم عن ذلك فعلاً، بل يعرضه، ويشير إليهم بأنه ينتظره؛ وهو يصفهم بأنهم «عباده» فيضيفهم إلى ضمير المتكلم تكريمًا لهم؛ وإيذانًا بحبه ورحمته ثم يأتي بجواب (إذا) فيقول: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ ولا يقول: - كما يقتضيه ظاهر الكلام - فقل لهم: إني قريب؛ وذلك لأنه يريد أن يعجل لهم الحقيقة ذاكرًا إياها بأسلوب مباشر منه هو؛ ليس فيه واسطة؛ دالا أن هذا هو شأنه المتقرر بذاته لا بقول يقال؛ ثم هو «قريب»: إما على معنى قوله في آية أخرى: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ (المجادلة: ٧) - أي قرب الحضور والعلم - وإما على معنى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٦) - أي هو قريب برحمته واستجابته بحيث لا يحتاج عباده إلى أن يتخذوا بينهم وبينه سفيرًا أو وسيطًا؛ ثم يقول: ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ فيرشد إلى أن قرب الإجابة مرتبط بصدق الاتجاه في الدعاء؛ ولذلك ذكر «الدعوة» وهي لا تكون جديرة بهذا الاسم إلا إذا كانت خالصة لله؛ وذكر «الداعي» وهو ذلك الذي التجأ إلى ربه عالمًا بأنه لا يسوق الخير حقًا أحد سواه؛ وذكر ﴿**إِذَا**

دَعَانِ ﴾ ليؤكد معنى الإخلاص وصدق التوجه؛ ثم يأمر عباده بأمر جامع لكل ما يرشح العباد لقبول الدعاء فيرشدهم بذلك إلى أن مفتاح الإجابة هو الاستجابة: ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨٦) .

وإذن فليس هناك شرط للقبول يرجع إلى أحد بين الخالق والمخلوقين، وإن شرط القبول هو الاستجابة والإيمان، وهما في إمكان العبد .

وقد انبنى على هذا الأصل أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده مباشرة . دون أن يلجئهم إلى أن « يعترفوا » لأحد، أو يدلوا بأية وساطة أو سفارة، وأن الكرامة الإنسانية حفظت على الناس؛ فلم يعد أحد محتاجًا إلى أن يبذل ماله أو ماء وجهه لإنسان مثله؛ باسم أنه حبر من الأحبار؛ أو كاهن من الكهان؛ أو عالم من العلماء؛ لكي يكشف له ما ستر الله عليه من ذنبه؛ ثم يطلب منه أن يهبه أو يبيعه الغفران .

ولقد كان هذا الأمر قد وصل قبل الإسلام إلى حد الوهم والخرافة التي جعلت الناس تحت سيطرة رجال الدين؛ لا ينقضون أمرًا؛ ولا يبرمون أمرًا في شئونهم الخاصة أو العامة إلا بإقرار رجال الدين؛ فمن أراد أن يبيع فلا بد له من أن يستأذن الكاهن؛ ومن أراد أن يهب شيئًا من ماله أو ملكه؛ فلا بدله من أن يحصل على موافقة الكاهن؛ ومن أراد أن يرهن أو يتعاقد؛ أو - حتى - أن يموت! فلابد من أن يتدخل في أمره الكاهن؛ وما كفاهم ذلك حتى زعموا أنه لا توبة إلا بهم؛ ولا غفران إلا عن طريقهم واستعبدوا الناس بهذا الأسلوب وخوفوهم؛ وعطلوا هواهم؛ وضيعوا كرامتهم .

ولذلك كان فضل القرآن على البشرية عظيمًا إذ هدم هذه الأوهام؛ وخلى بين العباد ورب العباد على هذا النحو من القرب والتجاوب .

وكما حرص القرآن على انتزاع هذا الوهم من نفوس الناس؛ وعلى إفهامهم أن الله وحده هو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون؛حرص كذلك على انتزاع هذا الوهم من نفوس القادة والمتصدرين في

شئون الدين؛ حتى وصل الأمر به إلى نهي النبي ﷺ عن الاستغفار للمشركين؛ أو الصلاة عليهم إذا ماتوا؛ وكذلك نهى أصحابه عن الاستغفار لهم قطعًا لدابر هذا الوهم الذي جعل الناس من قبل فريقين: فريق الشعب الذي يتطلب الغفران؛ وفريق رجال الدين الذين يمنحونه أو يتوسطون فيه.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٨٠).

فبين بذلك أن استغفار الرسول ﷺ لهم لا ينفع، وألمح إلى أن الاشتغال به ليس مما يستحبه الله لأنه اشتغال بما لا فائدة فيه.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (التوبة: ٨٤).

وهذا بيان لما شرعه الله تعالى في شأن من يموت من المنافقين، الذين هم في الحقيقة كافرون، وقد تقدمه بيان لما شرعه جل شأنه في شأن الأحياء منهم؛ إذ جاء قبل هذه الآية مباشرة من سورة التوبة:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (التوبة: ٨٣).

ومجموع الآيتين يفيد: أن الله يأمر نبيه بأن يقطع ما بينه وبينهم في حال الحياة؛ وفي حال الممات؛ فلا يقبل خروجهم معه إلى الجهاد بعد تخلفهم الذي تخلفوه عنه ولا يقدم على الاستغفار لهم أو الصلاة عليهم بعد موتهم.

وبين له أنه لا ينفعهم استغفاره أو صلاته لأنهم ماتوا وهم فاسقون؛ ورضوا بالقعود من قبل وهم قادرون.

ومما ورد في ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (المنافقون: ٦).

وذلك حديث عن الأحياء منهم بدليل قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (المنافقون: ٦).

وفي ذلك النهي العام عن الاستغفار للمشركين مهما كان شأنهم يقول الله تعالى أيضاً:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة: ١١٣).

والتعبير بقوله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يفيد قوة في النهي عن ذلك؛ إذ هو نفي لأن يكون لأحد منهم هذا الحق؛ على حد قوله تعالى في النهي عن إيذاء النبي وعن نكاح أزواجه من بعده:

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

ولما كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ قد سلف منه الاستغفار لأبيه؛ جاء بعد هذه الآية قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤).

وهو تعليل لإقدام إبراهيم على الاستغفار لأبيه، بأنه كان توفية بوعد وعده إياه، كما حكى الله عنه أنه قال له ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الممتحنة: ٤)، أي: وما أملك لك هداية ولا غفران، وإنما الله هو المالك لذلك - وقد وفى إبراهيم بهذا الوعد، كما حكى الله عنه أنه قال في دعائه: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (الشعراء: ٨٦)، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، وهو قبل هذا التبين كان طامعًا في إيمانه وإقلاعه عن الشرك، فاستغفاره له بمعنى الدعاء لله تعالى أن يهديه، لأنه لا يمكن أن يغفر له وهو مصر على الضلال، راسخ القدم في الشرك.

فكأن القرآن يقول للنبي والمؤمنين: ليس لكم أن تستغفروا للمشركين ولوكانوا أولي قربى، بعد أن تبين لكم أنهم ثابتون على الشرك؛ أو أنهم قد ماتوا وهم مشركون وإبراهيم إنما استغفر لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله؛ فلما تبين له ذلك تبرأ منه.

ولما كان قد يفهم من ذلك أن المسلمين يمكن أن يأتسوا بفعل إبرهيم في ذلك؛ فيستغفروا للمشركين قبل أن يتبين لهم إصرارهم أو موتهم على الكفر؛ أراد القرآن أن يبطل هذا المفهوم بصراحة؛ ويبين أنه مفهوم غير مراد؛ ولذلك جاء التصريح في سورة الممتحنة باستثناء التأسي بفعل إبراهيم في ذلك من وجوب التأسي به في معاملة المشركين.

وذلك قوله تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (الممتحنة: ٤).

أي: أنتم أيها المؤمنون مطالبون بالتأسي بفعل إبراهيم والذين معه في شأن المشركين؛ إلا في قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك؛ لأن ذلك، وإن أقدم عليه إبراهيم قبل أن يتبين له أن أباه من أصحاب الجحيم؛ ليس مما يحب الله أن يؤتسى به فيه؛ وذلك سداً لباب الشفاعات؛ ودرءاً لأن يفتح ولو على نحو من التأويل.

وهكذا يحسم القرآن هذا الأمر حسماً كاملاً؛ فلم يبق لإنسان أن يعتمد إلا على نفسه؛ وإصلاح ما بينه وبين الله بالتوبة المباشرة؛ والاستغفار المباشر.

موقف الإسلام من أهل الكتاب

القضية الأولى التي جاءت بها الأديان كلها هي توحيد الله جل وعلا، والخضوع لحكمه، وإخلاص العبودية له إخلاصًا لا تشوبه شائبة من شوائب الشرك.

وهذه القضية محكمة غير قابلة للنسخ، لأنها تجديد لواقع الصلة بين الخالق والمخلوق، والواقع لا يختلف باختلاف الأزمان أو الأشخاص، ولهذا نجد القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بمعنى الخضوع لله والدينونة له، يقرر أنه الشأن الدائم الذي لا يختلف ولا يأتي فيه رسول بغير ما أتى به رسول الله ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: ١٣)، ونجده يقص علينا أن جميع الرسل كانوا يدعون أقوامهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، بل هناك عبارة واحدة في هذا الشأن حكاها القرآن عن كثير من الرسل: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (الأعراف: ٥٩)، قالها نوح لقومه، وقالها هود لعاد، وصالح لثمود، وشعيب لأهل مدين. ولا شك أن كل نبي وجهها إلى قومه بنصها أو معناها.

وقد اعتبر القرآن الكريم قبول هذه الدعوة والنزول على مقتضاها هو «الإسلام» فالإسلام هو الانقياد لأمر الله، وإخلاص العبادة له.

من قولهم سلم الشيء لفلان أي خلصه، وسلم له الشيء أي خلص له، وقد أسند ذلك صريحًا في القرآن الكريم إلى السابقين على رسالة محمد ﷺ من رسل وغيرهم، فإبراهيم كان حنيفًا مسلمًا، وكان من دعائه هو وابنه إسماعيل ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾ (البقرة: ١٢٨)، ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة: ١٣٢)، والتوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين

أسلموا للذين هادوا، والحواريون من قوم عيسى قالوا: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢)، وسليمان دعا ملكة سبأ ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣١)، وملكة سبأ قالت حين آمنت ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤)، إلى غير ذلك وقد جاءت في هذا المعنى عبارات حاسمة صريحة مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران: ١٩)، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣).

بعث محمد ﷺ بالحنيفية البيضاء التي كان عليها جميع الأنبياء كما بينا، والناس فريقان: أهل شرك ووثنية يدعون مع الله آلهة أخرى، ويعكفون على أصنام لهم، وأهل دين يتمثل في اليهودية أو النصرانية قد وقع التحريف والتبديل في دينهم، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فماذا كان موقف هذا الدين الجديد من الفريقين؟ لقد كان موقفاً منطقيًا متفقًا مع الحقيقة التي قررها كتابه الكريم، ملتزما لوازمها:

كان له من الشرك والوثنية موقف، وكان له من اليهودية والنصرانية موقف:

فأما موقفه من الشرك: يبطل عقائدهم، ويسفه أحلامهم، وينكر آلهتهم، ويحاربهم بكل ألوان الحرب التي لا غاية لها إلا استئصالهم، وتطهير الدنيا منهم. كانت العداوة بينه وبينهم عداوة أصلية أساسية، لأنها في الجوهر، في القضية الأولى التي جاء بها كل الأنبياء، قضية التوحيد والإسلام لله، وقد أيأسهم من أن يقبل في هذه القضية أي تهاون، أو يقرب منهم في شأنها أي نوع من القرب فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨)، وحرم ذبائحهم ومصاهرتهم والإصهار إليهم، ولم يسمح لهم بأن يقيموا شعائرهم في البيت أو حوله، ولا بأن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، ولم يقبل منهم الجزية ليحميهم في بلاده على عقائدهم، وآذنهم يوم الحج

الأكبر بأن الله بريء منهم ورسوله، وجعل لهم مدة يقتلون بعدها حيث يوجدون، ويؤخذون ويحصرون ويقعد لهم كل مرصد، وأبان للمسلمين أنهم نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وأنه لا تجوز لهم موالاتهم ولو كانوا آباء أو إخوانًا، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (التوبة: ٢٣).

هكذا وقف الإسلام من الشرك حتى هدمه وقوض أركانه، وطهر الأرض المقدسة منه، وما زالت لوحة يوم الفتح مرتسمة على صفحات القلوب حين جعل أصحاب رسول الله ﷺ يطعنون الأصنام ويلقون بها من فوق الكعبة، مهينة ذليلة، والمشركون ينظرون إليها باهتين، يعجبون من ذلها واستكانتها، وكيف لا تدفع عن نفسها، وإنه ليوم في تاريخ الإنسانية عظيم.

وأما موقفه من اليهود والنصارى فكان موقفًا آخر: كان موقف الأخ من أخيه، فرقت بينهما الأيام، وداخلهما من هذه الفرقة وحشة واختلاف في النظر، مع أنهما يصدران عن منبع واحد، ويرميان إلى هدف واحد، فكان الإسلام هو أوفى الأخوين لأخيه، يقول له: «أنا منك وأنت مني، أما هؤلاء المشركون الوثنيون فأعداء لنا جميعًا، فامدد يدك إلي، وهلم نتعاون على الحق الذي تعرفه كما أعرفه، وتؤمن به كما أومن به، ولكن الأخ الآخر يتلكأ في قبول هذه الدعوة، ويغلب عليه الاستكبار، وتجيش نفسه بالحسد، وينسى في سبيل هواه ماضيه، ودعوته وإيمانه، فهو يجادله، ويثير حوله الشبهات، ويظاهر عليه أعداءه، ويضع في طريقه كل ما يستطيع من الحواجز، لا لأنه يعتقد في قرارة نفسه أن أخاه كاذب مبطل، ولكن لأنه يحسده ويخشى نجاحه، ولا يطيق أن يراه وقد ظفر بما أراد، ودان له أعداؤه، واستقرت أوامره، وإذا أردنا أن نحصي المظاهر العملية التي نشأت عن وفاء الإسلام لأهل الأديان الأخرى، فإن ذلك يستدعي أن نؤلف كتابًا ضخمًا، ولكننا نجتزئ بعض الأمثلة:

١- كان من تلطف الإسلام مع اليهود والنصارى أن سماهم، «أهل الكتاب» وهذه التسمية فيها اعتراف بهم، وتكريم لهم، واعتداد بما عندهم من أصول الحق،

وأسس الخير.

والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وقد جاء إطلاق هذا الاسم عليهم في مواطن كثيرة من القرآن الكريم في سياق المدح حين كان يقرر ما لبعضهم من صفات حميدة، وفي سياق الذم حين كان يصف تمرد المتمردين منهم، أو يدحض أباطيلهم، وهو في الحالة الأولى بمثابة من يرجع فضلهم واستقامتهم إلى كونهم أهل كتاب وأصحاب دين سماوي فلا يستبعد ذلك منهم وهم لهم أهل ومعدن، وفي الحالة الثانية بمثابة من يعاتبهم على تمردهم، ويشير إلى تناقضهم، فإن مقتضى كونهم أهل كتاب أن ينزلوا على حكم كتابهم، وأن ينظروا في أمر الإسلام ونبيه بروح العارف بهذا الشأن الذي بلاه من قبل وخبره، لا بروح أهل الجاهلية الذين لا يدركون معنى الرسالة والكتب، ولا عهد لهم بالهداية الإلهية، وقد كانوا يترقبون مبعثه ويعدونه فتحًا لهم قريباً ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** ﴾ (البقرة: ٨٩).

٢ ـ كان القرآن يفرق بين صالحي أهل الكتاب وفاسقيهم ويعطي كل فريق حقه ملتزمًا جادة العدل والصدق.

نجد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (آل عمران: ٦٩)، ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا** ﴾ (آل عمران: ٧٥)، ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ** ﴾ (آل عمران: ٧٨)، ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ (آل عمران: ١٩٩)، ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ**

الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣، ١١٤).

وقد حمل هذا الثناء القوي فريقًا من المفسرين على أن يقولوا إن المراد بأهل الكتاب الذين يثنى الله عليهم من آمن منهم بالنبي ﷺ، كعبد الله بن سلام وأضرابه، نقل هذا عن ابن عباس، ولكن روى عن قتادة أنه كان يقول في هذه الآية: «ليس كل القوم هلك، قد كان لله فيهم بقية»، بل نقل عن ابن عباس نفسه نحو ذلك في رواية أخرى.

والذي حمل بعض المفسرين على ما ذكرنا هو ظنهم أن هذه الأوصاف لا تكون إلا للمسلمين، وكأنهم استصعبوا أن يكون أحد من أهل الكتاب يؤمن بالله على هذا النحو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسارع في الخيرات. ولكن من يتأمل أسرار القرآن وأهدافه السامية، يدرك أن الله تعالى حكم عدل، وأن دينه واحد على ألسنة جميع الأنبياء، فمن آمن به وفعل الخير من أي دين فله أجره ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

٣ - وقد رسم القرآن طريقة مجادلة أهل الكتاب من حيث الأسلوب والموضوع، فأوصى بأن يكون أسلوبنا معهم في الجدال هادئًا حسنًا، ماداموا غير متعنتين، وبأن يكون جدالنا معهم قائمًا على أن دعوتنا ودعوتهم واحدة في أساسها وجوهرها، وأننا لا نبغي منهم إلا أن يصلحوا ما أفسده التحريف والتبديل فيها، ولا نحاكمهم إلا إلى قلوبهم وعقولهم بشرط أن يكونوا منصفين، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ

فَقَد اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ (البقرة: ١٣٦-١٣٧)، ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ (المائدة: ١٧-١٨).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

٤ ـ اعتبر الإسلام نصر أهل الكتاب على المجوسية نصرًا للحق على الباطل، وفرح به المسلمون وذلك أن كسرى حارب الروم، وكان المسلمون والمشركون من أهل مكة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف، فلما انهزم الروم ـ وهم أهل كتاب ـ شق ذلك على المسلمين، وفرح به المشركون شماتة بهم، حتى كان ما كان بين أبي بكر والمشرك من الرهان، ونزل في النبوءة بنصر الروم فيما بعد قوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ (الروم: ١-٥).

وقد تحققت هذه النبوءة فانتصرت المسيحية على المجوسية وظفر هرقل بأعلام فارس وعسكر كسرى وكان اغتباط المسلمين يومئذ بهذا النصر عظيمًا كأنهم هم الذين انتصروا وهذا من أكبر الأدلة على أن الإسلام غير متعصب على أهل الكتاب، وأنه يعتبر عدوه الحقيقي إنما هو الشرك. وسيأتي اليوم الذي يصيخ فيه أهل الكتاب إلى دعوة الإسلام بعد أن تموت الأحقاد ونوازع الحسد والبغي، وتخلص العقول إلى الحق فتراه سافرا ليس من دونه حجاب.

٥ - أباح الإسلام طعام أهل الكتاب، وأحل ذبائحهم، وأجاز للمسلمين أن يتزوجوا من نسائهم ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ٥) .

وهو بهذا يثبت للزوجة الكتابية جميع حقوق الزوجية، ويتركها حرة في أداء شعائر دينها، ويوجب القسم بينها وبين الزوجة المسلمة سواء بسواء، وبهذا وجد مسلمون ذوو أمهات وأخوال من أهل الكتاب، ووجدت تبعًا لذلك الرحم بين الأسرة المسلمة والأسرة الكتابية.

٦ - قبل الإسلام من أهل الذمة ما لم يقبل من المشركين وهو أن يعيشوا في ذمة المسلمين بشرط أن يساهموا في تمكين الدولة من القيام بواجبها بإعطاء الجزية مع الخضوع للدولة، وهذا شرط طبيعي لا شطط فيه، وقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، معنى القسوة والإذلال، مع أن المراد هو أن يكونوا مساهمين في تحمل الأعباء نظير حمايتهم، وأن يكونوا خاضعين للدولة غير متمكنين من النزوع إلى الثورة عليها، وهذا هو ما عبر عنه بعض الفقهاء بقوله «لا نقبل منهم الجزية إلا إذا كانوا بحيث تنالهم أحكامنا» ولا شك أن ذلك من حق أي دولة تريد أن تحتفظ بكيانها، وألا تعرضه للهدم أو التزلزل حينًا بعد حين.

٧ - وقد وصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة، وخص القبط فقال، استوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا، وقال: «من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة» .

وأوصى بهم عمر بن الخطاب عند موته فقال: «أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم» ومن أجمل ما يؤثر عن عمر رضى الله عنه من الرفق بأهل الذمة أنه رأى شيخًا ذميًا يسأل على أبواب المساجد فقال: «ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية في

شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » .

أما بعد فهذا قليل من كثير ينبئ عن موقف الإسلام من أهل الكتاب، واعتباره إياهم أصحاب دعوة سليمة في أصلها، موافقة لماجاء به غير أنهم غيروا وكابروا وتنكروا للحق الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فكان على الإسلام أن يردهم إلى هذا الحق، وأن ينقذهم من أنفسهم وأهوائهم، وأن يعاملهم مع ذلك معاملة كريمة رحيمة.

الباب الثالث

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾

١ ـ دين الله واحد وهو الإسلام .
٢ ـ وحدة الدين عند الله .
٣ ـ الإسلام دين التوحيد والوحدة
٤ ـ أهداف الإسلام الكبرى .
٥ ـ من أهداف الإسلام
(الحق ـ الخير ـ الجمال)

دين الله واحد
وهو الإسلام

الإسلام دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله، وانزل به جميع كتبه، وليس لله تعالى دين سواه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ١٩-٢٠) - قال ابن كثير « أخبر الله تعالى بأن الذين أوتوا الكتب من قبلنا إنما اختلفوا بعد ما قامت الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٩)، أي بين بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقا ».

وهذا الذي يقوله ابن كثير هو تلخيص للمراحل الكثيرة المتعاقبة التي مر بها أرباب الأديان السابقة وتدخلت فيها الأهواء والخلافات الباغية. حتى أنستهم، الحقائق التي جاء بها رسلهم، ونزلت بها كتبهم، فاختلفوا اختلافًا عقائديًا أصليًا، لا مجرد اختلاف فرعي أو منهجي، ولو أنهم التفوا حول ما جاء به الرسل من حقائق الدين لما اختلفوا ولأجمعوا أمرهم على الإسلام لله في كل أمر والانقياد لحكمه.

ويقول الله تعالى معلما رسوله محمدا ﷺ أسلوب محاجتهم الإجمالية ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران: ٢٠)، أي إن الأساس في الإيمان بالدين هو إسلام الوجه لله أي الانقياد له والطاعة في كل ما أمر به على لسان رسله، ولا يمكن لأحد أن ينازع في هذه القضية؛ لأنها هي منطق التزام المتدين

بالدين، ولو أنه نازع فيها لما كان ملتزمًا بالدين، ثم يعلمه بعد ذلك أن يقول لجميع الناس من أهل الكتاب السابقين ومن الأميين الذين هم العرب ـ وإنما سموا أميين لأنهم لم يكونوا أهل كتاب كاليهود والنصارى، فأطلق عليهم هذا الوصف تمييزًا لهم عن هؤلاء ـ يعلمه الله تعالى أن يقول لهم جميعًا ﴿ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ فيسألهم سؤالاً مختصراً مركزاً في المعنى الذي سبق ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أي أجابوا إلى الإسلام فعلاً لا قولاً فحسب ﴿ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ إلى الصراط المستقيم وابتدأوا فيه أول خطوة في معرفة الحقيقة وسلوك سبيل الفلاح ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وأعرضوا عنك فقد أديت واجبك، فدعهم إلى الله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠).

وفي موضع آخر من السورة نفسها التي جاءت فيها هذه الآيات، وهي سورة آل عمران يقول الله عز وجل ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٣-٨٥).

وهذه الآيات تقرر حقيقتين إحداهما تنبني على الأخرى فالحقيقة الأولى كلية عامة، وهي أن دين الله يتلخص في الإسلام له والانقياد لحكمه، والحقيقة الثانية تنبني عليها، وهي أنه لا يمكن التفريق بين ما أمر الله به على لسان نبي، وما أمر به على لسان نبي آخر، فإن منطق الإسلام لله والإذعان له يأبى هذا التفريق، ولذلك جاءت الآية الأولى تقرر الحقيقة الأولى وهي وجوب الإذعان والإسلام لله، وجاءت الآية الثانية تقرر وجوب أن يكون هذا الإذعان منصبًا ومتوجهًا إلى جميع الرسالات الإلهية التي جاء به أنبياء الله، ثم ختمت الآية الثالثة بتقرير الحقيقة الأولى بأسلوب نفي القبول عمن ابتغى غيرها تأكيداً لما استفيد في الآية الأولى من الإنكار، وبذلك تقرر أن الدين هو إسلام الوجه لله والانقياد التام له وأن هذا يقتضي الإيمان بجميع الرسالات السماوية ومن أنكر واحدة منها فقد خرج على

مقتضى الإسلام والإيمان.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم الذي هو كتاب الله تعالى المنزل على خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ وجدناه يقرر في حديثه عن الأنبياء السابقين أنهم كانوا يدينون بالإسلام، ويدعون أقوامهم إلى الإسلام.

فمن ذلك ما جاء في سورة الشورى من قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ (الشورى: ١٣)، فإن هذه الآية تقرر أن الدين واحد وأنه هو الذي شرعه الله على لسان أقدم المرسلين وهو سيدنا نوح عليه السلام وآخر المرسلين وهو سيدنا محمد عليه السلام، كما أنه هو الذي وصى الله به أبا الأنبياء الأكبر إبراهيم الخليل عليه السلام اللذان يدين برسالتيهما اليهود والمسيحيون، وتلك هي أهم الرسالات السماوية التي يعرفها الناس ويدينون بها.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء عن سيدنا إبراهيم عليه السلام وبنيه:

﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة: ١٢٧-١٣٣).

ومن المعروف أن إبراهيم عليه السلام هو أبو جميع الأنبياء، الذين بعثهم الله

تعالى من بعده، سواء كانوا من سلالة إسحق عليه السلام، ومن بينهم داود وسليمان وموسى وعيسى، أم كانوا من سلالة إسماعيل، وقد انحصرت ثمرة هذا الفرع الزكي في الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ وإذن فوصية أبيهم إبراهيم بالإسلام قد رجعت إليهم جميعًا، وقد استجابوا لها جميعًا.

وفي القرآن الكريم عن يوسف عليه السلام : أنه دعا ربه بقوله: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١).

وعن الحواريين - وهم أصحاب عيسى عليه السلام ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢).

وعما كتبه سيدنا سليمان لملكة سبأ: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣٠، ٣١).

وعن ملكة سبأ حين قدمت على سيدنا سليمان، قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤).

وعن القرية التي كانت تعمل الخبائث - وهي قرية قوم لوط ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الذاريات: ٣٥، ٣٦).

وعن الذين أوتوا الكتاب قبل القرآن ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٢، ٥٣).

وهناك آيات كثيرة غير ماذكرنا تدل على أن الإسلام هو دين الأنبياء والرسل جميعًا.

ولكن الاختلاف والتفاوت إنما هو في التشريعات التي هي مناهج للناس تنظم سلوكهم في الحياة وأنواع علاقاتهم.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة: ٤٨) .

وذلك كاختلاف الشرائع في التحليل والتحريم وفي المعاملات المشروعة وغير المشروعة وفي رسوم الصلاة وهيئتها وفي الصوم وفي العقوبات وفي القصاص وغير ذلك.

والسر في ذلك: أن الدين وقد اعتبر فيه معنى الانقياد والطاعة في إخلاص ، لا يمكن أن يكون إلا عن اقتناع وتصديق قلبي لذلك غلب لفظ الدين ما كان من قبيل العقائد والتعاليم الأصلية والحقائق التي لا تختلف باختلاف الأفهام، ولا تتغير بتغير العصور.

وذلك كوجود الله تعالى وبوحدانيته وأن له خلقًا يسمون بالملائكة، وأنه يبعث بالرسل إلى الناس وينزل عليهم الكتب وأن هناك دارًا أخرى غير هذه الدار الأولى، وأن الناس سيبعثون إليها بعد الموت ليجازوا على أعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر، وأن الناس جميعًا متساوون في الاعتبار الإنساني، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم وأخلاقهم وأن العدل أساس استقامة المجتمعات، والظلم سبب من أسباب فسادها، وأن الصدق حسن، وأن الكذب قبيح، وأن العفاف فضيلة، والفجور رذيلة وهكذا.

فكل هذا من قبيل الحقائق، وموقف الدين منها هو موقف الواصف لها، المبلغ أمرها للناس، كما يقول القائل منها: حصل كذا ولم يحصل كذا مخبرًا بذلك عما يعلم، فلا يعقل مثلاً أن يعرفنا الدين على لسان سيدنا نوح مثلاً أن وجود الله تعالى حقيقة من الحقائق الواقعة لا تتغير ولا يمكن أن يحصل فيها الاختلاف باختلاف الزمان أو باختلاف المبلغين عن واحد معين وكذلك لو قال لنا الدين: سيكون هناك بعث بعد الموت فتلك حقيقة يقررها موسى، ويقررها عيسى. ويقررها محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام لأنها خبر جاء عن الله بواسطة رسله فلا تختلف باختلاف المرسلين، ولا باختلاف المرسل إليهم.

وكذلك التعاليم التي تتعلق بالأخلاق والمثل والدعائم الأساسية التي يقوم عليها

أمر الناس كل ذلك إنما هو حقائق وموقف الدين منه هو موقف الواصف له الكاشف للناس عنه فلا يمكن أن يختلف باختلاف المرسلين أو المرسل إليهم، ولكن الناس قد يحرفون، وليس الدين مسئولاً عن تحريف المحرفين.

وإذن فلا اختلاف في الدين من حيث هو عقائد ومبادىء وحقائق ومثل، وكل الأنبياء والرسل في ذلك سواء.

أما الشرائع والمناهج التفصيلية فتختلف المصلحة فيها باختلاف الزمان والأحوال فالنظام الذي يصلح للقرون الأولى يوم كان البشر بدائيين لم تنضج عقولهم، ولم تصف أفكارهم، ويوم كانت المادية هي الجانب المتغلب عليهم، لا يصلح للقرون التي جاءت من بعد ذلك حيث أخذ البشر يتطورون في عقولهم وأفكارهم ومجتمعاتهم.

ولذلك كانت رسالة محمد ﷺ آخر الرسالات وخاتمتها في الوقت نفسه، لأنها هي اللون الأخير الذي يصلح للإنسانية بعد أن حصفت وبلغت مرحلة الرشد العقلي، وأصبحت في غير حاجة إلى رسالة أخرى.

ولما كانت هذه الرسالة الأخيرة هي التي جمعت جميع الحقائق العقيدية وجميع المبادئ والتعاليم الصالحة، وأتت بالأحكام التشريعية على وجه يصلح لكل زمان ومكان كانت هي الجديرة بأن تسمى «بالإسلام» وأصبح هذا اللفظ إذا أطلق ينصرف إلى الدين في صورته الأخيرة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ ولذلك يقول القرآن الكريم في أواخر ما نزل منه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ (المائدة: ٣).

وحدة الدين عند الله

إن جميع الرسالات الإلهية التي أرسل الله بها الرسل لهداية الناس، إنما يقصد بها أمران:

أحدهما : تقرير الواقع في شأن الألوهية وما لها من صفات، وما يصدر عنها من إرسال الرسل، وتنزيل الكتب، والبعث والجزاء.

والآخر : هو التدرج بالناس في مدارج الكمال، ومدهم بالأحكام التشريعية التي تصلح بها أحوالهم، وتستقر بها سعادتهم.

ومن الطبيعي أن تتفق الرسالات كلها في أن الأمر الأول ثابت لا يختلف باختلاف العصور والأحوال، وأن ينحصر الخلاف في دائرة المناهج والتشريعات التفصيلية التي تتغير بتغير الزمان، ويتدرج الإنسان في مراتبها بحسب أطواره وبيئاته ودرجة رقيه في العقل والتفكير.

ولذا كان «الدين» واحد على لسان كل رسول بعث، وكانت «الشرائع» مختلفة في تفاصيل الأحكام والتعبدات: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨).

وقضية اتحاد الدين على اختلاف الرسل قضية قررها القرآن الكريم في كثير من المواضع، ويكررها على أساليب مختلفة، لتستقر في النفوس وتؤمن بها القلوب، ويعلم الناس أنهم جميعًا على كلمة سواء، وأنه لا مبرر للتفرقة والتنازع والعصبيات.

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة : ٦٢) .

وهذه الآية تفيد أن أصول الدين ثلاثة :

١ ـ الإيمان بالله على وجهه الصحيح الذي بين في آيات أخرى، بأن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لوجهه.

٢ـ الإيمان باليوم الآخر، بأن يعتقد أن الله سيبعث الناس من الأجداث، ليحاسبهم على ما قدموا من خير أو شر، فيكافئ المحسن على أحسانه، ويجزي المسيء بإساءته.

٣ ـ العمل الصالح الذي من شأنه أن يسعد المجتمع البشري، ويزيل الشرور والفساد، وينشر الطمأنينة والمن، ويمكن كل إنسان من أداء واجبه وأخذ حقه، على وجه سليم لا يفضي إلى نزاع، ولا يؤدي إلى ظلم.

هذه هي أصول الدين التي يتفرع منها كل ما سواها، وقد تضافر رسل الله أجمعون على تبليغها، وبذل كل واحد منهم في سبيل تقريرها والتمكين لها ما ملكه الله من جهد، وآتاه من عمر، وتلقوها عهداً من الله يبشر فيه سابقهم بلاحقهم، ويؤيد لاحقهم سابقهم، وفي ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب: ٧)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١).

والقران الكريم يسوق لنا قصص الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم، فنجد الرسالات التي جاءوا بها تكاد تتفق حتى في الألفاظ التي تحدث بها كل رسول:

ففي سورة هود يقص الله علينا أن هوداً قال لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٥).

وأن صالحًا قال لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ

فيهَا ﴾ (هود: ٦١).

وأن شعيبًا قال لقومه:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (هود: ٨٤).

ويقص القرآن علينا مثل ذلك أيضًا في سورة الشعراء حين يذكر نوحًا وقومه فيقول:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٠٩).

ويذكر بهذا النص نفسه هودا وقومه وصالحًا وقومه، ولوطًا وقومه، وشعيبًا وقومه، فيبين لنا أنه لا اختلاف حتى في التعبير ولذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦).

وكما نجد هذه الوحدة فيما دعا إليه الرسل - وقد تناسقت حتى ظهرت في الألفاظ والعبارات التي عبر بها عنها - نجد أقوام هؤلاء الرسل جميعًا يكادون يتفقون في الرد على هؤلاء الرسل ومعارضتهم في دعواهم، وفي مقدمتهم السادة والكبراء:

فالملأ من قوم نوح يقولون:

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧).

ويصل بهم الأمر في التحدي إلى أن يقولوا:

﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود: ٣٢).

وعاد يقولون لنبيهم:

﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣).

وقوم صالح يقولون له متهكمين:

﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢).

وقوم شعيب يقولون ساخرين:

﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٧).

ويصل الأمر بهم إلى أن يقولوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود: ٩١).

وهكذا تشابهت قلوبهم، وتوافقوا على رفض الدعوات الإلهية، بأسلوب واحد، ومعنى واحد.

ولذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ: ٣٤).

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات: ٥٢-٥٣).

وما لنا نذهب هذا المذهب في الاستدلال على وحدة الدين والقرآن الكريم نفسه يعلن ذلك على نحو قاطع فيقول:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

ويقول:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء : ١٦٣ - ١٦٤) .

بل يذهب إلى أبعد من ذلك في التحديد والتوحيد، فيعلن أن دين الله منذ كان ، هو «الإسلام» ولن يقبل الله سواه وأن الذين اختلفوا فيه من أهل الكتاب إنما اختلافهم بغيًا وتجاوزاً وكفراً.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران ١٩ :٢٠) .

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥) .

والإسلام في الأصل معناه الانقياد والخضوع، وقد استعمل بهذا المعنى في القرآن الكريم:

فكل من (**أسلم لله وجهه وهو محسن**) أي استسلم لأمر الله ورضى به وعمل صالحًا فهو في نظر القرآن مسلم؛ ولذلك جعله الله مقابلاً للشرك في مثل قوله:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر :٦٦) .

وجعله مقابلاً للكفر في مثل قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠) .

كما وازن بين المسلمين والمجرمين في قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (القلم: ٣٥) .

ووصف الدين القويم بقوله:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (النساء: ١٢٥) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣) .

وتحدث عن عباده المؤمنين الذين سيدخلون الجنة يوم القيامة من سائر الأمم بقوله:

﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الزخرف: ٦٨ - ٧٠)

وقد جاء في القرآن الكريم وصف كثير من الأنبياء ومن أرسلوا إليهم « بالإسلام » فنوح يقول:

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: ٧٢) .

وإبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (البقرة: ١٢٨) .

ويقول الله لإبراهيم « أسلم » فيقول: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة: ١٣١)، ويصفه الله بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِماً ﴾ (آل عمران: ٦٧) .

ويوسف يدعو ربه فيقول:

﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١) .

وسليمان يكتب إلى أهل سبأ:

﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣١) .

ويقول لقومه:

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣٨) .

وملكة سبأ تقول:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤)

وموسى يقول لقومه:

﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤).

وفرعون حين يدركه الغرق يقول: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠).

وقد وصف الله قرية لوط بقوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦).

وقص علينا فيما حكاه عن الجن أنهم يقولون:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (الجن: ١٤).

بهذا كله يتبين أن الإسلام على لسان هؤلاء جميعًا، وفي هذه الاستعمالات كلها، هو الانقياد لله والخضوع له في العقيدة، والعبادة، والعمل، خضوعًا لا يعرف الشرك ولا الواسطة، ولهذا يعتبر الله جميع الأنبياء وجميع الذين أوتوا الكتاب «مسلمين» بهذا المعنى، فيقول عن الأنبياء: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (المائدة: ٤٤).

ويقول عن أهل الكتاب:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص: ٥٢، ٥٣).

ويقول عن الذين كفروا بعيسى وزعموا أن ما جاء به من البينات سحر:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ﴾ (الصف: ٧).

ولهذا أيضًا يقول القرآن الكريم على لسان محمد ﷺ:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٩١).

ويأمر المسلمين أن يقولوا:

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

ويأمر بتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب على هذا النحو فيقول:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

هذا هو دين الله الذي جاءت به كل الرسل، ونزلت به كل الكتب، وقد كان دين محمد ﷺ هو خاتمة هذه الرسالات كلها، وهو الذي أثبتها، ولولاه ما عرف أمر رسول من طريق تطمئن إليه القلوب، وهو الذي نقاها مما أضيف إليها، ولولاه ما عرف صحيح من زائف، وهو الذي أتى بالشرعة الصالحة المناسبة لما وصل إليه الإنسان من رقي العقل والتفكير والمعرفة، ولولاه لظلت البشرية تتخبط في ظلمات الأهواء والشهوات والعصبيات، ولهذا كله تمخض معنى الخضوع لله، والانقياد لأمره على ما رسم لعباده في دين محمد ﷺ، فصار لفظ «الإسلام» علماً عليه، وأنبأنا الله أنه هو الذي ارتضاه بقوله في أواخر ما نزل على الرسول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

فلم يعد لأحد من البشر بعد ذلك أن يرفضه زاعماً أنه مؤمن بسواه فإنه هو الدين وليس له «سوى» ومن آمن به فقد آمن برسالات الله كلها، تلك هي الحقيقة، ولن يستريح أهل الأرض حتى يؤمنوا بها، ويبنوا حياتهم وعلاقاتهم على أساسها:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

الإسلام دين التوحيد والوحدة

إن هذا الدين الإسلامي هو دين التوحيد والوحدة.

على هذين الأساسين يقوم بناؤه، وفي نطاقهما تتأصل أصوله وتتفرع فروعه وتنبع تعاليمه وآدابه.

وكل من التوحيد والوحدة يساند الآخر ويؤيده، ويؤدي إليه:

فإن الناس إذا اتفقت كلمتهم على توحيد الله واعتقاد أنه هو الإله الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، فقد توحد اتجاههم في الحياة، وتوحدت أهدافهم، وتوحدت الينابيع التي تمدهم في أخلاقهم وسلوكهم وأساليب تعاملهم واتحاد الاتجاه والهدف هو أول شرط في وحدة الأمة وتماسكها وظهورها في المجتمع الدولي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

ومن جهة أخرى: لو اتحد أفراد الأمة، واتحدت طوائف المفكرين والعاملين فيها؛ فإن هذا الاتحاد يجعلها متفرغة للقيام برسالتها في الحياة، فلا تتبعثر جهودها، بل تجتمع وتتوفر على تحقيق هذه الرسالة الكبرى التي تقوم على استمداد الهدى والنور والعمل الصالح من مصدر واحد، وهو الإله الواحد.

ولذلك كانت دعوة الإسلام دعوة الوحدة، وكان كفاحه في سبيل الوحدة كفاحاً في سبيل التوحيد، وكان اهتمامه وجهاده وسعيه وتحمسه لأحدهما على نفس المستوى بالنسبة للآخر.

كان كفاحه في سبيل التوحيد واضحاً، إذ كان العرب يعبدون أوثاناً متعددة منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فدعاهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له هوالله جل جلاله وبذلك حلت الوحدة في العقيدة محل التفرق والتعدد، أي أن جميع القبائل التي كانت موزعة القلوب والأهواء بين مختلف الأوثان والأصنام أصبحت ذات اتجاه قلبي واحد، اجتمعت عليه.

وكان كفاحه في سبيل المساواة بين الناس، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ دعوة مزدوجة إلى اعتقاد أن الناس جميعًا متكافئون على مستوى واحد، وفي صف واحد، وأنهم مربوبون لرب واحد.

والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة المزدوجة حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ هو تقرير لوحدة الربوبية، وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هو تقرير لوحدة النشأة والأصل، وكل منهما يقتضي التوحيد، كما يقتضي الإيمان بالوحدانية.

والنبي ﷺ يقرر هذا المعنى في آخر خطبة له، وهي خطبة الوداع فيقول: «أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد» فوحدانية الله حقيقة يلتقي عليها الناس، من حيث المنشأ والأصل والتساوي، وكلتا الحقيقتين تخدم الأخرى، لأنني إذا اعتقدت أن الله واحد، فقد اطمأن قلبي إلى أن الناس جميعًا متساوون معي، لأنه ليس هناك ما يعلو ويسمو فوق الناس إلا الإله، وإذا اعتقدت أنني مساو لغيري من الناس، وأن غيري مساو لي، لم يبق عندي مبرر لأن أخشى أحداً من المساوين لي، فأتوفر على خشية الله وحده.

ولم تكن الوثنية وحدها هي مصدر البلاء على العرب في عهد الجاهلية، بل كان هناك مصدر آخر ينصب منه البلاء عليهم، ويعصف بكل خير وصلاح فيهم، ذلك هو التفرق والشتات الذي كان سببًا لتمزق قبائلهم، والعداوة والبغضاء التي كانت تجر إلى الحروب المتتالية المضنية المنهكة بينهم.

ولو أن عالمًا من علماء الاجتماع المتخصصين في دراسة أحوال الأمم والشعوب، درس أحوال العرب في جاهليتهم؛ لحكم بأن هؤلاء لا يمكن أن يتوحدوا، ولا يمكن أن تجمعهم جامعة، ولا أن يربطهم هدف، ولكن الإسلام استطاع في بضع سنوات أن يجعل هؤلاء المتعادين الذين أهلكتهم الحروب، وتغلغلت فيهم

الضغائن والعداوات، إخوة متعاونين لهم هدف واحد، هو أن تكون كلمة الله هي العليا - أي أن يكون العلو لمبادئ: الفضيلة والحق والاستقامة والعدل وكل ما هو خير، فإن ذلك كله هو «كلمة الله» فكانت الوحدة سبيلاً إلى التوحيد، كما كان التوحيد سبيلاً إلى الوحدة.

وقد سجل القرآن الكريم فضل الله وحده على هذه الأمة التي كانت متفرقة بالأهواء فجمعتها على الإيمان،حيث يقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣).

فمظهر «التوحيد» يتجلى في قوله: «لو أنفقت .. ما ألفت».

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٠-١٠٣)، ذكروا أن سبب نزول هذ الآيات من سورة آل عمران، أن رجلاً يهوديًا كبير السن اسمه (شاس بن قيس) كان عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين فمر ذات يوم على جماعة من قبيلتي الأوس والخزرج اللتين ألف بينهما الإسلام، بعد حروب طاحنة وعداوات دامت نحو مائة وعشرين عامًا في الجاهلية، فرآهم هذا اليهودي مجتمعين يتحدثون كما يتحدث الأخوة بعضهم إلى بعض، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد ما كان بينهم في الجاهلية، وقال: قد اجتمع هؤلاء بهذا البلد - أي بالمدينة - لا والله ما لنا إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابًا من اليهود كان معه فقال له: اجلس معهم، وذكرهم بيوم (بعاث) وأنشدهم بعض ما تبادلوه فيه من الشعر - وكان «بعاث» يومًا تحارب فيه الأوس والخزرج، وكانت الغلبة فيه للأوس على الخزرج.

فجلس الشاب اليهودي معهم، وتكلم وذكرهم وأنشدهم الأشعار القديمة،

فحرك منهم كوامن الضغينة والعداوة التي كانت قبل الإسلام فتفاخروا ثم تنازعوا واتسع بينهم نطاق النزاع حتى نادى كل منهم: السلاح السلاح! وخرجوا إلى مكان بظاهر المدينة ليتقاتلوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يامعشر المسلمين: أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟ أترجعون إلى ما كنت عليه كفاراً؟ الله الله».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح، وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٠-١٠٣).

فهذه الآيات والرواية التي ذكرت في سبب نزولها تفيد أن إفساد الوحدة، والرجوع إلى الفرقة والتناحر طاعة لأهل الفتنة والمكر؛ أمور من شأنها أن تؤدي بالمسلمين إلى الكفر، وأنه يجب عليهم أن ينتبهوا إلى الاعتصام بحبل الله، والتوحيد حوله ليقابلوا مكر الماكرين، وفتنة المفسدين، بما يردهم خائبين.

وإن التاريخ ليعيد نفسه، فليحذر العرب والمسلمون كيد «شاس» وأصحاب شاس، وليوحدوا صفوفهم معتصمين بالله ربهم: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** (آل عمران: ١٠١).

أهداف الإسلام الكبرى

يصدر هذا العدد من مجلة «منبر الإسلام» في غرة الشهر المبارك الذي يحمل أكرم ذكرى للإصلاح البشري العام، كما جاءت به خاتمة الرسالات الإلهية، وهي ذكرى ميلاد الرسول الأعظم الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين.

ويسرنا في هذه المناسبة أن نجلي بعض وجوه التوافق على ضوء ما جاء به هذا الدين الحنيف:

١ - أن أول أصل جاء به الإسلام هو تقرير «الوحدانية» لله جل وعلا.. وذلك الأصل هو الذي تعبر عنه كلمة الإسلام الأولى التي لا يدخل أحد فيه إلا إذا نطق بها، وهي كلمة «لا إله إلا الله» ومعنى هذه الجملة: ليس في الوجود من يستحق العبادة بحق إلا الله، وبذلك أبطلت الوثنية في أي شكل من أشكالها، وتخلص المؤمن من الخضوع لما سوى الله.

وقد كان العالم مقتسما بين الطوائف والرياسات، قبل أن تبزغ شمس الإسلام، فكان هناك الشعب المحكوم، وكان هناك الأمراء والنبلاء والحاكمون المسلطون، وكان هناك الأحبار والرهبان الذين يزعمون أن لهم مركزا دينيا إلهيًا، يخولهم حق الغفران أو الطرد من رحمة الله.

فلما جاء الإسلام أعلن أن الله واحد، وأنه لا سلطان لأحد إلا لله، وأن الله قريب من عباده لا يحتاج إلى واسطة بينه وبينهم... ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦).

وبهذا علم الناس أن لا حجاب بينهم وبين خالقهم من كاهن أو قسيس وأن الإنسان يستطيع أن يناجي ربه بدون واسطة، وإن يتوب إليه مما اقترف دون أن

يحتاج إلى أحد من الناس.

فكان هذا أعظم تكريم للإنسانية، وأكبر صدمة للذين جعلوا لأنفسهم حق استغلالها وتوجيهها باسم الدين.

٢ - وقد مشى مع هذا الأصل الذي هو توحيد الله، أصل آخر، بكر به الإسلام من أول الأمر، وهو تقرير المساواة بين الناس، لأن هذا هو منطق «التوحيد» فإن الناس ماداموا جميعًا مخلوقين لله وحده، مكلفين بألا يعبدوا إلا الله، يعتبرون بهذا متساوين أمام خالقهم وإلههم المعبود، ولا شيء هناك يتميز به بعضهم عن بعض، ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويقول النبي ﷺ: «يا أيها الناس، أن ربكم واحد، وأن اباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي فضل إلا بالتقوى».

وهذا الأصل الإنساني العظيم يعتبر من أعظم الأصول خيرًا وبركة على الناس، فإنه يهدد كل نظام يستند إلى «الطبقية» وإلى تمييز بعض الأفراد أو الأجناس على بعض، ويجعل التفاضل بين الناس إنما هو بالأعمال الصالحة.

وقد عرف التاريخ القديم، والتاريخ الحديث أممًا تفرق بين أفرادها وتجعل المواطنين طبقات بعضها عال، وبعضها دان، وتعطي من الحقوق للطبقات العليا ما لا تعطيه للطبقات الدنيا، وتحمل على الرؤساء والأغنياء، وتفرق في العدل، وفي اعتبار الجرائم، وفي العقوبات تبعًا للتفرقة بين الطبقات، وتجعل بعض الناس مستحقين لأن يتولوا الوظائف العليا، وبعض الناس مستحقين لأن يكونوا من العمال والخدم والفعلة في الأعمال الشاقة.

كما أن التاريخ شهد في قديمه وحديثه من يفرق بين الناس باعتبار الدم والأصل، فهذا آري، وهذا سامي، وهذا أوربي وهذا شرقي، إلى غير ذلك.

وما زلنا إلى الآن نقرأ عن التفرقة العنصرية والتفرقة بالألوان حتى في مجتمعات

المتمدينين الذين يقودون الآن ركب الحضارة، ويزعمون أنهم زعماء التقدم والإصلاح البشري.

ولكن الإسلام سوى بين الناس تسوية مطلقة، لا تفرقة بين الغني والفقير، ولا بين القوي والضعيف، ولا بين الأبيض والأسود، والأحمر .. ولا بين العجمي والعربي، ولا بين الآري والسامي، كلهم لآدم، وكلهم مخلوق لله، عبد لله.

ويلاحظ أن الأصل الذي يقرر «الوحدانية» والأصل الذي يقرر «المساواة» كلاهما يخدم الآخر ويركزه في المجتمع.

فإن الإنسان إذا آمن بأن له إلهًا واحدًا لا شريك له، لم يعد يقبل أن يؤخذ باسم التفرقة بينه وبين غيره من ذي سلطان أو غني أو حسب، لأنه يقول: إني مساو لهؤلاء جميعًا أمام الله، فالله وحده هو ربنا، أي مالكنا وخالقنا وإلهنا الذي نعبده ونخضع له، فليس من منطق هذه الوحدانية قبول الطبقية أو التفضيل والامتياز بين الناس.

وإذا عرف الإنسان أنه مساو لأخيه وأنه لا فضل لأحد على أحد من حيث الأصل، وإنما التفاضل بين الناس بالتقوى والأعمال الصالحة، أدرك أن فوق هؤلاء المتساوين ربا واحدًا، هو إلههم الذي يجب أن يعبدوه وحده.

وبذلك ترى الأصلين الأولين متساندين متعاونين على تكريم البشرية، والربط بينهما وبين الخالق جل وعلا على نحو ينتج التوحيد والمساواة جميعًا.

٣ ـ ثم أن «المساواة» تقتضي أصلاً آخر من الأصول الأولى التي جاء بها الإسلام، وهو «العدل».

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول في كتابه العزيز:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (النساء: ١٣٥).

ويقول في آية أخرى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ (المائدة: ٨).

والقسط هو العدل، وقد نوع الله تعالى التعبير في الآيتين، فأمر في الأولى بأن

يكون المؤمنون ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ وعكس الوضع عكسًا لفظيًا في الآية الثانية فامر المؤمنين بأن يكونوا ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾، ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ وذلك ليوحي لنا بأن «القوامية بالقسط» هي عين «الشهادة لله» حتى أنه ليجوز أن يوضع أحدهما في موضع الآخر عند التعبير.

وهذا يدل على أن العدل أصل عظيم من أصول الإسلام حتى استحق أن يخرج في هذه الصورة الكريمة.

والله تعالى يعرفنا في كثير من آيات كتابه العزيز أن الأمم إنما تقوم على أساس العدل، وإنما تنهدم وتهلك إذا سادها الظلم، فالعدل سبب من أكبر أسباب العمران، والظلم سبب من أول أسباب الخراب:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١).

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥).

٤ - ومن الأصول الأساسية التي جاء بها الإسلام تقرير مبدأ الشورى في الحكم، وفي سائر الشئون الاجتماعية.

ونرى ذلك في قوله تعالى مخاطبًا الرسول ﷺ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وفي القرآن سورة كريمة تسمى سورة «الشورى» لقوله تعالى في بعض آياتها وصفًا للمؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

وهي آية تجمع بين أصل الاستجابة لداعي الإيمان، وبين أهم ركن من أركان الصلة بين الله وعباده وهي الصلاة، وأهم ركن من أركان الصلة بين الناس غنيهم

وفقيرهم، وهي الإنفاق مما رزقهم الله لمن يحتاجون إلى هذا الإنفاق، وبين هذه الأركان ذكر مبدأ الشورى عامًا مطلقًا حيث يقول: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ فنفهم من ذلك أنه يريد الشورى في كل أمر من أمورهم المشتركة سواء في الحكم، أو في تفاصيل ما يتناولون من أعمال وقرارات أسرية أو اجتماعية أو نحو ذلك.

وقد كان الناس قبل الإسلام يضطربون في مهامة الفوضى والحكم الاستبدادي، وكان الملوك والأباطرة لا يعرفون للشعوب حقوقًا، ولا يرونهم إلا سوائم تساق كما تساق الأنعام.

ومن فروع مبدأ الشورى إشعار المجتمع كله بأن عليه واجبًا أساسيًا هو «الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» أو هو كما نقول في عصرنا الحاضر، تربية رأي عام يحس بالفضيلة والحق والعدل وكل ما هو خير وصلاح فيشجعها ويأمر بها، ويحاسب العاملين عليها، ويحس بالرذيلة والباطل والفساد والشر فينهى عنها ويحاسب مقترفيها وينكر عليهم اقترافها.

والأمم إذا ساد فيها هذا اللون من الوعي، وتعاونت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صلح حالها، واستقام أمرها، وعرف الحكام وولاة الأمر فيها واجبهم، وخافوا مغبة الانحراف عن الصراط السوي، وبذلك تسعد الأمة، وتستقر فيها دعائم الشورى والمثل العليا، ويندرئ عنها كل شر وكل سوء.

وما أبرع القرآن الكريم حيث يستعمل في هذا كلمتي «المعروف» و«المنكر» فيوحي بذلك أن الأمر والنهي فيهما إنما هو لما استقر في المجتمع من عرف أو نكر بالنسبة لهذا وذاك، ولا شك أن المجتمعات الراشدة المتقيدة بأحكام الله، تعرف ما هو شر، وأن الله يجعل لها فرقانا تحكم به بين هذا وذاك، فيصلح أمرها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ (الأنفال: ٢٩).

٥ - ومن الأصول الأساسية التي قررها الإسلام احترام العلم، وتكريم العقل.

فإذا كانت التعاليم القديمة في ظل الأحبار والرهبان تنفر من العلم، وتراه خطرًا عليها، فإن ذلك إنما كان لأنها تخافه على نفسها، وتعلم أن العقول تنأى عن

قبولها والإذعان لها إذعاناً صادقًا، ولذلك عرفنا في القديم كيف كانت الجفوة بين أهل العلم وأهل الدين وكيف كان العلماء يقتلون وتسفك دماؤهم لمجرد أنهم اكتشفوا أمرًا ترى الكنيسة أنه متعارض مع الدين، بل ما زلنا نرى هذا حتى في عصرنا الحاضر، وإن كان الاضطهاد الديني لم يعد يؤدي إلى القتل وسفك الدماء إلا قليلاً .

ولقد ظن الأوربيون أن بين الإسلام والعلم تعارضًا، قياسًا على ما عندهم، ولو أنهم تأملوا ما جاء به القرآن الكريم للعلم لما زعموا ذلك .

فالله تعالى يقول: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ (سبأ: ٦) .

وهذه الآية تقرر أن الذين أوتوا العلم يرون ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم صراط الله العزيز الحميد، ولا يمكن أن يكون المراد بالعلم في هذه الآية العلم الديني فحسب، وإلا لكان استدلالاً على صحة الدين بعلم هو مستمد من الدين، ولكن لفظ العلم أعم من العلم الديني والعلم الدنيوي الشامل للعلوم الكونية، والطبية، وعلوم الحيوان، والنبات، والكواكب، والفضاء وما إلى ذلك من علوم أوتيها الإنسان، فكلها دالة على الله، مثبتة لوجوده وقدرته ورحمته أنه - جل شأنه هو صاحب الأمر خلقًا وتصريفًا وتشريعًا دون سواه .

هذا هو ما يراه أولوا العلم المنصفون الذين لم تغلب بهم الأهواء .

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ (آل عمران: ١٨) .

وأي تكريم بعد ذكر أولى العلم في معرض الشهادة بوحدانية الله تعالى، وقيامه بالقسط أي التوازن بين الكائنات على وجه يحفظها ويقسط أمرها ويعدله، ثم إن ذكرهم جاء عطفًا على ذكر الله نفسه، وعلى ذكر الملأ الأعلى وهم الملائكة .

والقرآن الكريم مملوء، والسنة المطهرة مملوءة، بالثناء على العلم والعلماء .

وكلاهما يذكر العقل ويعتد بأحكامه، بل يتحاكم إليه في قضايا الدين كلها،

ويقرر أن ما جاء به الإسلام إنما يعقله أولو الألباب، أي أصحاب العقول.

ويطلب من الناس أن يسيروا في الأرض فينظرو ويعتبروا وأن يفكروا بعقولهم «ويأتوا بالبراهين إن كانوا صادقين، ويسمى البرهان والحجة سلطاناً في مثل قوله تعالى: ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ (الكهف: ١٥).

وذلك إيذان بأن الحجة والبرهان لهما تسلط على القلوب، والجاء إلى الإذعان والتصديق لا يمكن أن يدفع.

والأمر واضح جداً في عناية الإسلام بالعلم وحثه على استعمال العقل، واتباع البرهان.

وذلك لأنه قد جاء بالحقائق فهو لا يخشى الأداة الكاشفة عن الحقائق وهي العلم، ولا يخشى التحاكم إلى العقل والدليل، لأنه واثق من أنهما سينصرانه ويؤازرانه.

٦ - ومن الأصول التي قررها الإسلام: إلغاء التفرقة بين الناس من حيث الذكورة والأنوثة، فهو يسوي في الخطاب والمسئولية بين الرجل والمرأة، فيقول مثلاً:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل: ٩٧)، ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ (آل عمران: ١٩٥)، ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ (النساء: ١).

وقد اعتبر الإسلام للمرأة شخصية مستقلة كالرجل، فجعل لها أن تملك وأن تتصرف فيما تملك كالرجل تماماً، بينما بعض الأمم الأوربية تقيد المرأة في الملك والتصرف وتجعلها تحت سلطة زوجها على نحو يمنعها من التصرف في مالها منفردة.

وما شرع الإسلام حكماً من الاحكام فيه تقييد لحرية المرأة إلا بالقيود الطبيعية التي تتفق ووظيفتها في الحياة، ومركزها من الأسرة والمجتمع، أو التي يراد بها صون

كرامتها، فحافظ على خلقها وعفتها، والحرص على شرفها وكرامتها.

وقد جعل نصيبها في الميراث على النصف من نصيب الرجل، لأنه أعفاها من كل النفقات والأعباء المالية وجعلها جميعًا على الرجل، فالرجل هو الذي يدفع لها المهر عند الزواج، وهو الذي يقدم لها هدايا الخطوبة، وهو الذي ينفق على البيت والأسرة، ولو أن الأم أرادت ألا ترضع ولدها فعلى أبيه أن يحترم إرادتها ويحققها لها بأن يستأجر له مرضعة بأجر منه، أو يدفع للأم أجرًا على إرضاع ابنها، ويجب عليه أن يهيئ لها الخادم الذي يقوم بخدمتها، فإن لم يجد كان عليه أن يقوم هو بخدمتها فيما ليس من الشأن الذي تقوم به النساء، فكل هذه الأعباء يحملها الرجل دون المرأة، فإذا كان الإسلام قد ميز في مقابل ذلك كله بميزة يسيرة في الإرث فإنه لا يكون مضيعًا لحق المرأة، ولا ظالمًا لها، ونقول: ميزه بميزة يسيرة لأننا لو نظرنا لوجدنا هذه الميزة لا تزيد على السدس إذا قارنا بين نصيب الرجل ونصيب المرأة، فإذا فرضنا أن المال ستة أسهم، فاستحق الرجل أربعة أسهم واستحقت المرأة سهمين، فإن معنى ذلك أن الرجل أخذ سهمًا من المرأة لو أنها تساوت معه، إذًا يكون لها عند المساواة ثلاثة ويكون له ثلاثة، فهل السهم الذي أخذه من نصيبها على فرض المساواة يعد كثيرًا في مقابل ما بينا أنه عليه من الأعباء والتكاليف دونها؟

وكذلك يقال في كون الإسلام جعل الرجل قوامًا على المرأة، إذ يقول القرآن الكريم:

﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (النساء: ٣٤).

فإن الأسرة مجتمع صغير، لابد فيه ـ ككل مجتمع من أن يكون فيه رئيس يرجع إليه الأمر، ويكون قوله هو الفصل، وإلا لفسد حاله، واضطربت أموره، وتعقدت مشاكله وتراكمت مصاعبه اليومية، ولا يعقل أن تسند هذه الرياسة إلى أضعف الطرفين وأقلهم احتكاكًا بالحياة، ومكابدة لها واحتمالاً لألوان المشاق فيها،

فالرجل اذن هو أولى بهذه الرياسة وأقدر عليها بما منحه الله من مميزات جسمية ونفسية تمكنه من هذه الوظيفة وتعينه على حمل أعبائها، وليست المرأة بأقدر الطرفين على ذلك لا من ناحية قوتها الجسمية، ولا من ناحية طبيعتها النفسية...

ثم أن الرجل هو الذي عليه الإنفاق وله المراقبة والمحاسبة وهما من شئون الرياسة والإشراف، وهذا هو معنى ما ذكرته الآية من قوله جل شأنه : ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (النساء: ٣٤)، فليس التفضيل إلا الامتياز الطبيعي في وظائف الجسم والنفس، ولا يراد به في نظر الإسلام أن المرأة أقل قيمة من الرجل، أو أقل اعتباراً في إنسانيتها.

أهداف الإسلام
الحق • الخير • الجمال

للإنسانية الفاضلة أهداف ثلاثة تصبو إليها، وتسعى جاهدة لتحقيقها، هي: الحق، والخير، والجمال.

لم تزل هذه الثلاثة شغل العلماء والمفكرين، والقادة والمصلحين، وذوي الفنون وأصحاب المخترعات، منذ عرفت الأرض هذا المخلوق الذي جعله الله خليفة فيها ليعمرها ويبلغ بها غاية ما أراده الله لها.

والإسلام يكفل للإنسانية تحقيق هذه الأهداف الثلاثة من أيسر السبل، وله في الوصول إليها برنامج واضح شامل لاغموض فيه ولا قصور، ولا يعرف أية صورة من صور الالتواء أو مجاراة الأهواء والنزعات، وهو بهذا يمتاز عن كل ما تعرفه الإنسانية من المذاهب السياسية والاجتماعية التي تأثرت من غير شك بميول واضعيها، أو عصبياتهم، أو سوء إدراكهم للحقائق، فكان فيها غموض، وكان فيها قصور، وكان فيها ضعف، وكان فيها التواء، وكان فيها ظلم، وكان فيها استئثار، وكان فيها تفريق، وكان فيها طغيان.. إلى غير ذلك.

إن هذه الأهداف الثلاثة هي خلاصة رسالة الإسلام العامة، وأساسها في كل تفاصيلها، ولا نقول ذلك على أنه دعاية خطابية لهذا الدين الذي نؤمن به ونحبه، ولكننا نقوله على أنه حقيقة علمية يجب أن تتوجه إليها العقول والأذهان لتدركها الإدراك الصحيح، وتؤمن بها إيمانًا ثابتًا تترتب عليه آثاره من اعتناق فكرة الإسلام الإصلاحية، وجعلها هي الأساس الإنساني العالمي لما ينشده البشر من سعادة وطمأنينة وقرار. وإليكم البيان:

الهدف الأول الحق:

نريد بالحق الواقع المجرد في كل قضية من قضاياالفكر، الواقع الذي لا يتأثر بهوى، ولا تغطى عليه نزعة، ولا تلونه أو تخدع عنه ظروفًا ما فإذا أدرك الواقع

المجرد إدراكًا صحيحًا على هذا النحو فقد أدرك الحق.

وهذا الإدراك ضروري للإنسان، لأنه هو الذي يميزه عن سائر المخلوقات، وهو أثر العقل الذي به كرم ابن آدم وفضله، فلو كان الإنسان فاقد الإدراك لكان كالجماد الذي لا يحس ولا يشعر ولا يتأثر ولا يدري بما حوله، ولو كان مدركًا ولكن إدراكًا فاسدًا يتصور به الأمور على غير وضعها، وبغير واقعها لكان كالحيوان الذي له بعض إدراك ولكنه في إدراكه قاصر أو مخطئ دون أن يعرف.

وهذا الإدراك الصحيح ضروري أيضًا لعمارة الأرض، وتحقق الخلافة فيها؛ فإن الأمور إذا تبينت على وجهها الصحيح، عولجت العلاج الصحيح، كالمريض يحتاج قبل وصف الدواء إلى تشخيص لمعرفة الواقع فيه، وإلا بقى المرض أو ازداد الأمر سوءًا بمرض آخر يجره إليه الإهمال.

وقد عنى الإسلام أكبر العناية بهذا الهدف الإنساني الأسمى فلم يترك الإنسان يتخبط في ضلالات المعتقدات الباطلة، والأوهام الفاسدة، بل كشف له عن وجه الحق، وأوضح له سبل الحق، وبالغ في لفت النظر الإنساني إلى قيمة الحق، فأعلن أن الله هو الحق، وأنه خلق السموات والأرض بالحق، وأنه أنزل الكتاب بالحق، وأرسل الرسل بالحق، وأن الحق هو الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض، أما الباطل فيذهب جفاء لأنه زبد لا حقيقة له مستقرة، ولا وجود له ثابت!

وكل العقائد والمعارف التي جاء بها الإسلام إنما هي وصف للواقع الصحيح الذي يدركه العقل السليم في ثقة واطمئنان، والذي يجب أن يبني عليه الإنسان جميع تصرفاته في هذه الحياة.

فعقيدة التوحيد مثلاً: هي العقيدة الصحيحة التي تؤمن بها العقول، وتنفر مما سواها، وهي وصف للواقع الفعلي في شأن الألوهية، فليست أمرًا يفرض على العقول ويقال لها: آمني به، واسكني إليه ولو لم تفهمي، وإنما هي أمر طبيعي تدركه الفطر ولا تدرك سواه، وتدل عليه الدلائل الواضحة في يسر وسهولة تكاد تكون بداهة، وعلى هذا اعتمد الإسلام في تقرير دعوة التوحيد ولفت النظر إلى

أدلتها، وتحكيم العقل في شأنها: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (المؤمنون: ١١٧)، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ (الإسراء: ٥٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤).

وقل مثل ذلك في عقيدة الجزاء والبعث فالعقل يحكم ، والدلائل تدل على أنه لابد من أن يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، وإلا كان الخلق فوضى، وكان الخالق - جلّ وتنزه - غير حكيم ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧)، ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن: ٧)، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة: ١١٣).

وإرسال الرسل، واصطفاء الملائكة وإنزال الكتب، كل هذه عقائد تمثل الواقع، ولم تفرض على العقول فرضاً ويطول بنا الاستقصاء والاستدلال لو أردنا أن نستدل أو نستقصي.

فإذا تقررت أمام الإنسان هذه الحقائق بنى عليها بناء صحيحاً، فهوحين يؤمن بالله وبوحدانيته، يعطي لإنسانيته حقها، فلا يذل لما سوى الله، ولا يخضع لطاغية يريد أن يسخره، ولا يقدس إنساناً مثله يتخذه إلهاً أو يصفه ببعض صفات الإله، وحينئذ يتحرر عقله، وينطلق إلى الآفاق لا قيد يقيده، ولا خوف من غير الله يفسده!

وهو حين يؤمن بالجزاء الأخروي يحاسب نفسه ويراقبها، ويحد من شوكة الشهوات والأغراض فيه، ويحترم حق غيره، فلا يظلم ولا يبغي، ولا يفسد ولا

يقسو، ولا يتجاوز حقوقه، ولا يخرج عن حدوده.

وهو حين يؤمن برسل الله وملائكته وكتبه، يقوي في نفسه المعاني الروحية، ويؤمن بأن قواه محدودة، ومعارفه محدودة وأن من وراء علمه علماً ومن وراء إرادته إرادة، وأن عليه أن يستضيء بنور الإله متمثلاً في رسله وكتبه، ليعرف الحق، ويبني على الحق، ويتمتع بثمرات الحق: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

أما الذي لا يؤمن بذلك، ويظن أنه مستغن عنه، غير محتاج إليه، فإنه يتخبط في ظلام، ويتيه في ضلال، وتضطرب به موازين البشر التي خالطها كثير من الخلل والدخل، اضطراباً يفسد عليه حياته، ويقلق نفسه، ويتركه حيران لا يدري ما هو الطريق ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾ (محمد: ١-٣).

ولم يقف الإسلام عند حد العقائد، بل جعل بغيته هي الحق في كل شيء، فهو يحض على النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وهو يعظم شأن البرهان، وهو يخاطب العقول ويناشد أولي الألباب، وهو يحث على العلم وما العلم إلا الإدراك الصحيح، ويجعل منزلته معه ومع ملائكته.

كل ذلك يدل على أن الإسلام قد عني بالحق على أنه الإدراك الصحيح للواقع المجرد في كل قضية من قضايا الفكر، وفي كل ناحية من نواحي الحياة، وهذا هو أسمى ما يتصور في تكريم الإنسان، واحترام عقل الإنسان.

الهدف الثاني الخير:

ليس للعلم في ذاته قيمة ما لم يكن مصحوباً بالعمل بمقتضاه، فلو فرضنا أن أحداً من الناس أدرك علم الكهرباء مثلاً إدراكاً صحيحاً ولكنه قصر علمه على

نفسه وأداره في عقله، وحبسه فلم يطبقه فيفيد منه ويفيد به، لما كان لهذا العلم قيمة، ولكان هو وعدمه سواء في نظر العقلاء.

فالخير هو الخطوة الثانية بعد الحق والإدراك الصحيح للواقع؛ ينكشف الحق عن الإدراك الصحيح للأمور وباطلها، وغثها وسمينها، ثم يأمر العقل السليم بالعمل، وإيثار جانب الخير فيه.

ونريد من الخير كل صلاح يرشد إليه الدين والعقل في كل ناحية من نواحي الحياة؛ نريد الخير الذي يقابله الشر، والصلاح الذي يقابله الفساد؛ وهذا مبدأ يسري إلى كل ناحية، ويتصل بكل فرع من الأعمال؛ فللمال سياسة راشدة هي خير سياسة؛ وللحكم سياسة راشدة هي خير سياسة، والخير في الملك هو العدل، وفي معاملة الناس هو الصدق والأمانة، وفي شأن الفقراء هو البر بهم والإحسان إليهم، وفي تربية الأولاد هو إحسان أدبهم وتقويم خلقهم، وفي خدمة الأوطان هو الإخلاص لها والعمل الدائب لإسعادها، وفي كل شيء هو الاتجاه السديد والطريق المستقيم الذي يشعر الإنسان من أعماق نفسه حين يسلكه بأنه مستريح مطمئن القلب ثابت الجنان.

والإسلام هو ذلك الطريق المستقيم الذي تنشده العقول وتستريح إليه النفوس، لم يطلب الله من الإنسان عملاً إلا إذا كان في هذا العمل مصلحة له إما بطريق مباشر، أو بواسطة من الوسائط، ولم ينهه عن عمل من الأعمال إلا هو شر عليه ووبال. هذا شأن العبادات والمعاملات وكل ما جاءت به الشريعة من أحكام.

تراه في الصلاة التي تقرب بين العبد وربه، وتخلعه في كل يوم خمس مرات من ضوضاء هذه الحياة ليسترد بعض روحانيته ويستريح لأياً من ماديته، ويركن إلى جانب الله المالك للنواصي والأقدام، المسيطر على الحظوظ والقسم والأقدار، الذي بيده كل شيء، وبرحمته كل شيء فإذا شعر المؤمن بذلك في صلاته فقد جلا قلبه، وصقل نفسه، وعاد إلى أعماله وشئون حياته إنساناً خيِّراً ينفع نفسه، وينفع الناس.

وترى ذلك في الزكاة التي هي الرباط بين الغني والفقير؛ تخلق المودة، وتوطد المحبة، وتخفف من متاعب الإنسانية؛ فهي خير للفقير؛ وخير للغني، وخير للوطن.

وترى ذلك في المعاملات «لا ضرر ولا ضرار» «لا يخطب أحدكم على خطبة

أخيه ولا يسم على سومه» «من غشنا فليس منا»[1]، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤)، و﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ (الرحمن: ٩)، ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ (الإسراء:٣١)، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣٦)، ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢)، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ (الأنعام: ١٥٢).

هذا هو منهاج الإسلام في كل ما جاء به من تشريع، وما أمر به أو نهى عنه من الأعمال: وقد وصف الله ذلك بالصراط المستقيم حيث يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

بهذا يتبين أن الإسلام بمنهاجه التشريعي يحقق الهدف الثاني من أهداف الإنسانية، إذ يرسم لها طريق الخير واضحاً ويجعل سلوكه ديناً ومرضاة لله، ويحذرها من طريق الشر والفساد، ويجعل سلوكه عصياناً لله، وتمرداً على سطانه، والتواء عن الصراط المستقيم.

الهدف الثالث الجمال:

قد يكون الشيء حقاً في نفسه، لأنه الواقع الصحيح، أو يكون خيراً، لأنه مصلحة أو بر أو رشاد، ولكن الصورة التي يبرز بها هذا وذاك لها أثر بعيد في قبوله

(١) مسلم عن أبي هريرة ك/ الإيمان ب/ قول النبي ﷺ من غشنا.

والإذعان له، أو رفضه والإعراض عنه.

وكم من حقائق ضيعت، وأعمال خير استثقلت أو ردت، لأنها أُبرزت في صورة تعافها النفوس، وتمجها الأذواق.

هذه فطرة فُطرَ الناس عليها، وأمثلتها كثيرة حاضرة تتكرر أمام الناس، فليس هناك حاجة إلى أن نسوقها، أو نطيل في شرحها.

ومن أسرار نجاح الإسلام، وخلود الإسلام، أنه أدرك هذه الفطرة، أو بعبارة أدق، قدرها حق قدرها، فجاءت جميع عقائده وتشريعاته على مقتضاها.

يطلب الله منا أن نؤمن به ونفرده بالعبادة والتوحيد، وهذا حق للخالق بمقتضى خلقه وربوبيته وصفاته جل علاه، ولكن الله مع ذلك يتحبب إلى المخلوقين ويبدو لهم بمظهر جماله الذي يملك القلوب ويأخذ بالألباب، إذ يعاملهم معاملة كلها كرم وكلها إحسان؛ فهو قريب من عبده لا واسطة بينه وبينه: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴾ (الشورى: ٢٥)، «لو أتيته بقراب الأرض معصية ثم جئته لا تشرك به شيئًا لأتاك بقرابها مغفرة ولا يبالي»، «ولو تقربت إليه شبرًا لتقرب إليك ذراعًا، ولو جئته مشيًا جاءك هرولة ومشيا»، «والسيئة عنده بواحدة وقد يتجاوز عنها، والحسنة بعشر أمثالها وقد يزيد في مضاعفتها».

لا شك أن هذا كله يرشدنا مع جلال الله إلى جمال الله؛ ولا شك أنه بذلك يحبب إلينا الإيمان، ويزينه في قلوبنا، كما يقول القرآن الكريم.

والله يطلب منا أن نفعل الخير، ويطلب منا إلى جانب ذلك أن يكون فعلنا إياه قريباً بقدر الاستطاعة من الصورة المثلى التي يتحقق فيها مظهر الجمال، والتي تجعله محببًا إلى النفوس، مرضيًّا لدى الأذواق.

الصدقة خير لأنها إحسان إلى الفقير وتخفيف لويلات الإنسانية، ولكن الإسلام لا يكتفي منك بأن تفعلها وإنما يطلب صورتها المثلى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾ (البقرة: ٢٦٤)، ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ (البقرة: ٢٦٣)، ﴿ **وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** ﴾ (المدثر: ٦)، ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ (البقرة: ٢٧١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير، لأنه أثر من آثار التضامن الاجتماعي والمسئولية المشتركة، والتعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان، ولكن الإسلام لا يرضى منه إلا بالصورة المثلى التي يتحقق بها جماله، وتظهر فيها روعته، وتنال بها ثمرته؛ لذلك لابد أن يكون في رفق وتلطف وحسن أداء ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

ودفع الشر والسوء خير، وله أيضًا صورته المثلى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

وهكذا يهتم الإسلام بالصورة التي يؤدي بها الخير، ويدعى بها إلى الحق، كما يهتم بأصل الخير والحق.

ولقد كان رسول الله ﷺ - وهو المثل الأعلى الكامل - محبًا لكل شيء حسن طيب، وكما كانت حياته فناء في الحق، وجهادًا في سبيله، وكمالاً في عمل الخير، كانت أيضًا مثالاً عمليًا تطبيقيًا للجمال الحسي والمعنوي: يحب من الأسماء ما كان جميلاً، ويغير ما يصادفه من الأسماء المنفرة التي تمجها الأذواق، ويحب من البيان ما كان جميلاً ويكره الثرثارين المتفيهقين، ويحب من اللباس والزي ما كان جميلاً نظيفًا ويكره المتبذلين، وكان يأمر بسنن الفطرة، ويعجبه ترجيل الشعر والتطيب، وهو القائل: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، جواد يحب الجود، جميل يحب الجمال».

وكذلك كان خلقه ﷺ: كان جوادًا كريمًا سمحا إذا أعطى سمحًا إذا أخذ، ذا عفة وحياء ونجدة ووفاء يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين، وحسبه الله قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

هذا هو جمال الإسلام في عقيدته، في شريعته، وفي شخصية رسوله الكريم، عن عبد الله بن عمر قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما

نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه إن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

كأني بهذا الحديث الكريم يرمز إلى الأهداف الثلاثة التي يحققها هذا الدين للإنسانية من أيسر السبل وأقومها.

إنه يرمز للحق (بالإيمان) لأنه التصديق بالواقع الصحيح، والإذعان له، وأول ذلك هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله وقدره.

ويرمز للخير (بالإسلام) لأنه الانقياد إلى الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه في كل ناحية من نواحي التكليف، وذلك كفيل بإسعاد الفرد والمجتمع، وتوطيد دعائم البر والصلاح والرشاد.

ويرمز للجمال (بالإحسان) الذي هو إتقان كل شيء، والوصول به إلى مداه في السمو والكمال: وقد صور هذا الإتقان بأنه عبادة لله في حالة الرؤية والمشاهدة، ومن شأن هذه الحالة أن تبعث على الإتقان والكمال!

والنتيجة:

أن الإسلام هو (الحل الوحيد) لمشاكل العالم، وهو (البرنامج المثالي) لسعادة الأفراد والأمم، وهو الطريق الموصل في يسر وسهولة إلى أهداف الإنسانية العليا من الحق والخير والجمال .

---

(١) مسلم عن يحيى بن يعمر ك/ الإيمان ب/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩).

الباب الرابع

الجاهلية والإسلام

١ - ظن الجاهلية .

٢ - حكم الجاهلية

٣ - تبرج الجاهلية .

٤ - حمية الجاهلية .

(١)
ظن الجاهلية

* ظن الجاهلية .
* حكم الجاهلية
* تبرج الجاهلية .
* حمية الجاهلية .

بهذه العناوين الأربعة حدد القران الكريم جهات البحث والنظر لمن أراد دراسة (عهد الجاهلية) .

وعهد الجاهلية هو العهد الذي سبق ظهور الإسلام، وقد أطلق عليه القرآن هذه التسمية التي لم تعرف قبل اطلاقه إياها .

وكثير من الناس يظن أن عهد الجاهلية إنما هو خاص بالعرب قبل الإسلام فحسب، ولكن الواقع من حيث المعنى أن كل أمة من الأمم مرت بعصر أو عصور من الجاهلية، وقد حفظ التاريخ أخبار تلك العصور للأمة الفارسية، والأمة الرومانية والأمة الصينية والأمة المصرية القديمة،كما أن الذي يمعن النظر في الأسس التي يقوم عليها أي عهد من عهود الجاهلية الأولى، يستطيع أن يحكم بأن الأمم قد تتخلص أزمانا من عهد جاهليتها، ثم تعود إليه إذا عادت إليها نفس الأسس والأوضاع الأولى، وبذلك نستطيع أن نقرر أن الأمم في حاجة دائما إلى التحصن من عوامل الانتكاس والعودة إلى الجاهلية، وأنها في بعض الأحيان في حاجة إلى مقاومة هذا العوامل ومناضلتها إذا حلت بها لتتخلص من آثارها .

والعناوين الأربعة التي صدرنا بها هذا البحث، مستمدة كما قلنا من القرآن الكريم حيث قول الله جل جلاله :

* ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (آل عمران :١٥٤) .
* ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (المائدة:٥٠) .
* ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب:٣٣) .
* ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (الفتح:٢٦) .

وهي جماع البحث العلمي عن هذا العهد، ومورد الموازنة بينه وبين الإسلام، لبيان وجوه الرحمة الكبرى التي رحم الله بها العالمين، حين أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين** ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) .

وإنما كانت هذه العناوين الأربعة جماع البحث في هذا الموضوع لأنها:

١ - إما راجعة إلى العقيدة والتفكير العقلي الذي كان يسود عهد الجاهلية، وهذا هو ما اشار إليه القران الكريم في الموضع الأول من هذه المواضع الأربعة بقوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤) .

٢ - وإما راجعة إلى الحكم الذي يسود الناس في هذا المجتمع الجاهلي، وما لهذا الحكم من انحرافات، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في الموضع الثاني من هذه المواضع الأربعة بقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠) .

٣ - وإما راجعة إلى حالة الانحلال الخلقي التي تصيب هذا المجتمع الجاهلي، فتتبعها آثارها الحتمية من الضعف والفساد، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في الموضع الثالث: بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣) .

٤ - وإما راجعة إلى تشبع المجتمع بفكرة العصبية الممقوتة التي هي سناد الطائفية والاقطاع في أيَّة صورة من صورهما المختلفة .

وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم في الموضع الرابع والأخير من هذه المواضع بقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (الفتح: ٢٦) .

هذه هي المواضع الأربعة التي نراها جماع البحث العلمي في هذا «العهد

الجاهلي» وليس هناك أي لون من ألوان الفساد العقلي،أو السياسي، أو الخلقي، أو الاجتماعي، إلا وهو راجع إلى واحد أو أكثر من هذه الأربعة.

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لم يذكرها بهذا الاستقصاء وبهذا الترتيب عبثًا، وإنما ذكرها عن علم وحكمة:

والموضوع يستحق أن يفرد له مؤلف خاص لعلنا نتفرغ له إن شاء الله تعالى في فرصة قريبة بيد أننا نعجل الآن بدراسة له موجزة في (منبر الإسلام).

١ ـ ظن الجاهلية:

إن استقامة المعارف والتفكير العقلي في أمة من الأمم من شأنها أن تفتح أمام هذه الأمة مجالات من التقدم والترقي، وأن تدرأ عنها كثيرًا من أسباب الضعف الاجتماعي والخلقي والعلمي والعكس بالعكس.

وقد كان عهد الجاهلية العربية ـ كشأن جميع العهود الجاهلية في مختلف الأمم ـ قائمًا على اعتناق ألوان من الظنون والأوهام سرت في عقول أبنائه، وأصبحت بين أفراد المجتمع كأنها حقائق مسلمة.

١ ـ فهناك الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وهما ظلم عظيم للعقل الإنساني، وللكرامة البشرية، لأن العقل يهدي إلى الإيمان بإله واحد هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة لأنه هو الذي خلق، وهو الذي أنعم، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، ولأن إذعان البشر لوثن من الأوثان أو لشريك من الشركاء المزعومين أيًا كان، فيه نزول بالمستوى الإنساني عما يجب بحكم الواقع أن يكون عليه.

ولذلك لم يكن من المنطق أن يتخذ مع الله آلهة أخرى مع الاعتراف بأن الله وحده هو الخالق المنعم المتصرف، وكان العرب في جاهليتهم يؤمنون بأن الله هو خالق كل شيء ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (العنكبوت: ٦١)، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (العنكبوت: ٦٣).

وقد ألزمهم القرآن الكريم الحجة من هذا الجانب، وحرص على أن يثبت الألوهية

لله جل جلاله ـ وهي استحقاقه وحده أن يعبد ـ بإثبات الربوبية له، وهي كونه رب كل شيء خلقًا وإنعامًا وتصريفًا، وبين أن مخالفة هذا المنطق الفطري إنما هي اتباع للظن، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ (يونس: ٣١-٣٢)، ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ (يونس: ٣٥-٣٦).

كما أنه لم يكن من الكرامة الإنسانية أن يذل الإنسان لمخلوق مثله، فيعبده كما يعبد الله، ولا سيما إذا كان وثنًا من الأوثان، كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

ولذلك قرعهم القرآن فيما حكاه عن إبراهيم: ﴿ **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (الصافات: ٨٥-٩٥).

وجاء في وصية لقمان لابنه: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ (لقمان: ١٣)، وجاء في سورة النساء ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨).

وما ذلك إلا لأن المشرك قد أخل بميزان العدل إخلالاً عظيمًا، وخرج على مقتضى العقل والفطرة خروجًا بعيدًا، وظلم نفسه، حين أنزلها من سموها إلى هذه

المرتبة الوضيعة، وفي سورة الحج : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج : ٣٠، ٣١)، إلى غير ذلك من الآيات التي تصور ظلم المشرك لنفسه وإهداره لمنزلتها.

٢ ـ وهناك التخليط في شأن القضاء والقدر :

وقد صورت لنا الآية الأولى من الآيات الأربعة التي ندرسها، صورة من هذا التخليط الجاهلي، إذ تقول :

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران : ١٥٤).

فهذه الآية تتحدث عن الذين كانوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، حين انهزم المسلمين في هذه الموقعة، بعد أن كانوا قد انتصروا في موقعة بدر، وهم فريقان :

* فريق المؤمنين الثابتين.

* فريق الضعفاء المتزلزلين.

فأما المؤمنون الثابتون فقد نظروا في أمر الهزيمة نظرة رشيدة، إذ علموا أن لها أسباباً من تركهم مواقعهم «الاستراتيجية» المحددة بأمر قائدهم الأعلى ﷺ وأن لله سننًا في النصر والهزيمة، فإذا كانوا قد هزموا في هذه الموقعة بتقصيرهم ومخالفتهم من أمر قائدهم، فإنهم جديرون بأن ينصروا في موقعة أخرى إذا جدوا والتمسوا أسباب النصر ولم يخرجوا عن أمر نبيهم وقائدهم.

وبهذه الروح اطمأنت قلوبهم، وسكنت، وزال عنهم الغم، ولم يسترسلوا في

التشبث بروح الهزيمة المفضي إلى اليأس، فلما اطمأنوا عادت إليهم طبيعتهم البشرية في الظروف المألوفة، فهدأت أعصابهم، وزال عنها التوتر، فناموا واستراحت أجسامهم بعد أن أمنت قلوبهم واطمأنت، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وفي هذه الآية إشارة إلى الحالة النفسية التي تصيب المحزون المقهور، إذ يستوي عليه الغم والهم، فإذا كان مؤمناً كان الإيمان بلسمًا لجراحه، ونوراً يومض له وسط هذا الظلام النفسي الحالك، وبذلك يعود إليه أمله وإشراق نفسه، ويعلم أن الله تعالى قد أجرى فيه سنته العامة من أن النصر إنما هو بأسباب، فيعلم أن هزيمته التي حلت به لها أسباب قد أفضت إليها، فيعزم على معالجتها، وينفتح أمامه الأمل بهذا العزم فلا يصاب باليأس القاتل، وبذلك يعيش ليعاود كفاحه ويستأنف نضاله في ضوء دراسته لموقفه وأسباب هزيمته.

ثم تشير الآية إلى أن الإيمان بالله تتبعه الأمنة، والطمأنينة، وأن الأمنة إنما هي بفضل الله يجعلها نتيجة وثمرة للإيمان، فينزلها على الناس كأنها هدية من السماء.

والواقع أن الإيمان سمو نفسي، وأن ثمراته ونتائجه هبات فوقية علوية لا يمكن أن يصل إليها الناس إلا به، أو ينالوها إلا عن طريقه.

وتشير الآية كذلك إلى أن النعاس هو مظهر الأمنة والطمأنينة، وأن الخائف لا يهدأ والمغموم لا ينام، وذلك بسبب توتر الأعصاب واضطرابها، فالقرآن الكريم يرشد إلى هذه الظواهر البشرية النفسية والجسمية إرشاداً واضحًا.

ثم نرى الآية تقرر أن هذه الأمنة وهذا النعاس يغشى طائفة دون طائفة، إذ تقول ﴿ **يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وهي الطائفة الأولى، طائفة المؤمنين الثابتين، الذين استطاعوا أن يلجأوا إلى إيمانهم في وقت الشدة، فيجدوا فيه الحصن الحصين، والركن الركين، الذي يحول دون انهزام النفس، حتى بعد انهزام الحس.

أما الطائفة الثانية فهي التي تعبر عنها الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، إلخ ..

هذه الطائفة هي طائفة المتزلزلين الضعفاء الذين يتطلبون أن تستقيم الحياة على نمط واحد في مصلحتهم، أليسوا قد آمنوا في زعمهم أو ليسوا من هذا الفريق الذي يحارب المشركين ويناضل مع الرسول ﷺ.

إذن لماذا ينهزم جيش المؤمنين وقد كان من حقه - وهو جيش الحق - أن ينتصر؟ وكيف تستريح نفوسهم إلى ذلك، وقد تصوروا أن أمر النصر والهزيمة منوط بهذا اللواء دون ذاك كهبة من الله لا كنتيجة وثمرة لأسباب وعوامل حسب سنة الله في خلقه.

هذه الطائفة التي كانت بين المؤمنين، وليست منهم إلا بالمظهر والصورة، وهي في الحقيقة من المنافقين، والتي لم ينزل عليها ما نزل على المؤمنين من النعاس والأمنة، هالها أن تقع هزيمة المسلمين يوم أحد، وهالها أن تلام على عدم متابعتها لأوامر الرسول ﷺ، وخروجها عما رسم قبل المعركة للمسلمين، فأخذت تتعلل بالأقوال المعسولة، اعتذاراً عما وقع، وتدس في نفس الوقت سموم الشك فيما تلقيه من القول.

انظروا إلى قوله تعالى في وصفه: ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ**﴾ يشير إلى أن كل همهم هو الدفاع عن أنفسهم، والتدبر في أشخاصهم لا في أسباب الهزيمة، ولا فيما يمكن أن يؤخذ من العبر كما يفعل المؤمنون - ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ**﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وهذه العبارة وأمثالها مما يقوله أمثال هؤلاء في تلك المواطن ينطبق عليها الوصف المعروف: «كلمة حق يراد بها باطل»

أما كونها كلمة حق، فلأن هذا هو الواقع: ليس لأحد من الناس شيء من الأمر، استقلالاً وتحكمًا، فالناس جميعًا محكومون بأمر الله تعالى ولذلك عقب عليها القرآن بقوله في أثر حكايتها فوراً: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ ولكن هذه الحقيقة المعترف بها في الظاهر تخفى وراءها معنى خبيثًا ﴿**يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾ (آل عمران: ١٥٤).

أي أننا مسوقون مجبورون فكيف نلام على شيء، وكيف نحاسب على شيء، وإذا كنا مسوقين هكذا فما هو السر وقد كان من الممكن أن ينصر الله رسوله بعامل منه وقوة من لدنه دون أن نخسر نحن في ذلك، وأن نتعرض للقتل والهلاك؟

إن هذه النغمة نغمة جاهلية كما أنبأنا الله سبحانه وتعالى وهو يعرضها في هذه الآية، إذ يقول: ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ (آل عمران: ١٥٤) .

وخلاصة فلسفتها: أن النصر والهزيمة بأمر الله فليس لنا من الأمر شيء، فنحن غير مسئولين عن الهزيمة إذا انهزمنا، فما نحن إلا مسيرون، وهذا المعنى يقوله أهل الجاهلية في عقيدة الإيمان والوحدانية كما حكى الله تعالى عنهم، نافين عن أنفسهم مسئولية الشرك جدلاً، إذ يقول جل شانه : ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

فهم يقولون: أننا فعلنا ما فعلنا من الشرك وتحريم بعض الأشياء بمشيئة الله ، ولو شاء الله ما فعلنا ذلك، وإذن فنحن غير مسئولين عن هذا الشرك وهذا التحريم، يريدون بذلك إلزام الإسلام بمقتضى احدى عقائده، وهي أن الأمر كله لله، وأنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بمشيئة الله.

والقرآن الكريم يرد عليهم في ذلك بأمرين:

الأمر الأول : تسجيل أن هذا هو شأن المكذبين في التاريخ فقد جرت عادتهم أن يستمسكوا بالظواهر ويستغلوها في نطاق مجادلة الرسل وتكذيبهم حتى يحل بهم العذاب ويذوقوا بأس الله .

والأمر الثاني : أنه يقول لهم: حقًا أن الأمر كله لله، ولو شاء الله ما أشركتم ولا آباؤكم ولا حرمتم من شيء، فإن الله تعالى لم يعص مغلوبًا، ولكن من أدراكم وأنتم تخاطبون بأمر الله وتكلفون بما تكلفون به أن الله شاء لكم العصيان؟ هل عندكم من علم بهذا؟

إن كان عندكم علم بهذا فأخرجوه لنا، وذلك تحد لهم بأنهم لا يعلمون فلا ينبغي أذن أن يتعللوا بأن الله شاء لهم ذلك، فقد ستر الله عنهم المصير الذي يعلمه

عنهم، ويشاؤه لهم أي بخلقه فيهم حين يتجهون إلى الفعل مختارين كما تقضي بذلك سننه في الاختيار والتكليف، وبذلك بطل أنهم يعلمون شيئًا عن مشيئة الله وثبت أنهم إنما يتبعون الظن وإنما يتخرصون ويزعمون ما لا علم لهم به ليجادلوا ويكذبوا.

هذا هو أسلوب الجاهلية في أهم مسألة تتعلق بأصل التكاليف الإلهية للإنسان، يريدون بذلك هدم هذه التكاليف من أساسها وتقويض بنيانها الذي بنيت عليه.

وإنما يصدر هذا عن روح انحلال انهزامي يعترى الأمم في إبان ضعفها النفسي، فيحاول أبناؤها التخلص من المسئوليات، وإلقائها عن كواهلهم، والاستسلام لما يحدث دون القيام بأية محاولة لدفعه أو إصلاحه.

وإذا أصيب الناس بهذا اللون من التفكير فقد أصيبوا بمرض اجتماعي خطير، وتعرضوا به إلى ألوان من الشقاء ونكد الحياة.

وهذا الأسلوب التفكيري الانحلالي عميق الجذور في تاريخ الجاهلية كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿**كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ وهو أيضًا أسلوب المنافقين الذين ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وسيظل هو الأسلوب الذي يستمسك به كل متعلق بأهداب الجاهلية من الذين يريدون أن يعبثوا بالحقائق، ويهدموا التكاليف، ويتحللوا من المسئوليات والأمانات.

وكل من اعتنق هذا الأسلوب فهو من أهل الجاهلية ولو كان في القرن العشرين، أو فيما بعده من القرون، وكل من قاومه ورده على أصحابه، فهو مؤد لحق الإسلام، مضطلع بجزء من رسالته، ضارب في عنق الجاهلية بسهم من سهام الله.

٣- وهناك ألوان أخرى من الظنون التي كانت تسود الجاهلية والتي يتخبط بها في الضلالة من سار على طريقتهم في التعلق بالأوهام، وذلك كظنهم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا مما يعملون وهذا المعنى هو الذي زعمه بعض الفلاسفة بتعبير قريب من هذا، حيث قالوا أن الله يعلم العالم على الجملة، ولا يعلم التفاصيل، وهو قول باطل، وظن لا أساس له من الحق، وقد هدمه القرآن الكريم في قول الله عز شأنه: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ**

سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽²⁰⁾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⁽²¹⁾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (فصلت: ١٩-٢٢).

ومثل ذلك ما أورده القرآن الكريم في شأن المتخلفين عن رسول الله ﷺ وما ظنوه من السوء بالمؤمنين إذ يقول: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ⁽¹¹⁾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ (الفتح: ١١، ١٢).

٤- فإذا تركنا هذا الجانب المتصل بظن السوء بالله سبحانه، فإننا نجد عهود الجاهلية تتسم دائمًا بالتعلق بالأوهام والخزعبلات، فمن ذلك اعتقادهم أن من يحمل كعب أرنب يأمن شر الجن، ومن ذلك اعتقادهم أن من قتل تظهر له هامة «طير صغير من البوم» فلا تنفك تنادي: اسقوني، اسقوني.. حتى يؤخذ بثأر القتيل، والسانح عندهم من الطير أو الظباء ما أتى من جانب اليمين والبارح ما أتى من جهة اليسار، وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح فربما خرج الرجل يريد سفرًا فتلقاه بارح فيعود من حيث أتى معتقدًا أن سفره غير سعيد، وفي المثل: «من لي بالسانح بعد البارح» يضرب في توقع المحبوب بعد المكروه، ويعتقد العرب أن لكل شاعر شيطانًا يلقي عليه الشعر، ويعتقدون أن دم الرئيس أو الشريف يشفي من داء الكلب وعليه قول الشاعر:

أحلامكم لسقام الجهل شافية   كما دماؤكم تشفي من الكلب

كناية عن شرفهم.

وكل ذلك قد أبطله الإسلام، ونهاهم عنه، وفيه وفيما يشبهه يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس: ٣٦).

(٢)
حكم الجاهلية

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

كان «حكم الجاهلية» حكمًا فاسدًا يؤدى إلى قيام مجتمع فاسد مضطرب لا قرار له، ولا هدف له، ولا يمكن أن يسعد أهله في ظله، وكان فساده يرجع إلى ثلاث جهات:

* الجهة الأولى: هي أنهم كانوا لا يؤمنون بأن الله تعالى هو مصدر الحكم ومرجعه دون شريك له، كما أنه هو خالق الوجود، وواهب النعم.

* الجهة الثانية: هي التفرقة بين المحكومين واختلال ميزان العدل كنتيجة لهذه التفرقة.

* الجهة الثالثة: هي جهة الأحكام التي يحكم بها. وكانت مستمدة من عرف جاهل ظالم واهم.

* فالله سبحانه وتعالى هو «المشرع» لأنه الخالق المالك المنعم المتصرف، والناس جميعًا خاضعون لسلطانه بحكم ربوبيته وعبوديتهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (النحل: ١١٦)، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٥٩)، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام: ٥٧)، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (التين: ٨)، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن

تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٤٩، ٥٠)، ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٤١)، ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٦).

* ومثل ذلك ألفاظ: شرع وشريعة وشرعة ونحوها، فقد جاءت كلها مضافة إلى الله على أن الأمر فيها له، ومنفية عمن سواه أو منكرة عليه:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ (الشورى: ١٣)، فكل الشرائع هو الذي شرعها ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨)، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية: ١٨)، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى: ٢١).

* ومثل ذلك أيضاً ألفاظ التحريم والتحليل.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام: ١١٩)، ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (الأنعام: ١٤٣)، ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ (الأنعام: ١٥٠)، ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ (التحريم: ١)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ (المائدة: ٨٧)، ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٣٨، ١٣٩).

إلى غير ذلك من الآيات التي يغرس بها القرآن في نفوس المؤمنين مبدأ الحكم

الصحيح والتشريع الصحيح، من أن الحكم لله، والتشريع لله، والتحليل والتحريم لله، وأنه ليس لأحد من المخلوقين أن يحكم أو يشرع إلا بما حكم الله وشرع الله.

* وقد بين القرآن في هذا أن الرسل لا يأتون بشيء من التشريع ولا يحرمون ولا يحلون إلا بإذن الله، وأنهم إنما يبلغون أحكام الله، ولذلك نجد في الكتاب الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ (النساء: ٨٠)، ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء: ٦٥).

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (آل عمران: ٣١).

ويعتبر القرآن أمر الأنبياء في ذلك مستمدا من أمر الله، حيث وهب كلاً قسطا من الحكم والتشريع باسمه تعالى وإذنه.

وفي ذلك يقول عن موسى عليه السلام: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (القصص: ١٤).

وعن يوسف عليه السلام: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (يوسف: ٢٢).

وعن لوط عليه السلام: ﴿ **وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (الأنبياء: ٧٤).

وعن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ **وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وقد دعا إبراهيم صلوات الله عليه فقال: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ (الشعراء: ٨٣).

إلى غير ذلك من الآيات.

* وقد أجمل القرآن الكريم مصادر التشريع في قوله تعالى:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (النساء: ٥٩).

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم، وإطاعة الله هي العمل به، والمصدر الثاني هو

إجماع السنة، وإطاعة الرسول هي العمل بها، والمصدر الثالث هو إجماع أولي الأمر وأهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة، وطاعتهم هي النزول على ما اتفقوا عليه، والرضوخ لما حكموا به استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله، فإذا وجد شيء لم يتفقوا عليه، بل تنازعوا فيه واختلفوا، عرض ذلك على الكتاب والسنة، وعمل بما يرشدان إليه، ويدلان عليه.

وهكذا يتبين أن المصادر كلها راجعة إلى مصدر واحد هو الله جل جلاله، وأن القرآن يحرص على أن يعرف المؤمنون ذلك ويطمئنوا إليه وإلى أن تكليفهم وإلزامهم وتقييدهم هو مصدر هذا الحق، وبذلك تكسب القوانين التي شرعت على هذا الأساس هيبتها وقداستها.

هذا وقد شاع واستفاض على الألسنة في عصرنا الحاضر أن الأمة مصدر السلطات وأن من بين هذه السلطات سلطة التشريع فهي باسم الأمة.

ولا ينبغي أن يظن بهذا منافاة لما قلناه من أن التشريع لله، فإن الأمة هي جماعات من الناس لها ثقافتها الغالبة عليها، ولها عقيدتها المتمكنة من نفوس أبنائها، فإذا آمنت بشيء كان لهذا الإيمان أثر توجيهي في كل ما يصدر باسمها، والأمة الإسلامية تدين بالقرآن دستوراً وأصلاً تشريعيًا مقدسًا، وتؤمن بسنة الرسول ﷺ كذلك على اعتبار أنه مبلغ عن الله مطبق لشريعته، ومن ثم يكون كل ما يصدر عنها من قوانين ونظم متقيدا بهذين الأصلين، فإن وجدت فيهما نصوصا صريحة طبقتها وإن لم تجد كان الاجتهاد والنظر وتقدير المصالح.

وإذن فالأمة هي مصدر السلطات بهذا المعنى، أي أنها هي التي توجه، وهي التي عنها يأخذ الحاكمون وأولو الأمر، والمفروض أنها مؤمنة بأصول معينة يعتبر الخروج عليها خروجًا على إرادتها، وتحريفًا لمظهر سلطتها.

وليس المراد بأنها مصدر السلطات أنها انتزعت هذا الحق الإلهي أو تحاول أن تزعمه لنفسها، فذلك ما لا يجتمع مع الإيمان بالله، والأخذ بدينه.

ومن هنا نستطيع أن نقول: أن كل من يتصدر للتشريع باسم الأمة، إنما هو

متقيد بروح الإيمان والتدين، فيجب عليه أن يترسم هذا الروح وألا يحيد عنه، فإنه حينئذ يكون مطبقًا لدستور الأمة الأصيل وهو القرآن.

ب ـ وأما الجهة الثانية من جهات الفساد التي اتسم بها الحكم الجاهلي، فهي التفرقة بين المحكومين، واختلال ميزان العدالة كنتيجة لهذه التفرقة.

ومن مظاهر هذه التفرقة تفرقتهم بين الذكورة والأنوثة على نحو مهين للمرأة، مضيع لكرامتها وحقوقها، فالأنثى عندهم مولود مكروه يحزن لقدومه منذ الولادة كل البيت، ويحاولون التخلص منه على نحو من الأنحاء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩).

والمرأة لا ترث من مال أبيها كما يرث أخوها الرجل.

والمرأة تورث عن الأب كما يورث ماله، وتعضل أي تمنع من الزواج إلا برضا الابن الذي ورثها عن أبيه، وكانت في كثير من الأحيان تفتدي نفسها بمال تدفعه إليه كي تتخلص من هذا الأسر.

وقد وصل بهم الأمر إلى أن يبيعوا الأنثى الحرة، كالذي روى من أن جد الفرزدق الشاعر ضاع له جمل فخرج في طلبه، فانتهى به البحث إلى خيام قوم من العرب ضاربين في البادية فنزل عندهم فلما جلس إلى كبيرهم إذا هو يسمع ضجة وجلبة، ويرى من يدخل على هذا الكبير ومن يخرج في لهفة بادية على القوم، فسأل عن السبب فعلم أن هناك امرأة قد أدركها المخاض وأنها توشك أن تضع وليدها، وأن هذا الرجل الكبير فيهم هو زوجها وأبو الوليد المنتظر، ثم لم تلبث المرأة أن وضعت وجاءوا إلى زوجها فعلم منهم أنها وضعت بنتًا، فقال: هيئوا لها حفرة لتوأد قبل أن تذوق طعم الحياة، قال جد الفرزدق: فأدركتني شفقة بهذه الوليدة المسكينة فقلت أتبيعني إياها؟ قال أبوها: بكم تشتريها؟ قال: بناقة! قال: لا، قال: فبناقتين فقال: لا، إلا أن تزيدني جملك الأورق هذا فأني أراه جملا حسنا، قال جد

الفرزدق: فقبلت!

وسواء أكان قد اشتراها ليأخذها، أو اشتراها بمعنى أنه اشترى حياتها لكيلا توأد، ففي هذا الخبر دليل على سوء مركز الأنثى فيهم، وقد افتخر الفرزدق بصنيع جده المذكور في هذه القصيدة، فقال:

وجدي الذي منع الوائـدين وأحيا الوئيد فلم يوأد

ومن مظاهر هذه التفرقة الجاهلية بين المحكومين أن الأقوياء كانت ترعى حقوقهم، بينما تضيع حقوق الضعفاء، وقد كانت «الطبقية» الجامحة هي شعار هذا المجتمع كما هو الشأن دائمًا في كل مجتمع جاهلي.

وقد ورد مصداقًا لذلك أن النبي ﷺ حينما أراد قطع يد المخزومية السارقة وحاولوا أن يشفعوا لديه - ﷺ كي يعفيها من القطع لشرف قومها قال عليه الصلاة والسلام: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد أما والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[1].

وقد كانت أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تولى الخلافة متضمنة إلغاء هذا المبدأ الجاهلي وإقرار مبدء المساواة في الحقوق حيث يقول: «إن أقواكم عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، وأن أضعفكم عندي قوى حتى آخذ الحق له».

وحادثة عمر مع جبلة بن الأيهم مشهورة، فقد أبى إلا أن يقتص منه صفعة بصفعة، مع أنه عظيم من عظماء قومه دخل في الإسلام، ومع أنه صفع أعرابيًا صغيرًا لا شأن له، فأبت عدالة الإسلام أن تجامل الكبير على حساب الصغير، أو أن تحتفظ بإسلام هذا الكبير على صورة تعطيه ما ليس له في المجتمع الإسلامي القائم على المساواة وإهدار الطبقية، ولذلك لم يطق جبلة أن يعش في هذا المجتمع فارتد عن الإسلام وفر من بلاده حتى لا يطبق عليه حكم المرتدين.

---

(١) البخاري عن عائشة ك/ أحاديث الأنبياء ب/ حديث الغار (٣٢١٦).

هذا وأمر الطبقية في الجاهلية معروف مشهور حتى لقد حاولوا أن يطبقوه في المجتمع الإسلامي، إذ جاء إلى الرسول ﷺ فريق من كبار أهل مكة يطلبون منه أن يجعل لهم موعداً يجتمعون إليه فيه دون أن يزاحمهم أمثال صهيب وبلال وخباب من المستضعفين، فبادر القرآن الكريم إلى نهيه عن ذلك نهيًا حاسماً بقوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢)، بل أمره القرآن أمر جازماً بأن يصبر نفسه مع هؤلاء ولا يتركهم إذ يقول: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٨، ٢٩).

وكل هذا يسير في نطاق المبدأ الإسلامي الذي أعلنه القرآن الكريم بكل صراحة ووضوح حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، والذي أعلنه رسول الله ﷺ في آخر خطبة جامعة خطبها وهي خطبة الوداع التي خطبها في اليوم التاسع من ذي الحجة يوم عرفة وضمنها المبادئ الأساسية التي أوصى بها المسلمين، إذ يقول فيها: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم فاشهد».

جـ - وأما الجهة الثالثة من جهات الفساد في الحكم الجاهلي فهي جهة الأحكام التي كانوا يحكمون بها، وكانت مستمدة من عرفهم الجاهلي الفاسد.

* فكانوا يبيحون ألواناً من التعامل تؤدي إلى الظلم واضطراب المجتمع، كبيع المنابذة، والملامسة، وحبل الحبلة ونحو ذلك.

* وكانوا يأكلون الربا أضعافًا مضاعفة.

* وكانوا يستخدمون الفتيات في البغاء ليسدوا الديون بمكاسبهن الخبيثة.

* وكان لهم مواقف متناقضة في أمر النساء، فبينما كانت الغيرة على الحرم إحدى صفاتهم، إذا هم يستبيحون نكاح الاستبضاع وهو أن يبعث الرجل بزوجته، أو تذهب الزوجة من تلقاء نفسها، إلى رجل عظيم فتمكنه من نفسها لتنجب ولدا ترجو أن يكون عظيما مثله.

* وكانوا يستبيحون دم العدد الكبير من الناس في القصاص فلا يكتفون في قتل واحد بمن قتله، وربما أخذوا غير القاتل فقتلوه قصاصًا لأنهم لا يرون القاتل كفؤا للمقتول وبذلك يأخذون البرىء بذنب المجرم.

ومما روي في ذلك قول الشاعر ـ وكان له صديق قتله أحد بني عوف، فلم يجد القاتل كفؤا لصديقه، ولكنه اختار أعظم من في القبيلة فقتله به دون أن يكون هو القاتل، وتصادف أن هذا العظيم هو خال الشاعر، فانتقم منه لصديقه، وافتخر بانه قتل خاله وفاء لصديقه، فقال:

بكت حزنا أمي زميلة أن رأت ... دما من أخيها في المهند باقيا
فقلت لها لا تجزعي أن طارقا ... خليل الذي كان الخليل المصافيا
وما كنت لو أعطيت ألفي نجيبة ... وأولادها لغوا وستين راعيا
لأقبلها في طارق دون أن أرى ... دما من بني عوف على السيف جاريا
وما كان في عوف قتيل علمته ... ليوفيني من طارق غير خاليا

وهكذا قتل الخال البرئ المسكين بيد ابن اخته ـ اي ابنه ـ تمشيا مع عرف جاهل باغ.

فأين هذا من حكم الله العلي القدير الذي يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤).

وكيف نتصور حال مجتمع كمجتمعنا الحاضر لو أن هذا العرف الجاهلي كان مطبقًا فيه؟ أليس من المحتمل أن يجرم قريب من أقرباء أحدنا في الريف أو في المدينة، فلا يرى أصحاب الثأر بدًا من أن يختاروا أحسن من في الأسرة ليأخذوا ثأرهم بقتله.

ولو ذهبنا نتتبع ألوان الأحكام الجائرة في مجتمع الجاهلية لرأينا الكثير، وإنما هي أمثلة ضربناها، نبين بها فضل الإسلام في إنقاذ العالم من الهمجية وانحرافات الحكم الفاسد.

والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل.

(٣)
تبرج الجاهلية

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب : ٣٣) .

وردت هاتان الفقرتان ضمن طائفة من الآداب أدب الله بها نساء النبي ﷺ في سورة الأحزاب .

وقد علمنا أن لفظ « الجاهلية » ذكر في أربعة مواضع من القرآن الكريم بينها هذا الموضع، ولكن هذا الموضع ينفرد بأن لفظ الجاهلية فيه اتبع بوصف هو لفظ« الأولى » حيث قال الله جل شانه : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ .

والمفسرون مختلفون في تفسير « الجاهلية الأولى » فمنهم من يقول : هي الزمن الذي بين آدم ونوح، ومنهم من يقول : هي الزمن الذي بين إدريس ونوح، ومنهم من يقول : هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم - عليه السلام - .

ونرجح أن القرآن إنما وصف « الجاهلية » في هذا الموضع بلفظ « الأولى » إيذاناً وتحذيراً من « جاهلية أخرى » قد تقع بعد الإسلام إذا نسيت تعاليمه، وجحدت آدابه .

وهذا هو ما ارتضاه الإمام الزمخشري في « الكشاف »حيث يقول : « ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكان المعنى : ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر، ويعضده ما روي : أن رسول الله ﷺ قال لأبي الدرداء حين عير رجلاً بسواد أمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية »[١] .

ومن المعروف أن النساء في الجاهلية كن متبذلات جريئات، وأن بعض العهود القديمة للجاهلية كان أمر التبرج فيه قد وصل إلى حد قبيح، كالذي ترويه الروايات من أن المرأة كانت ربما لبست درعا من لؤلؤ فمشت به في وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، أو كالذي يحكى من أن المرأة كانت ربما جلست مع زوجها

---

(١) البخاري عن المعرور بن سويد ك / الإيمان ب / المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها (٢٩) .

وخلها في وقت واحد، وهي كاشفة عن مفاتن جسدها.

والواقع أن مشكلة «التبرج» هي مشكلة أبدية مادامت الأنوثة والذكورة، فإن التبرج هو إظهار الأنثى محاسنها وزينتها للذكر، فإذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها - مثلاً - قيل: تبرجت، وإذا تكسرت في مشيها وتبخترت، قيل تبرجت، وأصل البَرَج بفتح الباء والراء الظهور، فكل ظاهر بيِّن فقد برج.

ومن طبيعة الحياة أن تتبدى الأنوثة للذكورة، وذلك واضح حتى في عالم الحيوان غير أن الإنسان من شأنه أن يهذب ما فيه من الطباع الحيوانية، وأن يحاول تنظيم الغرائز الشهوانية، حتى يرتفع عن الحيوان الأعجم، ويسمو بحياته عن التجاوب الساذج مع دواعي الجنس، فإذا طلبنا من الإنسان أن يكون مجتمعه قائماً على أساس انخلاع المرأة من طبيعة الأنوثة، فقد طلبنا محالاً، وكنا كمن يحاول بناء قصر على كثيب من الرمال، ولكن إذا قلنا للمرأة: نحن لا نحول بينك وبين طبيعتك كأنثى، وكل ما نبتغيه أن تذكري أنك إنسان، وأن مجتمعك مجتمع إنساني، وأن ابرز ما يسمو به المجتمع الإنساني عن المجتمع الحيواني هو الفضيلة والترفع عن مسايرة عمياء، أو هوجاء، - إذا قلنا للمرأة ذلك، فإننا نكون منصفين وواقعيين - وأقول واقعيين ولا أقصد طبعًا المعنى الذي يتلاقي مع من نسميهم بالوجوديين، ولكن أقصد مسايرة الفطرة وعدم التنكر للواقع مع العمل على تهذيبه وتنظيمه والسمو به إلى المراتب الإنسانية - ولذلك نرى أن مشكلة التبرج تتيسر أو تتعقد تبعًا لفهم المجتمعات لهذه الحقيقة أو عدم فهمها:

وهي دائما متعقدة في المجتمعات المتخلفة، والمجتمعات المتطرفة، فالأولى تفرض أن الأنثى مخلوق مريب دائمًا، متطلب للمتاع منساق وراء الشهوة، يتبرج للذكر ويتزين لإرضائه، ومن ثم تنظر هذه المجتمعات المتخلفة إلى المرأة نظرة الإنسان إلى الشيطان وتعمل على تخبئتها وراء الأسوار والحجب، خوفًا عليها من أن تنطلق في سبيل الغواية والفساد غير مكتفية بما هو مشروع لها.

أما المجتمعات المتطرفة فتطلق العنان للمرأة، وتضع حبلها على غاربها، وتنطبع في قواعد سلوكها وآداب اجتماعها، بالطابع الذي يساير انبعاث المرأة مع طبيعتها

الحيوانية التي لم تهذب ولم تقلم أظافرها، ولم توجه إلى الفضيلة الإنسانية.

إن هذه المجتمعات المتطرفة، وتلك المجتمعات المتخلفة، كلاهما منحرف عن طريق مقاومة الطبيعة كل المقاومة، أو مسايرتها كل المسايرة.

والإسلام بما شرعه في شئون المرأة يريد إنقاذها من كلتا الجاهليتين: جاهلية التضييق والحبس التي من شأنها أن تخلق جو التمرد الخفي، والتآمر السري على الفضيلة، وجاهلية الإطلاق والإباحية التي تنتهي بالمرأة إلى ممارسة الرذيلة تحت اسم مستعار يرتضيه المجتمع هو اسم المدنية أو الحرية أو نحو ذلك.

ولننظر إلى الآيات الكريمة التي ورد فيها النهي عن تبرج الجاهلية، فإننا سنجدها ترسم الطريق الوسط في هذا الشأن وذلك قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٢-٣٤).

فهذه الآيات مصدرة بحقيقة اجتماعية، هي كون نساء النبي ذوات اعتبار خاص في المجتمع؛ لأنهن زوجات من به تكون الأسوة. وهذا إيذان بأنهن قد يكلفن بتكلف زائدعلى غيرهن من النساء رعاية لوضعهن الاجتماعي مع مخاطبتهن في الوقت نفسه بالتكاليف العامة، ولعل من التكاليف الخاصة بهن قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ كما أن من التكاليف الخاصة بهن عدم جواز نكاحهن بعد رسول الله ﷺ، والذي يهمنا الآن هو أن ندرس قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢)، فإن هذه العبارة لها صلة واضحة بمعنى «التبرج» الطبيعي الذي تتصف به الأنثى، وبيان القدر الذي يسمح به منه.

فعدم الخضوع بالقول من النساء حين يتحدثن مع الرجال أدب عام يشرعه الله للنساء جميعاً، وليس من الآداب الخاصة بنساء النبي، وكلنا نعرف أن لغة الحديث وأسلوبه وتقاسيمه الإلقائية ونبراته الصوتية تختلف، فمنها ما قد يدل على أن المتكلمة امرأة فاضلة عفيفة ليس في كلامها ولا في أسلوب إلقائه ما يشعر بأنها «خاضعة بالقول» - أي مستجيبة لإيحاءات خفية قد يوحي بها حديث بعض الرجال إليها، ومنها ما يدل بنبراته أو طريقة إلقائه على غير ذلك.

فالله ينهى النساء عن «الخضوع بالقول» على النحو الذي وصفناه، وليس معنى هذا أن تخشن المرأة صوتها، أو تخرج عن نبرات أنوثتها، فتصبح كالرجال خشونة وصرامة، ولكن الذي تنهى عنه هو الخروج عن الحدود المألوفة المعروفة بمقتضى العرف السليم، ولا سيما أن المجتمع بصير نقاد ذواق يعرف هل خرجت المرأة في حديثها عن حدود ما يستحسن أو لم تخرج، ولذلك يحكم القرآن ما هو معروف فيقول: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ أي قولاً يقره العرف ولا يأباه الذوق العام ولا يجد فيه انحرافًا أو خروجًا وإن بدت فيه خواص الأنوثة.

فإذا تحدثت الآية بعد ذلك عن التبرج، فإنها تذكر تبرج الجاهلية الأولى، وظاهر أن تخصيص هذا اللون من التبرج بالذكر ليس المقصود منه إفادة أن غيره من ألوان التبرج مباح للنساء، وإنما جاء الكلام على حد قوله تعالى في آية الربا المضاعف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل عمران: ١٣٠)، فإن المراد به تفظيع أكل الربا، فاختيرت الصورة التي ينتهى إليها الربا عادة، وهي صورة الأضعاف المضاعفة، فكأنه يقول لهم: مادمتم قد ارتضيم أن تتعاملوا بالربا فسوف يجركم ذلك إلى أفظع أنواعه وإن لم يكن لكم قصد إليه من أول الأمر، فهنا أيضا يقول للنساء: أن التبرج قد يخرج عن حده الطبيعي الذي يباح للأنثى بمقتضى أنوثتها حتى يصل إلى تبرج الجاهلية، الذي لا شك أنه كان معروفًا وممقوتًا عند الحرائر. فالمراد تفظيع أمر التبرج، والتخويف من عواقبه حتى لا ينجذب النساء بأوائله إلى أواخره.

ثم يأمرهن بعد ذلك بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأحسن علاج في الواقع للنساء في أمر التبرج، هو شدهن إلى اقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتملأ القلوب روحانية وطهراً، وإنما تقول ذلك عن الصلاة التي (تقام) أي تصحح أركانها، ويحافظ عليها في أوقاتها، وينظر إليها كبناء يقام ويصان، واشتغال المرأة بالصلاة في أوقاتها الخمسة اليومية، سيحولها من غير شك إلى امرأة ليس كل همها أن تتبرج لرجلها، وأن تخرج في هذا التبرج عن حدوده المشروعة، فهي ستحسب حساب صلاتها ووضوئها لهذه الصلاة فتكتفي بلون من ألوان الزينة يتفق وإقامتها للصلاة، ومن ثم لا تكون مسرفة ولا خارجة عن الحدود الطبيعية.

ومثل هذا يقال في جر المرأة إلى ايتاء الزكاة، فإنها ستنفق بعض مالها في سبيل الله، وستشعر بلذة الإعطاء والإحسان إلى الفقراء، والبر بالضعفاء، وسيجعلها هذا الشعور أحرص من أن تنفق على زينتها ما يخرج بها عن طبيعتها، وبذلك تعتدل في هذه الزينة وتقتصد مكتفية بالحدود الطبيعية للتزين والتبرج. فإذا جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ كان ذلك إجمالاً بعد التفصيل، ووصية عامة يطلب من النساء أن يطبقنها راضيات مطمئنات.

ثم يأتي بعد هذا كله، التعليل لهذه الأوامر والنواهي حيث يقول: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، فيفهم من هذا التعليل أن الأمر ليس تحكماً وإنما هو تحقيق لمصلحة عليا، هي إذهاب كل رجس عن هذا البيت الشريف وتطهيره أبلغ تطهير، وإذا كان هذا هو مراد الله تعالى بالنسبة لنساء النبي، وبيت النبي، فهو مراده قطعاً على وجه العموم بالنسبة لكل النساء، وكل البيوت والأسر غير أن بيت النبي وأسرة النبي يحملان من هذا التكليف أعظم قسط لمكان القدوة والأسوة، فقد يغتفر لغيرهن ما لا يغتفر لهن.

ويأتي بعد ذلك أمر آخر لهن بعد الأوامر والنواهي التي بها يكملن في أنفسهن ويصلحن في بيوتهن: ذلك الأمر هو أن يبلغن عن الرسول ﷺ وأن يكن معلمات

لغيرهن بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله ، وهي القرآن الكريم الذي كان يتنزل على رسول الله ﷺ في بيوتهن بين الحين والحين، ومن الحكمة، وهي ما يؤخذ عن الرسول ويروى من قول أو فعل، أو ما يتصل بذلك.

وبهذا نعلم أن هذا التأديب الإلهي لنساء النبي إنما كان هدفه لأمرين:

* أن يكن في أنفسهم صالحات.

* وأن يكن بعد ذلك مصلحات .

ونعلم مما جاء في تضاعيف هذا التأديب أن الأمر جاء فيه على سبيل القصد والتوسط والتكليف بما لا شطط فيه، وإن كان قسط نساء النبي منه أعظم وأكمل من قسط غيرهن من النساء، وقديما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة: ١٤٣) .

(٤)
حمية الجاهلية

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الفتح: ٢٦) .

الحمية : الأنفة والكبرياء، وهي تعبير عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت، كان الجسم قد أصابته منها الحمى والحرارة، ويقال: حميت على فلان، أي غضبت عليه غضباً شديداً.

وقد ذكر الله تعالى هذا التعبير في كتابه العزيز وهو بصدد قصة «الحديبية» المشهورة في تاريخ الإسلام، والتي تضمنت ألوانًا من العبر والأحداث، هي جديرة كل الجدارة بأن تدرس ويفقه فقهها الديني، والسياسي، والاجتماعي، والنفسي.

ولقد تكفلت سورة «الفتح» ببيان أهم هذه النواحي، وتكفلت «السيرة النبوية» بتفصيل أحداثها على وجه يهيئ لكل «باحث» عناصر بحثه ومادة دراسته، وليس هناك إلا أن تنشط الهمم، وتشحذ العزائم.

وموضوعنا هذا عن «حمية الجاهلية» إنما هو جانب من تلك الجوانب التي تضمنتها السورة، وعنصر من العناصر التي يجب أن تراعى في تحليل القصة.

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة يوم الاثنين مستهل ذى القعدة سنة ست من الهجرة، يريد العمرة، وكان يتوقع أن تتعرض له قريش بحرب، أوتصده عن المسجد الحرام، فدعا الناس إلى الخروج معه للغرض الذي خرج له، فلباه عدد كبير من المهاجرين والأنصار وغيرهم بلغوا ألفا وأربعمائة تقريباً، وفيهم مائتا فارس، وساق معه الهدي سبعين بدنة، ولم يخرج بسلاح إلا سلاح المسافر - السيوف في القرب - .

فلما كان بذي الحليفة، وهي أقرب نقطة يمر بها المسافر من المدينة، أحرم هو وأصحابه منها، ليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا «للبيت الحرام» ومعظماً له، لا قاصداً «الحرب» وساروا في طريقهم ، وبلغ ذلك قريشاً فخرج جمعهم صادين لرسول الله ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام ودخول مكة وقرروا أن يقاتلوه لو قاتلهم وأراد دخول مكة عنوة، وعلم بذلك رسول الله ﷺ فقرر أن يسلك طريقًا يبتعد به عن جمعهم الزاحف إليه فلما وصل إلى «الحديبية» بركت ناقته فقال الناس: خلأت، خلأت . .

فقال النبي ﷺ : «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة»(١) .

وقد حسب الناس أن ناقة رسول الله ﷺ قد حرنت وبركت بالأرض تمرداً على السير، فعرفهم بأن هذا ليس من خلقها فهي ناقة أصيلة معلمة لكنها إنما بركت في هذا المكان «بإلهام» من الله تعالى، لأمر يريده جل جلاله، وهذا معنى قوله ﷺ : «ولكن حبسها - أي منعها من مواصلة السير - حابس الفيل عن مكة» يشير إلى «حادثة الفيل» الذي قدم مع جيش «أبرهة» في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ يريد غزو مكة، وتهديم الكعبة، وكان من لطف الله يومئذ أن الفيل كان يأبى السير حين يوجه إلى طريق البيت الحرام، ويسير إذا وجه إلى الطريق العكسي، وروي أنهم كانوا يضربونه ويعنفون عليه في السوق فلا يطيع وكان ذلك من إرهاصات بعثة الرسول ﷺ .

وهنايحتفظ التاريخ بأجمل صفحة سجلها عن أعظم المحاولات الشريفة للمحافظة على السلام، وكراهية سفك الدماء البشرية بلا مبرر، والتلطف مع الأعداء وتمكينهم من دراسة الأمر في هدوء وعن كثب، ليعرفوا الحقيقة وينكشف عنهم الزيف الذي موه به عليهم في شأنها .

كان للرسول ﷺ موقف رائع، تتجلى فيه الرحمة، والحكمة والثبات، والصبر،

---

(١) البخاري عن المسور بن مخرمة ك/ الشروط ب/ الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٢٩) .

والدفاع عن الرأي حين يجابه بالمعارضة القوية من الأنصار والأصحاب وكان للمسلمين موقف، وكان للمشركين موقف .

فأما رسول الله ﷺ فقد قرر ألا يسلك مسلك العنف .

فقال منذ أول لحظة وطئت فيها قدمه أرض الحديبية : «والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»[1] .

وهذا يفصح عن رحمته، وحسن نيته وكريم مراعاته للرحم، أي للعلاقة القومية بينه وبين هؤلاء الذين أخرجوه وحاربوه وصدوه، فلم ينس مع ذلك كله علاقته الرحمية بهم.

وقال ﷺ : «ياويح قريش، أنهكتهم الحرب، فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب، فإن هم أصابوني، كان الذي أرادوه، وأن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وافرين، وأن أبوا قاتلوني وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فو الله الذي لا إله إلا هو لا أزال أجاهد على الذي بعثني به ربي حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ـ وهي صفحة العنق، يكني بذلك عن قتله» .

وفي هذه الكلمات النبوية العالية يبدو إنصاف الرسول وشفقته ونصحه حتى لمخاصميه ومعارضي دعوته، فهو يعجب لإصرارهم على حربه وقد نهكتهم هذه الحرب وكلفتهم الأموال الطائلة والدماء الغالية وعوقتهم عن كثير من وجوه أعمالهم ونشاطهم التجاري الذي كانوا يعرفون به، ثم يذكر أنه كانت لهم مندوحة عن هذه الحرب، وكانوا في سعة من أمرهم، لو أنهم خلوا بينه وبين العرب، يبثهم دعوته، ويلقى إليهم برسائله فإما أن يغلبوه ويصيبوه، ويومئذ تستريح قريش منه، وتسحب ذيل النسيان على أمره، وإما أن يؤمنوا به، فلن يفوت قريش ما تريد، حيث تستطيع أن تناجزه العداء والحرب فيما بعد، وهي حينئذ قوية بما استراحت من الحرب، واستردت من جأشها، ونظمت من شأنها، ثم

---

(١) البخاري عن المسور بن مخرمة ك/ الشروط ب/ الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٢٩).

يتساءل رسول الله ﷺ عما تريد قريش منه، فيقسم بالله قسم الواثقين بأمرهم، المنبعثين وراء عقيدتهم: أنه لن يتزحزح عن دعوته وعن الجهاد في سبيلها بكل ما يملك، فإما أن ينتصر، وإما أن يموت كما يموت الشهداء الأوفياء للحق.

وفي هذا تيئيس لهم عما عسى أن يراود نفوسهم من الطمع في نزوله عن دينه والتفاهم معهم على وضع يرضونه.

وهكذا نجد في هذا الكلام النبوي الكريم إشفاق النبوة النبيل، ونصحها الرزين، وإنصافها الإنساني لمن هم ألد الأعداء، يتوج ذلك كله إيمان لا يتزلزل بدعوة الحق، وثبات على الجهاد في سبيلها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وتلك لعمري دروس جديرة بالتأمل والاعتبار.

ولم يكن ذلك على إحساس من رسول الله ﷺ بالضعف، وخوف من الأعداء، فلقد كان رسول الله يومئذ على رأس قوة من المسلمين، وما منهم إلا فدائي يود لو أنه جاد بنفسه طاعة لأمر الله ورسوله، ولقد بايعوه يومئذ بيعة الرضوان التي يقول فيها القرآن الكريم: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (الفتح: ١٨) .. والتي جعلها مبايعة لله - عز جل - إذ يقول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (الفتح: ١٠).

ولو شاء رسول الله ﷺ أن يشعلها يومئذ حربًا زبونا لأشعلها، وإن قريشا قد علمت بهذه المبايعة فانخلعت قلوبها، وامتلأت صدورها رعبًا، لأنها وجدت نفسها أمام طائفة مؤمنة قد شروا أنفسهم في سبيل الله لا يبتغون عرضًا ولا جاهًا، وإنما يبتغون إحدى الحسنيين، إما نصرًا مؤزرًا وإما استشهادًا يدخلون به الجنة في حلل النعيم، وظلل الرضوان.

ومن عادة «الباطل» أن يجفل من «الحق» ولا سيما إذا رأى عزمة من عزماته، وثورة من ثوراته، إنه حينئذ يتزلزل ويتخلخل ويصيبه الذعر، ويلتمس أسباب النجاة.

وقد أرشد الله تعالى إلى هذا المعنى حيث يقول في شأنهم:

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الفتح: ٢٢، ٢٣).

أما المشركون فقد وقفوا يومئذ مع ضعفهم ورعبهم موقف الشراسة والاستكبار، تقودهم «حمية الجاهلية» ويطمعهم في الرسول ﷺ ما بلغهم عنهم من قوله:

«لا تدعوني قريش اليوم إلي خطة بها صلة للرحم إلا أعطيتهم إياها».

لقد طمعوا بذلك، ودعاهم طمعهم إلى التشدد والاشتراط، بل إلى التعسف والشطط.

فبينما هم خائفون يملؤهم الروع، ويحملهم ذلك على طلب الصلح إذا هم يشترطون في هذا الصلح شروط ثقيلة على المسلمين لا يشترطها إلا المنتصرون.

وكانت خلاصة هذه الشروط أن ينصرف النبي ﷺ عامه ذلك دون أن يزور البيت معتمراً كما نوى، فإذا كان العام القابل أتى معتمراً ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح - حاشا السيوف في قرابها - فيقيم بها ثلاثا ويخرج، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رد إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه.

هذه هي شروط الصلح كما أصرت عليها قريش، وقبلها النبي ﷺ ايثاراً للسلام، وحقناً للدماء، واحتراماً للحرم، واشفاقاً على الرحم، وصبراً حتى يأتي فرج الله..

وكان «سهيل بن عمرو» هومندوب قريش فدعا رسول الله ﷺ عليًا لتسجيل كتاب الصلح، فقال له: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا نعرف هذا فليكتب: «باسمك اللهم»، فضج المسلمون وقالوا: والله لا يكتب إلا ما أمر به رسول الله».

لكن رسول الله ﷺ قطع النزاع بقوله لعلي:

اكتب: باسمك اللهم، فكتبها عليّ ممتثلاً أمر رسول الله ﷺ ثم قال له النبي: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، ولا صددناك عن البيت، ولكن ليكتب: هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

فقامت قيامة المسلمين في الإنكار على سهيل، وأبوا إلا أن يكتب ما أملاه رسول الله وكادت الفتنة أن تقع لولا أن رسول الله ﷺ قال: أنا محمد رسول الله، وإن كذبتموني، وأنا محمد بن عبد الله، فاكتب يا علي:

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، فكتبها علي.

وهكذا تجلى حلم رسول الله ﷺ وتجلى حرصه على السلام وعدم سفك الدماء، كما تجلت «حمية الجاهلية» واضحة جلية في صنيع قريش وإصرار مبعوثها.

وهذا من أعظم ما سجله التاريخ لقائد عظيم يحلم غاية الحلم، ويتكرم أعظم التكرم، مع إحساسه بالقوة، وقدرته على أن يحسم الأمر بالسيف، ويحمل أهل الشطط والعنف على الطاعة حملاً.

فأما موقف المسلمين فقد كان أول الأمر موقف الألم الشديد من قبول رسول الله ﷺ لهذه الشروط، لما فيها من مظهر الإذلال للمسلمين ولا سيما وهم لم يدخلوا موقعة مع المشركين فينهزموا فيها، فتكون تلك الشروط المهينة طبيعية ونتيجة منطقية لانهزامهم، ثم هم قد بايعوا رسول الله ﷺ على الجهاد حتى الموت، فما باله يتقبل مبايعتهم، ويضع يده في أيديهم عليها، ثم لا يمضي في حرب المشركين ويدخل البيت الحرام آمنًا، كما قص عليهم من رؤياه التي رآها، وأن الله يبشره فيها بأنه هو وأصحابه سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين.

عجب المسلمون من موقف رسول الله ﷺ وبلغ الأمر إلى أن ثارت ثائرة كثير منهم، وإلى أن عمر بن الخطاب نفسه ثار واشتد وتساءل: ألسنا على الحق؟ أليس هو برسول الله؟ فلما نقبل الدنية؟

ثم بلغ الأمر بهم أن عصوا الرسول ﷺ، أو توقفوا عن تنفيذ أمره، حين أمرهم

أن ينحروا الهدى ويحلقوا رءوسهم ، متحللين من إحرامهم الذي أحرموا به، وقد كان ذلك في نظرهم أمراً عظيماً، حتى أشارت « أم سلمة » على رسول الله ﷺ أن يبدأ هو فينحر هديه ويحلق رأسه، فإذا رآه المسلمون يفعل ذلك فعلوه غير مترددين، فعمل رسول الله ﷺ بما أشارت به أم سلمة، فعاد الناس إلى رشدهم وأطاعوا الرسول فيما كان قد أمر به، وكانت مشورة ناجحة مباركة احتفظ بها التاريخ لأمرأة عاقلة مؤمنة مخلصة.

وابتدء المسلمون يستمعون إلى « بيان » الرسول ﷺ وتبريره لما فعل، وأنه كان في ذلك صادراً عن أمر الله وأن الله جاعل بعد ذلك فرجًا وفتحًا قريبًا، فاستقرت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وأنسوا إلى « وعد » الله ورسوله، ولزموا الطاعة وكلمة التقوى، وهي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فكانت هذه الكلمة ثباتًا لهم، ونوراً يهتدون به كلما راودهم الشيطان عن أنفسهم في هذا الشأن الخطير، إذ يقول المؤمنين بهذه الكلمة : مادمنا قد آمنا بالله ربنا، وبمحمد رسولنا، فلنرض بما رضيه الله ورسوله.

وذلك كله هو ما تشير إليه الآية الكريمة في شأن المواقف الثلاثة ، للنبي والمؤمنين والمشركين، وهي الآية التي صدرنا بها هذا الفصل :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٦) .

وقد عاد هذا الصلح الذي لم يدرك المسلمون أول الأمر حكمته بأعظم الفوائد على الإسلام والمسلمين، ونحن نسوق ما كتبه في ذلك العلامة « شرف الدين الموسوي » في كتابه « النص والاجتهاد » إذ يقول :

« كفى بالصلح عائدة أنه كان سببًا في اختلاط المسلمين بالمشركين، فكان المشركون يأتون بعده إلى المدينة، كما أن المسلمين كانوا يأتون مكة » .

فإذا جاء المشركون إلى المدينة، ورأوا رسول الله بهرهم ﷺ بأخلاقه وقدس

سيرته، وعظم في أنفسهم أمره، هديًا ورأيًا، وسمتًا ونعتًا، وقولاً وفعلاً، وراقهم الإسلام بشرائعه وأحكامه، من حلاله وحرامه وعباداته ومعاملاته، وسائر نظمه، وبالغ حكمه، وملكهم القرآن بآياته وبيناته، فأخذ بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، وأدهشهم أصحاب رسول الله بتعبدهم بأوامره وزواجره .. فإذا هؤلاء على مقربة من الإيمان، بعد أن كانوا قبل صلح الحديبية في منتهى العمه والطغيان، وإذا هم يرجعون إلى أهليهم كمبشرين بمحمد ومنذرين بفتحه.

وإذا أتى المسلمون مكة وخلوا بأرحامهم وأصدقائهم لا يألون نصحًا ودعاية إلى الله ورسوله بما يوقفونه عليه من أعلام النبوة وآيات الإسلام وما في القرآن الحكيم من علم وحكمة، ونظم اجتماعية، وسنن وفرائض وآداب وأخلاق، ومواعظ وعبر، وأخبار الأمم الماضية والقرون الخالية فإذا هؤلاء أيضًا مبشرون - ببطن مكة - ومنذرون وقد كان لعملهم هذا أثره العظيم في تسهيل أمر الفتح، بلا قتال ولا ممانعة، والحمد لله .

وهناك من فوائد الصلح ما حصل بمجرد اجتماع المشركين مع رسول الله ﷺ في الحديبية ووقوفهم على هديه وخلقه بإمعان، وكان أكثر قريش - إذ ذاك - لا يعرفون منها شيئًا، ولا سيما شبابهم، إذ كان أبو جهل والوليد وأبو سفيان وشيبه وعتبة وأمثالهم من مشيخة الأوثان والجاهلية، أرجفوا برسول الله ﷺ وتسنى لهم تسميم الرأي العام الجاهلي فيه، وقد أجلبوا عليه بكل ما لديهم من حول وطول، وبكل ما يستطيعونه من فعل وقول، ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

قصدوه وهو في دار هجرته محاربين ليقتلوه وأصحابه، ليستأصلوا شأفة الذين آووه ونصروه بغيًا وعدوانًا، فنصره الله عليهم في بدر وأحد والأحزاب: وقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» .

لكن ظل أهل مكة - بعد هذه الحروب - على ضلال رأيهم المسموم في رسول الله ﷺ إذ لم تره أعينهم بعد الهجرة، ولم يبلغهم عنه إلا ما سمعوه من أولئك المرجفين، فلما كان يوم الحديبية واختلطوا به وبأصحابه، رأوا منه خلقًا عظيمًا.

كانوا كلما تبغضوا إليه بجفاء وسوء صنع، تحبب إليهم بحنو وعاطفة وحسن صنع، فإذا قسوا وأغلظوا له، لان وخفض لهم جناح الرحمة، مستمراً معهم على هذه الحال، يقابل إساءتهم بالبقيا عليهم، والإحسان إليهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥) .

وهذا ما كان في نظر قريش كفارة له عما كان في بدر وأحد والأحزاب، إذ تجلى يومئذ لهم - بكفه عن قتالهم - أنه غير مسؤول عن شيء من ذلك، وإنما المسؤول عن تلك الدماء المسفوكة إنما هم مشايخ قريش كأبي سفيان وأبي جهل وأضرابهما الذين غزوه - وهو في مهجره الذي فر منهم إليه - فاضطروه إلى دفع عدوانهم عنه وعن أصحابه ولو كفوا عنه وعن الذين آووه ونصروه لكف عنه مقتصراً في دعوته إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة.

اطفأ رسول الله ﷺ في الحديبية وقدة قلوب هؤلاء المشركين واستل سخائمهم، وأزال أضغانهم، وأغراهم بسادتهم، وكبرائهم ، حتى أيقنوا بعدوانهم عليه، وجنايتهم على أنفسهم، وبهذا لانت قلوبهم مطمئنة بحسن عواقبهم معه إذا انضموا إلى لوائه، معتصمين بولائه، حمية بالغة، أعقبت الفتح المبين، والنصر العزيز، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وهذا هو مسلك الإسلام في معالجة «حمية الجاهلية» وهذا هو ما انتهى إليه من الفتح الحقيقي المبين، فتح القلوب والأفكار، ولقد نعلم ويعلم المسلمون جميعاً في مختلف شعوب الأرض، أن ألواناً من «حمية الجاهلية» ما زالت في مختلف العصور إلى عصرنا الحاضر تهب ريحها بين المسلمين، فتقطع الاواصر، وتجعل الإخوان في الدين والأهداف العليا يختصمون ويتفرقون شيعاً وأحزاباً، وهم يعلمون أنه لايفيد أحد من تفرقهم وتقاطعهم إلا المستعمرون وأعداء الإسلام.

إن «حمية الجاهلية» تتمثل أحياناً في الطائفية بين المذاهب الإسلامية، فهؤلاء شيعة .. وهولاء سنة، مع أن الدين واحد، والرسول واحد، والكتاب واحد،

والقبلة واحدة، والصلوات واحدة، والأهداف واحدة فعلام نختلف إذن ونتفرق ويتظنن كل أصحاب مذهب منا بالآخرين؟

ألا وإن «حمية الجاهلية» تتمثل أحيانًا في حرص هؤلاء الرجعيين على الاستمساك بما في أيديهم من صولجان الملك، وجشع الرأسمالية الطاغية القاسية فهم يخشون أن يضعوا أيديهم في أيدي دعاة الإصلاح والعدالة الاجتماعية السليمة الموفقة الموافقة لدين الله، ولمبادئ العدل والإنصاف التي قامت عليها شريعة الله .

فلا يظنن أحد أن «حمية الجاهلية» قد انطفأت نيرانها، أو انقضت بانقضاء القرون الماضية، فإن الجاهلية كما قلنا لا تزال تلح على كل إصلاح، وتجابه كل دعوة إلى الخير، وتحارب كل من يقيمه الله على سنن الرشاد، محاولة بذلك أن تطفئ نور الله، وما نور الله إلا مثل الحق والهدى والصلح والخير.

﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ (التوبة: ٣٢) .

الباب الخامس

الإسلام
مصدر قوة المسلمين



(١)

الإسلام والمسلمون

دين الإسـلام هـو دين الله على لسـان كل رسـول، منذ عـرفت الأرض هـداية السماء؛ عليه كان آدم، وبه جاء نوح وإبراهيم وإسماعيل وداود وسليمان ويعقوب وموسى وهارون وعيسى ابن مريم، ومن قص الله علينا ومن لم يقصص من الأنبياء والرسل، أولئك الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم.

والدين ما هو إلا العقيدة الصحيحة، والمعرفة الصادقة المطابقة للواقع، في أمر الإله الواحد القادر، وما تفضل به على الناس من رسالات، وما قضت به حكمته من بعث ونشور بعد الموت إلى دار الحساب والجزاء. هذا هو الدين لا يختلف لأنه واقع وحقائق ثابتة، وإن اختلفت الشرائع وتعددت بحسب اختلاف الزمان واستعداد البشر، لأنها سياسة المجتمع، ووسيلة إصلاحه وتقويمه.

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأصول راسخة، ومبادئ صالحة لأن تبنى عليها أعظم الحضارات، وأحدث المدنيات؛ فهي تساير كل صلاح وخير تتفتق عنهما العقول، ولا تتأبى على أي نظام من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان إلى الصراط السوي، والسبيل القويم، ويكفل له السعادة والطمأنينة، ويمكنه من القيام بما ندب له من عمارة هذا الكون، والخلافة عن الله في هذه الأرض؛ ولذلك كانت خاتمة الشرائع، وكفل الله لها الخلود والبقاء بكفالتهما لكتابه الكريم الذي هو أساسها، وعمادها، ونورها الذي لا يخبو، ومنبعها الذي لا يغيض؛ وكان التكليف بها عامًا لسائر أرباب العقول في كل زمان ومكان، ناسخًا لما سواه من التكاليف بما يتعارض معه، ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ (المائدة: ٤٨).

بهذا وذاك يعلم أن الهداية الإلهية قد تلخصت وتركزت في الإسلام عقيدة وشريعة، وأن الرسالة المحمدية هي مظهر الإنعام الكامل من الله على سائر خلقه، لا

فرق بين عربي وعجمي، ولا بين شرقي وغربي، ولا بين أبيض وأحمر وأسود، منذ عهد الرسول العربي إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

ومن الواضح أن سنة الله في خلقه لم تجر بخلود أحد من الناس، ولو كان نبيًا مرسلاً، حتى يخلد محمد بن عبد الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤)، ولا بأن تمتد الحياة بذي رسالة إصلاحية حتى يضرب في القرون، وينقل على الأجيال والأزمان، ويباشر بنفسه دعوته، ،ويحقق رسالته ولذلك عاش الرسول العربي العمر الذي يعيشه أوساط الناس، ثم لحق بربه تاركًا من خلفه رسالته الواضحة المعالم البينة الحدود، الكاملة الشاملة التي رضيها الله للعالمين ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)، وانتقل بذلك أمر هذه الدعوة في حياطتها وصونها وإبلاغها إلى كل ذي سمع وعقل وجوب الآفاق بها، إلى المؤمنين الذين اتبعوا هذا النبي، وآمنوا بعموم رسالته، وبأنهم ورَّاثه على شريعته، وقوَّامه على أمانته، وقد ساروا حينًا من الدهر في هذه السبيل، يدفعهم الإيمان القوي، وتضيء لهم تعاليم الرسول وسيرته التي لم تبرح أذهانهم ولم تغب عن عقولهم وقلوبهم، كل شعب من شعابها، وكل أفق من آفاقها، حتى مد الإسلام رواقه في قريب الأرض وبعيدها، وضرب بجرانه - أو كاد - على كل ما أظله السحاب، أو أمطرته السماء، وطرقت الدعوة المحمدية، أو الدعوة الإلهية، كل باب، وأطرق إليها كل سمع، وفكر فيها كل قلب، وشغل الناس والدول والملوك بأمرها، ولقنت العقول علمها وفقهها وروايتها، وشهد العالم على يديها أعظم رجة فكرية، بل شهد فيها أعظم موجة تبتلع الثقافات والأفكار والعلوم والمعارف والعادات والتقاليد، ثم تهضمها وتتمثلها وتلائم بينها، كما تصنع النحل حين تمتص من الأزهار والنباتات وتأكل من كل الثمرات، وتسلك سبل ربها ذللاً، ثم يجتني منها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

كانت الأمة يومئذ أمة ملك وسيادة، وعزة ومنعة، وكان لها القيادة والصدارة، وكان علمها هو العلم، ورأيها هو الرأي، وأمرها هو الحكم، وكانت الأمم تفيء إلى

ظلها، وتؤمن بعدلها، وتهتدي بهديها، وتتنافس في إرضائها والتقرب إليها، وتتحاشى إغضابها والتعرض لنقمتها؛ وتلاقت في رحابها النهضات في العلم والصناعة والتأليف والترجمة والهندسة والفن، وأخصبت العقول، وزكت الثمرات، وازدحمت صحائف التاريخ بالمفاخر وألوان المجد وأمثلة العظمة والعبقرية والنبوغ في كل ناحية من نواحي الحياة.

تلك كانت حال المسلمين من قبل، فما حالهم اليوم؟ لقد أصبحوا غثاء كغثاء السيل، عددهم كثير، وغناؤهم قليل، لا يؤمَنُونَ صديقًا، ولا يرهبون عدوًا، تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا كل حزب بما لديهم فرحون، وتعلقوا بالأمم التي قهرتهم، ونسوا كتاب ربهم، وهجروا شريعتهم، وغفلوا عن تاريخهم، وأصبحوا في كل مكان هم المضطهدين، وركدت في العلم والفكر ريحهم، وعقمت عن الإنشاء والاختراع عقولهم، وطمع فيهم من لا يدفع عن نفسه من شذاذ الآفاق، ووضعاء الأخلاق، ودخلت عليهم الفتن من سائر الأقطار، فهم منها في عناء دائم وهَم مقعد مقيم، وخيل لهم الضعف والذل أنهم قادرون على استرحام أعدائهم لأنفسهم، فالتمسوا منهم المعدلة والإنصاف، وشكوا إليهم الظلم والإجحاف، شكوى الجريح إلى العقبان والرخم، أو شكوى الشاة إلى الذئب إذا الذئب على الشاة جثم، وما دروا أن ذلك يضوي بهم، ويفتح الشهية عليهم، وأنهم حين يتوسلون إلى مفترسيهم، يثيرون بهم كوامن اللذة الحيوانية، وينبهون منهم غرائز الوحشية والبهيمية، وأنهم بذلك يتنكبون سنة الله في خلقه، حيث طمعوا في الإفلات من الأقوياء، بإظهار الضعف والاستخذاء، وينسون قول كتابهم ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ (البقرة: ١٠٥)، ﴿**لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ (آل عمران: ١١٨)، ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ (آل عمران: ١٢٠).

ولا ينبغي أن نطيل في هذا الحديث المؤسف المؤئس، فحالة المسلمين ليست في حاجة إلى الكلام عنها، والإطناب في وصفها؛ فلنعن بالبحث عن أسباب هذا الضعف، وأسرار هذا التخلف.

(٢)
الإسلام والمسلمون

جرت عادة الناس أن يرجعوا عظمة المسلمين حين كانوا أعزة إلى عملهم بشريعتهم، وتمسكهم بدينهم، وأن يرجعوا ضعفهم وذلهم في العصور الأخيرة إلى انصرافهم عن هذا الدين، وهوان هذه الشريعة عليهم. وأن هذا الحق ما فيه شك؛ ولكن مثل هذا السبب عام، أو هو يثير تساؤلاً جديداً، فيقال: وما سر انصرافهم عن الدين بعد أن كانوا به مستمسكين، وعليه حريصين؟ وعندي أن السبب المباشر لضعف المسلمين هو تفرقهم واختلافهم بالأهواء والنزعات ، وتبادلهم سوء الظن فيما بينهم؛ فكل طائفة قائمة في بلادها، عاكفة على ما عداها، تظن أنها هي وحدها التي على الحق، وما سواها من المسلمين على الباطل، ويسهل عليها من جراء ذلك أن ترمى غيرها بالكفر أو الزندقة أو المروق، أو كذا أو كذا، مما يوسع الهوة، ويزيد النار اشتعالاً؛ وما منا إلا من يذكر في تاريخه كيف غرس فيه منذ الصغر مبادئ الكراهية والخوف من بعض الطوائف، والحذر والاحتياط منهم، كما يغرس فيه الخوف والحذر من أهل الكفر على سواء بهذا كره المسلمون بعضهم بعضًا، واستولى عليهم الجهل بأحوالهم، وقست قلوبهم عما يصابون به فرادى: فكل شعب حسبه أن يتمتع هو بشيء ولو يسير من مظاهر الهناءة والسعادة، ولا يفكر في الشعوب الأخرى التي هي بضعة من الأمة الإسلامية، ولو مزقها الممزقون، وأكلها الآكلون؛ وذلك بأن عواطف الأخوة الإسلامية قد تقطعت وحل محلها البغضاء وسوء الظن.

ولعل قائلاً يقول: لقد كان هذا الخلاف بين المسلمين قائمًا في أول عهد الأمة الإسلامية، ومع ذلك جيشوا الجيوش، وفتحوا الفتوح، وبلغوا رسالة الإسلام إلى أمم الأرض، فلماذا لم يضعفهم الخلاف، ولماذا لم يسقط دولتهم؟ والجواب على ذلك

سهل يسير؛ فإن هذا الخلاف الذي بكر على المسلمين منذ أول عهدهم هو الذي فعل فعله، وأثر آثاره في حالة الضعف والركود التي أصيبت بها الأمة الإسلامية؛ غير أن الشعوب لا تموت فيما بين عام وعام، أو فيما بين عشرات من السنين وعشرات، وإنما تصاب بالمرض فتقاوم حينًا من الزمن، وتعصمها قوتها ومناعتها إلى حين، فإذا ضعفت هذه المقاومة أو غذي المرض وقويَ وساعد، تمكن وعجل بآثاره السيئة؛ وهكذا كان حال المسلمين: أصيبوا بداء الخصام والتنازع فاستسلموا له، بل قووه وساعدوه على أنفسهم، ومكنوا له فيما بينهم، فظل يستشري ويتفاقم، وظلت الأمة تضعف وتضعف في شكل تدريجي لا يكاد يُحس، وكانت الأمم من حولها ضعيفة مهينة قد ذاقت قوة المسلمين وعرفت بلاءهم وكفايتهم، فلم تحدثها نفسها بانتهاز الفرصة، وما كانت قادرة على انتهازها، وظل التقاطع وسوء الظن، والأهواء والمطامع، ظل كل هذا يفعل فعله في مثابرة حتى انتهى أمر الدولة الإسلامية على أيدي رجال الدولة الإسلامية، ثم قويت الأمم الاخرى، وأصبحت قادرة على الانتقام من المسلمين، فأحكمت خطتها، وجعلت تستغل الخلافات القديمة، وتزكي نيرانها، وتعين كل طائفة على الأخرى باسم المحافظة على فكرتها أو عقيدتها، أو ملكها وسلطانها؛ ونظر المسلمون فإذا هم يجمعون إلى الضعف الشتات والفرقة، وإذا هم صيد سهل موات لكل صائد!

فالخلاف الأول هو البذرة الأولى في أرض الإسلام، هو السر في انتهاء أمر المسلمين إلى ما انتهوا إليه؛ ولو ظل المسلمون كما تركهم رسول الله ﷺ إخوانا متفاهمين متعاونين، وعالجوا اختلاف الرأي فيما بينهم بمثل ما كان يعالج به أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خلافهم، من تغليب المصالح العليا للإسلام والمسلمين على كل ما سواها؛ ولم تنقلب الخلافة الإسلامية ملكًا عضوداً، همه توطيد السلطان، والانفراد بالحكم، والتمتع باللذائذ، ونسيان الجهاد وبث رسالة الإسلام - لو ظل المسلمون كما كانوا، ولم يصادفهم ما صادفهم، لغزوا العالم كله، ولأوصلوا دعوة الحق إلى كل ناحية من نواحي الأرض، ولبلغوا بذلك كلمة الله ، ووقوا العالم

هذا الشر المستطير الذي لا يفيق منه إلا عليه، ولا يتحرر منه إلا ليخضع له.

يجب على المسلمين أن يخلقوا من أنفسهم أمة جديدة، وأن ينسوا خلافاتهم الماضية، وعصبياتهم التي شتَّتهم وأضعفتهم، وعطلت مواهبهم، وأماتت فيهم نزعة العلو، وأقعدتهم عن التمسك بأهداب المجد.

يجب على المسلمين أن يعتصموا جميعًا بحبل الله، وأن يذكروا أن الله امتن على آبائهم في عهد الرسول الكريم بأنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها.

يجب على المصري أن يضع يده في يد العراقي والشامي والإيراني والأفغاني والحجازي واليمني والتركي والباكستاني والملايوي والألباني وكل مسلم يؤمن بكتاب الله ويشهد أن محمداً رسول الله، يوجب على هؤلاء جميعًا أن يضعوا خلافتهم ومطامعهم ورائهم ظهريًا، ويذكروا فقط أنهم جنود لله قد اشترى أنفسهم وأموالهم، وحملهم رسالة هي خير رسالة وأشرفها وأجداها على الإنسانية تلك هي الدعوة إلى الخير، والإقناع بالحق، وعبادة إله واحد لا شريك له، والتمسك بأهداب المنهاج القويم الذي يكفل لكل من تمسك به السعادة والأمن والطمأنينة والقرار.

إنهم إن فعلوا ذلك أنقذوا أنفسهم، وأنقذوا العالم معهم، وأثبتوا أنهم جديرون بميراث هذه النبوة الإصلاحية، والرسالة الشاملة، إن الأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهمًا، ولكن يورثون مبادئ الفضيلة والخير والبر، ويحملون أتباعهم أمانة الحق والإيمان والإصلاح.

إن العالم اليوم يغلي في آتون من نار المطامع، وترفرف عليه روح شيطانية مفتنة في الشر، مندفعة إلى الفساد، بل إلى الهلاك والدمار، ولا يصلحه إلا دين يسوي بين الناس جميعًا لا فرق بين أحمرهم وأسودهم، ويجعل أخوة الإيمان بين المؤمنين هي الجنسية التي بها يكون التراحم والتعاطف والتعاون، ويأمر برد من خرج عليها إلى دائرتها عن طريق التكافل والنصرة والعدل والنصفة؛ وليس هذا الدين الذي

تدعو إليه الآن ضرورة البشر بشدة وقوة إلا «الإسلام».

ولا سبيل إلى إقناع العالم بهذاالدين، إلا بالمسلمين أنفسهم، فإنهم حملة لوائه ومفاتيح كنوزه، والقادرون على جلائه ونشر نوره، ولن يكون ذلك إلا إذا اتحدوا حوله، وائتلفوا عليه، وتمسكوا فيما بينهم بأهدابه، ونسوا هذه الخلافات الفارغة التي لا طائل تحتها ولم يكلفهم الله بها، بل نهاهم عنها، وحذرهم منها، وعلى قادة الفكر، وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي يقع العبء في إقناع المسلمين بهذا، وفي تربيتهم عليه، وغرسه في ناشئتهم، وبثه في أزواجهم، حتى نسى كل فرد من أفراد هذه الطائفة أنهم على خلاف مع غيرهم من أرباب الطوائف الأخرى، فلا يعرف الشيعي بجانب السني إلا أنه مسلم مع أخيه المسلم، ولا يعرف النجدي مع أخيه اليمني إلا أنهما أبناء كتاب واحد ورسول واحد، كما لم يعد أحد يشعر بأنه شافعي والآخر حنفي، أو مالكي والآخر حنبلي.

على قادة الفكر وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي، أن يوجهوا المسلمين وجهة أخرى عملية نافعة تنهضهم، وتغير ما في نفوسهم، ليغير الله ما بهم؛ فلطالما أوغلوا في الجدال في تفضيل فلان على فلان، وتخطئة فلان وتصويب فلان، وحب فلان وبغض فلان، ممن ذهبوا إلى ربهم، وأصبحوا في ذمة التاريخ، ولم يعد لهم أثر في شئوننا الحاضرة!

على قادة الفكر وأصحاب الرأي في العالم الإسلامي، أن يتناولوا البحوث الجدلية، والمعارف التي لا صلة لها بالعقائد في هدوء ويسر، ودون تعنت ولا تعصب، وأن يعلموا أن الخطأ فيها لا ينال من الدين والإيمان، وأن الإصابة فيها ليست وقفًا على فريق دون فريق، وأن لكل إنسان أن يرى ما يرى مادام مؤمنًا بالله ورسالاته واليوم الآخر، مصدقًا لما جاء به الصادق الأمين.

مركز المسلمين في العالم

إن العالم تتنازعه الآن قوتان عظيمتان ، كلتاهما تعمل على توطيد سلطانها، وتمكين مبادئها وأفكارها في ربوعه، ولم يعد خفيًا على أحد أن هذه الأحوال المضطربة، وهذه الظلمات التي تغشى الناس، وهذه المخاوف التي تملأ نفوسهم، وتحير عقولهم، وتفسد عليهم أمورهم؛ إنما ترجع إلى هذا التنازع العنيف بين هاتين القوتين، وحرص كل منهما على أن يكون لها السلطان في الأرض، والأمر النافذ الذي لا مرد له في مختلف شئونها.

وقد سخرت موارد العالم كلها وجميع قواه المادية والمعنوية لإذكاء نيران هذا التنازع الخطير الذي يكاد يودي بالبشر، ويعصف بجميع الحضارات والمدنيات، فعبئت الجيوش والأموال، والصناعات والزراعات، والمواهب والأفكار وسائر الجهود في كلا المعسكرين، وصار العالم في كل ناحية من نواحيه موطنًا للشقاء والبؤس والحرمان، والخوف والفزع، وبدت فيه مشاكل لم تكن من قبل، وهددته أخطار كان في أمن منها، وأصبح قادته ومفكروه وعلماؤه في حيرة من أمرهم، يدركون وخامة العواقب، وينادون إخوانهم محذرين، ولكن أحدًا لم يستمع إليهم، ولا يعبأ بهم، والمسلمون في مختلف شعوبهم وأوطانهم يقفون من هذه الأحداث والأخطار موقف الحائر الوجل الذي لا يدري ماذا يفعل، ويرى في كلتا الجهتين خطرًا يهدده، وشرًا يوشك أن ينزل به.

وحق للمسلمين أن يخافوا ويتوجسوا فقد وقفوا أنفسهم في العصور الأخيرة عصور الضعف والتخلف والتقاطع والتخاذل - موقف من لا رسالة له، ولا فكرة لديه، فقد جعلهم الله أمة وسطًا بأن آتاهم شريعة سمحة لا ترمي إلى استخلاص الإنسان لحياة الرهبنة والانقطاع، ولاتسمح له بأن يكون ماديًا بحتًا لا ينظر إلى الأمور إلا بين الأثرة والشهوة الخاصة، وجعلهم هكذا ليكونوا شهداء على الناس، أي قوة عاملة مؤثرة في توازن العالم بين هاتين النزعتين ولكنهم بدل أن يكونوا

هذه القوة العاملة المؤثرة، رضوا لأنفسهم أن يعيشوا موجهين ترسم لهم خططهم، ويلقي إليهم بها كي ينفذوها، ويسيروا على منهاجها، وبهذا صاروا ذيولاً لا رءوساً، وخيمت عليهم الذلة بعد أن كانت لهم العزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

يقول الله عز وجل: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ويقول عز اسمه: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فالله أسند في هاتين الآيتين فلاح الأمة وخيريتها إلى كونها موجهة إلى الخير والحق، عاملة على تركيزهما في العالم، داعية إلى المعروف، ناهية عن المنكر، فإذا كان هذا هو شأن الأمة وواقع أمرها في حياتها، كان لها أن تطمئن إلى أنها خير أمة، وأن تطمئن إلى «الفلاح» الذي وعدها الله به في الدنيا والآخرة، وإن كانت الأخرى فهي أمة ضئيلة لا وزن لها ولا مكان في العالم ، وهي من الخاسرين.

إن العالم كله وحدة متشابكة المصالح والمنافع، مثله كمثل حوض مليء بالماء تسبح فيه أنواع من الأسماك، فإذا تغير هذا الماء بالتعطن أو الفساد أو عرضت له برودة أو سخونة أو غير ذلك، فإن هذا لا يعرض لفريق من الأسماك دون فريق ولكنه يعرض للجميع، ويؤثر في الجميع، وقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ بدين عام هو نور وهدى للناس أجمعين، ولم يكن مما جرت به سنة الله أن يحظ بشراً فيؤتيه الخلد حتى يخلد محمداً ليدعو إلى دينه جميع الأجناس في جميع الأجيال ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ (الأنبياء: ٣٤)، ولهذا كان المسلمون خلفاءه على هذا الدين العام الخالد، عليهم أن يبلغوه، وأن يؤدوا أمانته في كل عصر؛ ولكل قوم وأن يجعلوه فكرتهم ومنهاجهم، ودعوتهم التي يدعون إليها أرباب العقول، ويعملون على صبغ الحياة بلونها، وإجرائها على نسقها، فإن هم قصروا في ذلك أو نكصوا عنه، فقد خانوا أمانة الله ورسوله، وخانوا أمانة التكافل الإنساني الذي

يعتبر عهداً فطريًا بين أبناء آدم، وقد عرضوا أنفسهم لألوان النكبات والمصائب التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة، ولكن تصيب الساكتين عليها كما تصيب مقترفيها ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ١١٦)، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

بيد أن الداعي إلى الهدى والرشاد يجب أن يكون مهديًا راشداً، فقد ألف الناس أن ينظروا إلى أشخاص القائمين بالدعوات قبل أن يستمعوا إلى ما يقولون، فإن رأوهم مؤمنين بها إيمانًا عمليًا يبدو في أعمالهم قبل أن يبدو في أقوالهم كانوا سراعًا إلى إجابتهم وتلبية دعوتهم، وإن رأوا في مظهرهم وأحوالهم ما ينافي دعوتهم قالوا: لو كانوا صادقين لكانوا عاملين، أو قالوا: لو كانت مبادؤهم تفضي إلى الخير والسعادة والصلاح لكانوا أخيار سعداء صالحين، وبهذا تنصرف النفوس عنهم، أو على الأقل تصعب عليهم مسالك الإقناع بدعوتهم فيحتاجون إلى أن يقولوا ـ كما يقول المسلمون الآن : لا تنظروا إلى أعمالنا وأحوالنا. ولكن انظروا إلى شرعتنا وديننا،كأن العالم كله مؤلف من فلاسفة منصفين ممحصين يستطيعون أن يفرقوا بين القول والقائل، والدعوة والداعي.

لهذا يجب أن يبدأ المسلمون بإصلاح أنفسهم، وأن يعودوا إلى حياتهم الأولى حين كانوا أمة واحدة مؤمنة عاملة ناصبة تقول الحق وتهدي بإذن الله إلى صراطه المستقيم.

تقطعت الأمة الإسلامية شعوباً، وصار كل شعب يفكر في أحواله الخاصة، ويرسم سياسته في معزل عن سائر الشعوب الإسلامية الأخرى، بل صار الشعب الواحد أحزابًا مختلفة متناحرة يضرب بعضهم بعضاً، ويتبادلون التهم والظنون، حتى أهل الدين والعلم تراهم متقاطعين متباعدين، ترى أحدهم يحل شيئًا والآخر يحرمه، وترى كل واحد منهم يزعم لنفسه ولمن اتبعه أنه هو الذي يفهم الإسلام

فهمًا صحيحًا، وأن فلانًا وأتباع فلان ضالون أو مضلون إلى غير ذلك مما صورنا أمام الأمم بهذه الصورة التي جعلت أحد المستشرقين الأوربيين يقول لأحد شيوخ الأزهر: أي المبادئ الإسلامية التي تدعون إليها؟ أهي المبادئ التي كان يدعو إليها الشيخ محمد عبده؟ أم هي المبادئ التي يدعو إليها الشيخ يوسف الدجوي، أم هي مبادىء الشيخ الظواهري، أم مبادئ الشيخ المراغي، أم مبادىء الأخوان المسلمين، أم مبادىء أنصار السنة .. إلخ

نعم إن هذه مغالطة ومجادلة، لأن الدعوة إلى الإسلام إنما هي الدعوة إلى ما جاء به محمد ﷺ في الكتاب والسنة وأصول التشريع الصحيحة، وما هؤلاء الرجال إلا علماء ومفكرون في دائرة هذه الشريعة، لهم أن يختلفوا أو يتفقوا ولا يدل اختلافهم على اختلاف الحق وما شرعه الله، ثم إنهم لم يختلفوا على الأصول التي بها صلاح العالم، ولكن لكل منهم وجهة هو موليها فيما لا يضر فيه الاختلاف، ولا يؤثر في الصلاح والإصلاح. فقول هذا المستشرق مغالطة بما رآه بيننا من عنف وحدة في الخلاف جعلا كثيراً من أهل العلم يتقاذفون ويتنابزون بالألقاب، ويسرفون في تجريح بعضهم بعضًا، وقد كان الخلاف بين العلماء من قبل هادئًا عفًا لا يخرج بالمختلفين عن دائرة الحجة والبرهان فحولناه إلى عصبيات وأحزاب ذات أنصار وأعداء، لا هم لهم إلا أن يحتربوا ويتباروا في خوض معركة التجهيل والتضليل، بل التكفير أحيانًا، فكانت النتيجة الحتمية لذلك أن يزهد الناس في علم الدين، وظنوا بعلمائه الظنون، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ومجال القول في حاجة المسلمين وأهل العلم منهم إلى الإصلاح فسيح، وأسباب ذلك وآثاره معروفة واضحة، وإنما ينقصنا العمل والتآزر فيه، والتعاون الذي أمرنا الله به، وأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، فمتى نكون كذلك.

نهضتان زميلتان

كان العرب والمسلمون في أوائل هذا القرن في حالة يرثى لها، قد استولى عليهم ضعف سياسي، وضعف فكري، شملا جميع بلادهم وأممهم، ومكنا للمستعمرين الغاصبين من بلوغ أهدافهم، وتحقيق مآربهم على أحسن ما يريدون .

فمن مظاهر ذلك الضعف السياسي أن الأمة الإسلامية تفرقت في دويلات صغيرة محكومة بغيرها، و لا شأن لها في نفسها فضلاً عن أن يكون لها شأن في أحوال العالم، وبدت هذه الدويلات متقاطعة متنازعة فيما بينها، لأن المستعمرين قد نجحوا في إيغار الصدور، وتقطيع الأواصر، وأن تحتفظ كل منها بأسباب الضغائن والأحقاد القديمة، وأن تضيف إلى هذه الأحقاد ما كان يجد يوماً بعد يوم، وتزداد به النار اشتعالاً .

ومن مظاهر ذلك الضعف السياسي أن الأمم الشرقية كلها، ولا سيما العرب والمسلمون، قد رزحوا تحت سيطرة اقتصادية عاتية، لا تعرف الرحمة، وليس لها ضمير ولا قلب، أشاعت فيهم الفقر والمتربة، والذل والمسكنة، واغتصبت خيرات بلادهم، وكنوزهم الطبيعية، فتمتع بها المستعمرون على أعين من أهلها وهم يشهدون؛ ومن العجب أن هؤلاء المستعمرين قلة لا تذكر بجانب هذه الملايين المستضعفة المسخرة، وأن المساحة الأرضية لأية أمة من الأمم المغلوبة تربو أضعافًا على مساحة الأمة الغالبة، فلم يكن الفقر في الرجال والعدد، ولا في أسباب الثروة الاقتصادية وإنما كان فقراً في النفوس أدى إليه التقاطع والتدابر وضعف الشوكة، والاستسلام إلى عوامل الضعف والتفكك .

ولم يكن الضعف الفكري والعلمي بأقل من الضعف السياسي والاقتصادي، فقد أفقرت بلاد العروبة والإسلام من الأفذاذ المخترعين، والعلماء الباحثين المثابرين، ورجعت القهقهرى حتى فيما كانت تحسنه من العلوم والمعارف، ففشا فيها التقليد والجمود والاشتغال بما لا يجدي من المناقشات والمجادلات التي جعلت الأمة الواحدة عناصر متفرقة، وطوائف مختلفة يعادي بعضها بعضاً، ويتربص بعضها ببعض، وكثرت هذه الطوائف والفرق، وتقاذفوا فيما بينهم تهم التكفير والإلحاد والزندقة وما إليها من المطاعن التي كانت تنزل برداً وسلاماً على قلوب المستعمرين، وتؤيدهم في مهمتهم التي لا مناص لهم من الاضطلاع بها، لتفريق كلمة الشعوب، وتوطيد سلطانهم فيها إلى الأبد .

نعم إن هذا القرن لم يكن هو المسئول الأول عن هذا الانحلال، وإنما ورثه عما

قبله من القرون السابقة عليه؛تلك القرون التي مهدت بخلافاتها وجمودها وانسلاخها عن سنة السلف الصالح من الأولين، إلى هذا المصير؛ ولكن العرب والمسلمين في هذا القرن قد بذوا من قبلهم في ذلك ، ولم يسمحوا بأي تطور أو إصلاح من شأنه أن يجفف عنهم أعباءه الثقال، مع أن فرصاً كثيرة واتتهم، ولم يعتبروا بمن حولهم من الأمم التي أحسنت التخلص من عللها وأمراضها، والسير في طريق الرقي والتقدم.

وكانت تبدو في الحين بعد الحين لمحات من النور، ونبضات من الإحساس حين يقوم بعض المصلحين، أو دعاة النهوض بالكلام في هذه النواحي، والتحذير من الاسترسال فيها، ولكن هذه الأصوات كانت تذهب هباء، وتتفرق بدداً، ولا تجد آذاناً سميعة، ولا قلوباً واعية، ولا عملاً يؤازرها من الحكومات والشعوب، ذلك بأن النوم كان عميقاً، والمرض كان قد تأصل واستقرت جذوره وتشعبت.

وفي وصف هذه الحالة يقول حكيم الشرق، المصلح العظيم، جمال الدين الأفغاني:

«إن الشرق بعد ما كان له من الجاه الرفيع، والمقام المنيع، والسلطة العظيمة، وبسطة الملك، وعظيم الشوكة، وكثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة والبضائع، ورواج سوق التجارة، وذيوع العلوم، والمعارف، وشيوع الآداب والفنون - ما هبط عن جليل مرتبته، وما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل والاستكانة على عامريه، ولا تسلطت عليه الأجانب، ولا استعبدت أهله الأباعد، إلا لإعراض الشرقيين على الاستنارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد في أخلاقهم فإن تراهم لا يتدبرون أمراً، ولا يتقون في أعمالهم شراً، ولا يكدون لجلب النافع، ولا يجتنبون الضار؛ طرأ على عقولهم السبات ووقفت أفكارهم عن الجولان في إصلاح شئونهم، وعميت بصائرهم عن إدراك النوازل التي أحاطت بهم؛ لا يحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم، وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها، واندمال جراحها؛ رئموا الذل، وألفوا الصغار، وأنسوا الهوان، وانقادوا للعبودية، وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر والعظمة، وفشا بينهم الشقاق والنفاق . . . إلخ » .

ومن جهة أخرى كان المنادون بالإصلاح، والدعاة إلى النهضة، يجدون مقاومة عنيفة، لا من المستعمرين الذين يطيب لهم بقاء هذا الضعف والركود فحسب، ولكن من إخوانهم وأهليهم أيضاً؛ فقد كانوا يتهمونهم في أغراضهم ويتظننون بهم، وينعون عليهم دعاءهم الإصلاحي، زاعمين أنهم من دعاة هذا الفريق أو ذاك،

وأنهم إنما يريدون نصرة أفكار هذه الطائفة أو تلك، فلم تستطع الأمة أن تسمع دعوتهم إلا في غمار من الضجيج؛ ضجيج الافتراء عليهم، والتشويه لأغراضهم.

وهكذا كان المتنبهون إلى الخطر قلة، وكان الذين يجاهرون به وينادون بالقضاء عليه قلة في هذه القلة، ثم هم في ندائهم على حذر واحتياط وتحفظ من شأنها أن تجعل الدعاء خافتاً ضعيفاً؛ ولن تنجح دعوة إصلاحية إلا إذا كان الصوت الذي ينادي بها جهيراً صريحاً لا يعرف الدوران حول المقاصد، وإنما يأتي إليها وإلى كل ما أريد في سبيلها مجابهاً ومواجهاً.

ظلت حال البلاد العربية والإسلامية على هذا النحو من التفرق والانحلال والضعف إلى عهد قريب، وذاقت الأمة من ذلك الهوان والفقر والذل والجهل، ثم أذن الله لهذه الغمم أن تنكشف رويداً رويداً، وأن تنزاح عن الصدور أثقالها شيئاً بعد شيء؛ فأدرك العرب والمسلمون جميعاً أنهم مسوقون إلى الهاوية، وأن عليهم أن يقفوا ولا يندفعوا في هذه الطريق؛ وأن يأخذوا في أسباب التخلص من هذا المصير الفاجع الذي ينتظرهم، وحينئذ بدت في آفاقهم دعوتان متزاملتان، وبدت تباشير الإنصات إلى هاتين الدعوتين، وتجاوبت بهما أرجاء العالم العربي والإسلامي:

(١) إحداهما: الدعوة إلى التفاهم بين الشعوب العربية، ثقة بأنهم إذا اتفقوا وتعاونوا، وتطهرت قلوبهم من أحقاد الماضي التي ورثوها، أو أورثهم إياها المستعمرون، دون أن يكون لهم يد فيها، فقد قضوا على السبب الأول والأكبر من أسباب ضعفهم، وساروا الخطوة الأولى في طريق استعادتهم لمجدهم وعزهم.

بهذه الدعوة التي استجابت لها الأمة العربية في شتى البلاد، والتي كان من آثارها إنشاء «الجامعة العربية» صحا الوعي القومي، وأصبح للعرب سياسة مرسومة مفهومة متبادلة بين سائر شعوبهم، تتعاون كلها على تحققها لصالح أبنائها، بل لصالح العالم كله شرقيه وغربيه؛ لأن هذا الجزء المتقارب من أرض الله، إذا نجح واستقامت أموره على نحو يليق بعالم متحضر، كان عوناً لهذا العالم على تيسير السعادة والهناءة لجميع الشعوب، وإقرار الأمن والطمأنينة والسلام في جميع بقاع الأرض؛ فالسلام حالة مشتركة، والعلم حالة مشتركة، والرفاهية حالة مشتركة، وهكذا كل شأن من شئون العالم، ولا سيما في عصرنا الحاضر الذي قضى فيه على الفروق، وطويت بين أرجائه الأبعاد والمسافات، يجب أن يفهم على أنه وحدات متماسكة تكون آلة واحدة، وتهدف إلى غرض واحد، هو إنشاء عالم سعيد هانئ متعاون من بني الإنسان دون تفريق بين الأجناس والأوطان والشعوب!

(٢) والدعوة الأخرى: هي دعوة دينية فكرية ثقافية، تعالج الناحية الأخرى التي مني بها المسلمون فحقت عليهم كلمة الذل والهوان؛ هي دعوة جميع الفرق الإسلامية، والطوائف المختلفة في سائر الشعوب التي تؤمن بالقرآن إلى نبذ الخلافات التي لا طائل تحتها، وليس لها صلة بالعقائد الإسلامية الصحيحة، ولا دخل لها فيما يكون به المؤمن مؤمناً؛ ففي الأمة الإسلامية طوائف وفرق كلها تدين بالإسلام، وتأخذ بأقواله المسلمة، وقواعده المستمدة من كتابه وسنة رسوله ﷺ واجتهاد المجتهدين، وإنما يفرق بينهم نظريات ومسائل لا وزن لها عند الذين يؤثرون الحقائق الواقعية، والعمليات المثمرة ولم يكلف الله أحداً بالخوض فيها، ولا الإيمان بشيء معين منها، ولا هي تساوي في قيمتها الفكرية ما ينجم عن الخلاف فيها والتعصب لها، من الشر والقطيعة والإفساد بين المسلمين؛ وإذا كان الأمر كذلك فيغلقوا باب الجدل والنقاش في هذه المسائل، وليستغنوا عنها، فإنهم لا يخسرون بذلك شيئاً، وسيكسبون الوحدة الدينية، والأخوة الإسلامية، التي كانت لهم عزاً وقوة، ويستريحون من هذه الحرب النظرية التي فرقت بينهم، وجعلتهم يتراشقون بالتهم جزافاً، وهم أهل قبلة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد.

إن القاعدة الذهبية التي يجب أن تسود المسلمين في جميع شعوبهم وطوائفهم، هي هذه القاعدة التي نادى بها من قبل حكيم الإسلام جمال الدين الأفغاني، وعبر عنها المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا أحسن تعبير حين قال: «نتعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه، وندعو كل طائفة لمقاومة البدع الفاشية فيه لتكون دعوتهم أقرب إلى القبول».

هذه هي الدعوة الفكرية الدينية، التي زاملت الدعوة السياسية العربية؛ وقد أذن الله بهما معاً في هذا العهد الأخير؛ ولم تقتصر هذه الدعوة الفكرية على ما كان يقتصر عليه الداعون من قبل، ولكنها اتخذت مظهراً إيجابياً فعالاً، فتألفت لها جماعة منظمة اسمها «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية»، تضم مؤسسين من أكبر الرجال في مصر وغيرها، ويبيح قانونها أن ينضم إليها من أراد أن يجاهد في سبيل وحدة المسلمين من جميع الشعوب، واتخذت لها داراً في القاهرة، ووضعت لها قانوناً يرسم أهدافها ويحدد أغراضها، التي لا صلة لها بالسياسة، وينظم أعمالها.

وقد تقدمت هذه الجماعة إلى العالم الإسلامي ببيان مستفيض، فرحبت بتأليفها جميع الطوائف الإسلامية في مصر والعراق وإيران والشام والحجاز واليمن وغيرها، وتوالت عليها رسائل التأييد، مما يبشر بعهد زاهر ونجاح لهذه الدعوة

المباركة، إن شاء الله.

وقد مد الأزهر الشريف يد المعاونة لهذه الجماعة، فاشترك في تأسيسها بجماعة من علمائه، في مقدمتهم أربعة من أعضاء جماعة كبار العلماء، وبينهم رئيس لجنة الفتوى، وعميدان من عمداء الكليات، ورئيس مسئول في إدارة الأزهر هو فضيلة الشيخ المدير، وغيرهم، وهم جميعاً يمثلون المذاهب المختلفة، ووجوه النشاط الفكري المتعددة، كما أمدتها جامعة فؤاد الأول باثنين من علمائها الفضلاء، واشترك فيها وزيران جليلان، أسندت إلى أحدهما رياستها، وهو حضرة صاحب السعادة العربي الكبير والاجتماعي الناشط محمد على علوبة باشا، كما اشترك فيها أحد المستشارين النابغين بمحكمة النقض والإبرام، وسماحة مفتي فلسطين الأكبر، ورئيس جمعية الأخوان المسلمين «مرشدهاالعام» ومندوبون من أفاضل علماء الشيعة الإمامية والزيدية وغيرهم، وتولى أمانتها رجل من فضلاء المشتغلين بالشئون الإسلامية، ذو خبرة عظيمة بها.

وبذلك استكملت هذه الهيئة الناشئة كل العناصر العاملة المفكرة، وبدأت عملها في هدوء وسكينة؛ وإنها لواصلة إن شاء الله بفضل معاونة المسلمين إلى تحقيق غرضها الشريف.

وقد جاء في البيان الذي تقدمت به هذه الجماعة إلى العالم الإسلامي، بعد استعراض حالة المسلمين ، وبيان واجب المفكرين ما نصه:

«نقدم جماعتنا هذه إلى العالم الإسلامي الذي رزح تحت أثقال التفرق أجيالاً بعد أجيال، وقروناً تطاول عليها الأمد، فنبشر المسلمين بعهد جديد نرجو أن يكون بدئًا لانقشاع سحب الخلاف من جوهم، ونرجو أن تكون الخطوات فيه إلى هذا الغرض الشريف سريعة موفقة، إن شاء الله.

«وقد ألفت هذه الجماعة في مصر حاضرة الإسلام، وملتقى أفكار المسلمين، ومشرق شمس الأزهر الشريف، تلك الجامعة العلمية الإسلامية التي تهوى إليها أفئدة من الناس في مشارق الأرض ومغاربها، على أن تكون لها فيما بعد فروع في شتى البلاد ومختلف البقاع، تسير على نهجها، وتخدم فكرتها، وتعاون على جمع كلمة المسلمين بكل ما تستطيع من ألوان التعاون.

«وإننا حين نعلن في العالم الإسلامي نبأ تأليف هذه الجماعة ذات الغرض الأسمى، لنرجو من كل مسلم أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يضم جهده إلى جهود أعضائها، وأن يبث فكرتها، ويعمل على تحقيق غايتها. نرجو ذلك من كل أمة وطائفة وجماعة وفرد، ونرجو من كل من يؤمن بالقرآن، ويعتقد برسالة محمد ﷺ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه» .

الباب السادس

البناء الروحي في الإسلام

١ ـ البناء الروحي الذي شيده الإسلام (١) .

٢ ـ مقوماتنا تاروحية أمام المادية العالمية (٢) .

٣ ـ مقوماتنا تاروحية أمام المادية العالمية (٣) .

٤ ـ فتوح المجاهدين في سبيل الله .

٥ ـ لا ولاية بين الحق والباطل .

٦ ـ الحب بين العباد والرب .



(١)
البناء الروحي
الذي شيده الإسلام

(١) يرتكز «البناء الروحي» الذي شيده الإسلام على ثلاث ركائز:

الركيزة الأولى : الإيمان بالله .

الركيزة الثانية : الإيمان بالمثل.

الركيزة الثالثة : الإيمان بالنفس .

(٢) وهذه الركائز الثلاث هي التي أقام الله عليها بناء الرسول والمرسل إليهم، والرسالة.

(٣) ولكي ندرك هاتين الحقيقتين، علينا أن نستعرض الأمر في هذه الجوانب المختلفة.

ففي جانب الرسول سيدنا محمد ﷺ :

نرى أنه حبب إليه قبل البعثة أن يخلو بنفسه، فكان يتعبد أو يتحنث منفرداً في غار حراء، ويمكث على هذه الحال الليالي ذوات العدد.

وقد كانت هذه فرصة لصفاء روحه، وتألقها، وانبعاثه في تفكيره العميق في هذه الحياة ومصدرها وغايتها ونهايتها وبذلك سيطر الجانب الروحي فيه على الجانب المادي وأصبح مهيئًا لتلقي الرسالة بتهيئة الله تعالى له.

ونرى أن أول ما أوحى به إليه هو تعريفه بالله ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: ١-٥) .

فهذه الآيات الأولى تعرفه بالله من أقصر طريق وهو أنه «ربه» وفيها معنى الملك

والتربية؛ وأنه «الذي خلق» وفيها لفت إلى هذا الكون وإلى منشئه ومبدعه، وأنه «خلق الإنسان من علق» وفيها تذكير للإنسان بمبدئه ومنشئه وأن الله هو الذي خلقه من هذه المادة المعينة ومر به في أطوار مختلفة حتى استوى خلقًا يسعى ويعمل ويفكر ويدبر، وأن ربه هو «الأكرم» وفيها معنى التفضل والإنعام، وأنه هو «الذي علم بالقلم» .

وهي خاصية الإنسان التي انفرد بها عن سائر ما خلق الله، والتي كانت سببًا في ارتباط مراحل تاريخه ومدنيته وتفكيره بعضها ببعض، وأنه «علم الإنسان ما لم يعلم» وفيها تلخيص لأعظم خاصية خص الله بها هذا النوع البشري الذي جعله متقبلاً للعلم متابعًا خطوات السير في سبيله، متطلبًا الزيادة منه، قادرًا على استكشاف ما يجهل بما يعلم.

وهكذا كانت مهمة الآيات الأولى من الوحي، هي ربط الرسول بمن أرسله، وتعريفه به عن طريق النظر في خلقه ونعمته وفضله.

وهذه هي الركيزة الأولى في بناء الرسول، هي الإيمان بالله الخالق المنعم المتفضل الأكرم.

ثم ترى أن الآيات التي نزلت عليه بعد ذلك هي قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ⑥ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ⑦ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ⑧ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ⑨ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل: ١-١٠).

وهذه الآيات فيها توطيد للصلة بينه وبين ربه بعد أن عرفه صلة العبادة وقيام الليل أو طرف منه للأنس به والتفكير فيه والتلاوة لما يلقى عليه وذكر اسمه والتبتل إليه، وإفراده بالتوكل عليه، والصبر على ما يتلقى في سبيله.

وذلك تركيز للركيزة الأولى، وهي ركيزة الإيمان.

ثم نرى سورة المدثر تعلنه بالرسالة وتأمره بالإنذار وتحدد له أهداف رسالته، فإذا هي المثل والقيم التي لا صلاح للحياة إلا بها، ولا سعادة للإنسان إلا في ظلها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ١-٧).

وأول ما نلاحظه في هذه السورة الكريمة أنها تبدأ الرسول بنداء وصفي وتأمره بأمر تكليفي، فالنداء الوصفي هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ومنه ترى أن السماء كانت تنظر إليه وهو في حالته التي كان عليها من الرعب والتدثر والانكماش، إمعانًا في العزلة، وإيثاراً للاختفاء.

والأمر التكليفي: هو قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ وهو إيذان له بأن عهد العزلة والاختفاء والانكماش قد ولى، وأن الأوان قد آن للنهوض بأعظم رسالة، والجهاد في سبيلها والاضطلاع بأمرها، عن قيام لا عن تلفف وتدثر.

ثم نلاحظ أيضًا أن الجمل التي جاءت بعد هذا النداء الحاسم والأمر التكليفي، قد جاءت بالمبادئ الضرورية التي لا يصلح أمر الداعي إلا عليها، ولا يستقيم طريقه إلا إذا سار فيه وهو يتمثلها: تكبير الله خاصة من بين كل شيء في هذا الوجود ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وإذا استقر هذا المعنى في نفس القائد والداعي كان هو المدد الروحي الذي يعطيه القوة في الجهاد، والقدرة على النضال والاستهانة بجميع الصعاب والعقبات، فكلها أصغر من هذا الرب الأكبر، وكلها خاضعة لسلطانه الذي لا يقهر، ثم التطهر من الدنس ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وليس المراد فقط الدنس الحسي الذي يعلق بالثياب، وإنما المراد قبل كل شيء، هو المعنى الكنائي الذي نفهمه من قولهم فلان نظيف الثوب أو طاهر المئزر، للدلالة على طهارة نفسه وعفته وترفعه عن كل ما يدنسه، ولا شك أن أعظم ما يصلح عليه أمر الداعي، وما يكون به قدوة حسنة للمدعوين، هو هذا الصلاح النفسي الشخصي، وهذا التطهر

عن كل ما تتدنس به النفوس، من آثام أو آصار تجعله مكبلاً بأغلال الأهواء وبشهوات لا يرى إلا وهي عالقة به، مسيطرة عليه ثم هجران الرُّجز وهو كل باطل من وثن يعبد، أو تقليدجاهلي يتبع، أو باطل أو فساد يركن إليه ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ثم يأتي بعد ذلك نهي حاسم عن خصلة من شأنها أن تفسد صنائع المعروف، ومن شأنها أن تراود نفوس القادة والمصلحين، هي خصلة المن على غيرهم بما يفعلون من جهاد وتقويم وبر استكثاراً له، واشادة بذكره، وافتخاراً بأثره ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ .

لقد كنا نرى بعض أهل التوجيه وأرباب القيادة يستكثرون ما يقومون به من أعمال الإصلاح، والتشمير في الأمة ويرونه شيئًا عظيما ويرون أنفسهم بذلك جديرين بالتكريم والتقديس، وينتظرون من الأمة أن تكلل هاماتهم بأكاليل الغار فإذا لم تفعل حسبوا أنفسهم من المغبونين، ونعتوا الأمة بصفات الجحود والتنكر للعاملين، وما ذلك كله إلا صادراً عن خلق المن المفسد للصنيعة والذي من شأنه أن يبغض فيها، وأن ينزل بالدعوة الإصلاحية إلى مستوى المساومة عن طريق الأخذ والعطاء، وانتظار الجزاء من غير رب الجزاء، ثم تأتي بعد ذلك ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ وهي السياج الأعظم الذي يجب أن يعتصم به القائد والداعية: الصبر في مكافحة الأحداث سواء أكانت أحداثاً مكروهة أو أحداثًا من النصر والعلو والفوز، فإن على القائد أن يكافح هذا وذاك، وهما خطران يهددانه ولا يقل الصبر على الظفر منزلة عن الصبر على الضجر، ثم تهديه الآية إلى أن يجعل هذا الصبر لربه، حيث تقول: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ فإنه لا يكفي أن يكون هناك تسلح بالصبر، حتى تكون النية فيه خالصة لله لا شائبة تشوبها، ولا غرض من أغراض الحياة يفسدها.

هذه هي الركيزة الثانية: ركيزة الإيمان بالمثل.

ثم تأتي بعد ذلك الركيزة الثالثة: ركيزة الإيمان بالنفس، فتنزل سورتا (الضحى) و(الشرح) .

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ (الضحى: ١-١١) .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨ ﴾ (الشرح: ١-٨) .

وفي هاتين السورتين تأمين واضح لمستقبل الرسول ﷺ كداع إلى الله، وغرس للإيمان بنفسه وبمآل دعوته في قلبه، ولا نطيل في ذلك الكلام فهو واضح أشد الوضوح، ومن شأن هذا الإيمان بالنفس أن يفتح أمامها آفاق السعي والعمل وأن يهبها القوة والجلد .

المرسل إليهم:

(ب) وإذا جئنا إلى المرسل إليهم وجدنا الخطوات نفسها .

دعوة إلى الإيمان بالله، ونبذ الأوثان والشركاء عن طريق تعريفهم بالله الذي خلق كل شيء، وبالرب الذي يملك النواصي والأقدام، والذي هو رب الأنعام والأكرام .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام: ١) .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام: ١٣) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (الأنعام: ٩٥) .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩) .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران: ٢٦، ٢٧).

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

ثم غرس الإيمان بالمثل فيهم.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

ونحن نعرف أنه لم يأت تشريع تفصيلي إلا بعد الهجرة، وأن كل ما كان ينزل إنما كان في موضوعات تتعلق بأمهات الأخلاق والفضائل والمثل والتوحيد.

ثم جاء بعد ذلك غرس إيمانهم بأنفسهم في قلوبهم في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

فهذه هي الركائز الثلاث في المرسل إليهم كما هي في الرسول.

(ج) والركائز الثلاث نفسها تقوم عليها الرسالة ذاتها:

فكل تشريع أو توجيه أو تحريم أو تحليل إنما هو صادر عن الله، وليس لأحد حق في شيء من ذلك مع الله، إما عن طريق وحيه المباشر بالقرآن، أو ما يبلغه الرسول بسنته، أو مايثمره النظر والاجتهاد المبني على أصول الإسلام وأدلته.

وكل تشريع أو توجيه أو تحريم أو تحليل، إنما هو قائم على ملاحظة أهداف ومثل أخلاقية وإصلاحية وعلى تيسير بالحياة وإسعاد الناس بها، وإصلاح أمرهم فيها.

وكل تشريع أو توجيه أو تحريم أو تحليل إنما قام على أساس أن هذه الأمة هي الأمة الوسط التي أخرجت للناس لتكون مقاييسها وأحكامها هي الفيصل في شئون الحياة، وهي ميزان التعديل الذي يجب أن توزن به الأحكام والأخلاق.

وفي هذا معنى الإيمان بأمة الإسلام وأن تشعر هذه الأمة بأنها أمة قيادة وتوجيه وأن لها في هذا العالم صدارة يجب ألا تفرط فيها.

(٢)
مقوماتنا الروحية أمام المادية العالمية

الإيمان بالنفس :

وإذا كان الإيمان بالله هو أول مقوماتنا الروحية،وأعظمها أثرًا في توجيه حياتنا توجيها إيجابيا جامعا بين مطالب النفس، ومطالب الجسم،كل منهما في حدود الفطرة السليمة؛ فإن هناك مقوما هامًا آخر له توجيهه الإيجابي، وتأثيره الفعال في حياة الفرد والمجتمع: ذلك هوالإيمان بالنفس.

فقد دلت الدراسات النفسية قديمًا وحديثًا على أن الفرد إذا آمن بأن له كيانًا معنويًا خاصًا وأنه ليس مجرد تكرار لغيره ممن يشاركه في بعض أحواله؛ فإنه ينبعث في عمله انبعاثًا قويًا، ويثمر ثمرات مبتكرة كثيرة، أما إذا أحس بأنه شخصية ثانوية في وجودها أو فيما تركن إليه، أو في قدرتها على الإنشاء والتثمير، فإنه حينئذ يكون قوة متراخية نزاعة دائما إلى التخلف والتبعية، وإلى الاكتفاء بالتقليد والتشبه، ومن ثم يقولون: إن شخصًا واحداً معتداً بكيانه، مؤمنًا بنفسه، خير من ألف شخص تابعين، ومن هنا أيضًا كان القادة عادة قلة وأفرادًا، بينما المقعودون التابعون آلافًا وملايين.

وهذا المعنى كما يلاحظ في الأفراد يلاحظ في الأمم، فهناك أمم تعيش لتقود، وهناك أمم تعيش لتقاد، وما كان هذا وذاك إلا بأن الأولى آمنت بنفسها، ووثقت بأن لها رسالة في الحياة هي مخاطبة بأدائها مخلوقة لها، وبأن الثانية أخذت عن نفسها، واستقر في نفوس أفرادها أنها مجرد تكرار لموجودات خلقت لتكون تابعة.

وقد ربط القرآن الكريم بين خسارة النفس وخسارة الإيمان حيث يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢)، فجعل عدم إيمانهم مترتبًا على خسارتهم لأنفسهم، ذلك بأن الذي يخسر نفسه لم يعد له وجود معنوي وإن كان له وجود جسماني، فتراه يعيش ويأكل ويشرب ويتمتع ويتحرك حركات الأحياء، ولكنه في واقع الحال ميت معنويًا لأنه لا تأثير له في

شيء مما به تكون النفوس نفوسًا، وبذلك لا يكون صاحب ذات توصف بأنها مؤمنة أو غير مؤمنة.

وتاريخنا - نحن المسلمين - خير مثل تطبيقي لهذا الذي قررنا في ناحية الإيجاب والسلب.

فقد نهض المسلمون الأولون نهضة قوية حولت العرب من أمة بدوية صغيرة منطوية على نفسها، إلى أمة ذات حضارة وقوة وتأثير في غيرها وقيادة عالمية في مختلف النواحي، وشتى الميادين، وسر ذلك أنهم كانوا مؤمنين بأنفسهم وبأن لهم رسالة هيأهم الله لحملها وتبليغها، وقد فهموا القرآن الكريم على هذا الأساس، وطبقوا مبادئه على هذا الأساس:

سمعوا القرآن الكريم يقول لهم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ففهموها على أنهم أمة مطلوب منها أن تكون أمة داعية، لا أن تكون مجرد أمة مدعوة. وإذن فهي أمة يجب أن تكون قائدة، ويجب أن تحتفظ دائمًا بجميع المزايا التي هيأتها لهذه القيادة من العلم، وإعداد العدة والعدل والألفة والاجتماع.

وفهموها على أنهم أمة من واجبها أن تحرص على وجود رأي عام قوى مهيب فيها يأمر أفراده بالمعروف، وينهون عن المنكر، أي يكون مجتمعهم قادرًا على محاربة الفساد، وإشعار أهله بغضبه عليهم، وإنكاره لفعلهم، وعلى تأييد الصلاح والمعروف، وأشعار أهله برضاه عنهم، وتاييده لهم.

وهذا يعنى أنهم أمة قادرة على إصلاح نفسها في داخل نفسها؛ لأن ما لا يكون صالحًا في نفسه لا يكون صالحًا لإصلاح غيره.

آمن المسلمون بأنفسهم على هذا النحو، فقادوا وسادوا وشادوا، وكان الفضل في تلقي الغراس القرآني وتعهده بالنماء للعرب، لأنهم هم الذين تلقوا الرسالة الأولى، وفيهم جعلها الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ حيث يجعلها في فرد يختاره في أمة يختارها من بين الأمم، ولا يمكن أن يكون هذا التشريف للعرب

بحمل الرسالة، وتلقي غرسها الأول وصيانته وتعهده، قد وقع من قبيل الصدفة، فإن هناك قانونًا عامًا قرره القرآن الكريم هو ما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾ (القصص: ٦٨)، فخلقه على وفق المشيئة، واختياره على وفق المشيئة، وكلاهما يدل على نفي المصادفة، وعلى إثبات غاية الحكمة؛ لأن مشيئة الله تعالى متقيدة بتمام علمه وتمام حكمته.

هذا الإيمان بالنفس هو الذي نفع العرب أولاً، وقد سرى منهم إلى المسلمين من كل جنس فانتفعوا به أيضًا، فكان للإسلام جولة وصولة ودعوة وتوجيه وقيادة في كل مجال: في العلوم والبحث في النظر العقلي، في الإنشاء والاختراع، في السياسة والحكم، في فقه الحياة ووضع الحلول السليمة لمختلف المشكلات، في معالجة النفوس وسياستها الروحية، في رسم مناهج الحكم، وإقرار موازين العدل، في وضع قواعد التعامل الدولي بين الأمم بعضها وبعض.. وهكذا أثمر الإيمان بالنفس مدنية وحضارة ازدهر بها العالم ازدهارًا، بل لم يعرف العالم ازدهارًا عمليًا حقيقيًا إلا في ظلهما، حتى العالم الحاضر الذي لا تسيطر عليه دولة الإسلام؛ تسيطر عليها أمهات مبادئ الإسلام وإن زعموها من صنعهم ومن ثمرات تفكيرهم ومدنيتهم.

ثم دار الزمان دورته حين فقد المسلمون إيمانهم بأنفسهم: دار عليهم فأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وأصبحوا موجَّهين، بعد أن كانوا موجِّهين، وصارت المقاييس والمثل مقاييس غيرهم ومثل غيرهم، ونسوا قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ (البقرة: ١٤٣)، فصاروا يحكمون أوضاع غيرهم وتقاليد غيرهم. فيقول قائلهم مثلاً: «لقد جرى الفقه الفرنسي على كذا، وقرر الدستور البلجيكي كذا، ووضع البروتوكول الإنجليزي كذا، أي أنهم يستضيئون بما يقتبسونه من مدنية غيرهم وفقه غيرهم، مع أن لهم فقهًا وعلمًا وحكمًا جعلهم الله بها أمة وسطًا لغاية معينة هي أن يكونوا شهداء على الناس أى: مراجع للعالم يستهدي هو بهم وينظر إليهم ويقتبس منهم.

ولقد كانت ثمرة هذا الانتكاس في الإيمان بالنفس ثمرة مرة ذاقها العالم الإسلامي صبراً وعلقماً، حيناً من الدهر، حتى أذن الله بانكشاف الغمة، وأراد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة، فبعث فيهم من بعث ثقتهم في أنفسهم، فكان ذلك عوداً إلى السلسلة من ذات الحلقة التي كنا تركنا الإمساك بها.

فواجبنا الآن أن نحرص على إيماننا بأنفسنا، وأن نعلم علم اليقين أن أعداءنا ليسوا بأقوى منا همماً، ولا بأصبر منا على جهاد، ولا بأولى منا بقيادة وتوجيه ودعوة، فعن هذا الإيمان انبثق نورنا يوماً ما، وعن هذا الإيمان صدرنا في نهضتنا الحاضرة، فاكتسبنا في أعوام قليلة ما كنا خسرناه أحقاباً طويلة.

وينبغي أن ندرك أن المادية الطاغية الباغية في هذا العالم - وهي تتمثل تارة في الصهيونية، وتارة في الاستعمار، وتارة في الشيوعية - تقف منا موقف الذي يعمل على تشكيكنا في أنفسنا، وتشكيكنا في مبادئنا ومثلنا.

ولست إخصائيًا في السياسة، ولا أحب الخوض فيها ، ولكني إنما أتحدث من ناحية ما كسبناه حين آمنا بأنفسنا، وأحذر قومي من الإنصات إلى الذين يحاولون تشكيكنا فيما آمنا به، حرصًا على زلزلتنا، وثقة بأنا إذا تزلزلنا سهل غزونا، وسهلت هزيمتنا.

إن أشد الغزو هو غزو الأفكار والقلوب، وليس هو غزو البلاد والأوطان بالسيف والمدفع، فينبغي أن نضع أمام أعيننا تلك الحقيقة، وقد قررها القرآن الكريم لنا حيث يقول: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وحيث يقول: ﴿ **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (الممتحنة: ٢) .

(٣)
مقوماتنا الروحية أمام المادية العالمية

الإيمان بالمثل:

يأتي بعد هذين المقومين من مقوماتنا الروحية ، أمر ثالث له أهميته القصوى في حياة الأمم والأفراد، ذلك هو الإيمان بالمثل، والقرآن الكريم يسمى ذلك بالتصديق بالحسنى، حيث يقول: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ**﴾ (الليل: ٥-٧)، ويسمى مقابله وهو الكفر بالمثل التكذيب بالحسنى، وذلك حيث يقول: ﴿**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ (الليل: ٨-١٠).

وللوجوديين صلة بهذا الجحود في جانب المثل، كصلتهم بالجحود في الجانب العقيدي فهم يقولون: لا داعي لأن نعتبر شيئًا من الأشياء فضيلة ومقابله رذيلة، فإن كلاً من الفضيلة والرذيلة، أو مما نسميه بهذا وذاك إنما هو حقائق اعتبارية أوجدناها نحن واصطلحنا عليها، ولو أننا اصطلحنا في شأنها اصطلاحًا آخر لكان لنا هذا، ولأصبح ما نستحسنه قبيحًا، أو ما نستقبحه حسنًا، ويمثل لذلك بالزواج والمخادنة فيقولون: ما الفرق في واقع الأمر بين رجل وامرأة اتفقا على الزواج، ورجل وامرأة اتفقا على أن يفعلا ما يفعله الأزواج، بدون عقد زواج؟ إننا نحن الذين اصطلحنا على أن الأول فضيلة، والآخر رذيلة، دون مسوغ لهذه التفرقة، ولو أن مجتمعًا انقلب فيه الوضع واستمر زمانًا حتى ألفه الناس لما كان هذا المجتمع بمنأى عن الفضيلة؛ لأن له اعتباره واصطلاحه، وبعضهم يمثل بالرقص، فيقول: إن بعض المجتمعات ينظر إلى مراقصة الرجل والمرأة على أنه رقي ومدنية، ويتخذ منه دلالة على علو الذوق، وتهذيب النفس، مع أن مجتمعات أخرى تراه خروجًا على الآداب، وهتكًا لصيانة المرأة واعتداء على الفضيلة، فهذا شيء واحد تختلف الفطرة إليه هذا الاختلاف، فنفهم من ذلك أنه لا صلة له بالفضيلة والرذيلة في

واقع الأمر، وإنما هو مجرد اصطلاح جماعي أو اجتماعي.

ويقولون مثل ذلك حتى في العفاف والحصانة فليس على المرأة ولا على الرجل من بأس في إطلاق العنان للشهوات الطبيعية الجنسية، ولا لزوم التمسك بما يسمونه للطهارة أو البكارة أو الحصانة أو نحو ذلك، فقد خلق الذكر والأنثى على حالة لابد لها من هذا الاتصال المعروف، وهي مسألة طبيعية لا صلة لها بالمجتمع، بل هي تخص أصحابها فقط، كتلبية داعي الفطرة بالتغذي عند الإحساس بالجوع، وبالتدثر عند الإحساس بالبرد، وبالتبرز عند الإحساس بالحاجة إلى التخلي وهكذا..

ويقولون مثل ذلك في الصدق والكذب والوفاء والغدر، والشجاعة والجبن.. إلخ فكلها حقائق اعتبرناها، وليس لها وجود ذاتي، ولو عكسنا الاصطلاح فيها لانعكس أفلا يكذب بعضنا على بعض باسم المجاملة فيحسن الكذب، أفلا ينافق بعضنا بعضاً لمثل ذلك فنسمي هذا كياسة ولباقة ولا نعطيه اسم النفاق؟

هكذا يقول الوجوديون أو ـ كما يسميهم القرآن الكريم ـ المكذبون بالحسنى، أي الذين لا يؤمنون بأن هناك مثلاً عليا وفضائل تحمد، ورذائل تذم.

والواقع أن هذا كله ما هو إلا سفسطة ومغالطة:

فإننا نقول لهم: إن الذي يحاول إنكار الخير والشر، والفساد والصلاح، والحسن والقبح، وزعم أن هذه كلها أمور اعتبارية ولا جود لها في الواقع، ولا حقيقة لها بالذات، إنما يكابر فيما تحس به الفطر، وتلحقه بالبدهيات التي لا تحتاج إلى دليل. وقديماً وجد قوم عرفوا باسم «السوفسطائية» مذهبهم أنه لا حقائق للأشياء، ولم يقفوا في هذا الإنكار عند حد المعاني والأشياء المعقولة، ولكنهم أطلقوا إنكارهم حتى في الأشخاص المحسوسة، وقد ذكر ـ كطرفة من الطرف ـ أن الإمام أبا حنيفة تجادل مع أحدهم في المسجد طويلاً، فكان يلتزم جانب المكابرة واللجاج بالباطل، فأوعز أبو حنيفة إلى أحد تلاميذه بأن يخفي دابة هذا السوفسطائي، فلما خرج من المسجد ولم يجدها، سأل: أين دابتي؟ فقال له أبو حنيفة: وما دابتك؟ وهل هناك

حقيقة لشيء يسمي الدابة؟ وبهذا سخر منه وأضحك منه الناس.

وهذا الشعور الفطري المركوز في الطباع الذي يؤمن بأن في الوجود الخير والشر، والحسن والقبيح، والصالح والفاسد، هو الشعور الذي يعتمد عليه القرآن الكريم في تقريع الجاحدين للبعث والجزاء، فإن القرآن الكريم يحتج لهذه القضية التي هي من عقائد الإيمان الأساسية بأنه لا يجوز في منطق العقول التسوية بين الخير والشر، وبين ما هو حسن وما هو قبيح، وأن انتفاء البعث والجزاء يؤدي إلى التسوية بينهما، وحكمة الله تعالى تتنافى مع هذا.

يقول الله عز وجل :

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ (فاطر: ١٨- ٢٢).

فهذه الآية الكريمة تقرر أولاً : أن الذين تنفع فيهم نذارة الرسول ﷺ إنما هم المؤمنون بالله، وإن غابوا عنه فلم يروه بأبصارهم، وهم الذين يقيمون الصلاة التي هي فروع عن الإيمان بوجود الله، وتقرر ثانيًا أن من تزكى بعمل الخير والصالحات فإنما يتزكى لنفسه حيث يفوز بجزائها عند الله، الذي آمن به، وتقرر ثالثًا: أن المصير والمرجع إنما هو إلى الله وبذلك تقرر الألوهية وتقرر المثل التي يتزكى بها من يتزكى قاصداً نفع نفسه ونجاتها، وتقرر المصير بالرجوع إلى الله، ثم تأتي بعد ذلك بقضية تسوقها مساق الحقائق التي يسلم بها جميع أرباب العقول، إذ تنفي المساواة بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور، وبين الظل والحرور، وبين الأحياء والأموات، فكأنما بذلك كله تقول: إن الجزاء على الأعمال بعد المصير إلى الله، أمر تقتضيه الحكمة والعدل وإلا كان ذلك تسوية بين مالا يستويان.

ويقول الله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٧، ٢٨).

فالذي يسوي بين المؤمنين والمفسدين، أو بين المتقين والفجار، مخالف لقضية الفطرة والعقل السليم، والذي ينسب إلى الله التسوية بين هؤلاء وهؤلاء؛ عمليًا بترك الحساب والجزاء، يكون ناسبًا إليه جل وعلا ما ينافي حكمته وعدله، أو جاهلاً به سبحانه.

قال صاحب الكشاف في تفسيره لهذه الآية: «لما كان إنكارهم للبعث والحساب، والثواب والعقاب، مؤديًا إلى أن خلق السماء والأرض وما بينهما عبث وباطل؛ جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها، من جحد في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره لكونه خالقًا كلا إقرار، و (أم) منقطعة ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح ومن أفسد، ومن اتقى ومن فجر، ومن سوى بينهم كان سفيهًا ولم يكن حكيمًا».

وبهذا يتبين أن منطق القرآن الذي يخاطب به العقول، إنما هو منطق الذي يتحدث عن التفاوت بين الأفعال، كحقيقة ثابتة تعرفها العقول وتخاطب بها دون احتياج إلى إقامة الدليل عليها، وهل يقام الدليل على الوجدانيات التي نحسها، هل أنا بحاجة إلى أن أقيم الدليل لنفسي على أني جوعان أو ظمآن؟

وأبو حنيفة رضي الله عنه قد رسم الطريق للرد على هؤلاء، أو إلزامهم بحكمة منطقهم الأعوج في أنفسهم؛ فمن حقنا أن نقول لهم بأسلوب أبي حنيفة: أيرضى الواحد منكم أن تنطلق زوجته أو أخته أو ابنته تفعل الخنا، وترتكب الزنا، وتأتي بولد من الحرام فتنسبه إلى غير أبيه؟ أيرضى أحدكم أن يأتمن على أعماله أحد الخائنين، أو أن يكون له صديق من الغادرين، أو رئيس من الظالمين؟

والله تعالى قد تسمى بالأسماء الحسنى، وهو رب الناس، ملك الناس، إله

الناس، وكل اسم من أسمائه الحسنى مؤذن بحبه لمعناه، فهو الرحمن الرحيم، الذي يحب الرحمة ويعامل بها عباده، وهو الغيور، وهو الغفور الودود وهو الصبور، وهو الحكم العدل.. إلى غير ذلك من أسماء الجمال التي توحي إلى الناس بالمثل العليا وترغبهم في أن يتمثلوها ويتعشقوها ويتخلقوا بأخلاق الله فيها، فمن سوغ عقله أن يسوي بعد هذا بين الجمال والقبح، فقد سوى بين صفات الله الحسنى وغيرها من صفات السوء، والنقصان، وأجدر به أن يكون مطروداً من فضل الله، محروماً من توفيق الله ﴿ **ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهوالعزيز الحكيم** ﴾.

فتوح المجاهدين في سبيل الله
العقيدة الإسلامية وأثرها في سمو الإنسان

تدل الدراسات النفسية للأفراد والجماعات على أن الإرادة تخضع إلى حد بعيد للقوة العقلية وتصطبغ في الأفراد والجماعات بصبغتها، فإذا اقتنع العقل بشيء وآمن به وجه الإرادة إليه، وبعث الرغبة فيه فكأن هذاالاقتناع هوالقوة المحركة العاملة على وجود هذا الشيء أو بقائه، ولذلك يحرص أصحاب الدعوات دائمًا على مخاطبة العقول وإقناعها بما يريدون، لأنه متى اقتنعت استجابت، ومتى استجابت كانت العزيمة والإرادة فالعمل، ولا تجد الحذاق منهم يرمون إلى التسلط بالقوة والاعتماد عليها، فإن القوة قد تفلح في فرض شيء ما، ولكنها لا تستطيع أن تكفل له بقاء مستقرًا مثمرًا ثمرات طيبة مهما كان تأثيرها ومداها.

ومن ثم كانت الأديان ذات تأثير قوي لا يغالب، ذلك بأنها تصل بعقائدها وما تبثه في العقول والقلوب إلى تكوين إيمان قوي تثير به العزائم إثارة قوية فعالة مكتسحة، يظنها الناس إعجازًا، وإنما هي سنة الله في القول إذا آمنت إيمانًا حقًا .

والأديان كلها متفقة في أصول العقائد من الإيمان بالله والرسل والكتب واليوم الآخر والحساب والجزاء، وقد سما هذا الإيمان بالإنسانية في عهودها المظلمة إلى حد ما، نعم إن الجهالة والبهيمية كانتا حينئذ أبعد أثرًا وأبر نجاحًا في التشبث ببقاء الإنسان في حضيضه، ولكن كانت توجد دائمًا قلة مؤمنة حول الرسل ودعاة الإصلاح في الأمم، تبشر بالمستقبل المنتظر للإنسانية، فلما بزغ شمس الرسالة المحمدية كان ذلك إيذاناً بتغلب قوة الإصلاح والخير، ومطلعًا لعهد فريد من السمو بالإنسانية إلى أقصى ما ينبغي لها من مراتب الكمال والكرامة.

ومقال كهذا لا يمكن أن يستوعب جميع العقائد الإسلامية التي كان لها أثر في السمو بالإنسان، فحسبنا أن نضرب المثل ببعض الأصول التي امتازت بها الرسالة المحمدية في ذلك ليعرف الناس أي جميل أسداه الإسلام للكرامة البشرية:

١ ـ كان رجال الأديان الأخرى يضربون نطاقًا فولاذيًا على الناس، ويستبدون بشئونهم استبدادًا عجيبًا، ولم يكونوا يكتفون بما جعلته إليهم نظم الحكم والسياسة، من وجوب استئذانهم في سائر التصرفات المادية، من بيع وشراء وهبة وزواج ونحو ذلك، بل جعلوا من أنفسهم وسطاء بين العباد ورب العباد، فمن أراد أن يتوب إلى ربه فعن طريقه، إن شاءوا فتحوا له باب التوبة وإن شاءوا أغلقوه، ومن أراد أن يدعو ربه فإليهم أولاً يجب أن يرجع، وفي سبيل هذا أو ذاك يجب أن تقدم إليهم القرابين، وأن تملأ أيديهم بالذهب النضار، وأن يدخل معهم في مساومات يسيرة أحيانًا، وشاقة أحيانًا تبعًا لما اقترفه من ذنب صغير أو كبير.

وقد نزلت هذه الأوهام والأباطيل بالإنسان إلى مستوى العبودية لغير الله، وجعلته ذليلاً خاضعًا لحفنة من الناس الذين لا يمتازون عنه في شيء، وليس لهم عمل في الحياة إلا أن يبتزوا ثمرات سعيه بهذا الإيهام الكاذب، كما أثر ذلك في العقول فأصابها بالشلل والعقم والجمود، ومن ثم لم يكن من العجب أن يظل البشر في عماية عن الحقائق، وجهل عميق بقيمة أنفسهم وبما يجب عليهم أن يقوموا به لأداء رسالتهم السامية في عمارة هذا الكوكب الذي أسكنهم الله إياه، وسخر لهم كل شيء فيه، حتى إذا جاء الإسلام صرع هؤلاء الوسطاء الكاذبين صرعة لا قيام لهم من بعدها، فأعلن في صراحة أن الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، وأنه لا يشترط في قبول العبادة من الناس أو التوبة من الذنوب وساطة أحد أو شفاعة أحد فما على المرء إلا أن يتب إلى ربه، ويتوب من ذنبه، دون أن يتذلل أو يتزلف أو يقدم القرابين.

بهذا كرم الإنسان وصينت عليه عزته، وانفتحت أمامه أبواب الأمل التي كانت مغلقة، وسما بعقله وتفكيره عن ذلك الضيق الذي قصر عليه، وحبس فيه، وعلى الجملة كان شعوره شبهًا بمن كان تحت الوصاية ثم رفعت عنه قيودها، وأصبح حرًا طليقًا يفعل ما يشاء غير مراقب أحدًا إلا ربه، ولم تكن بركة هذه العقيدة قاصرة على الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا برسوله الكريم، ولكنها سرت إلى أهل الأديان

الأخرى سريانا عجيبا، فلم تمض فترة طويلة حتى خرجوا على أحبارهم ورهبانهم وقسيسيهم فلم يعد أحد يؤمن إيمانا صادقا بوصايتهم أو وساطتهم إلا أن يكون ذلك صورة من الصور التقليدية يؤدونها وهم بها كافرون، ولها كارهون، فكان الإسلام بذلك قد بذر للإنسانية كلها هذا البذر الطيب فأخرج نباته بإذن ربه.

٢ - وعقيدة «التوحيد» من العقائد المشتركة بين الأديان، ولكن أمرها كان عجيبا في أذهان المنتسبين إلي هذه الأديان حتى إذا قطعنا النظر عن واضطراب أهل التثليث فيها، وما يحاولون من حمل العقول على قبول نظرية الآب والابن والروح القدس، كصورة من صور الوحدانية أو التوحد فالأحبار والرهبان - وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية - قسموا الناس طبقات وخيلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك. ولهذا الدم أن يحكم وأن يورث الحكم في أعقابه بأمر الله، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاءه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت والطرد على يد رجال الكهنوت في الحياة الآخرة من رضوان الله، وبهذا فترت الهمم، وانحلت العزائم وصار الناس يدورون في فلك ضيق، إن كانوا من الخاصة لم يكدوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا في الحياة سبيلا قويما لأنهم لا يخافون أن يضيع مجدهم أو ينزلوا إلى مرتبة العامة، وإن كانوا من العامة لم تسم نفوسهم إلى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم في ظل هذا التقسيم الجائر الذي فرض على المجتمع ، ومن ثم استرخى هؤلاء وهؤلاء، وصار العز والرفعة ميراث يصل إلى الأبناء عن آباءهم وأجدادهم، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم.

وهذا نوع من الشرك بالله، فإن الله هو الذي له العزة جميعًا، وعباده هم الفقراء إليه، المحتاجون إلى فضله دائمًا، فكيف يشارك رب العزة فيما هو من خصائصه؟

وشيء آخر في هذا النظام الطبقي، إنما هو نوع من الشرك، ذلك هو ادعاء الأحبار والرهبان حق التشريع بالتحليل والتحريم، وما كان التشريع والحكم إلا لله.

وهكذا كان الناس غارقين في الشرك وإن انتسبوا إلى شرائع تنادي بالتوحيد.

ثم جاء الإسلام فكان منطقيًا عمليًا في دعوته، فالناس جميعا لديه سواء

كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد بدعوى أنه من هذه الطبقة أو من تلك، ولابدعوى أنه تجرى في عروقه دماء معينة، وفي ذلك يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : «أيها الناس. إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، ويقول الله في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣)، وفي هذا المبدأ الذي هو استواء الناس في الحقوق والواجبات نتيجة لاستوائهم في المربوبية لرب واحد وفي البنوة لأب واحد، يصل السمو بالإنسانية إلى مرتبته الكاملة، وفي جعل التفاضل والتمايز «بالتقوى» تقديم للقيم المعنوية، وحفز للهمم والعزائم، وما التقوى إلا سلوك طريق الرشاد في كل ناحية من نواحي الحياة.

وقد كان من أثر هذه العقيدة التي أعلنها الإسلام وأوجبها أن استوى الناس فلا طبقات ولا متقمصين لسلطة التشريع والحكم ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (يوسف: ٤٠) .

وعندما تولى الخليفة الأول كان مما أعلنه على رءوس الأشهاد قوله: «إني وليت عليكم ولست بخيركم، ولقد وددت لو أن أحدكم قام بهذا الأمر عني، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» .

ولم نر أحداً من أهل العلم أو الحكم يزعم أنه ذو حق في التشريع والتحليل والتحريم، وإنما هم ناظرون في كتاب الله وسنة رسوله يستنبطون حكم الله ويبلغونه للناس أو يقومون عليه، ولذلك يعتقد كل مجتهد أنه عرضة للخطأ والصواب، ولم يرض أبو بكر حين بويع بالخلافة أن يدعى «خليفة الله» وقال: إنما أنا «خليفة رسول الله» ثم رأى عمر أن يزداد بعداً عن هذا.

لا ولاية بين الحق والباطل

هناك فرق بين «الولاية» التي هي النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك، بحيث يشعر كل من الوليين أن لصاحبه عليه حقًا هو مطالب بأدائه عن باعث قلبي، وبين البر والقسط، اللذين يجب أن يسودا المجتمع، وتقوم عليهما العلاقة بين المواطنين، إن لم تجمعهما فكرة، أو تؤاخ بينهما عقيدة. ولذلك يبيح الإسلام للمسلم أن يعامل مخالفه في الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط، ما دام لم يصدر منه إيذاء له أو تحريض عليه، أو محاولة لفتنته عن دينه ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة: ٨)، بل لعله يذهب إلى أبعد من هذا فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساسًا للتعامل بينه وبين مخالفه الذي آذاه، وظاهر عليه بشرط ألا يصل هذا البر به إلى حد أن يكو له وليًا ناصرًا . فإنه لا ولاء بين مؤمن وكافر، وقد يستفاد هذا من قوله تعالى بعد الآية المتقدمة: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة: ٩)، فلم يقل كما قال في الآية الأولى ﴿**أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾ ولكن قال: ﴿**أَن تَوَلَّوْهُمْ**﴾، فدل ذلك على أن المنهي عنه هو اتخاذهم أولياء،، لا مجرد البر بهم والقسط إليهم.

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الممتحنة: ٧)، وفي هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة، وأن القلوب تتغير وتتحول، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلاً إلى إصلاح النفوس، وتقريب القلوب، وفي الحديث الشريف: «أحب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».

وقال الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنـــان كل الظن أن لا تلاقيـــا

إذا توافق جماعة على أمر، فكان نظرهم إليه واحداً، وحظهم منه واحداً، فالفطرة تقضي بأن يكونوا فيه نصراء، بعضهم أولياء بعض، لا فرق في ذلك بين المحقين والمبطلين، ولذلك أثبت الله الولاية للمؤمنين والكافرين، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: ٧٣)، ولم يثبتها المنافقين، ولكن قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٦٧)، والتعبير بلفظ (من) يدل على معنى التشابه، ولا يفيد معنى التناصر والولاية إذ لا رباط بين منافق ومنافق، فكل منهما يريد أن يصل من طريق النفاق إلى ما يبتغيه دون أن تساوره فكرة الانتصار لشيء، لأنه غير مؤمن بشيء!

وقد نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء في غير موضع من كتابه الكريم نهياً شديداً.

فمن ذلك ما جاء في أول سورة «الممتحنة» وهي سورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ﴾ (الممتحنة: ١).

وقد نزلت هذه الآيات في شأن حاطب بن أبي بلتعة وهو رجل من المهاجرين شهد بدراً، وكان له بمكة أولاد ومال، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة أراد حاطب أن يتخذ في قريش يداً يحمون بها قرابته وماله، فكتب إليهم كتابا يخبرهم فيه بما اعتزمه رسول الله ﷺ، وأرسله مع ظعينة كانت بالمدينة وقصدت إلى مكة، فأطلع الله رسوله على ذلك فأرسل علياً والزبير والمقداد فأدركوها في الطريق وأخذوا منها الكتاب، فقال رسول الله ﷺ «ياحاطب ما هذا؟» قال: «لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم - يعني أنه لا نسب له فيهم لأنه إنما كان حليفاً لعثمان - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق

هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

وقد جاء التعبير في هذه الآية وغيرها بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ إشعاراً بأن العلاقة بين المسلمين والكفار لا يمكن أن ترقى إلى درجة الولاية الحقيقية الطبيعية، وإنما هي من باب «الاتخاذ» والاصطناع، وذلك أن هناك فرقًا بين أن تقول: فلان صديق فلان، وأن تقول: اتخذه صديقًا، فالأول مفيد أن الصداقة بينهما حقيقية طبيعية، والثاني دال على أنها تعتمد التكلف والتصنع، وقد جاء لفظ «الاتخاذ» في القرآن الكريم غالباً فيما ليس الشأن فيه أن يكون، مثل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ (المؤمنون: ٩١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ (الأعراف: ١٥٢)، ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ (الفرقان: ٣٠)، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ (المجادلة: ١٦)، ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً﴾ (الأعراف: ٥١)، ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ (الأعراف: ٣٠)، ولا يخرج عن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥)، فإن شأن الألوهية عدم الخلة على الحقيقة وإنما هو اتخاذ أي اصطفاء واختصاص بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله.

فالقرآن ينهى المؤمنين عن إيجاد هذه العلاقة بينهم وبين الكافرين، بأن يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة، أما الولاية الحقيقية فمنفية بالطبع ليست مما ينهى عنه، لأن المؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه حقًا وصدقًا لا يمكن أن يجتمع في قلبه مع الإيمان ولاء لكافر عدو لدينه.

بين لنا القرآن الكريم الأسباب التي من أجلها نهينا عن اتخاذ أعداء الله أولياء فكان منها:

(١) أن العداوة بيننا وبينهم أساسية جوهرية، فنحن قد آمنا بما جاءنا من الحق، وهم قد كفروا به، ولا يمكن لاثنين مختلفين في أمر أساسي أن يتعاونا تعاونًا صادقًا، نعم قد تتلاقى مصالحهما في شيء فيتفقان عليه، ويتحالفان في سبيله، لكن هذه العلاقة بينهما ليست بسبيل من الولاية بمعنى نصرة أحدهما للآخر؛ لأنه في الحقيقة إنما ينصر نفسه ويتخذ ذلك سبيلاً لتحقيق مصلحته، وشتان بين

---

(١) البخاري عن علي ك/ الجهاد والسير ب/ الجاسوس (٢٧٨٥).

هذا وبين من ينصرك ناظراً إلى أنك مستحق لنصرته وإن لم يفد منها لنفسه خيراً، أو يدفع بها عن نفسه ضراً، وقد استفيد هذا التعليل من قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ (الممتحنة : ١) .

(٢) أن هؤلاء الأعداء لا يزالون يعملون على فتنتنا عن الحق الذي آمنا به، فهم أخرجوا الرسول وأخرجونا من ديارنا لا لشيء إلا لأننا آمنا بالله ربنا، وهم لا يدعون فرصة يتمكنون فيها من إيذائنا إلا انتهزوها، وهم يتمنون من صميم قلوبهم أن نخرج من ديننا فنعود إليهم كافرين ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ (الممتحنة : ١)، ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الممتحنة : ٢) .

وإذا كان الاختلاف في العقيدة مانعاً من أن تقوم بين المختلفين ولاية أو شبه ولاية، فما أجدر أصحاب الدعوات الإسلامية بأن يكونوا على حذر من الذين لا يؤمنون بدعواتهم، ولهم تاريخ في إيذائهم والتحريض عليهم وودادة فتنتهم وانقلابهم، إنهم يطلبون محالا إذا ظنوا أن ملابسة هؤلاء على باطلهم تجتلب ولاءهم، أو تكفكف من غلوائهم، فقد فسدت منهم القلوب، والتوت العقول.

وبين لنا القرآن الكريم البواعث التي تبعث على اتخاذ الكافرين أولياء، وأنها ترجع إلى ضعف في النفوس ونقص في الإيمان :

١- فمن ذلك أن يلاحظ المرء مصلحة لأهله ورحمه، فيجامل مخالفيه في العقيدة إلى حد أن يكون لهم وليًا ونصيراً على إخوانه وموافقيه، حفظًا لمصالح أهله ورحمه، وهذا هو ما أراده حاطب بن أبي بلتعة حين كاتب قريشاً ينبئها بخبر الرسول، وهذا ضعف فيه كاد يودى به، وقد سماه عمر رضي الله عنه نفاقًا، ولولا سابقة الرجل وأنه كان من أصحاب بدر وما وقر في نفس الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صدقه لكان من الهالكين.

فعلى المؤمن أن يكون واثقًا بالله، متوكلاً عليه، وأن يؤدى ما فرضه عليه، وينتهي عما نهاه عنه، غير ناظر إلى عواقب ما يفعل أو يترك، فإنه إذا كان مبتغياً بفعله أو تركه وجه الله كان الله حسبه، وإذا دار فيما يفعل أو يترك حول أوهام في نفسه أو ولده أو رحمه اضطرب وأغضب ربه ولم ينفعه ما قدر ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الممتحنة : ٣) .

الحب
بين العباد والرب

لفظ «الحب» وما تصرف منه، من الألفاظ الكثيرة الدوران في الكتاب العزيز؛ فقد جاء في أكثر من ثمانين موضعًا منه على أساليب شتى، إثباتا ونفيًا؛ وهو أيضًا من الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة على نحو ما وردت في القرآن الكريم.

و«الحب» فيما جاء من هذا وذاك نوعان:

(١) حب العبد لله .

(٢) وحب الله للعبد .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس:

فأما حب العبد لله فهو منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتنزه؛ وهذه المنزلة تستدعى من صاحبها أن يوثر محبوبه - كما هو الشأن في كل محب - بكل شعب من شعاب قلبه وفكره، وأن يضحي في سبيله بكل رغبة من رغباته، وأن يتحمل في رضاه كل عناء، ويصبر على كل بلاء؛ ذلك أن الحب - كما يعهده الناس بين بعضهم وبعض - هو علاقة فوق المعرفة، وميل وانعطاف فوق الإرادة والرغبة؛ فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلانًا من الناس، أو يعرف كذا من الأشياء معرفة رضا وقبول دون نبو عنه أو نفور منه؛ ولكننا لا نسمي هذا حبًا، لأن الحب أعمق في نفس المحب أثرًا، وأكثر لفراغ القلب شغلاً، بل الحب الحقيقي هو الذي لا يترك في القلب فراغًا، ولا يدع للنفس سبيلاً للتوجه إلى ما سوى الحبيب.

وإذا كان الأمر بهذه المثابة، فحب العبد لله هو الإيمان الحق، وليس الإيمان الحق مجرد المعرفة وإذعان النفس، وبعبارة أخرى: الإيمان الحق هو إيمان المحب لله المنفعل به الذي يؤثره على نفسه، وتبدو آثار حبه إياه في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته؛ أما الإيمان الجاف الصامت السلبي الذي لا يتعدى الإذعان النفسي، والإقرار

القلبي، ولا تظهر آثاره في مظهر من المظاهر العملية الإيجابية، فليس هو الإيمان الذي يريده الله من عباده.

إن المؤمن الحق هو الذي أدرك جمال الله وجلاله، وأدرك لطفه وإحسانه، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم المفيض الذي لا إنعام إلا به، ولا فيض إلا منه، ثم انفعل بهذا الإدراك فأحبه، فأصبح قلبه مشغولاً به، وعمله موجهًا إليه، ولذته وارتياحه في طاعته وعدم المخالفة عن أمره، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضيًا مغتبطًا قرير العين مطمئن القلب ثابت القدم؛ فإذا أحسن إليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكرا بلسانه وقلبه وفعله؛ وإذا ناله شيء في سبيل مرضاته تلقاه صابراً عليه، غير متبرم به، ولا ضائق به صدراً.

ذلك هو المحب، وذلك هو المؤمن؛ وآية ذلك أن الله ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ما سواه فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ (المائدة: ٥٤)، فقد وضع الحب في موضع الإيمان. وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فوصفهم بأنهم ﴿ **يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** ﴾ (الإنسان: ٢٧)، أي أنهم أحبوها فآثروها، ولو أحبوا الله لآثروه ﴿ **كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ** ﴾ (القيامة: ٢٠، ٢١)، وقد نفي الإيمان عمن يوادون أعداء الله فقال: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ (المجادلة: ٢٢)، ذلك لأن عدو المحبوب عدو للمحب، كما أوجب على المؤمنين حب رسوله وحب أوليائه «لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب» وفي ذلك يقول الرسول الكريم: «لايؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[١]،

---

(١) مسلم عن أنس ك/ الإيمان ب/ وجوب محبة رسول الله ﷺ (٦٢).

«وما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه» ويقول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، وهكذا نرى حب الله وإيثاره على كل ما سواه هو الإيمان الحق في كل ما جاء على لسان الشرع. والدستور الجامع في ذلك هو قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٣، ٢٤).

وأما حب الله للعبد فلم يثبته القرآن الكريم إلا لذوي الأعمال العظيمة التي تفوق في قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها، ولم ينفه إلا عن ذوي الصفات السيئة الموغلة في السوء التي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد.

بيان ذلك أن الآيات التي أثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هي أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية، ولها من السمو عما يشاركها في أصل معناها ما يجعلها جديرة بالحب الذي هو فوق مجرد القبول والرضا.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥)، والإحسان صالح لأن يراد به الإنعام على الغير، وأن يراد به الإتقان والتبريز في كل شيء، فإذا أريد به الإنعام فهو منزلة فوق الإعطاء لأن الإعطاء قد يشاب بشائبة من المن أو الأذى أو اختيار الأدنى تخلصًا منه، ولا يكون العطاء إحسانًا حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التي يصفها الله ورسوله في مثل: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢)، و﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤)، «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم

شماله ما أنفقت يمينه»[١]، و«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»[٢]، من كل ما يدل على تحري الحالة الفضلى، والصورة المثلى في كل جانب من الجوانب .

وإذا أريد بالإحسان إتقان العمل عامة والاحتفال له والتبريز فيه، فليس كل من أدى عملاً يكون محسناً بمجرد أدائه، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة، أما إحسان العمل وأداؤه كاملاً متقناً فهذا شيء آخر؛ وإنهم ليقولون: إن الإحسان فوق العدل إذ العدل هو التسوية، والإحسان معنى زائد عليها، فمن أدى الحق وأخذ الحق فهو عادل، ومن تجاوز عن بعض حقه مسامحة منه وكرماً، وأعطى أكثر مما عليه تلطفاً منه وتفضلاً، فهو محسن؛ ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾ (البقرة: ١٧٨)، فيطلب المعروف في الاتباع والمطالبة، والإحسان في الأداء، ويقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ (النحل: ٩٠)، فلا يكتفي بالعدل الذي هو المساواة ولكن يأمر بما فوقه وهو الإحسان، ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ (المائدة: ٥٠).

بهذا يتبين أن الله جلت حكمته لم يمنح حبه لمجرد الإنفاق أو الأداء على ما جرت به العادة، وإن كان يرضى عن ذلك ويقبله، ولكنه منح هذا الحب الذي هو فوق الرضا والقبول لما يناسبه.

ولما كان المحب يعامل حبيبه بمنتهى الكرم، ويتلطف معه أعظم التلطف، فإن الله جل في علاه يعامل المحسنين الذين يحبهم هذه المعاملة، فيقول: ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الحج: ٣٧)، ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأعراف: ٥٦)، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (التوبة: ١٢٠)، ﴿ **وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (البقرة: ٥٨)، ﴿ **وإن الله مع المحسنين** ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وكما يقال هذا في الإحسان يقال أيضاً في الصبر، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم، وهو أساس كثير من الفضائل، وإن اختفت أسماؤها: فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد؛ والجود هو الصبر على بذل المال والمعروف؛ والكتمان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام؛ والعفاف هو الصبر على نوازع النفوس والشهوات؛ ورحابة الصبر هي الصبر على المثيرات والمحفظات، وهكذا؛ ولذلك يعلن الله أنه ﴿ **يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، ويذكر الصبر في خصال البر ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ**

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الأذان ب/ من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٠).

(٢) مسلم عن أبي هريرة ك/ الزكاة ب/ قبول الصدقة من الكسب الطيب وتزكيتها (١٦٨٦).

﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (البقرة: ١٧٧)، ويجعل الصابرين هم أصحاب الحظ العظيم ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥)، ويعلن أنه سيغمر الصابرين بمزيد من الفضل الذي يعادل هذا الحب فيقول: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٦)، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (الفرقان: ٧٥)، ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً ﴾ (الإنسان: ١٢)، ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

وقل مثل هذا في بقية المواضع التي أثبت الله بها حبه لعباده، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، و﴿ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦)، و﴿ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، و﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة: ٤٢) إلخ.

وقد جاء الحديث الشريف مؤيداً لهذا المعنى القرآني إذ يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه قال الله تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»(١).

وليست النوافل في الحديث هي صلاة ركعتين أو ركعات بين يدي الفريضة أو بعدها فحسب، ولكنها كل زيادة وفضيلة فوق ماهو مطلوب في العادة، وذلك يشمل كل ناحية من نواحي الحياة، كالإحسان والصبر والتقوى والتطهر.. إلخ.

ومعنى قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» هو التوفيق والهداية والرعاية في كل حال، نتيجة للحب الذي منحه إياه؛ ولا شك أن الذي يسمع بالله، ويبصر بالله لا يضل ولا يشقى؛ وذلك أيضاً هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، و﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، إذ يلزم هذه المصاحبة كل توفيق وسداد.

بقي بعد ذلك الآيات التي نفى فيها الله حبه عن عباده، مثل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، و﴿ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة: ٦٤)؛ ولا شك أن الفساد إجرام فوق العادة، وأن المفسدين أعداء المجتمع والعاملون على تقويض بنيانه، وزعزعة أمنه واطمئنانه، فإن الشخص الذي يذنب ذنباً عادياً

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الرقاق ب/ التواضع (٦٠٢١).

يكون جرمه على نفسه، أما الذي يعيث في الأرض فساداً فجرمه على المجتمع كله؛ ولذلك قد يتوب الله على الأول أي يوفقه للتوبة والرجوع ويغفر له، أما الثاني فقلما يوفق للتوبة لأن قلبه مظلم، ونفسه في ضراوة الوحوش الكاسرة.

وحسبنا أن الله جل علاه يذكر الفساد والمفسدين في أخطر المناسبات، إذ يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هي ما ذكره الله عز وجل في مثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)، ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل: ٨٨)، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٨٦).

وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠)، وفي القرآن الكريم بيان عاقبة هذا المقت وعدم الحب؛ مثل قوله: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١)، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠)، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (النحل: ١١٣)، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه: ١١١).

وأحسب أنه لا يصعب بعد هذا البيان على من شاء من القراء أن يتتبع الفكرة على هذا النحو في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (الروم: ٤٥)، و﴿لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، و﴿لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦)، و﴿لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٧).

وخير ما أختم به هذا الحديث دعاء الرسول ﷺ الذي كان يدعو به ربه «اللهم ارزقني حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك».

الود للأكرمين

قال العطـــوي الشاعـــر:

صن الود إلا عن الأكـرمين	ومن بمؤاخـــاته تشــــرف
فكم من أخ ظـــاهر وده	ضمير مودته أجيــــــــف
ولا تغترر من ذوي خلـــة	بما هوى لك أو زخــــرف
إذا أنت عاتبته في الإخـــاء	تنكر منه الذي تعــــرف

الباب السابع

الإسلام والحريات

١ - الإسلام محرر العبيد.

٢ - الإسلام دين الإنسانية والسلام.

٣ - الإسلام يعتمد في دعوته وتعاليمه على الشعوب لا على القادة والحكام.

٤ - الحقوق الطبيعية للمواطنين.

٥ - القوانين التي وضعها الإسلام ضمانا وتنفيذا للحقوق الطبيعية

الإسلام محرر العبيد

إن الحرية حق طبيعي لبني آدم الذين كرمهم الله تعالى، وسوى بينهم، فهو ربهم جميعا، وكلهم أمام ربوبيته سواء، وهم جميعًا أولاد آدم وحواء، فلا فرق بينهم في النشأة، ولا امتياز لفرد منهم على فرد إلا بحسن سلوكهم في الحياة، وبما يقدمونه من أعمال صالحات.

ولكن الإنسان من قديم الزمان استعبد أخاه الإنسان واتخذه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه، وكان هذا الرق نظامًا مسلمًا به في العالم، بل كان بعض الفلاسفة يقرر أن الناس صنفان: صنف خلق ليكون سيدًا، وصنف خلق ليكون عبدًا، وأنهم لم يخلقوا من طينة واحدة؛ فالسادة والأمراء خلقوا من طينة قوامها تبر الذهب والعبيد والأجراء خلقوا من طينة أخرى لا قيمة لها.

وكانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام تفرق في الحقوق بين السادة والعبيد، فلم يكن من حق الأرقاء أن يتولوا الوظائف العامة، وإذا اعتدى سيد على عبد لم يعاقب على اعتدائه، وإذا اعتدى عبد على سيد حقت عليه العقوبة أضعافًا مضاعفة، وربما وصلت إلى القتل، وقد نص في أحد قوانين القرون الوسطى بشأن الأرقاء على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده أو أحد الأحرار أو ارتكب أخف السرقات، فإن جزاءه القتل.

«وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الإمبراطور أبترونيا الروماني، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضي، وفي عهد الأمبراطور أنتونان الروماني صدر أمر يقضي بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة»[1].

فلما جاء الإسلام لم يرض عن هذا الوضع المهين لكرامة بني آدم، وكان منطقيًا مع مبادئه السامية في تحقيق المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية للناس جميعًا دون

(١) اقرأ كتاب «الإسلام دين عام خالد» للمرحوم العلامة الأستاذ محمد فريد وجدي.

تمييز ولا تفرقة، ولذلك أعلن في صراحة ووضوح «أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح»، «إخوانكم خولكم،جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس»، «ولا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي ولكن ليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»(١).

كما أعلن في صراحة ووضوح أنه يحب الحرية ويمجدها ويتشوق إلى تحقيقها، وأنه يعتبر تحرير الرقاب من أعظم القربات التي يتقرب الناس بها إلى ربهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم بعد أن بين نعمة الله على الإنسان في خلقه وتكوين أعضائه، وتكريمه بالعقل، وهدايته إلى النجدين - وهما معرفة الخير والشر يقول القرآن الكريم بعد الامتنان على الإنسان بهذا كله ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾ (البلد: ١١-١٦)، فهو يعد العقبة الكبرى التي يجب على الإنسان أن يعمل لاجتيازها، هي احترام الإنسانية في جميع أفرادها، بتحريرهم من العبودية بملك الرقبة، ومن العبودية للفقر أو المسكنة أو اليتم، التي من شأنها أن تجعل الإنسان ذليلاً مستضعفاً قابلاً لما يفرضه عليه غيره.

وبهذا أعلن كرامة الإنسان وحقه في الحرية، ثم وضع الخطة المحكمة لتصفية الرق على سبيل التدرج تصفية نهائية ولم ير أن يفاجئ المجتمعات بإلغائه دفعة واحدة حتى لا تهتز بذلك اهتزازاً عنيفاً يصيب المتحررين كما يصيب غيرهم.

وكانت سياسته في ذلك: أن يضيق المسالك التي تؤدي إلى الرق ويوسع المنافذ التي تؤدي إلى الحرية(٢).

فكان من المنافذ الكثيرة أنه جعل العتق كفارة لبعض ما يرتكب من الأخطاء والتقصير..

﴿ **وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ** ﴾ (النساء: ٩٢).

ومن فطر عامداً في رمضان فعليه أن يكفر عن ذلك بعتق رقبة أو صوم ستين

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك / العتق ب / كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي (٢٣٦٦).

(٢) اقرأ في ذلك ما كتبه العلامة الدكتور علي عبد الواحد وافي بكتابه: «حقوق الإنسان في الإسلام».

يوما متتابعة.

ومن حنث في يمينه فمما يكفر به عن حنثه عتق رقبة.

وإذا ظاهر الزوج من زوجته، أي قال لها كما كان يقول العرب قديمًا: أنت على كظهر أمي، أي لا تحلين لي، ثم أراد أن يعود إليها فعليه أن يحرر رقبة من العبودية تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا** ﴾ أي يراجعون أنفهسم في شانه ويريدون إصلاح خطئهم فيه - ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا** ﴾ (المجادلة: ٣)، أي من قبل أن يمس الرجل المظاهر زوجته أو تمسه هذه الزوجة، وتلك رغبة بادية من المشرع في العتق والتحرير، ووضع للزوجين في موضع يحملهما على ذلك حملاً، تلبية لرغبتهما الطبيعية في المراجعة وإعادة الحياة الزوجية.

ومن مثل بعبده أو ضربه فكفارته أن يعتقه، وقد روي في ذلك عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه»[1].

كما روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبدًا له، فجعل العبد يقول: أسألك بالله، أسألك بوجه الله - يستعطفه ويناشده بوجه الله أن يتركه ويعفيه من الضرب - ولكن الرجل لم يعفه، فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد فانطلق إليه، فلما رأى الرسول كف عنه وأمسك عن ضربه، فقال له رسول الله ﷺ منكرًا عليه قسوته: سألك بوجه الله فلم تعفه، فلما رأيتني أمسكت يدك عنه؟! فخاف الرجل خوفًا شديداً وقال: فإنه حر لوجه الله يا رسول الله!! ففرح الرسول بعد أن كان قد غضب وقال له: أما إنك لو لم تعتقه كفارة لضربه لسفعت وجهك النار!

ومن منافذ التحرير أيضاً ما قرره الإسلام من تخصيص جزء من مال الزكاة لعتق العبيد والإماء، وذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٦٠)، فقوله تعالى: ﴿ **وَفِي الرِّقَابِ** ﴾ معناه: وفي

(١) مسلم عن زاذان ك/ الايمان ب/ صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٣١٣٠).

إطلاق الرقاب من قيود الرق، وفي هذا التعبير تصوير للرق بأنه بمثابة الأغلال التي توضع في الرقاب، وتصوير لمن صار حراً بأنه استرد رقبته، أي استعاد شخصيته وإنسانيته، لأن الغل لا يوضع إلا في عنق البهيمة، ولا شك أن لذلك إيحاءاً عظيماً بكراهية المشرع للرق، وحبه للحرية.

ومن المنافذ التي هيأها الإسلام لتصفية الرق وتحرير العبيد والإماء ما يقرره من أن السيد إذا أتى من أمته المملوكة له، بولد ـ ذكر أو أنثى ـ فإن وصفها بتغير وضعها الاجتماعي ينتقل إلى منزلة غير منزلة العبودية الصرف، فتصبح «أم ولد» وهذا هو الوصف الشرعي لها بعد ولادتها من السيد وهو وصف فيه تكريم، وله مقتضيات: أما كونه تكريماً لها، فلأنها أصبحت تشترك مع سيدها في ولد يناديها بوصف «الأمومة» ويناديه بوصف «الأبوة» ويضفي عليه كل منهما قدراً مشتركا من الحنان والمحبة.

فأما مقتضيات هذا الوضع الجديد، فمنها أنها تصبح بمجرد مجيئها بالولد من السيد مستحقة للحرية بعد موته، فإذا مات السيد خرجت من تركته بالغة قيمتها ما بلغت، وتقدم حريتها على كل الحقوق المترتبة على التركة من ديون أو وصايا أو أنصبة للوارثين.

واحتفاظاً لها بهذا الحق في التحرر بعد موت السيد حكم الإسلام بأنه لا يجوز للسيد في حال حياته أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف فيها أي تصرف يعوق تحررها.

وإذن فعلاقتها به أشبه بعلاقة الزوجة بزوجها، لا بعلاقة الأمة بمالكها.

ومن مقتضيات هذا الوضع أيضاً أن الولد الذي جاء ثمرة لهذا الاتصال من السيد بها يولد حراً، فلا يتبع أمه كما هي قاعدة الرقيق، ويكون له من الحقوق على أبيه في حياته، وبعد مماته، مثل ما لسائر الأولاد الذين كانوا ثمرة زواج من نساء حرائر.

وقد تحرر بسبب هذا النظام كثير من الإماء، وكان لهن أولاد يتمتعون بالنسبة إلى آبائهم الأحرار، ويعيشون مثلهم أحراراً، وقد عرف التاريخ منهم من وصل إلى مرتبة الخلافة ـ كالمأمون العباسي ابن هارون الرشيد ، الذي طبق ذكره آفاق الدنيا ـ وآفاق التاريخ في الحياة وبعد الممات!

الإســـلام
دين الإنسانية والسلام

جاء الإسلام والناس فريقان: أهل شرك ووثنية، وأهل دين يتمثل في اليهودية والنصرانية، فكان له من الشرك والوثنية موقف، ومن اليهودية والنصرانية موقف.

فأما موقفه من الشرك والوثنية، فكان موقف النقيض من النقيض: يبطل عقائدهم، ويسفه أحلامهم، وينكر آلهتهم، ويحاربهم بكل ألوان الحرب، ذلك بأن العداوة بينه وبينهم أصلية أساسية، لأنها في القضية الأولى التي جاء بها كل الأنبياء، ونزلت بها كل الكتب قضية التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى.

وأما موقفه من أهل الدين اليهودي والنصراني، فكان هو السماح بعينه، أو كان بلغة عصرنا: هو الرغبة في (التعايش السلمي) المبني على احترام كل فريق للآخرين والتعاون على تحقيق الأهداف المشتركة في اقتلاع جذور الوثنية وتكريم الإنسان من أن يرزح تحت أوزارها، أو يتجلل بخزيها وعارها.

فكان من تلطف الإسلام معهم أن سماهم «أهل الكتاب» وهي تسمية جميلة، فيها اعتراف بهم وتقرير؛ لأنهم أهل دين سماوي، واعتداد بما عندهم من أصول الحق، وأسس الخير، وفي هذه التسمية أيضًا براعة في توجيههم إلى الطريق المستقيم ومناشدة لهم باسم كتابهم أن يفيئوا إلى الحق، كأنه يقول له: أنتم أهل كتاب، وأصحاب علم، فجدير بكم ألا تقفوا من دعوة الحق إلا موقف المؤيد لها، المتعاون معها، وفي القرآن الكريم من هذه المناشدة آيات قوية ذات تأثير عقلي وعاطفي، كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** ⁽٧٠⁾ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٧٠، ٧١)، ﴿ **لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (آل عمران: ٩٩)، ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ**

اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

والقرآن الكريم يفرق بين صالحيهم وطالحيهم ويعطي كل فريق حقه، ملتزما جادة العدل والصدق، فيقول: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ (آل عمران: ٧٥)، ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (آل عمران: ٧٨)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠).

فكل هذه الآيات فيها إنصاف، وفيها قصد في الحكم، واحتياط في التحذير، وبرهان على أن الإسلام لا يبغي تعصبًا، ولا يريد أن يعادي إلا من يعاديه، وفيها في الوقت نفسه تعويد للمسلمين على المرونة مع الاحتياط، وعلى أن يفرقوا بين قوم وقوم، وألا يتخذوا الناس كلهم أعداء فيصيروا بذلك في عزلة عن العالم، وألا يأمنوا جانب كل فريق ولو كان من دأبه مخادعتهم، والعمل على زلزلة مجتمعهم ودينهم وأخلاقهم فإن في هذا غفلة لا تليق بالمؤمنين.

وقد رسم القرآن الكريم طريقة مجادلتهم من حيث الأسلوب والموضع: فأوصى بأن يكون جدالنا معهم هادئًا حسنًا ما داموا غير متعنتين، وبأن يكون أساسه أن دعوتنا ودعوتهم واحدة، وفي هذا وذاك يقول الله جل شأنه: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد أباح الإسلام طعام أهل الكتاب، وأحل ذبائحهم، وأجاز للمسلمين أن يتزوجوا من نسائهم، وجعل للزوجة الكتابية التي يتزوجها المسلم جميع حقوق الزوجية، وجعلها حرة في إقامة شعائر دينها، وبهذا وجد مسلمون ذوو أمهات

وأخوال من أهل الكتاب، ووجدت تبعًا لذلك الرحم بين الأسرة المسلمة والأسرة الكتابية.

وقد أرشد الله المسلمين إلى أن الاختلاف في الدين لا يصلح بذاته سببًا للقطيعة والجفاء، فقال جل شأنه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨، ٩).

وبهذا برئ المسلم من الضغينة التي مبعثها الاختلاف في الدين، وصار مكلفا بأن يعدل في معاملة مخالفه، بل تكون معاملته له على أساس البر، والبر فوق العدل، وإنما نهى القرآن عن موالاة أعداء الله أعداء الحرية الفكرية الإنسانية في الاعتقاد، والحرية السياسية في الأوطان، من كل من قاتلهم ليخرجهم من دينهم، أو ليخرجهم من أوطانهم، أو عاون على إخراجهم وتشريدهم، إن على المسلمين أن يرفضوا موالاة هؤلاء أو التعاون معهم، وهم في ذلك أصحاب حق طبيعي إنساني مشروع، وليسوا في تمسكهم بهذا الحق متعصبين، ولا خارجين على مقتضى الإنسانية والسلام.

ولقد كان للمسلمين موقف من مواقف الشرف الإنساني وقفوه على عهد رسول الله ﷺ، يوم كانت الدعوة الإسلامية تكافح وتناضل في سبيل إعلاء كلمة الله، في سبيل التوحيد والوحدة، في سبيل إقرار حق الإنسان في الحرية، وفي الكرامة وفي التفكير، وفي كل معنى من المعاني التي لا تستقيم إنسانيته إلا بها، ولا تستقر حياته إلا عليها.

هذا الموقف هو ما يحدثنا به التاريخ من أن بلاد العرب كانت يومئذ تجاور دولتي الروم والفرس، وقامت بين هاتين الدولتين حرب شديدة، وكان العرب يتتبعون أخبار هذه الحرب في شغف وتلهف، كما تعودت الشعوب في أيام الحروب.

كان المشركون من أهل مكة يتمنون أن ينتصر الفرس على الروم، لأنهم وثنيون مثلهم، لا يؤمنون بالله، ولا ببعث ولا نشور، وكانوا يريدون بذلك أن يفتّوا في عضد المسلمين، ويفهموهم أن الروم إنما غُلبوا لأنهم أهل دين وكتاب، حتى يشعروهم بالمرارة والألم واليأس من الانتصار.

وكان المسلمون يودون لو انتصرت الروم على الفرس لأن الروم من أهل الكتاب، وكتابهم هو الإنجيل، والمسلمون أيضًا من أهل الكتاب، وكتابهم هو القرآن، أما الفرس فعباد أوثان.

فلما غلبت الروم، وانتصرت الفرس، تطاولت أعناق المشركين من أهل مكة فرحًا، وصاروا يتلاقون في الأندية والطرقات يعانق بعضهم بعضًا، ويتبادلون التهنئة بفوز الفرس، واندحار الروم.

وكان المسلمون على العكس من ذلك.

وبلغ الأمر بالمشركين إلى أنهم كانوا يتهكمون بالمسلمين، ويبشرونهم بيوم من الهزيمة كيوم الروم، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما غاظه وأخرج صدره، فقال له: لا تعجل بالمسرة، فسيأخذ الروم بثأرهم.

وما لبثوا أن أنزل الله في ذلك قرآنًا حيث يقول في مطلع السورة المعروفة بسورة الروم:

﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ١-٦).

ولم تمض بعد ذلك إلا تسع سنين حتى انتصر هرقل ملك الروم، وهزم فارس واسترد منها الشام ففرح المؤمنون بهذا النصر فرحًا عظيمًا، وكبت به المشركون.

ما الذي نفهمه من هذا الموقف:

أننا ندرك منه أن الإسلام دين مبادئ لا دين أشخاص ولا منافع.

فهو يؤثر النصر لأهل الكتاب، والهزيمة لأهل الشرك والوثنية.

لأنه يرى أهل الكتاب أقرب إلى مبادئ الحق التي جاء بها، فهم يؤمنون بالله ربًا، وهم يعتقدون بالبعث والحساب.

أما الوثنيون فهم لا يعرفون ربًا، ولا يرجون بعثًا ولا نشورًا ولا حسابًا.

وهكذا الدول الحصيفة تنظر إلى المبادئ فتمنح حبها ومودتها وتمنياتها للفريق الذي تعلم أنه يحتضن المبادئ السليمة، وتنظر إلى المجاهدين في سبيل هذه المبادئ نظرة إكبار وإعجاب، وتفرح لهم إذا أصابوا نصرًا، وتحزن من أجلهم إذا أصابتهم هزيمة وتعمل كل ما استطاعت على مؤازرتهم وتأييدهم.

ونحن الآن أمة ذات دعوة إصلاحية، ومبادئ اجتماعية، قررنا أن نعيش من أجلها، أو نموت في سبيلها.

فلا يمكننا أبدا أن نمالئ المستعمرين وأذناب المستعمرين،على أصحاب المبادئ الصالحة.

ولا يمكننا أن نسكت ونقف موقف المتفرجين، وهؤلاء الطغاة الذين لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلوبهم، ولا يؤمنون بحق الإنسان في الحرية والكرامة، يضربون أصحاب المبادئ الشريفة الذين يجاهدون في سبيل كرامتهم وعزتهم وخلاص أوطانهم من أيدي الغاصبين.

وإذا كان التاريخ يحتفظ للمسلمين الأول بهذا الموقف المشرف، فإنه يحتفظ لليهود الذين كانوا يعاصرونهم بموقف على عكس هذا الموقف كانوا فيه شخصيين انتهازيين كعادتهم:

وذلك أن جماعة من كبارهم قدموا إلى مكة فاجتمع بهم المشركون الوثنيون، وسألوهم عن أخبار النبي والمسلمين في المدينة، ثم قالوا لهم: أخبرونا يا معشر يهود فأنتم أهل الكتاب وأدرى منا بالأديان: أدين محمد خير أم ما نحن عليه، فقالوا ولم يترددوا: بل ما أنتم عليه خير من دين محمد وأصحابه، وأنتم أهدى منهم سبيلاً.

فكان هذا موقفًا شاذًا من هؤلاء الذين يعرفون الحق وينكرونه، وكيف يسمح قوم نزل عليهم كتاب، وبعث إليهم رسول يؤمن بالتوحيد والبعث، أن يؤيدوا

الوثنية على التوحيد.

ولذلك أنزل الله تعالى قوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** ﴾ (النساء: ٥١، ٥٢).

والعبرة من هذا الموقف أن هؤلاء اليهود هم دائمًا على استعداد لأن يبيعوا كل شيء في سبيل أغراضهم الدنيئة وأن يتنازلوا حتى في عقائدهم الدينية، في سبيل الكيد للمسلمين، ذلك ماضيهم وذلك حاضرهم، ولذلك نراهم يجوبون الآفاق في أفريقيا على وجه الخصوص لحرب العرب، بل لحرب الجمهورية العربية المتحدة بالذات، وليوهموا أهل أفريقيا بأنهم على أستعداد لخدمتهم ومعاونتهم وما يريدون بذلك إلا بث سمومهم، ونصب أحابيل كيدهم للإسلام والمسلمين.

ومن هنا نرى أن علينا واجبًا خطيرًا، وأنه لا يجمل بنا أن نقف منكمشين داخل حدودنا، فإن اليهودية الحديثة تريد أن تطوقنا، وأن تعزلنا، فلنبادرهم، ولنسابقهم، ولنبين لإخواننا وجيراننا ختلهم ومكرهم والله المستعان.

الإسلام يعتمد في دعوته وتعاليمه على الشعوب لا على القادة والحكام

للإسلام أسلوب خاص في تربية الامم، وتوجيه الشعوب، اساسه الاعتماد على الشعوب نفسها، لا على القادة والزعماء والسلاطين وذلك يتفق مع منطقه التربوي الذي يؤمن بأن الإصلاح الراسخ هو الإصلاح القائم على الاقتناع والإيمان، لا على الإكراه والطغيان، فلو أنه جعل سياسته وأكبر همه، في الاتجاه إلى القادة والزعماء، والاتفاق معهم، وجر الشعوب وراءهم، لما كان إصلاحه دائماً ولا مستقراً، ولما عاشت مبادئه وتعاليمه في الشعوب إلا فترات محدودة بأعمار هؤلاء القادة والزعماء.

ولذلك نرى الإسلام يوجه نداءه وخطابه إلى الشعوب وإلى الكافة من الناس، ويتجلى ذلك في صور كثيرة:

منها أن القرآن الكريم ينادى بتشريعاته ومبادئه أهل الإيمان بعنوان إيمانهم فيقول في كثير من الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن أمثلة ذلك ـ وهي كثيرة جدا في القرآن الكريم ـ قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: ١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ (البقرة: ١٥٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ (آل عمران: ١١٨) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي نرى التشريعات والمبادىء فيها مصدرة بهذا النداء المحبب، الذي يعتبر مناشدة مباشرة للشعب، ومطالبة بالطاعة نزولاً على مقتضى العهد الذي عاهدوا الله عليه حين آمنوا به، والتزموا بأن ينزلوا على حكمه ويسمعوا ويطيعوا لتشريعه وتوجيهه.

وشبيه بهذا ما يأتي في القرآن الكريم من الحديث عن المؤمنين بأوصافهم التي يقصد من ذكرها التوجيه والإرشاد ولفت الأنظار إلى ما يجب أن يتحلى به المؤمنون، من أخلاق فردية واجتماعية وسياسية.

ومن أمثلة ذلك ـ وهي كثيرة أيضاً في القرآن الكريم ـ قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ

الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١١، ١١٢).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢-٤).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ㊱ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ㊲ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ㊳ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ㊴ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (الشورى: ٣٦-٤٠).

ففي كل ذلك إيحاء بصفات، وتقرير لمثل عليا، وتوجيه لأهل الإيمان بطريق مباشر إلى أن يتعقبوها ويتمثلوها ويعملوا على أن يكونوا متصفين بها.

فإذا تركنا أسلوب النداء للمؤمنين بوصف الإيمان، فإننا نجد أسلوباً آخر بوصف الإنسانية، حيث تكون المناشدة في المعاني العامة التي يجب أن يعلمها الناس بوصفهم ناساً».

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ㉑ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١، ٢٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج: ٧٣).

فهذه الآيات كلها وكثير مثلها، مصدرة بنداء موجه إلى الناس عامة، لأنها في معان ومبادئ لا تخص المسلمين وحدهم، ولا يختلف فيها البشر، ومن ثم فهي نداء عام للإنسانية كلها دون التفات إلى أجناس وألوان فضلاً عن أن يكون فيها التفات إلى قادة أو زعماء!

وشبيه بهذا ما يرد في الكتاب العزيز بغير أسلوب النداء الموجه إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٧).

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣).

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٨٥).

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (هود: ١١٨).

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ (الرعد: ٦).

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم: ٤١).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (النمل: ٧٣).

فكل هذه الآيات حديث عن الناس، ووصف لأحوالهم، ودرس لنفوسهم

وأساليبهم في الحياة، وكلها فيه اتجاه مباشر بلا واسطة يقرؤه الناس ويسمعونه ويتأملون فيه فيجدون تحليلاً إنسانياً للصفات والأخلاق من الله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهناك مئات كثيرة من هذه الآيات منبثة في القرآن الكريم، حتى لو أن انسانًا أحصاها وقسمها وبحث ألوان دراساتها عن النفس الإنسانية لأتى بالعجب العجاب، ولأخذ بألباب العلماء والباحثين النفسيين، فما ترك القرآن فيها زيادة لمستزيد.

والقرآن الكريم لا يتحدث عن السادة والقادة والزعماء إلا حيث يريد النص على الأمم في استسلامها لضلال قادتها، وأهواء سادتها، الذين حادوا عن الطريق المستقيم، فضلوا وأضلوا.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٧، ٦٨).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢١، ٢٢).

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ

﴿أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨، ٣٩).

فكل هذه الآيات تهدي إلى أن الشعوب يجب أن تسير وراء الحق وألا تستسلم لقادة السوء وزعماء الضلال وأن تكون هي الموجهة لهم بما لها من إرادة حرة وعزيمة صادقة، لا أن تذوب فيهم، وتتنازل عن شخصيتها لهم، وتلك هي الخطة الرشيدة في سيادة الشعوب التي يعبر عنها في عصرنا الحاضر «بالديمقراطية الصحيحة» وهي حكم الشعب بالشعب.

والقرآن الكريم يقرر أن للأمم آجالاً كما أن للأفراد آجالاً، فيقول:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (الحجر: ٤، ٥).

كما يقرر أن الله تعالى لا يخترم الأمم اختراما ولا يهكلها ارتجالاً، ولكن جزاء بما تكسب، وتخلية بينها وبين آثار أعمالها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود: ٣).

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٥).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ (نوح: ٢-٤).

﴿إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤-٥٦).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨).

فكل هذه الآيات الكريمة متضافرة على تقرير سنة من سنن الله في الأمم وأنها إنما تؤخذ بفسادها هي، وإنما تنهار إذا انهارت أخلاقها هي، فلن يستطيع ملك طاغ أن يفسدها، إن كانت صالحة، ولن يستطيع أن يصلحها إذا تغلغل فيها الفساد، واستعصت على عوامل الصلاح ورفضتها.

والأمم الحية ينبعث منها قادة أحياء وزعماء صالحون مصلحون، أما الأمم الضعيفة الذليلة فإنها تساق سوق الأنعام، ولن يخلق أن يكون في يدها الزمام.

وفي الحديث الشريف «كما تكونوا يولى عليكم» فإذا رأينا قادة الأمة وزعماء صالحين عاملين شرفاء فلنعلم أن الأمة بخير، لأنهم عاملين شرفاء فلنعلم أن الأمة بخير، لأنهم عناوينها الدالون عليها وإذا رأيناهم على غير ذلك، فالأمة هي المسئولة عن وجودهم، وهي المستحقة لما ينالها على أيديهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

الحقوق الطبيعية للمواطنين
كما قررها الإسلام

الحقوق الطبيعية للمواطن كثيرة، ويمكن إرجاعها إلي أصول ذات فروع، وهذه الأصول هي:

١ ـ حق المواطن في المساواة.

٢ ـ حق المواطن في الحرية.

٣ ـ حق المواطن في اعتبار كرامته الإنسانية.

٤ ـ حق المواطن في أن يأمن على حياته.

٥ ـ حق المواطن في أن يعيش عيشة كريمة وقد كفل الإسلام هذه الحقوق الطبيعية للمواطنين ولم يكتف بتقريرها نظرياً، ولكنه شرع مع ذلك من النظم والقوانين ما يضمنها عملياً، ويكفل تنفيذها على أحسن وضع.

وإليكم البيان:

إن الإسلام قد كفل المساواة بين الناس، واعتبرهم جميعًا سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين جنس وجنس، ولا بين لون ولون، ولا يمتاز الغنى في نظره عن الفقير، ولا الحاكم عن المحكوم، وليس هناك ما يتفاوتون به إلا السلوك القويم المعبر عنه بالتقوى، وما يقدمه كل منهم لنفسه وأهله ومجتمعه من المنافع الإيجابية المعبر عنها بالأعمال الصالحة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويقول رسول الله ﷺ: «أيها الناس. إن ربكم واحد، وأن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي فضل إلا بالتقوى» وسمع رسول الله ﷺ أبا ذر الغفاري يقول لعبد زنجي أغضبه: «يابن السوداء» فغضب النبي ﷺ وقال: «طف الصاع! طف الصاع ـ أي تجاوز الأمر حده ـ ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فوضع أبو ذر خده على الأرض، وقال للأسود: قم فطأ خدي!

وكذلك قرر الإسلام حق المواطن في الحرية، وهذه كلمة عمر المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، والإيمان بذلك يجعل الإنسان سيد نفسه، لا يقر بالعبودية إلا لربه الذي أنعم عليه.

وحرية المواطن في اختيار العمل الذي يعمله مكفولة بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤)، ولا ينبغي أن يفهم أن العمل في مثل هذه الآيات مراد به أعمال العبادة والتقرب إلى الله فقط، وإنما هو أوسع من ذلك، بل إن الأعمال الإيجابية الدنيوية، والأعمال التي يقصد بتركها معنى إصلاحي، كلها من قبيل ما ينظر الله إليه وما يثيب به وما يحتسبه لصاحبه، ويمنحه ثمراته في العاجل والآجل.

والحرية الدينية مكفولة بمثل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢)، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

والذميون - وهم أهل الأديان الأخرى الذين هم في ذمة المسلمين وعهدهم - لهم أيضًا حريتهم الدينية، ولهم في الحقوق ما لنا، وعليهم من الواجبات المدنية ما علينا، ولا مانع من برهم والقسط إليهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

وبمناسبة هذه الآية الكريمة أحب أن أستطرد ببيان مبدأ هام من مبادئ التسامح والعدل في الإسلام:

فإن القرآن الكريم يقرر مبدأ التسامح مع مخالفيه، ولا يرضى بأن تقوم بين الناس عداوة لمجرد اختلافهم في الدين، بل يصرح - كما رأينا في هذه الآية - بأنه يحب البر والقسط عامة.

والقاعدة التي يرشد إليها القرآن الكريم في ذلك، يمكن أن نعبر عنها بهذه العبارة: «لا موالاة للأعداء، ولكن بر وقسط وإن سلف منهم الإيذاء».

وينبغي أن نعلم أن هناك فرقًا بين «الولاية» التي هي النصرة والمعاونة على تحقيق

غرض مشترك، بحيث يؤمن كل من «الوليين» أن لصاحبه عليه حقًا، هو مطالب بأدائه عن باعث قلبي، وبين البر والقسط اللذين يجب أن يسودا المجتمع الإنساني، وتقوم عليهما العلاقة بين أفراده وشعوبه، وإن لم تجمعهما فكرة، أو تؤاخ بينهما عقيدة، وهذا هو ما يعبر عنه في مجمعنا الراهن بمبدأ «التعايش السلمي» فالقرآن الكريم يقف من كل واحدة من هاتين العلاقتين موقفًا يناسبها، فهو ينهى المؤمنين أشد النهي عن اتخاذ المخالفين لهم من أهل الكتاب والمشركين «أولياء» يرتبطون بهم ارتباط المتناصرين بعضهم ببعض، وذلك بأن يستعينوا بهم على المؤمنين، ويعينوهم عليهم، بينما يبيح للمؤمنين أن يعاملوا مخالفيهم في الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط وتبادل المصالح المادية من تجارية وغيرها، مادام لم يصدر منهم إيذاء لهم، ولا تحريض عليهم ولا محاولة لفتنتهم عن دينهم.

اقرأ في النهي عن اتخاذهم أولياء مثل قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾، ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾، ﴿**لا يَتَّخذ الْمُؤْمنُونَ الْكَافرينَ أَوْليَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ فَلَيْسَ منَ اللَّه في شَيْءٍ إلاَّ أَن تَتَّقُوا منْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإلَى اللَّه الْمَصيرُ**﴾ (آل عمران: ٢٨).

واقرأ في إباحة البر بهم والقسط في معاملتهم قوله تعالى - وقد ذكرناه من قبل -:
﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتلُوكُمْ في الدّين وَلَمْ يُخْرجُوكُم مّن ديَاركُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسطُوا إلَيْهمْ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ**﴾ (الممتحنة: ٨).

ثم اقرأ الآية التي بعدها تجدها تذهب إلى أبعد من هذا في التسامح، فتبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساسًا للتعامل بينه وبين مخالفه الذي آذاه، بشرط إلا يصل الأمر بينهما إلى حد «الولاية» والنصرة، وذلك قوله تعالى: ﴿**إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ في الدّين وَأَخْرَجُوكُم مّن ديَاركُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إخْرَاجكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ**﴾ (الممتحنة: ٩)، فقد صرحت هذه الآية بأن المنهي عنه - في شأن هؤلاء - إنما هو اتخاذهم أولياء، لا مجرد

البر بهم، والقسط إليهم.

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ٧)، وفي هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة، وأن القلوب تتغير وتتحول، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلاً إلى إصلاح النفوس، وتقريب القلوب، وقد حدث فعلاً في تاريخ المسلمين أن كثيراً ممن كانوا أعداء لهم، وحرباً عليهم؛ أسلموا وحسن إسلامهم، وأبلوا في الدفاع عن الدين بلاء حسناً.

والخلاصة: أن الله تعالى لا يرضى أن يتخذ المؤمن مخالفه في الدين وليّاً ومناصراً، ولكنه مع ذلك يعطي هذا المخالف حقه في علاقات المعاشرة والمصاحبة والإنسانية عامة، على أساس من البر والرحمة والقسط، وكلا الأمرين هو غاية الحكمة، والدستور الطبيعي للإنسانية في كمال وعيها، وكمال رقيها وسموها.

ونعود إلى بيان الحقوق الطبيعية التي كفلها الإسلام للمواطنين، فنقول:

والحرية العلمية مكفولة بمثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٨)، وهي تقرر أن العقلاء هم وحدهم الذين يعطون المتكلم حق الاستماع إلى كلامه، ويعطون أنفسهم حق التخير مما يسمعون، وذلك هو الأسلوب العلمي الصحيح.

والحرية السياسية مكفولة، فلكل إنسان أن ينكر المنكر الذي هو الشر والفساد، ويأمر بالمعروف الذي هو الخير والصلاح.

وليس ذلك موجهاً إلى العامة فقط أو الرعية بعضها وبعض فقط، وإنما هو حق لكل فرد يتوجه به إلى الحاكم كما يتوجه به إلى المحكومين، ويتوجه به إلى الخاصة كما يتوجه به إلى العامة، وله شروط وآداب مبينة في مواضعها لو اختلت، أو لم تراع، عاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضد المقصود منه، وربما كان وبالاً على صاحبه أو على المجتمع.

والحاكم في الإسلام هو الراعي الشفيق للأمة، وهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول في أول خطبة له بعد الخلافة: «إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني».

والإسلام يعرف للمواطن حقه في اعتبار كرامته، وهذا الحق مكفول بمثل قوله

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فقد اختار الله لهذه النعمة التي هي التكريم التعبير بأعم وصف جامع للناس، وهو كونهم بني آدم، فلا يصح أن تضيع هذه الكرامة لأي فرد، ولذلك حرم الله التنابز بالألقاب، لأنه إهانة لكرامة الإنسان في وجهه، وحرم الغيبة لأنها خدش لكرامة الإنسان من وراء ظهره، وحرم قذف الأعراض لأنه انتهاك للحرمات وجعل للبيوت حصانة، فلا يدخلها أحد دون استئذان أصحابها، وحرم التطلع والتجسس وما إليهما، لما في ذلك من الاقتحام على الناس حيث يكونون آمنين مطمئنين.

والإسلام يكفل حق المواطن في الأمن على حياته، فقد نبه إلى أهمية حياة الإنسان في مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ (هود: ٦١)، ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، وهذا كله يلفت إلى أنه تعالى هو واهب الحياة، فليس لأحد أن ينتزعها إلا بالحق.

وكذلك حق المواطن في أن يعيش عيشة كريمة قائمة على ما يكسب من رزق حلال في أعمال نافعة:

فحث على العمل بمثل قوله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[١]، «وما أكل أحد طعاما خيراً من أن يأكل من عمل يده، وقد كان نبي الله داود يأكل من عمل يده»[٢].

وإنما نص على داود بالذات، لأنه كان ملكًا وخليفة في الأرض، فكان مستغنيا بملكه وخلافته عن أن يعمل ليكسب ويعيش ولكنه مع ذلك كان يعمل ويأكل من عمل يده.

وحرم الإسلام التسخير وإرهاق العامل، وأكل أجر الأجير، بمجرد تأخيره عن وقته، وأباح التمتع بالزينة والطيبات من الرزق ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

هذه هي أسس الحقوق الطبيعية التي قررها الإسلام للمواطنين، وكل الحقوق متفرعة عنها و راجعة إلى واحد أو أكثر منها.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ المساقاة ب/ بيع الحطب والكلأ (٢٢٠١).

(٢) البخاري عن المقدام ك/ البيوع ب/ كسب الرجل من عمل يده (١٩٣٠).

القوانين التي وضعها الإسلام ضماناً وتنفيذاً للحقوق الطبيعية

قلنا في مقالنا السابق: إن الإسلام يكفل الحقوق الطبيعية للمواطنين، وهي: حق المواطن في المساواة، وفي الحرية، وفي اعتبار كرامته الإنسانية، وفي أن يأمن على حياته، وفي أن يعيش عيشة كريمة.

وقلنا: إن الإسلام لم يكتف بتقرير هذه الحقوق تقريراً نظرياً، ولكنه شرع مع ذلك من النظم والقوانين ما يضمنها عملياً، ويكفل تنفيذها على أحسن وضع.

ونريد الآن أن نبين القوانين التي وضعها الإسلام في هذا الشأن:

١ ـ فأول ذلك أنه ضماناً لحق المساواة، وتنفيذاً له؛ قرر قانون العدل أو القسط.

والعدل من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع الصالح، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل هو مجتمع فاسد صائر إلى الإنحلال ثم الزوال.

وقد جاءت جميع تعاليم الإسلام متمشية مع العدل، فكل ما شرعه الله تعالى من أحكام المعاملات، وقواعد السلوك الاجتماعي، وتفصيل العلاقة بين المؤمنين بعضهم وبعض، وبينهم وبين غيرهم، كل ذلك يقوم على العدل ويرمى إلى تحقيق العدل، حتى العقائد الإلهية والمبادئ الاجتماعية:

فاعتقاد الوحدانية مثال عدل في الاعتقاد، وفيه إنصاف للعقل؛ لأن العقل يحكم بأن للكون صانعاً واحداً تبدو آثار قدرته وربوبيته في كل ما خلق على طراز واحد من الاستقامة والإتقان وإطراد السنن والخواص ولذلك جاء في وصية لقمان لابنه: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ (لقمان: ١٣)، وإذا كان الشرك ظلماً لأنه إخلال بما يقتضيه العقل والنظر؛ فإن الوحدانية عدل لأنها هي التعبير الصحيح عن واقع الأمر في هذا الكون المتناسق في وضعه وفي قوانينه، الدال بتناسقه على وحدة خالقه.

والتضامن الاجتماعي كذلك عدل، أنه لا يمكن أن يتحقق التوازن بين الناس

على وجه يكفل الاستقرار إلا به، ولا يمكن أن يقبل في العقول أن يكون أحد أعضاء المجتمع متخماً بالمال والنعيم، وبجانبه من هو مستحق بعض ذلك ليعيش ثم يطغى هذا المترف المنعم من أن يعاون أخاه وزميله في المجتمع بشيء من ماله.

وهكذا ....

وهناك آيتان متميزتان بينهما كثير من أوجه التشابه تتحدثان عن العدل وترسمان قانونه:

إحداهما في سورة النساء (آية ١٣٥)، وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾.

والثانية قوله تعالى في سورة المائدة (آية ٨):

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

وقد توافقت هاتان الآيتان في كثير من جزئيات هذا القانون الإلهي، وإن اختلف التعبير بعض الاختلاف:

فنرى كلا منهما تطلب من المؤمنين أن يكونوا ﴿**قَوَّامِينَ لِلَّهِ**﴾ أو ﴿**قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**﴾ الذي هو العدل والتوازن.

و«القوام» هو المبالغ في القيام بالشيء، المضطلع به اضطلاعًا قويًا، فهو شديد الحرص عليه، شديد الوفاء له، شديد الغيرة على قوامه وصلاحه.

هذا هو «القوام» بالشيء، وهذا هو الذي يطلب الله إلى المؤمنين أن يكونوه، له وللعدل، فهو يريد أن يكونوا «قوامين لله»، «قوامين بالقسط» مضطلعين بهذا وذاك على نحو قوي ظاهر القوة، لا أن يكونوا صوراً ضعيفة هزيلة يرضون بأيسر الأمور، وأدنى الآمال، ولا يبذلون أكرم الجهود، ويلتمسون المعاذير عن ضعفهم وتخاذلهم، فكل الناس مطالبون بأن يكونوا ذوي شخصيات قوية مضطلعة بما تضطلع به من القوامية على العدل في ثبات وعزم وشجاعة، واضطلاعها بذلك لله، فهو قصدها،

وهو باعثها، وهو ملهمها، وهو غايتها - عندئذ يكون الحاكم «قواما لله»، «قواماً بالقسط» ويكون الناصح كذلك، والمنتصح كذلك، والعامل كذلك، والموظف كذلك، كل فيما خوله الله، قوام لله، قوام بالقسط وعندئذ تكون الأمة بناء قوياً، من لبنات قوية، وتكون في حصانة من أن تهضم أو تهدم أو تهزم، أو تظلم أو تهمل.

وقد اختلف التعبير بين آية النساء وآية المائدة في أول مادة من هذا القانون، إذ تقول سورة النساء: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، وتقول سورة المائدة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

وفي هذا الاختلاف إيحاء بأن كلاً منهما يصح أن يوضع موضع الآخر، وأن «القوامية لله» هي عين «القوامية بالقسط» ولا شك أن ذلك تنويه عظيم بشأن القسط والشهادة لله.

ثم إن سورة النساء تقول: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فتنهى عن ملاحظة عوامل التعصب للنفس، أو التحيز للقرابة، مما يبعث على تلوين العدل بغير لونه، وإعطاء المشهود له ما لا يستحقه، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق محاباة النفس أو من تميل إليه النفس.

ويقابل هذا في سورة المائدة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ وهو نهي عن ملاحظة عوامل الكراهية، التي من شأنها أن تلون العدل بغير لونه أيضاً، وأن تحمل على التحيف وإضاعة الحق، وذلك هو الإخلال بالعدل عن طريق الإجحاف بصاحب الحق، والحيلولة بينه وبين الوصول إلى حقه.

هذا وفي الآيتين أسرار أخرى كثيرة حسبنا منها ما تقدم.

وقد طبق الخلفاء الراشدون هذا العدل على أدق وجه، وحسبنا ما يروى في ذلك عن عمر بن الخطاب، فهو يقول بعد توليه الخلافة: «إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه». ويقول في رسالته لأبي موسى الأشعري: «آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف

من عدلك، ويقول في وصيته للخليفة من بعده: «أجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة».

هذا هو عدل الإسلام الذي شرعه في سبيل تحقيق المساواة وهي أول حق طبيعي مشترك بين الناس.

وفي سبيل تحقيق هذه المساواة أيضًا يعمل الإسلام على تحقيق ما نسميه (تكافؤ الفرص) ويشرع لذلك أحكامًا من شأنها أن تؤيده وتثبته: منها الحيلولة دون تضخم المال، وأن يكون دولة بين الأغنياء خاصة، بتحريم الاحتكار وإغلاء الأسعار وتلقي الركبان، ونحو ذلك.

ومنها تحريم الرشوة أخذاً وإعطاء لئلا يكون الغني أقدر على تحقيق منافعه من الفقير.

ومنها تشريع المواريث الذي لوحظ فيه توزيع التركة على الأولاد والأقارب بنسب مقابلة وملائمة لمراكزهم وواجباتهم مما يجعل الفرص متكافئة في الحقيقة، وإن اختلفت الأنصباء في الظاهر.

٢- وفي الحرية والكرامة الإنسانية شرع الإسلام نظامًا من شأنه تصفية الرق البشري، وذلك بأن ضيق الموارد المؤدية إلى العبودية وحذر من التوسع فيها تحذيراً شديداً ووسع المخارج المؤدية إلى الحرية، ورغب فيها ترغيبًا عظيمًا.

والإسلام لايرضى عن الإكراه الديني، ولا يرى إيمان المكره صحيحًا، كما لا يرتب أثرًا على الإكراه على الكفر، مادام القلب مطمئنًا بالإيمان.

والإسلام يفتح باب الاجتهاد احترامًا للحرية العلمية والتفكير العقلي، وقد وضع لذلك قانونًا مشجعًا، هو أن المصيب له أجران، والمخطئ له أجر واحد، وهذا هو أعظم ما يتصور من تشجيع للحرية الفكرية، وكأنه يقول لأصحاب العقول: فكروا ولا تخافوا من عواقب التفكير، لقد أبحت لكم أن تخطئوا غير متعمدين، بل جعلت لكم مكافأة من ثوابي إن أخطأتم أضاعفها لكم إن أصبتم!.

٣- وفي سبيل الاحتفاظ بحق الحياة للمواطنين، وبحق الأمن والطمأنينة على النفس في المجتمع، شرع القصاص، واعتبر أن قتل النفس الواحدة بغير الحق بمثابة

قتل للناس جميعًا، وإحياء النفس الواحدة بالمحافظة عليها، وإقرار حقها في الحياة بمثابة إحياء للناس جميعًا: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢).

وكذلك شرع كل ما يحفظ الحياة للحي: فنهى عن الانتحار بقتل النفس أو ما هو بمثابة قطعة من النفس: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٩)، ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ (الإسراء: ٣١)، ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وشرع كل ما يحفظ الصحة من النظافة والوضوء والغسل وعدم الإسراف في الطعام والشراب، وعدم تناول المسكرات والمخدرات والمحافظة على صحة الأجنة والأطفال بإباحة الفطر للحامل والمرضع، والنهي في أوقات الوباء عن الخروج من الأرض الموبوءة بالنسبة لمن فيها، والدخول إليها بالنسبة لمن هم خارجها.

٤ - وفي سبيل الارتفاع بالمستوى الإنساني، حث على العمل والتشمير والاتجار والضرب في الأرض وإثارتها بالحرث التماسًا للنبات، وأباح التمتع بالزينة والطيبات من الرزق، وطلب من المرء أن يعمل على أن يكون غنيًا ليعطي، لا أن يكون فقير ليأخذ فإن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وفصل قواعد التعامل والبيع والشراء والأخذ والعطاء، على وجه يجعل الناس متعاونين ينتفع بعضهم من بعض، وينفع بعضهم بعضًا كل ذلك بالمعروف دون ضرر ولا ضرار، ولا تربص ولا احتكار.

فبينما نرى الرسول ﷺ ينهى عن تلقي الركبان[١]؛ ليتيح للناس فرصًا مكافئة حين ترد البضائع إلى السوق فيتساوى الناس في التقدم لشرائها؛ تراه ينهى عن أن يبيع الحاضر للبادي، فيقول «لا يبيع حاضر لباد[٢]، دعوا الناس في غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض» وذلك لأن الحاضر أي المقيم في الحضر أخبر وأقدر على أن

---

(١) البخاري عن ابن عباس ك/ البيوع ب/ هل يبيع حاضر لباد بغير أجر وهل يعينه (٢٠١٣).
(٢) نفس المصدر.

يبيع بسعر أعلى ترويجًا للسلعة التي جاء بها البادي أي المقيم بالبادية، فيترتب على ذلك ألا تنهى فرص الرزق التي يجب أن تترك حرة بين الناس، فربما غفل أهل البادية فانتفع بذلك أهل الحاضرة، وليست الغفلة حينئذ معيبة منهم بل هي مسايرة للسهولة واليسر وعدم المغالاة نتيجة لأنهم عادة يكسبون مكاسب طبيعية مما تنبت الأرض، وتخرج الماشية ونحو ذلك، فلا يفسدهم أن يتسامحوا ويغلبوا بعض الغلب إذا قيس أمرهم في البيع والكسب بسكان المدن والحواضر.

وهكذا يتبين أن الإسلام يكفل الحقوق الطبيعية للمواطنين، ولا يكتفى بهذه الكفالة نظريًا، بل يشرع من القوانين والنظم ما يجعلها مضمونة نافذة قوية.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

الباب الثامن

الشباب
أسناد دعوات الإصلاح

كيف نربي الشباب

أن تربية الشباب هي النقطة الأولى التي يجب أن تبدأ منها حركة الإصلاح في أية أمة من الأمم، لأن الأمة هي مجموعة من الشباب أو ممن كانوا شباباً فصاروا كهولاً أو شيوخًا، والمعروف أن من شب على شيء شاب عليه، (صلح الشباب صلحت الأمة، وإذا فسدوا أو انحلوا أو تحللوا أصيبت الأمة بالفساد والانحلال ونحن نعلم أن سن الشباب هي سن التقبل والتجاوب)، (فالصفات التي يكون عليها الشباب هي الطابع الأساسي الذي تنطبع به الأمة عامة)، فإذا كنا نريد أن ننتهز الفرصة المواتية للتربية والتهذيب، فلننتهز هذه الفرصة في مجال الشباب، ولنعلم أنه هو البيئة الصالحة، والأرض الخصبة التي تتقبل الغراس الطيب فتنبته نبتًا طيبًا . .

ولكن ماهو الغراس الطيب الذي ينبغي لنا أن نغرسه في أرض الشباب الخصبة الطيبة؟

أنه في رأيي غراس يرجع إلى ثلاثة أمور أساسية، عنها يتفرع كل خير ، وكل إصلاح :

١ ـ الإيمان بالله .

٢ ـ الإيمان بالنفس .

٣ ـ الإيمان بالمثل العليا .

فالإيمان بالله قوة دافعة إلى عمل الخير، مانعة من عمل الشر، وبدونها لا يمكن أن يكون نبات ولا هدوء ولا سعادة، ولا عمل صالح .

إن الإنسان يختلف عن الحيوان الأعجم بأنه مخلوق تؤثر فيه المعاني الروحية، ويقاد من عقله واقتناعه، لا من خطامه ولجامه، ويتقيد بعهده ومسئوليته، لا بقيد يوضع في يديه أو رجليه، ولا بغل يوضع في عنقه .

ولذلك تقوم الدعوات الصالحة الواعية على أساس الإقناع، لا على أساس الجبر والضغط، فإن المقتنع هو الذي يصدق في الدفاع عما اقتنع به، أما المكره على اعتناق شيء وهو غير مؤمن به، فإنما يعطي المقادة من جسمه لا من نفسه ولا من روحه وعقله، فهو في ظاهر الأمر موافق، وفي حقيقته مخالف، وهو يرضخ رضوخًا مؤقتًا حتى تسنح له الفرصة ليعلن تمرده وخروجه على ما أكره عليه.

ولذلك كانت دعوة الإسلام دعوة قوامها «الإيمان» أي التصديق القلبي، والإذعان النفسي، فإذا لم يوجد هذا التصديق، وهذا الإذعان، فلا وجود لحقيقة الإسلام وإن وجد مظهره الصوري.

ومن هنا يقول القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، فيقرر أن الدين والعقيدة لا يمكن أن يقوما على الإكراه، وإنما يقومان على تبين الرشد من الغي، فمن تبين اقتنع، ومن اقتنع كان إيمانه ثابتًا لا يتزلزل، وكان إيمانه معه لا يفارقه في الملا، ولا في الخلا.

الشجرة الطيبة المثمرة:

والمؤمن بالله يستفيد من هذا الإيمان أمورًا عظيمة الشأن في حياته، وفي توجيهه.

منها: أنه يطمئن إلى أنه لا يقف وحده في الحياة، بل يقف مستندًا بكيانه وبروحه إلى رب قادرعظيم رحيم، يلجأ إليه في الشدة، ويعرفه في الرخاء، ويراقبه ويشعر برقابته، وهو بهذا يختلف عن الكافر الجاحد الذي لا مولى له يعتمد عليه، ولا رقيب يشعر برقابته ويستحي أو يخاف منه، وشتان بين هذا وذاك في الشعور وفي الطمأنينة، وفي الأنس والركون وفي العمل والسعي.

ومنها : أن المؤمن بالله يعلم أن لا إله إلا هو، وأن كل من سواه فهو مربوب له، خاضع في نفسه، وفي كل ما يرد عليه من إرادات حسية أو معنوية، إلى عظمته وجلاله، ومن ثم لا يذل المؤمن لغير الله، ولا يخاف إلا الله، أما الكافر الجاحد فإنه لا يشعر بهذا المعنى فتراه ضعيفًا أمام كل شيء، يحسب أن الناس يملكون له الخير

والشر على الحقيقة، فيبذل لهم، ويتملقهم، ويخافهم على نفسه وعلى رزقه.

ومنها: أن المؤمن بالله يتعرف إلى صفاته، وإلى أسمائه الحسنى، فيعشقها ويتخلق بها، ويتطلع إليها، فإذا عرف أن الله اسمه «الرحيم» أحب صفة «الرحمة» لأنها صفة حبيبة إلى الذي آمن به، فيطبقها في حياته، ويعامل بها جميع خلق الله فيصبح محبوبًا في الناس، محبوبًا عند الله، وإذا عرف أن الله هو «الصبور» أدرك منزلة الصبر فتخلق بها وطبقها على مختلف علاقاته وشئون حياته، فينجح ويفلح... وإذا عرف أن الله هو «الجواد» كان ذلك دافعًا له إلى الجود، أو عرف أن الله هو «الودود»، يعرف قيمة الود.. إلى غير ذلك من الصفات الإلهية العليا، أو الأسماء الحسنى التي توحي بالمعاني السامية، والأخلاق الفاضلة.

ومنها: أن المؤمن بالله يكون ثابت القلب أمام الأحداث، سواء أكانت أحداث خير أم أحداث شر، فهو في النعمة ثابت لا تطغيه نعمته، بل يشكر الله عليها، ويؤدي ما أوجبه عليه من حقها، وهو في النقمة يصبر ولا يضجر ولا يتحطم ولا تنهار قواه، لأنه يعلم أنها بقضاء من الله، وأنه تعالى هو الذي يكشف السوء، ويقلب الأمور، ويغير الأحوال.

وهكذا يكون ثابتًا في الحالين، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «عجبًا للمؤمن، وأن أمره كل عجب: إن أصابته سراء شكر، فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[1].

بهذا يتبين أن الغراس الأول الذي يجب أن نغرسه في قلوب الشباب هو الإيمان بالله، وهو - في رأى كثير من المفسرين - تلك الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثل في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥).

فالإيمان هو تلك الكلمة الطيبة، والشجرة الطيبة المثمرة لكل خير في كل حين، بإذن ربها.

---

(١) مسلم عن صهيب ك/ الزهد والرقائق ب/ المؤمن أمره كله خير (٥٣١٨).

ثرنا .. وحاربنا ... وانتصرنا

والأمر الثاني هو «الإيمان بالنفس» :

أن الأمة إذا آمنت بنفسها، ووثقت بوجودها وبقدرتها على أن تكون فاعلة مؤثرة، أفادها ذلك، ودفعها ذلك، ورفعها إلى آفاق الأمل والعمل. أما إذا خالجها شك في قيمتها وقدرتها على أن تجاري غيرها من الأمم، أو على أن تسابق وتنافس وقدرت في نفسها أنها محدودة الطاقة، ضئيلة التأثير، أو عاجزة مغلوبة على أمرها - فإن أمرها يزداد ضعفًا، وأن كل ما فيها يركن إلى العجز والكسل .

ولذلك حرص القرآن الكريم على أن يغرس في نفوس المؤمنين معاني العزة والقوة، فقال: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (المنافقون: ٨)، وقال: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، وقال: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ** ﴾ (النساء: ١٠٤).

وقد كان من دعائه ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل» وذلك لأن الهم من شأنه أن يضعف القلوب، ويحط من الهمم والعرفان.

وكذلك الحزن - وهو الوقوع في المكروه فعلاً والتأثر بذلك من شأنه أن يهد كيان الإنسان إذا استرسل فيه، ففقد ثقته بنفسه وينظر إلى الحياة بمنظار أسود فيكرهها ويراها ثقيلة عليه، وكذلك العجز والكسل، هما خُلقان يرجعان إلى ضعف النفس، فيجب أن يعمل المرء على دفعهما عن نفسه، والاستعاذة بالله منهما كما فعل رسول الله ﷺ .

وقد كنا في العهود الماضية نشعر بضعف أنفسنا وضعف أمتنا، ونصدق ما يقوله لنا المغتصبون والمستعمرون وأهل الفساد والإقطاع والحكم الظالم، من أنه لا فائدة في الجهاد، وفي الثورة على الظلم، فإن قوتنا محدودة، وأنه لا طاقة لنا بهذه القوى .

كنا في تلك العهود كافرين بأنفسنا، فعشنا في الذل، ورضينا به، فلما عرفنا قيمة أنفسنا ثرنا وحاربنا القوى التي كنا نظن أنه لا قبل لأحد بها، وانتصرنا عليها، وأصبحت الكلمة كلمتنا، وأصبحنا نقف في وجوه الدول العظمى وقفة الحريص على كرامته، الضنين بحقه، فأذعنت لنا القوى، وذقنا حلاوة الوجود القائم على العزة والمنعة، بعد أن كنا نتجرع كئوس الوجود القائم على الذل والضعف.

وإذن ينبغي أن نغرس في الشباب غراس الإيمان بالنفس حتى ينشأوا عليه، ويديروا أمر البلاد على أساسه حين يلقى إليهم في المستقبل بمقاليد الأمور..

القدوة الحسنة

والأمر الثالث: هو الإيمان بالمثل:

إن الحياة فيها الخير والشر، وفيها الحق والباطل، وفيها الصلاح والفساد، وفيها الحسن والقبح، فإذا سوينا في الاعتبار بين هذه المتناقضات، ووقفنا أمامها موقف الحياد السلبي، انجرفت مثلنا العليا بالمثل الدنيا وسقطت صروح الفضيلة صرحًا بعد صرح.

فيجب أن نغرس في نفوس الشباب أن هناك مثلاً عليا، وأنه لا يستوي الخبيث والطيب، ولا الظلمات والنور، ولا العفاف والفجور، ولا التوقر والتبذل، ولا الأمانة والخيانة، ولا الاستقامة والاعوجاج، فإذا آمنوا بذلك التمسوا لأنفسهم الصلاح والهدى، فكانت أمتهم أمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون.

وأحسن ما يثبت ذلك كله في القلوب هو القدوة الحسنة يضربها الشيوخ للشباب، والقادة للاتباع، والأساتذة للطلاب، فإن القدوة هي المظهر العملي البرهاني للفضيلة والمثل الرفيعة، وتأثيرها في النفوس أعمل وأبعد من محاولة التأثير بمجرد الكلام الرنان. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الشباب في كل زمان
هم أسناد دعوات الإصلاح

وصف الله تعالى في كتابه العزيز أصحاب الكهف بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ . .

ومن الخير أن نقف عند هذا الوصف وقفة نستجلي فيها بعض العبر:

والله تعالى وصف هؤلاء الأبطال النافرين من الكفر والشرك، المتخلصين من بيئة الفساد والبغي، المؤثرين الحق على الباطل، بأنهم «فتية»، أي شباب، ومازال الشباب في قديم الزمان وحديثه أقبل للحق وأهدى للسبيل وأعون على الإصلاح من الشيوخ الذين أضعفتهم السنون وصبغهم الدهر بصبغة قلما يستطيعون الخلاص منها.

الشباب هم أسناد كل دعوة إلى الحق لأن قلوبهم طاهرة خالية من الخبث والمكر والدهاء جريئة لا تهاب الأخطار ولا تتقاعس عن الجهاد ولأن سواعدهم قوية وأجسامهم نشطة تتحمل الأذى وتتقبل المتاعب والصعاب فإذا استعانت بهم دعوة نجحت وتقدمت وكان لها في الناس أثرها وفعلها.

وقد ولى رسول الله ﷺ قيادة الجيش أسامة بن زيد وهو في أول الشباب وميعة الفتوة، وفي المسلمين يومئذ شيوخ وكهول.

وقد رأينا كثيراً من الدعوات في التاريخ تعتمد على هذه القلوب الفتية والسواعد القوية فتكتسح كل ما في طريقها من العقبات ويفتح الله بها ما يشاء من آفاق الخير والصلاح والهدى والرشاد وإذا كان هذا هو شأن الفتية وأمر الشباب فمن الواجب على الأمة أن تعني بهم وتزكيهم وتربيهم تربية صالحة وتوجههم وجهة طيبة وتعاملهم معاملة من شأنها أن تقوي قلوبهم وتصلح أخلاقهم وتوحي إليهم معاني العزة والكرامة وأخلاق الشهامة والرجولة.

أما إذا أهملتهم وتركت حبلهم على غاربهم وزينت لهم طرق الغواية وهيأت

أمامهم سبيل الانحطاط في العلم والخلق، فإن الموازين حينئذ تختلف والأساس يضطرب ويصبح موطن الخير ومنبع الإصلاح موطنًا للشر ومنبعًا للفساد.

وصف الله تعالى فتية الكهف بأوصاف ثلاث :

أولها :

ما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾ والإيمان هو أساس الفلاح في كل شيء، فالقلب الذي يخلو من الإيمان قلب متزعزع لا يستقر على حال من القلق وصاحبه دائمًا معني بالشكوك والأوهام ويتبع هذا الاضطراب النفسي والحيرة العقلية ثم الإخفاق في كل عمل، أما القلب المؤمن بالله الذي يعلم أنه رب السموات والأرض ومهيء الأسباب وعالم السر والنجوى، فذلك هو الذي يكون صاحبه في خير وأمان ورضا واطمئنان.

ثانيها :

قوله تعالى : ﴿ **وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾ والله تعالى قد خلق في الإنسان قوة الخير والشر وهداه النجدين فإذا اختار طريق الخير يسره له، وإذا اختار طريق الشر يسره له . . .

﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ (الليل: ٥-١٠)، ولا ينبغي أن يظن ظان أن الله يحابي أحد من خلقه أو يظلم أحدًا فيمنح بعض الناس نعمته ارتجالاً عن غير حكمة ويحل بالآخرين نقمته ارتجالاً عن غير حكمة، تعالى الله عن ذلك وتنزه ولكن الواجب على المؤمن أن يعلم أن نفحات الكرم، وفيض الجود إنما تكون للجديرين بها، المتعرضين لها، كأصحاب الكهف الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى.

ثالثها :

قوله تعالى : ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ وربط الله على قلب المؤمن هو تثبيته وتقويته وطرد عوامل اليأس والوهن عنه وكل منا يشعر بأنه في حاجة شديدة إلى مثل هذا الفضل الإلهي فلولاه لما استقر لإنسان عزم ولما أقدم على عمل ولما استطاع أن يرجح حقًا على باطل وصلاحًا على فساد بطريقة عملية حاسمة، وقد أفاد

هؤلاء الفتية من ربط الله على قلوبهم تلك الشجاعة العملية وهذا التصميم القوي المتين الذي أصبح مضرب الأمثال.

لولا ربط الله على قلوب المصلحين لما استطاعوا أن يسيروا في طريق الإصلاح ولا أن يصبروا على مرارة الجهاد ولا أن يزيلوا عن سبيل الحق، ما يعترضه من عقبات وصعاب ذلك بأن هؤلاء المصلحين مهما سمت أفكارهم وبعدت هممهم وقويت عزائمهم هم بشر ذوو قوة محدودة وطاقة معينة فإذا جابهوا الشر وواجهوا الفساد، هالتهم كثرتهما وتمكنهما وشدة الشكيمة وقوة المراس فيمن يستندان إليه ويعتمدان عليه كما يقف الإنسان أمام جبل شامخ رسا في قاع الأرض أصله وطاولت السماء قمته وهو مكلف بإزالة هذا الجبل، فإذا قاس قوته، واحتماله إلى صعوبة العمل وضخامته داخله التردد والتزلزل واكتنفته الحيرة فإذا أراد الله به خيراً جنبه ذلك وربط على قلبه وقواه فإذا هو منبعث إلى غايته سباق إليها لا يلوي على شيء ولا يهاب شيئًا، حتى يخيل لمن رآه أنه مسلوب الحس وعندئذ يمنح بربط الله على قلبه قوة تهد الجبال وتفعل ما يظن أنه مستحيل.

من كان يظن أن في طاقة إنسان وحيد فريد نشأ يتيمًا وعاش فقيراً أن يزحزح العرب عن جهالتهم، ويخلق منهم أمة عالية فاتحة متشرعة مؤلفة مخترعة؟

من كان يظن أن في طاقة إنسان هذا شأنه أن يزلزل عروش الأكاسرة والقياصرة والأباطرة وقد رسخت في التاريخ جذورها قرونًا ودهوراً يعززها المال والعلم، والقوة حتى تصبح هذه العروش خبراً من الأخبار وأثراً من الآثار أما والله لو وقف محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أمام هذه الرسالة وتلك المهمة الإلهية بقلبه البشري وطاقته الإنسانية لا يعتمد إلا عليهما ولا يستند إلا إليهما لما استطاع أن يهزم جحافل الجهل والشرك والطغيان والظلم والأثرة والاستبداد، ولهدمته هي وابتلعته أمواجها فزال دون أن يترك أثراً أو ذكرى ولكن الله ربط على قلبه وأيده بروح منه جل وعلا وأيده بنصره وبالمؤمنين وربط على قلوبهم فاكتسحوا الدنيا وحولوا وجه التاريخ.

ومن قبل ربط الله على قلوب أحبابه وأوليائه فهذه أم موسى يلاحقها الطلب في ابنها الوليد من ملك ظالم عات يذبح الأبناء في غشم وطغيان ودون رحمة ولا شفقة فيوحي الله إليها: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (طه: ٣٩)، فتفعل وتترك فلذة كبدها وثمرة فؤادها وهو في أمس الحاجة إلى رعايتها وهي أشد ما تكون شوقًا إلى التمتع بطلعته والنظر إلى محياه.. كأني بعواطف الأمومة كلها قد تجمعت في فؤاد أم موسى حينذاك، وهي ترى الخطر المحدق بأعز إنسان لديها على ظهر الأرض بل بمن هو أعز على نفسها من نفسها خطر من الملك الظالم، وخطر من البحر الهائج، وخطر من المصير المجهول فأي قلب بشري يتحمل هذا أو يطيق عليه صبرًا؟ ولهذا يصف الله هذا الفؤاد بقوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠)، في الله ما أعظم هذا الرباط.

وموسى نفسه حين بلغ أشده واستوى وبعثه الله إلى فرعون، من يظن أن فردًا مثله هو رعية لملك بلغ من الطغيان والعتو والعلو بغير الحق أن نازع الله في الألوهية ولم يكتف بأن يدعي الربوبية مع الله ولكنه يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤)، هذا الطاغية وحوله شياطينه والنافخون في أوداجه والمزينون له القبائح والمظالم والمناكر، من كان يظن أن فردًا من أفراد رعيته كموسى يجرؤ عليه ويقف أمامه في قصره وبين أعوانه وجنده ويقول له هو وأخوه المستضعف: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ (طه: ٤٧).

لقد كان موسى يخاف وحق له كبشر أن يخاف ولكن الله ربط على قلبه وقلب أخيه وقال لهما:

﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه: ٤٦).. وأما والله رب السموات والأرض لولا ذلك لما استطاع موسى ولا ألف كموسى أن يقفوا هذا الموقف الخطير.

هكذا يربط الله على قلوب المؤمنين من أنبيائه وأوليائه، وكذلك يربط على

قلوب المصلحين، وكم رأينا في التاريخ من أفراد انتصروا على جيوش وأمم بأسرها لأن الله ربط على قلوبهم و ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٤٩) .

وينبغي أن يفهم الناس أن هذا الربط على القلوب من خالق القلوب ومقلب القلوب ليس في ناحية الإيمان والدين فحسب فإن الله قد يربط على قلب إنسان أو على قلوب قوم للقيام بعمل عظيم يريد أن يتمه.

فمن ذلك ربط الله على قلوب الباحثين في العلوم والمخترعين والمستكشفين فإننا لو نظرنا إلى محصول علمي لأحد العلماء المجدين مثل الرازي أوالبخاري أو ابن كثير أو ابن منظور المصري، أو النووي أو ابن تيمية أو ابن القيم أو رشيد رضا أو أمثالهم من الذين تزخر المكتبة العربية الإسلامية بآثارهم لعلمنا أن هذا لم يكن منهم إلا بربط من الله على قلوبهم.

وقد أفادت الإنسانية في تاريخ حياتها الطويل من هؤلاء الأفذاذ وأمثالهم كما أفادت من المخترعين الذين يعيش الواحد منهم في معمله أو مصنعه كما يعيش الراهب في الصومعة منقطعًا عن الدنيا ولذائذها وشهواتها ليتابع فكرة ويلاحظ سببًا أو علة ويستنبط بعقله ما يفيد الناس ولولا ذلك ما تمتعنا بهذه المخترعات والأعاجيب ولما تقدم العلم والطب ولما عرف كثيراً من الأمراض وخواص النباتات والعقاقير.

ومثال ذلك يقال أيضًا في أبطال البحث والتنقيب والكشف الذين يجولون البلاد ويقلبون أرض الصحاري ورمال القفار ليعثروا على أثر يزيد في الثروة الفكرية لبني الإنسان ويكشف عن مراحل التاريخ وأطوار البشرية، وقد يكشفون بلادًا أو أممًا بل لقد كشفوا ذات يوم قارة بأسرها.

كل هذا إنما كان بإذن الله وربط الله على قلوب عباده ولست انظر هنا إلى الإيمان والكفر، وإلى أن هؤلاء المخترعين من الأمة المحمدية أو من أتباع عيسى وموسى ولكني انظر إليهم كأفراد من الإنسانية يسرهم الله لما فعلوا وكل ميسر لما خلق له، فقد ربط بهذا على قلوبهم حتى بنوا هذه الصروح الشامخات للعلم والفن والتاريخ.

(١)
التخطيط الإسلامي الكامل لتربية الشباب

في أواخر سورة (الفرقان) وصف الله تعالى فريق من عباده سماهم (عباد الرحمن) بأوصاف رائعة، في آيات متتابعة، تصور السلوك القويم في الحياة، سواء أكان هذا السلوك في جانب التعامل مع الله، أم في جانب التعامل مع الناس، وتلك هي الآيات التي تبدأ بقوله تعالى :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان : ٦٣-٦٦).

وتنتهي بقوله جل شأنه :

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان : ٧٤-٧٦)، ولست أريد في هذا البحث أن أشرح هذه الآيات ولا أن أجعلها قاعدة الحديث ولكني أريد أن أقف قليلاً عند الوصف الأخير الذي وصف الله به (عباد الرحمن) لأبين في إيجاز ما له من إيحاء، وما فيه من توجيه، يفيدنا في بحثنا هذا.

ذلك أن قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يوحي إلينا بأن العباد الصالحين الذين ضربهم الله مثلاً للمستوى الإنساني الرفيع وسماهم ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ ينظرون إلى الزواج على أنه رابطة مقدسة هدفها تحقيق السعادة لكل من الزوجين بصاحبه، وبما يرزقانه من

الذرية الصالحة.

ولا يكون أحد الزوجين قرة عين للآخر إلا إذا تجرد الارتباط الزوجي من شوائب الغرض والاستغلال، وتم على أساس من الاختبار السليم وتغذى بحسن المعاشرة، وكرم المعاملة.

وكذلك لا يكون الأولاد قرة عين لآبائهم، وأمهاتهم إلا إذا وجهوا الوجهة الصالحة منذ نشأتهم واستقاموا على الطريقة المثلى في حياتهم، وانتهت بهم هذه الاستقامة - كما هي سنة الله في خلقه - إلى تبوئ منزلة في المجتمع تقر بها الأعين.

وتعلق أمل الإنسان بأن يكون له ذرية صالحة لها في الحياة منزلة ورسالة، هو أمر فطري مركون في طباع الناس، ولو كانوا في مرتبة الأنبياء والصالحين:

فهذا هو خليل الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - يقول:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

فقد بين في هذا الدعاء القوي البليغ: أنه أسكن بعضًا من ذريته في كنف الله عند بيته المحرم فكأنه يقول له: يارب أني استودعتهم عندك، وأنزلتهم في رحابك وفي ضيافتك، وأن غايتي من ذلك أن يقيموا الصلاة، ويعمروا هذا البيت الحرام، فاجعل قلوب الناس متعلقة بهم، فإن الحب رصيد لا ينفذ وارزقهم من الثمرات المتنوعة التي تجلب إليهم من جميع بقاع الأرض، فتعوض فقرهم في هذا الوادي المقفر الذي ليس بذي زرع.

وهذه أم مريم حينما شعرت بحملها، تنذر ما تضعه ليكون خادمًا ربانيًا وهي تظن أنه سيكون ولدًا، ولكنها وضعت أنثى فقالت: **﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾** (آل عمران: ٣٦)، فلست بقادرة على الوفاء بما نذرت لك، لأن خدمة الرب عندهم لا تكون إلا من الذكور، ثم قالت: **﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** (آل عمران: ٣٦)، فأبت شفقتها بمولودتها إلا أن

تستعيذ لها ولذريتها، منبعثة في ذلك عن عاطفة الأمومة والحنان الفطري ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل عمران: ٣٧).

وهذا نبي الله زكريا ينادي ربه نداء خفيا:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم: ٤-٦).

فاجابه الله تعالى بقوله:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٧).

وفي موضع آخر من القرآن الكريم أن زكريا عليه السلام اتجه إلى الله تعالى بدعائه هذا، حينما رأى مريم وما حفها الله به من بركات، وما يرزقها به من طيبات، وذلك قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٨، ٣٩).

وفي هذا تصوير لعاطفة الأبوة الكامنة التي كانت تتمنى الذرية الطيبة والتي يحركها مرأى فتى أو فتاة، على حظ من الجمال، أو النبوغ، أو الصلاح أو الذكاء، فإن الأبوة الكامنة في الرجل والأمومة الكامنة في المرأة ،تتحرك حينئذ وتشتهي مثل هذه الذرية الطيبة، وتنظر إليها على أنها أمل من أعظم آمالها، تناجي فيها ربها، فزكريا عليه السلام إنما فعل ما يفعله كل رجل، وما تفعله كل امرأة حين يعجبهما مثل من أمثلة النبوة الصالحة والذرية الطيبة، وهو شيء يحس به كل منا في نفسه، وفي كثير ممن يعرفهم، إذ هو أمر طبيعي فطر عليه الإنسان.

وقد حرك القرآن الكريم هذه العاطفة الأبوية عاطفة حب الآباء للذرية الصالحة، موجها إلى أن صلاح الآباء يفيد ذريتهم إلى حد بعيد، إذا استقاموا على الطريقة، وبذلك حقق هدفين: محاولة الآباء لأن يكونوا صالحين في أنفسهم، مستقيمين

على سنن الحق والهدى لتصلح ذرياتهم، ومحاولتهم أيضًا إصلاح ذرياتهم بتربيتهم تربية قوية صالحة، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ (الطور: ٢١).

يغريهم أولاً بأنه يلحق بهم ذرياتهم إذا آمنوا، فيحبب إليهم ذلك الإيمان ويزينه في قلوبهم، ثم يعرفهم ثانيًا بأن الذرية التي تلحق بالآباء المؤمنين والأمهات المؤمنات، هي الذرية المتبعة لهم بإيمان فيحملهم بذلك على إحسان تربية أولادهم وذرياتهم ليتحقق هذا الحق بتحقق شرطه.

وفي القرآن الكريم أيضًا :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (الكهف: ٨٢).

فصلاح أبيهما قد أفادهما، ووصلهما بركاته.

وفي التحذير من القول السيء في شئون اليتامى يقول الله عز وجل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء: ٩).

وقد فهم كثير من الناس أن الآباء إذا كانوا غير متقين، فإن شؤم عدم التقوى منهم يعود إلى أبنائهم وذرياتهم بدليل هذه الآية، كما اشتهر على لسان الناس أن (التقوى تنفع الذرية).

وأحب أن أوضح هذه النقطة بعض التوضيح، فأقول :

إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، وإذا كانت رحمته ونعمته قد قضتا برفع الذرية الصالحة إلى درجة الآباء والأمهات الصالحين وأن يصلوا في العمل إلى مثل منزلتهم، فذلك فضل منه ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ١٠٥)، ولا حرج على فضل الله لكن أخذ الذرية الضعفاء بما يرتكبه الأمهات أو الآباء لايناسب العدل الإلهي، وإنما المراد في هذه الآية - والله أعلم - أن الآباء إذا

تحدثوا في شئون اليتامى بالقول السيء، ولم يقولوا القول المعروف، فإن هذا القول السيء ينتشر ويصبح مرة بعد مرة سنة في الناس، وعادة لهم ، وبذلك يصبح المجتمع مجتمعًا قاسيًا على اليتامى والمساكين، فيعود ذلك على جميع من فيه، ومن هذه الناحية يخشى على الذرية الضعفاء أن يصيبهم ضرر، فيكون الآباء قد تسببوا في إيذاء أولادهم إذا ماتوا عنهم، إيذاء سببه انتشار قالة السوء عن اليتامى والمساكين في المجتمع فإن الكلمة تجر إلى الكلمة، والقسوة تبعث على القسوة وإذا قرأنا الآية السابقة على هذه الآية تجلى لنا هذا المعنى، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ** - أي قسمة التركة - **أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ (النساء: ٨).

ثم يقول:

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ (النساء: ٩).

فالمسألة إذن ترجع إلى ما يغرسه الآباء في المجتمع من مبادئ، فإذا غرسوا مبدأ السوء عاد هذا السوء على أبنائهم وذرياتهم كما يعود على أبناء الآخرين وذرياتهم فالله تعالى يحذر من ذلك ويقول لهم : اخشوا أن يحل بذرياتكم مثل ذلك بتقرر مبدأ السوء، وليكن خوفكم على ذريتكم مانعاً لكم من القسوة، دفعًا لكم إلى أن تقولوا القول المعروف، بهذا يتبين أن الآباء هم أحيانا الذين يظلمون أولادهم ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ (فصلت: ٤٦).

والقرآن الكريم يدلنا على أنه تعالى لا يقبل شفاعة الآباء في ذريتهم إذا كانت هذه الذرية غير صالحة في نفسها:

ومن ذلك ماحكاه الله عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، إذ يقول جل جلاله:

﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة: ١٢٤).

ومن ذلك أيضاً ما قصه علينا من أن نوح عليه السلام بعد أن نجاه الله ومن معه من الغرق واستوت بهم السفينة على شاطئ الأمن والسلامة ولم يكن ابنه ممن نجا

من الغرق مع وعد الله تعالى أن ينجيه وأهله ـ نادى ربه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (هود : ٤٥-٤٨) .

وبهذا تبين أن قانون العدل الآلهي قانون مطرد وسنة لا تتحول ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب : ٦٢) .

ونعود بعدد هذا الاستطراد إلى الموضوع الأصلي فنقول :

ان هذا التعلق الفطري بالذرية الصالحة هو أمر غريزي كما قلنا ركزه الله في الإنسان، ليتجه بمقتضاه إلى العمل على إصلاح ذريته والسمو بها حتى تكون له قرة عين، وتكون للأمة أيضاً قرة عين، فإن معنى هذا الصلاح هو اتصال سلسلة الخير في الأجيال بعد الأجيال، وأن اللبنات التي يقوم عليها صرح الأمة، هي لبنات قوية التكوين قادرة على الاحتمال، لا يسهل هدمها.

ولذلك نرى الإسلام يرشد إلى مختلف الوسائل التي تحقق صلاح الذرية، وتسلسل هذا الصلاح على مدى الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وهو يبكر في التخطيط لتحقيق هذا الهدف، فلا ينتظر حتى تأتي الذرية، أو حتى تكون شباباً أو تصل إلى مرحلة الرجولة والكهولة ولكنه يسبق هذا كله، وينظر في شأنه نظرات سابقة هادفة، كما هو الأسلوب العلمي السليم الذي يفرض على أصحاب الأهداف أن ينظروا إلى أهدافهم من بعيد، ويدرسوا في سبيلها كل صغيرة وكبيرة ليضمنوا الوصول إليها وصولاً سريعاً وقوياً ومنطقياً، خالياً من المتناقضات .

(٢)
التخطيط الإسلامي الكامل لتربية الشباب

إن الإسلام يبكر في التخطيط لتربية الشباب، وينظر في تخطيطه نظرات بعيدة مدروسة في عناية وتنسيق:

فهو يرشد إلى تهيئة البيئة الصالحة وملاحظة عامل الوراثة وما له من تأثير على الذرية.

فالزوجة ينبغي أن تختار من ذوات الدين، أي من ذوات الخلق الكريم، والأدب الرفيع، ويجب ألا يكون الهدف من الاختيار هو مجرد الجمال، أو مجرد الحسب والنسب، أو مجرد الغنى والثروة.

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

« تنكح المرأة لأربع: - أي هذا شأن الناس في اختيار الزوجات - لجمالها، أو لحسبها، أو لمالها، أو لدينها، فعليك بذات الدين تربت يداك »[١].

ويقول عليه الصلاة والسلام:

« إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء ».

وكثير من الناس يظن أن معنى قوله ﷺ في هذا المقام: فعليك بذات الدين، أي بالتي تصوم وتصلي وتؤدي الفرائض وتظهر بمظهر التقيات الصالحات فحسب، ولذلك ينفرون من هذه الصورة، ويقولون: إن المجتمع الحديث يطلب في المرأة صفات لا تتفق وهذ القيود، ويتصور بعضهم أنه حين يطلب زوجة متدينة إنما يتطلب امرأة تقف في محرابها، وتحافظ كل وقت على وضوئها وصلاتها. وتصوم أيامًا كثيرة ..الخ.

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ النكاح ب/ الاكفاء في الدين (٤٧٠٠).

وقد سألني بعض الشباب: هل مثل هذه المرأة تملأ عين الشاب، وترضى ذوقه الاجتماعي، ولا تكون موضع تندر وتنكيت ممن حولها؟

فأقول لهؤلاء: أن فرائض الله تعالى واجبة على المرأة كما هي واجبة على الرجل، فالمرأة التي لا تصلي ولا تصوم تعتبر خارجة على الله، والتي تؤدى صلاتها وصيامها تعتبر مطيعة لله، لكن الدين ليس هو فقط مجموعة من العبادات والانقطاعات والمظاهر الجوفاء، وإنما هو مع أداء الواجبات ذوق رفيع، وسلوك طيب، ومعرفة من المرأة بحق الزوج، وبحق الأولاد، بحق الناس، والإسلام يطلب من المرأة ألا تصوم نفلاً إلا بإذن زوجها، وألا تحج نفلاً إلا بإذن زوجها، أما الفريضة في الصوم وفي الحج فلا يستأذن فيها أحد، وتستطيع المرأة أن تأخذ زينتها المشروعة وتحتفظ مع ذلك بدينها وخلقها، وأقول: زينتها المشروعة لأن الله شرع الزينة للرجال وللنساء، وقال: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ (الأعراف: ٣٢)، فينبغي للمرأة أن تتزين لزوجها، وينبغي للرجل أن يتزين لزوجته، وينبغي لكل منهما أن يعرف ما يصح إبرازه من هذه الزينة للمجتمع وما يصح إخفاؤه، فليس الأمر فوضى، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ هِيَ** - أي زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق - **لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (الأعراف: ٣٢).

وإنما جعلها الله للذين آمنوا خالصة يوم القيامة، لأنهم هم الذين يتخذونها في اعتدال وتوسط حسب ما تقضى به أحكام الله، وما يعرف عند فضلاء الناس ومعتدليهم، فبذلك لا تكون الزينة وبالاً عليهم يوم القيامة، إذ لا يسألون عنها، ولا يحاسبون على شطط ارتكبوه في شأنها، لأنهم يحذرون دائمًا الشطط فلا يقعون فيه.

ولا شك أن من الشطط ذلك التبرج الجاهلي الذي نرى كثيراً من النساء في مختلف البلاد الإسلامية يتسابقن إليه، تشبهًا بالأوربيات.

ومثل هذا لا يمكن أن يعجب رجلاً على فطرة الرجولة الطبيعية، وإنما وقع فيه كثير من رجالنا تملقًا لنسائهم، أو لأن الذوق الاجتماعي المريض جرفهم، فأصبح

الواحد منهم يستحي أن تظهر زوجته محتشمة، وكان ينبغي أن يستحي من أن تظهر متبرجة.

فالإسلام دين الوسطية: لا يحرم الناس حقوقهم الطبيعية، ولكن يهذب الجموح ويرد الجامحين، ويعمل على درء الفتن وتقليم أظافر الفسوق أن ينشب براثنه في المجتمعات.

فمن ظن أن الزوجة المتدينة عبء على زوجها، أو تخيل فيها أنها لا ترضى ذوقه ولا ذوق مجتمعها السليم، فإنه لم يفهم الدين كما ينبغي، بل تصوره قيوداً تخيف، وتحول المرأة إلى راهبة متعبدة، ولا رهبانية في الإسلام.

ثم أعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه.

فرسول الله ﷺ يحذر من المرأة الجميلة التي يروق مظهرها، ويعجب رونقها، ولكنها مع هذا الجمال والرونق قد نبتت في بيئة من بيئات السوء، وليس المراد ببيئات السوء بيئات الفقر، فإن السوء يوجد في الفقر وفي الغنى وليس خاصاً بمستوى معين، فكم من بيوت فقيرة ولكنها شريفة، وكذلك نجد في بيوت الأغنياء: فكم من بيوت تنعم في الرفاهية وهي مع ذلك تستظل بظل الله، وتخاف الحرمات وتفعل المكرومات، فالشرف إذن ليس وقفًا على فريق دون فريق، والسوء ليس وقفًا على بيئة دون بيئة، والعاقل الحذر هو الذي لا تغره المظاهر، ولا تخدعه عن الحقائق، سواء أكانت مظاهر ترف، أو مظاهر فقر وهو الذي يدرس ويتمهل قبل أن يختار.

فإذا وجدت الزوجة الصالحة، فقد أصبح البيت الزوجي بيئة صالحة مستعدة لاحتضان ذرية تنشأ نشأة صالحة.

«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» :

ولقد عرف علماء الحياة والوراثة بعد قرون متطاولة: أن الوراثة تلعب دورًا كبيراً منذ اللحظة الأولى في حياة الجنين، وأن لها تأثيرًا هامًا، ليس في الجسم فقط طولاً وقصرًا، ولا في العينين فقط سواداً وزرقة، ولا في لون البشرة فقط سمرة وبياضاً، ولكن تأثيرها يمتد أيضًا إلى الذكاء، وإلى الحساسية الإنفعالية التي هي أساس

الخلق والسلوك والعاطفة.

فإذا كان الرسول ﷺ يقول: «فإن العرق دساس» فهذا تعبير قوي واضح عن معنى التأثير الوراثي الذي لم يعرفه العالم عن طريق العلم إلا أخيرًا.

ونجد القرآن الكريم يقول: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢١).

فقوله تعالى عن المشركين والمشركات، في معرض النهي، عن عقد الزواج معهم ﴿ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ تنبيه إلى تأثير البيئة ووجوب الاحتراس من تعريض الذرية لفتنة الشرك المفضية بأصحابها إلى النار.

ويحرص الإسلام على أن ينبت الولد نباتًا قويًا، حتى وهو جنين في بطن أمه، فإذا علمت الحامل أن الصوم يضر بجنينها وجب عليها أن تفطر، وكان الصوم في حقها معصية لله تعالى، وكذلك إذا علمت أن صومها سيضر بها، والحكم هو الحكم في شأن المرضعات بالنسبة للرضيع ولأنفسهن.

وبالقياس على ذلك يحرم على الحامل أن تزاول عملاً من الأعمال التي تسقط الجنين، أو تضعف نموه، سواء أكانت أعمالاً بيتية أو خارجية.

ويحرم على المرضع أن تتناول من الطعام أو الشراب ما تتيقن من أنه مفسد للبنها، أو مضعف لخواصه الغذائية، بحيث يضر بطفلها.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى مدة الرضاع الصحية، فقال: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

ومن قرأ دراسات الأطباء وعلماء تربية الأطفال في هذا الجانب يعلم قيمة إرضاع الأم لطفلها، وقيمة لبنها بالذات بالنسبة له، ودقة التحديد بعامين في هذا الشأن، إذ أن الطفل يحسن ويكمل إذا استوفاهما، ويقل ذلك بمقدار ما ينقص منهما، فسبحان العليم الحكيم.

وبلغ من حرص الإسلام على مصلحة الولد أن أوجب على الأب دفع أجرة

الأرضاع للأم المطلقة إن أرادت أخذها، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ـ أي تظاهرتم بالعسر هرباً من دفع الأجر للأم، أو تعسر الوصول إلى اتفاق بينكما ـ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ (الطلاق : ٦)، أي فلا بد من إرضاع الطفل، وسترضع للأب امرأة أخرى طفله، وتأخذ أجراً على هذا الارضاع، واذن فالأولى أولى.

والإسلام يأمر بتحسين أسماء الأولاد، ويجعل من حق الولد على أبيه أن يحسن اسمه.

ومن ذلك ما يروى عن رسول الله ﷺ إذ يقول:

« انكم تدعون يوم القيامة باسمائكم واسماء آبائكم، فحسنوا اسماءكم »[1].

وكان العرب يسمون أولادهم بأسماء يجفوها الذوق في كثير من الأحيان، فيسمون الابن صخراً، والبنت « عاصية » أو « عصبة » أو نحو ذلك، وأثر عن رسول الله ﷺ أنه كان يكره الأسماء التي من هذا النوع ويغيرها، فقد غير « صخرا » وسماه « سهلا » وغير « المضطجع » وسماه « المنبعث » وغير « عاصية » وسماها « جميلة » .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب راغبا في أن يوليه عملاً من أعمال حكومته، فقال له : ما اسمك؟ قال : ظالم قال : وما اسم أبيك؟ قال سراقة، قال عمر : تظلم أنت ويسرق أبوك وأليك من أعمالي، لا والله.

وفكرة تحسين الأسماء فكرة تتصل بالدراسات النفسية، فإن الاسم عادة يوحي إلى صاحبه، وإلى الناس.

فاسم « المضطجع » يوحي من غير شك بالكسل والخمول وعدم النشاط، ولذلك غيره ﷺ، فسمى صاحبه « المنبعث » لان الانبعاث يوحي بالقوة والعمل والنشاط.

والإسلام ينصح بإكرام الأولاد ، وإحسان أدبهم.

وكان رسول الله ﷺ يكرم مولانا الحسن ومولانا الحسين ابني فاطمة وعلى رضي

---

(١) الدارمي عن أبي الدرداء ك / الاستئذان ب / في حسن الاسماء (٢٥٧٨).

الله عنهم جميعًا، وربما لاعبهما، وطأطأ ظهره ليرتحلاه - أي ليتخذاه كما تتخذ الراحلة - وصلى مرة فأطال السجود فقيل له في ذلك، فقال: أن ابني هذا قد ارتحلني - أي ركب على ظهري - فكرهت أن أعجله.

وكان ﷺ يقول: «من كان له صبي فليتصاب له».

وهذه خطة صالحة، لأن إكرام الأولاد ينشئهم على الشعور بالكرامة، ويغرس في قلوبهم محبة الأبوين، ويطهرها من الحقد الدفين، ومن العقد التي تنشأ من أهانتهم أو إهمال أمرهم.

وينبغي أن نعلم أن الإكرام للأولاد شيء، والتدليل المفسد لهم شيء آخر، وأن نذكر أن الحديث النبوي يجمع بين الوصية بالإكرام والوصية بإحسان الأدب، حيث يقول: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» فلابد أن يكون الإكرام وإحسان الأدب مقترنين متوازنين، لا يحيف أحدهما على الآخر.

والإسلام يحث على تعليم الشباب الرمي، والسباحة، والفروسية، كما يحث على تعليمهم الدين والقرآن، ويرشد إلى تدريبهم على مزاولة بعض الأعمال والتصرفات، كما يوصي بتدريبهم على الصلاة والصيام.

وذلك لأنه يريد أن يجمع بين تهذيب النفوس بالعقيدة والعمل الصالح، وبين سلامة الأبدان، وتهيئة الإنسان للحياة، وأن يخرج شبابا من فتيان وفتيات على مستوى الجهاد والنضال والاضطلاع بالمهام الجسام.

(٣)

التخطيط الإسلامي الكامل لتربية الشباب

بينا فيما سبق عناية الإسلام بتحقق منهج كامل لتربية الشباب، وأنه قد وضع لذلك تخطيطًا منسقًا يصاحب الولد منذ كان أملاً يجول في خاطر والديه، إلى أن أصبح فرداً له حقوق، وعليه واجبات.

ولكي يعطينا القرآن الكريم أمثلة عملية من منهجه في تربية الشباب، نراه يعرض علينا صوراً مختلفة:

يعرض علينا صورة جذابة رائعة لأب يرشد ابنه ويهديه إلى الصراط المستقيم في الحياة، هي صورة لقمان وهو يعظ ابنه:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣)، ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: ١٦-١٩).

وصية جامعة اشتلمت على العقيدة، والعمل، والسلوك.

- فيها التنزه عن الإشراك بالله تعالى.
- وفيها الثقة بكمال قدرته تعالى وكمال علمه.
- وفيها التوصية بإقامة الصلاة تحقيقًا للصلة الدائمة بالله.
- وفيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إسهاماً في الخير، ودفعًا للفساد والشر.
- وفيها الصبر على مايصيب الإنسان في نفسه، أو في ماله، أو في ولده.

- وفيها عدم التبجح والتوقح في معاملة الناس، وهو الذي أشير إليه بقوله تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

- وفيها عدم الكبر والغرور والخيلاء.

- وفيها القصد في المشي، بحيث يكون الإنسان معتدلاً، وئيد الخطو، لا منتفخًا ولا أهوج في سيره.

- وفيها الغض من الصوت، وتجنب الصياح وإزعاج الناس بالصوت العالي الكريه الذي يشبه صوت الحمير.

هذه صوة جامعة من التأديب والتهذيب، يعرضها القرآن ليغري بها الشباب، ولتكون للآباء نموذجًا ومثالاً يحتذونه.

وصورة أخرى يتغير فيها موقف الأب والابن، فيكون الابن هو الذي ينصح أباه، ونرى فيها مناشدة قوية مهذبة رائعة:

إنها صورة إبراهيم عليه السلام، وهو فتى في ريعان والشباب، يحطم الأصنام ويجادل من يعبدونها، ومن بينهم أبوه!

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (مريم: ٤١-٤٧).

إن هذه المناشدة تقوم على أساس متين من الأدب العالي، ومن القوة الخلقية، ومن الإيمان العميق، وكل جملة من جملها تحمل توجيهًا قويًا، ومعاني شريفة.

وهي مع هذا كله مثال رائع لنضال صاحب المبدأ، المؤمن به في عفة قول، وصدق حديث، وأدب جدال.

وصورة ثالثة يعرضها القرآن الكريم أيضًا في سبيل ضرب المثل للشباب، أنها صورة فتية الكهف.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⑬ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ⑭ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الكهف: ١٣-١٥).

- ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ تلك أول صفة وصف بها هؤلاء الفتية، والإيمان بالله قوة دافعة موجهة تملأ القلوب ثقة وقوة، وتهدي إلى الرشد، وتدفع مختلف عوامل اليأس.

- وزادهم الله هدى، وتلك سنته في خلقه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧).

- وربط على قلوبهم، أي شدها بالعزيمة الصادقة التي لا تتزلزل، ولا يضعف أصحابها.

- وقد سبق قيامهم قولهم: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ - أي أنهم فتية عمليون، وليسوا مجرد قوالين دعائين.

- لاحظ أن قومهم يتخذون من دون الله آلهة يؤثرونها على الله، قد تكون أوثانًا، وقد تكون أموالاً، وقد تكون شهوات حقيرة وقد تكون جاهًا أو مناصب دنيوية فتركوا بيئتهم المنحرفة، وفضلوا عليها سكنى الجبال والكهف!

تلك أوصاف فتية الكهف الذين صور الله لنا أمرهم بهذه الصورة الرائعة من اعتناق القيم والإيمان بالمثل.

وصور القرآن الكريم لنا صورتين أخريين متقابلتين أتم التقابل، لصنفين من الشباب:

إحداهما: الصورة المثالية التي يبتغيها الإسلام للشباب.

والأخرى: الصورة الممقوتة التي ينفر منها، ويعمل على ألا يبتلي المجتمع الإسلامي بها.

فتعالوا معي - أيها القراء - نر عرض القرآن الكريم البليغ الممتلئ بالإشارات والتوجيهات في كل صورة من هاتين الصورتين.

الصورة الأولى:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٥، ١٦).

هذه هي الصورة الأولى:

وصية من الله للإنسان باسم إنسانيته أن يحسن بوالديه إحسانًا، وتخصيص للأم بالذكر لأنها أعظم فضلاً عليه، وأشد حاجة إليه، وإلى أن تتمتع بحسن المعاملة منه، وقد حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وقضت في حمله وإرضاعه ثلاثين شهرًا.

بعد هذا يبدأ عرض القرآن لصورة الشاب إذا اكتمل، وبلغ أشده، ووصل إلى شبابه - وهو سن الأربعين - فما شعوره في تلك الحال، وماذا يكون سلوكه؟

أنه يعرف أن له ربًا، ويعرف أنه يعيش في نعمة هذا الرب العظيم، ويتجه إليه في دعاء خالص، طالبًا منه أن يبعثه على شكر نعمته، وأن يعينه على هذا الشكر - فهو مقر بنعمة الله عليه في حياته، وبنعمته على والديه من قبله - وأن يبعثه كذلك إلى العمل الصالح الذي يرضيه، وأن يصلح له ذريته فيرزقه بالأبناء والبنات الذين يكونون قرة عين له حين يراهم رجالاً عابلين، ونساء عاملات، في معترك الحياة ويعلن مع هذا أنه منيب إلى الله، مستمسك به على سبل الإذعان والتسليم.

مثل هذا الصنف هو اللبنات القوية الصالحة التي يقوم عليها المجتمع الصالح وبهم تكون قوة الأمة وعزيمتها، ويكون صلاح أمر الإسلام، وانتصار كلمة الحق.

والله تعالى يتقبل من هؤلاء أحسن ما عملوا، ويجعله هو الميزان والمقياس الذي يزن به أجرهم، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)، كما أنه وتعالى يتجاوز عن سيئاتهم لأن إحسانهم غلب وغمر، وقانون الرحمة الإلهية يقول: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (هود: ١١٤).

الصورة الثانية :

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٧، ١٨).

شاب منحرف، يظن أنه على شيء من العلم، وأن والديه لا يعلمان ما يعلم، فهما في نظره مستمسكان بعقيدة قديمة بالية هي عقيدة البعث ليوم الحساب، أما هو فمفكر حديث لا يسعه أن يقبل هذا القول، ولا أن يؤمن به، وقد مرت القرون والأجيال من قبله، فهل هؤلاء جميعًا سيبعثون فيلحان عليه بالنصح، ويطلبان منه الإيمان، فيتضجر منهما، ويتأفف، وهما يستغيثان الله من جحوده وإنكاره، ويناديانه قائلين: ويحك آمن إن وعد الله حق فيقول مجيبًا لهما في سخرية واستهزاء ما هذا إلا أساطير الأولين.

مثل هذا الصنف من الشباب هم الذين تبتلى بهم المجتمعات، وتشقى بهم الأمم، وليس جحودهم للبعث، وإنكارهم لقدرة الله إلا وبالاً عليهم وعلى مجتمعاتهم، لأنهم بهذا الإنكار والجحود سيتحللون فلا يعرفون حرامًا ولا حلالاً، ولا خيراً ولا شرًا، ولا يخشون عاقبة فعل فعلوه، أو إثم ارتكبوه، وبذلك ينطلق منهم على الأمة جيش إفساد ومنكرات، وتتحطم بهم القيم والمثل.

وهذا الصنف هم الذين حق عليهم القول في أمم التاريخ الخالية كلها: أنهم لا يؤمنون ، ولا يصلحون، لأن في آذانهم وقرًا، وفي قلوبهم كبرًا، فهم جامحون وملتوون خاسرون.

هذه صورة يضربها القرآن الكريم مثلاً للشباب، وأننا لنجد في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه مثلاً عليا ما أجدرنا أن ندرسها وأن نقيس عليها أثر الشباب فينا،

قد كان رسول الله ﷺ في شبابه كما طول حياته مثلاً أعلى للفضيلة، والهمة، والشجاعة، والجود، والتضحية والجهاد، والغيرة على الحق، والإنكار للباطل، وكان عزيزاً أبي النفس، أقسم ذات يوم ألا يذوق طعامًا ولا يشرب شرابًا حتى يعمل بكد اليمين وعرق الجبين، وكان ذلك في موقف يقتضي منه الحفاظ على كرامته وتاجر، ﷺ وسافر في سبيل التجارة، وأخلص للمال الذي يتاجر فيه، وكان أمينًا عليه، وعلى الناس في شأنه، حتى عجب غلامه ميسرة من أمانته وكريم خلقه، وسمعت بذلك خديجة فأحبته وخطبته هي لنفسها - على غير عادة النساء - فمن شاء أن يجد المثل الصالح للشباب، والقدوة الكريمة التي اقتدى بها، فليلتمس ذلك في سيرة محمد ﷺ، وفي سيرة من رباهم محمد صلى الله عليه وسلم من آله وأصحابه.

واجب الشباب
في إطار النهضة الإصلاحية الجديدة

أ ـ سر الاختلاف في المعارف الكلامية والأحكام التشريعية.

ب ـ واجب الشباب الروحي.

سؤالان وردا إليَّ في الموضوعين المذكورين، ورأيت أنهما يتصلان اتصالاً وثيقًا بنهضتنا الفكرية والعملية الحاضرة فأجيب عنهما على صفحات «منبر الإسلام» ليعم النفع بهما إن شاء الله.

أ ـ سر الاختلاف في المعارف الكلامية والأحكام التشريعية:

الكمال الإنساني إنما يتم بأمرين:

بالمعرفة الصحيحة. وبالسلوك السليم.

فمن جهل كان ناقصًا.

ومن عرف معرفة فاسدة فهو ناقص.

ومن عرف معرفة صحيحة، ولم يسلك في حياته سبيلاً مستقيمًا فهو ناقص.

والمعرفة الصحيحة، والسلوك المستقيم، كلامًا قد يعرف من جانب العقل والتجارب في الحياة، إلا أن هذا يطيل عهد القصور الإنساني والتخلف العرفاني، والاستقامة العملية لأمرين:

أحدهما: أن العقول تتفاوت، والأفكار تختلف، وقد يحسن عند إنسان ما يقبح عند آخر لظرف من الظروف، وقد يكون تأثرًا بالهوى النفسي والميول الخاصة، فلو ترك الناس لمجرد العقول، لتحكمت الأهواء من حيث لا يشعرون، أو من حيث يشعرون، ومن ثم يكون الاضطراب العقلي، ثم الاضطراب في المعارف.

الثاني: أن الاستقامة في السلوك تستدعي كثيرا من التجارب، وأن يمر الناس بأطوار كثيرة من الخطأ والصعاب العملية، والاضطرابات الجماعية ،حتى يتبين لهم بالتجربة والتاريخ ما هو خير وما هو شر.

لذلك: كان من رحمة الله تعالى وحكمته أن يأخذ بيد الإنسان، ليبين له

ويهديه الصراط المستقيم.

فصدرت منه جل جلاله الرسالات الألهية التي بعث بها رسله.

وقد بين القرآن الكريم هدف الرسالة الإسلامية بما لا يخرج عن ذلك، حيث يقول الله عز وجل في سورة النساء:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء: ٢٦).

وإذن فكل ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أحكام يرجع إلى ثلاثة أشياء:

(١) البيان. (٢) الهداية. (٣) التطهير.

فأما البيان: فأساسه تعريف الإنسان بالحقائق كما هي، وهي مهمة وصفية، ويدخل في دائرتها جميع العقائد والمثل من كل ما يرجع إلى الإيمان بالله، وملائكته وكتبه واليوم الآخر، والحساب والنعيم والعذاب إلخ.

وكذلك ما يتعلق بالأخلاق، وما يعد فضيلة وما يعد رذيلة ـ وهكذا.

فهذا القسم لا يمكن أن يتغير، ولا أن يختلف فيه وحي عن وحي، ولا أن تتعارض فيه رسالة مع رسالة، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

فالحقيقة الأولى في الله مثلاً أنه واحد، فلا يمكن أن تتغير هذه الحقيقة، ولا أن يأتي رسول ما، أو ينزل كتاب ما يغيرها، فكل الرسل جاءوا بها، ودعوا أقوامهم إليها، وقل مثل ذلك في البعث، والنشور، والرسالات، والآخرة ـ إلى غير ذلك.

ولهذا قلنا: أن مهمة الدين في ذلك وصفية إخبارية وعلى الناس إذا كانوا مصدقين بالدين أن يأخذوها كما هي، وأن يتحروا دائرة الأخبار بها فلا يتعدوها ولا يحاولوا أن يزيدوا أو ينقصوا فيها ـ وهكذا.

ولكن المسلمين مع اتفاقهم على أصول واحدة جاءت بها الشريعة، وتلقوها جميعا بالقبول، تطرقوا بالبحث إلى أشياء من ورائها، أو إلى تفاصيل ليست من باب اليقين مثلها، فاختلفوا في كثير من المعارف المتصلة بذلك، فوجدت مناقشات علم الكلام وأدلة وفرق، وكان مما أعان عليها اتصال المسلمين بغيرهم من الأمم، وانتقال الفلسفة، وتطبيق أصولها ومناهجها على العقيدة الإسلامية، ومن هنا نشأت الفرق الكلامية.

وأما الهداية: فهي رسم الطريق السليم لحياة طيبة، يؤدى فيها الإنسان ما يجب عليه، ويكون مواطنًا صالحًا في بلده، وبالنسبة لأحواله ومواطنيه، وتلك هي الشريعة.

وفي هذه الدائرة أيضًا جاءت مبادئ وأصول كلية مسلمة عند الجميع، هي القواعد الأولى، وهي الطابع الإسلامي التشريعي، مثل نفي الحرج، ونفي الضرر، ولا يعبد الله إلا بما شرع، ولا حكم إلا لله - إلى غير ذلك.

ثم كانت أحكام عملية أخرى في هذه الدائرة، ليس لها هذا الوضوح البين، وليس من شأنها أن تبقى بقاء ثابتًا، فتركتها الشريعة دون تفصيل وتحديد كامل وجعلتها مجالاً للقول، وأباحت أن يقع فيها الاجتهاد في دائرة الأصول أو النصوص، من حيث فهمها وإدراك مراميها وأسرارها، ومن هنا وجد الاختلاف في الفقه والتشريع.

وأما التوبة التي تذكرها هذه الآية حيث تقول: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فالمراد بها أن يطهر الله مجتمع أهل الإسلام من كل شائبة تشوب المجتمعات، فالتوبة من الله على عباده هي قبولهم وتطهيرهم وتنظيفهم، وهذا ولا شك هدف من أهداف الإسلام.

وإذن فالأهداف ثلاثة:

١ - هدف: عرفاني، عقيدي، أصلي: هو بيان العقائد أو الحقائق.

٢ - هدف إيجابي، دفعي، توجيهي، هو رسم مناهج الحياة، تفصيلاً أحيانًا، وجملة أحيانًا.

٣ - هدف تطهيري، تحذيري: وهو تنقية مجتمع الإسلام من الأدران التي من شأنها أن تشوب المجتمعات فتفسدها.

ب - واجب الشباب الروحي:

العرب هم الذين حملوا لواء أكبر نهضة فكرية عملية إصلاحية في تاريخ البشرية، وهي النهضة التي قامت على دعائم الإسلام.

وقد كان العالم قبل هذه النهضة الكبرى يسبح في تيارات جارفة من الظلم والوثنية ونظم الطبقات والإباحية والتحلل الخلقي والتفكك السياسي.

وكانت السلطة فيه موزعة بين الملوك ورجال الدين والكهنوت، وكل طائفة من هاتين الطائفتين تستند إلى الأخرى في تطويع الشعب، والاستبداد بالعامة، والتحكم في الشئون المختلفة من دينية ومدنية.

وجاء الإسلام بالمبادئ والأحكام والتفصيلات التي تقضي على هذا كله، ولم تكن دعوته قاصرة على العرب، ولا إصلاحه إقليميًا دينيًا خاصًا واتسع نظامه السمح المرن لأن تعيش فيه الأقليات المختلفة في الدين معيشة كريمة، أساسها أنه سماهم «أهل الذمة» وهي تسمية كريمة تؤذن بأن المسلمين قد أخذوا على عهدهم وفي ذمتهم هذه الأقليات، ثم كانت القاعدة في معاملتهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) أي أنهم مواطنون متساوون مع غيرهم في الحقوق والواجبات.

ورسالة الإسلام روحية ، وإن كانت تشمل جميع شئون الدين والدنيا وذلك لأن أساسها الإيمان بالله ربًا واحدًا، وبأنه هو المصدر الوحيد للتشريع، فكل تشريع لابد أن يكون مستمدًا منه ومستندًا إلى أمره ونهيه.

وبهذا يمتاز عن القوانين الوضعية التي لا تتمتع بهذا الأساس الروحي إلا إذا كانت مستندة إليه، وحينئذ لا تسمى تشريعات وضعية، ودائمًا هي تنظيمات للتشريع الإلهي.

والإسلام يوزع الحقوق والواجبات توزيعًا عادلاً منصفًا، من شأنه أن ينشر قواعد العدل والمساواة، واحترام النظام العام، وجميع ما تتحقق به وسائل السعادة للمجموع والفرد.

فللحاكم من ذلك نصيب، وللمجتمع نصيب، وللفرد نصيب، ومن ظن أن المجتمع ليس مكلفًا فقد ظن خطأ، فإن هناك ما يسمى بفروض الكفاية أو سنن الكفاية، وهذا نظام وضعه الإسلام، وجعل به المجتمع متكافلاً مسئولاً، ذا شخصية لها حقوقها، وعليها واجباتها.

والشباب في أي نظام من النظم قوة مؤثرة ولها وزنها، فإذا استقامت هذه القوة وقامت بواجبها صلح الأساس الأكبر في الأمة، واستقر نظامها، واتجهت مثلها إلى الخير والرشاد والصلاح.

وأهم ما يقوم عليه واجب الشباب يرجع إلى ما يلي :

١ ـ أن يكون مؤمنًا، فإن الإيمان قوة دافعة لا قوة مانعة، ولا مثبطة، والمؤمن بشيء ما تراه دائمًا منبعثًا فيه، قويًا في أدائه، على عكس المتزلزل فإنه يتظاهر بالعمل، وبالنشاط وبالقوة ، وهو على عكس ذلك.

والإيمان توحيد في المقصد الأسمى وهو الله، وتبعًا لذلك هو توحيد في المسلك والآمال والرسالة.

والإيمان سمو بالإنسان، وتربية له على العزة والكرامة، وإشعار لكل فرد بأنه متساو مع الآخرين وفي كونهم جميعًا مربوبين لإله واحد، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٢ ـ أن يكون نافعًا، على معنى أن يتجاوز دائرته النفسية والأنانية إلى الغيرية، فيبذل من جهده ويبذل من ماله، ويبذل في علمه، ويبذل من ذكائه، لا أن يكون منطوياً ضنيناً بنفسه وبماله وبجهده.

٣ ـ أن يكون ذا ضمير حي، فإن الضمير الحي هو خير موجه للإنسان في مختلف شئونه، وهو الرقيب المخلص المحبوب، الناصح الأمين للمؤمن.

٤ ـ أن يكون ذا ثقة وإيمان بالفضيلة، وبما هو خير وشر، أو بعبارة أخرى أن يكون ممن يؤمنون بالمثل، لا من هؤلاء المتحللين الذين يتنكرون لكل فضيلة ويقتحمون كل رذيلة، فإن الفضائل والرذائل في الواقع ما هي إلا حدود وحصون للمجتمع، ومناطق حلال ومناطق حرام، فإذا تركت قوة الأمة دون تحديد لهذه المناطق، وجعلت كل مناطقها حلال مباحًا، فهذه هي الفوضى، وهذه هي منافذ الاضطراب والشقاء والتزلزل.

والإسلام يصف هذا ويمنحه للناس.

١ ـ فكل التشريعات موجهة إلى المسلمين بوصفهم مؤمنين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ .

٢ ـ وفي القرآن آية فذة في بيان قواعد السلوك ووسائل الحياة السعيدة، تلك هي قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ (الليل: ٥ـ١٠).

ولعلنا نعرض لتفسيرها وبيان مراميها في حديث آخر أن شاء الله.

أيها الشباب
اضربوا على يد الكذاب

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣١).

ويقول جل جلاله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢).

فالآية الأولى تقرر سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول، وهي أن الخير دائمًا يقابله الشر، وأن الصلاح يعاديه الفساد، وأن الحق يناوئه الباطل، فمهما حاول الناس أن يعيشوا في عالم من الخير لا شر فيه، أو في عالم من الحق لا باطل فيه، فإنهم يطلبون محالاً، فإن هذه الدنيا هي دار اختبار وابتلاء، ومن شأن الاختبار والابتلاء أن يقع الشيء ونقيضه، وأن يكون هناك ما تتحقق به استقامة بعض النفوس، والتواء غيرها ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢، ٣)، ولذلك كان من الطبيعي في هذه الحياة أن يكون آدم وإبليس، وإبراهيم والنمرود، وموسى وفرعون، ومحمد ﷺ وأبو لهب... وهكذا.

وإذا عرف المصلحون وأهل الخير والحق ذلك استقرت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وأدركوا أنه لابد لهم من الوقوف أمام عدو مناوئ يحاول التخذيل عنهم، والتأليب عليهم، والتثبيط من قواهم، ووضع الأشواك والعقبات في طريقهم، أهم حينئذ لا يصدمون بالأمر على سبيل المفاجأة، ولا يصيبهم البهر أو الخور أو الفزع فينكصون على أعقابهم، أو يضعفون في مواقف جهادهم، ولكنهم يعدون عدتهم لجهاد طويل مرير شاق المراحل، كثير المآزق والمضايق.

تلك هي السنة الإلهية التي ترشد إليها الآية الأولى، ولكن الآية تردف هذه السنة الإلهية بتقرير سنة إلهية أخرى حيث تذيل بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١)، فنفهم من ذلك أن الأعلام إذا اشتبهت على أهل الحق والخير والصلاح كان عليهم أن يلتمسوا الهداية إلى الطريق الواضح المستقيم من الله جل وعلا، وذلك باتباع أمره ونهيه والنزول على شريعته ومقتضيات الإيمان به، كما أنه إذا اشتد بهم الكرب، وتأزمت الأزمات في مكافحة المبطلين، وجهاد المفسدين، كان عليهم أن يلتمسوا النصر من الله عن الطريق الذي رسمه الله، وهو الذي جاء به القرآن والكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤٠، ٤١)، فالمجاهد المؤمن يعتقد أن الله تعالى لن يخذله أبداً، وأن عاقبته مضمونة بشرط أن يكون منطوياً على ترسم منهاج الإصلاح والخير والحق في الجوانب الثلاثة التي تشير إليها الآية إذا مكنه الله تعالى: جانب الاستقامة الروحية وهو المشار إليه بقوله جل ذكره: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وجانب الاستقامة المادية، وهو المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وجانب التضامن في المسئولية بإخلاص النصح لله ورسوله وعامة المؤمنين وخاصتهم، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ .

إن المجاهدين في سبيل الله على هذا النحو نية وعملاً، لابد لهم من نصر الله بعد أن يجتازوا ما جرت سنة الله تعالى باجتيازه من العقبات والصعاب.

والآية الثانية التي ذكرناها في صدر هذا الفصل، تقرر هذه السنة الإلهية أيضاً، فتنبئنا أن الحق والخير والصلاح التي هي أهداف الأنبياء والرسل جميعاً وأمانيهم التي عقدوا عليها رسالاتهم الإسلامية.، لابد أن تلقى في طريقها تلك العقبات التي وضعها الشيطان أشواكاً معوقة عن التقدم، أو شبهاً محيرة للعقول مبلبلة للأفكار، ولكن ذلك لا يلبث أن يزول وينكشف زيفه وباطله، ثم يحكم الله مثله ومبادئه التي أوحى بها إلى أنبيائه، وأرسل بها رسله، وبذلك يجئ الحق ويزهق

الباطل، ويلمع نور الصلاح وتنطفئ نيران الفساد، ويزدهر نبات الخير، ويذبل نبات الشر. وهكذا تنبئ الآية الثانية صراحة، بما تنبئ به الآية الأولى إشارة، وفي كل منهما تكون العاقبة الحسنى للمؤمنين والعاقبة السوء للمجرمين.

وإذا كانت الآيتان الكريمتان تتحدثان عن الأنبياء والمرسلين، وعن أعدائهم من الشياطين والمجرمين، فإن المعنى الذي تأتيان به عام في كل دعوة إلى حق، واتجاه إلى خير، وسعي إلى إصلاح، وسنة الله في أوليائه، هي سننه في أنبيائه ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾ (غافر: ٥١).

ولقد شهد العالم العربي في العهد الأخير ثورة إصلاحية كبرى هدفها الإصلاح، والخير، والحق، وكل مبدأ كريم من المبادئ الإسلامية التي هي في الواقع مبادئ إنسانية سامية تدعو إليها الفطر السليمة، وتهدي إليها سابقات التاريخ فيما تستقيم عليه أحوال الأمم، وتسعد به الأفراد والمجتمعات:

كنا نغط قبل هذه الثورة في نوم عميق، والعالم من حولنا قائم قاعد بالأعمال والإنتاج والثمرات ولم يكن يزيد تقديرنا في وزن العالم على أننا شعوب توزع عليها السلع التي تنتجها المصانع، وتدور عليها الآلات وينعم بأجورها السخية عمالهم وأصحاب رءوس الأموال فيهم. أجل كنا سوقًا لهذه السلع تباع لنا بأغلى الأثمان، وتفرض علينا فرضا دون أن يكون لنا رأي في قبولها أو رفضها أو تعديلها.

وأصبحنا بعد الثورة منتجين صانعين مزاحمين في أسواق العالم، نسير إلى الاكتفاء الذاتي والتنافس على المستوى العالمي سيرًا حثيثًا.

وكنا نرى العدو المغتصب لبلداننا جاثمًا على صدورونا يقيم الحكومات ويعزلها، ويهدد الملك والوزارات وينذرها فيسلمون له طوعًا أو كرهًا بما يريد.

والآن قد خرج هذا العدو إلى غير رجعة، ولم يعد لأحد سلطان علينا في بلادنا، ولم تعد منطقة من مناطق النفوذ لأحد، بل أصبح لنا نفوذنا في العالم كله حكوماته وشعوبه، وصرنا من الدول التي يحسب لها حساب أي حساب في رضاها أو غضبها وفي تأييدها أو اعتراضها.

ولو شئنا أن نستعرض على سبيل المقارنة في كل ناحية من نواحي الحياة ما كنا عليه وما صرنا إليه لطال بنا الاستعراض ولكن الأمر واضح لكل ذي عينين، لا يستطيع أن ينكره إلا مكابر لجوج.

فنحن إذن أصحاب دعوة إصلاحية، تقوم على مبادئ الحق والعدل والخير، وتعمل على النهوض بالأمة العربية حتى تتبوأ مكانتها عزيزة كريمة بين الأمم.

فلا عجب أن نرى شياطين الشر والباطل والفساد، يقفون لنا بالمرصاد، ويضعون في طريقنا العقبات والأشواك، فتلك سنة الله التي أوضحناها واستدللنا عليها من كتاب ربنا.

فهذا هو الأفاك الأثيم «مشيل عفلق» يتجرأ على عقيدة من أقدس العقائد الإسلامية حين يتحدث عن رسول الله وخاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ فيقول: «أنه لم يكن نبيًا ولا رسولاً من الله، وإنما كان رجلاً عبقريًا من الأفذاذ المفكرين فتوصل بتفكيره، وهداه عقله إلى ما يأتي به من قرآن وسنة ومبادئ تشريعية، ووصايا خلقية».

إن مشيل عفلق يقول هذا وهو بصدد تنوير الشباب كما يزعم وقديما حورب الرسول محمد ﷺ نفسه بذلك، بل حورب به رسل الله جميعًا، فقد كان المجرمون يقولون ﴿ **أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾ (الإسراء: ٩٤)، ويقولون: ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾ (الأنعام: ٩١).

لا يا عفلق، وليغتفر لي الذين يعرفون معنى كلمة (عفلق) في لسان العرب إذا كنت استبيح النطق بهذا اللفظ المستهجن الذي لا يليق التصريح به، فإني مضطر إلى ذلك وقد عرف بهذا الاسم دون سواه.

اقول له: لا ياعفلق، إن رسالة محمد ﷺ ثابتة رغم أنفك وأنها حقيقة عملية أظهرها الله تعالى على كراهية من أمثالك المجرمين الذين ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (التوبة: ٣٢، ٣٣).

بأي شيء يا عفلق إذن تثبت رسالة عيسى أو موسى أو أي نبي من الرسل الكرام إذا كنت تعتقد أن نبوة محمد غير ثابتة وأنما هي عبقرية.

أتخص محمداً بذلك من بين إخوانه الرسل، أو تعمم الحكم عليهم أجمعين.

فإذا خصصته فأنت متعصب أحمق، لا يقام لحكمك وزن، وإذا عممت فأنت كافر خارج على رسل الله أجمعين، مكذب بكل الأديان.

إن العجب العجاب ليس في أن عفلق يقول ذلك، ولكن في أن شباب المسلمين يتركه يهذي هذيانه، ويعتدي على أقدس شخصية في الإسلام.

أين هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان في أرض سوريا الحبيبة؟ كيف يتركون هذا الرجل دون وأن يمزقوا إهابه ويجعلوه فكاكًا لما بين يديه وما خلفه.

أهان قدر محمد ﷺ على المسلمين حتى يتركوا هذا الأفاك الأثيم يجترئ على مقامه؟

أن العالم المسيحي لا يرضى أن نوجه أية إهانة حتى للبابا الذي ليس بنبي ولا رسول بل أنهم ليحترمونه ويهابون شخصه، ويقدرون منصبه، ولم ننس بعد كيف كانت وكالات الأنباء، والصحف في كل بلاد العالم، مهتمة بمرض البابا الراحل، وكيف كانت الآلاف المؤلفة من المسيحيين يقفون صفوفًا متراصة في ميدان الفاتيكان ليتسمعوا أخبار المريض العزيز، ويستروحوا نسيم بركاته، فلما مات دقت جميع الكنائس في العالم أجراسها حزنًا عليه، ولم يبق في العالم المسيحي صحيفة ولا ناد ولا جماعة إلا رثته وأفاضت على ذكراه أعظم عبارات التقدير والتقديس ومر عليه وهو جسد راقد مسجي ملايين المودعين، وكما عني العالم المسيحي على اختلاف طوائفه ومذاهبه بالبابا الراحل، عنوا أعظم العناية باستقبال البابا الجديد، وكرموه وقدسوه ورجوا له النجاح فيما هو بصدده من توحيد مذاهب المسيحية وطرائقها.

فهذا هو مبلغ تدين العالم المسيحي، واحترامه لرجال الدين، فضلاً عن الأنبياء والرسل والأحبار.

فكيف يريد منا «عفلق» الإلحاد والفجور هذا، أن نكفر برسولنا، وأن ننكر

نبوته؟ وأي شيء يبقى لنا لكي نقدسه بعد أن نهدم مصدر القداسة هدمًا، وهل فلسفة «عفلق» السوء، ووعيه البعثي الجديد، يبعثانه على زلزلة إيمان المسلمين بنبيهم، بينما المسلمون جميعًا يؤمنون بكل الأنبياء والرسل كما يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

يقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٠-١٥٢) .

وحسبنا هذه الموازنة القرآنية العادلة الصادقة لنعرف من هم المهتدون على بصيرة ونور من ربهم، ومن هم الضالون الزائفون المفرقون بين الله ورسله، وبين الرسل بعضهم وبعض.

فليهنأ كل مسلم بإيمانه بربه ورسل ربه، وليخسأ كل كافر بكفره، وكل زائغ بزيغه **﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾** (الإسراء: ٨٠-٨٢).

الباب التاسع

قيم ومفاهيم إسلامية

١ - ألا ساء ما يحكمون
٢ - الترف والمترفون
٣- الرأي العام في تعاليم الإسلام .
٤ - المثالية في نظر الإسلام .
٥ - التكافل في الإسلام .
٦ - الوعي الصحي في تعاليم الإسلام .
٧ - فلسفة الوحدة في الإسلام .
٨ - فرحة المؤمنين بانتصار الحق على الباطل .
٩- عوامل النجاح في الحياة .
١٠ - التوكل على الله بين النظرية والتطبيق .
١١- السماحة هي سر السعادة .
١٢ - العالم من يعرف للعلم حقه .
١٣ - لا تيأسوا من روح الله .
١٤ - المحبة والإخاء .
١٥ - سل نفسك من أي نوع إيمانك ؟
١٦ - الشبهات والشهوات .



مما وصف الله به المؤمنين قوله عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١).

وقوله سبحانه: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة: ٢٢).

ومما وصف المؤمنين به رسول الله ﷺ قوله: «وهم يد على من سواهم».

فالآية الأولى تقرر مبدأ التناصر والتآزر بين المؤمنين، أي أن يكون كل منهم وليًا للآخر، يحبه، ويحرص عليه، ويسعى لما فيه خيره، وينطوي على كل إخلاص له.

والآية الثانية تأتي مؤكدة لهذا المعنى ولكن عن طريق نفي «الموادة» بين المؤمنين ومن يحادون الله ورسوله مهما كانت العلاقة بينهم حتى علاقة الأبوة والبنوة والأخوة والعشيرة، فلا يتصور القرآن الكريم أن يجتمع الإيمان بالله ورسوله وتبادل الود والمحبة مع أعداء الله الذين يحادونه، أي يقاومون دينه وشريعته وأهل الإيمان به، وهذا أمر منطقي، لأن الإيمان بالله ورسوله وتبادل الود والمحبة مع أعداء الله ورسوله الذي يحادونه، أي يقاومون دينه وشريعته و وأهل الإيمان به، وهذا أمر منطقي، لأن الإيمان بالله ورسوله إذا كان صادقًا حقيقيًا، له مقتضيات أولها مجانبة أعداء الله، وإلا فكيف يدعي امرؤ أنه مؤمن وهو يواد الظالمين الآثمين أهل العدوان ومقاومة الإيمان.

أما الحدث الشريف، فإنه يقرر أن المؤمنين يد واحدة على من سواهم، فإذا رأيت امرأ يقف فيصف المؤمنين وأهل الإصلاح والخير والحق، موقفًا واضحًا ثابت القدم، فاعلم بأنه مؤمن صادق في إيمانه، وأن على المؤمنين أن يحبوه ويوالوه، أما إذا رأيت امرأ يدعي الإيمان، ويتشدق به، ويحاول أن يظهر بمظهر الحريص عليه، وهو مع ذلك يقف في صف أعداء الله وأعداء الحق، من أرباب الفساد والإفساد،

فاعلم أنه منافق لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

وعلى هذا الأساس يجب أن ننظر إلى هؤلاء الدعاة لما يسمونه «بالحلف الإسلامي» ثم نقول لهم:

إن «الحلف» معناه الموالاة التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

ومعناه قطع المودة عن كل عدو لله ورسوله، أي عن كل من يصطنع الفساد، ويقف في سبيل الإصلاح، ويتنكر للحق، ويكره العدل.

وذلك لأن الله هو الحق، وهو العدل ومن أسمائه الحق والعدل.

ومعناه أن تتوحد قوة المؤمنين ويتكتلوا على من سواهم، أي على أعداء الحق، أصدقاء الظلم والعدوان.

فإذا لم توجد هذه الثلاثة فلا يمكن أن يوجد «حلف إسلامي» لأنها هي مقومات التحالف وأركانه التي لا يقوم إلا بها.

وإذن فكيف يدعو فلان وفلان إلى تحالف إسلامي وفي نفس الوقت ترى أنهما يرتميان في أحضان إسرائيل عدوة العرب والمسلمين، التي اغتصبت حقوقهم وشردت أبناءهم، والتي تعمل دائبة في كل محيط دولي على الكيد لهم، وعلى مساندة الاستعمار في كل مؤامراته وخططه ضدهم؟

ألا ساء ما يحكمون!

الترف والمترفون

الترف : هو التوسع في نعيم الحياة ومتعها، والحرص على بلوغ الذروة في ذلك، ومن شأنه أن يجر صاحبه إلى الفساد، ويبعثه على ارتكاب المحرمات، والتحلل من مقاييس الفضيلة، والترفع عن الفقراء والمساكين، والمكافحين في الحياة، ومن شأنه أيضاً أن يولد في صاحبه خلق الاختيال والكبر والقسوة على الضعفاء، والبخل بالمادة، وكراهية التعاون.

ذلك بأن المترف أناني لا يحب إلا نفسه، ولا ينظر إلا إلى متاعه الخاص، الذي يجب أن يحرص عليه.

وإذا فشا الترف في أمة من الأمم، فقد وجد فيها أهم عامل من عوامل الفساد والانحلال.

ولذلك يحذر القرآن الكريم من الترف والمترفين، مبيناً للناس هذه المعاني، وتلك الآثار التي تترتب عليه.

١ - فيقول الله جل جلاله: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ (الإسراء: ١٦).

وفي بعض القراءات التي تقرأ هذه الآية ﴿ **أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا** ﴾ بتشديد الميم أي جعلناهم أمراءها وملوكها، فجرهم ترفهم إلى الفسق والفجور، فكانوا مثلا سيئة يحتذيها غيرهم، فتنجر الأمة بذلك إلى أعظم الفساد، فيحق عليها القول، أي سنة الله في المفسدين، فتصاب بالدمار.

والقراءة المشهورة في هذه الآية هي ﴿ **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** ﴾ - بفتح الميم من الأمر - وهي أيضاً دالة على المعنى الذي قررناه في شأن الترف والمترفين - قال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية على هذه القراءة : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا** ﴾ أي وإذا دنا وقت إهلاك قوم، ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم، ﴿ **فَفَسَقُوا** ﴾ أي أمرناهم بالفسق، والأمر مجاز، لأن حقيقة أمرناهم بالفسق، والأمر مجاز، لا حقيقة (أمرهم

بالفسق) أن يقول لهم افسقوا، وهذا لا يكون أي لأن الله لا يأمر بالفحشاء ـ فبقى أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك، لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول، وهو كلمة العذاب، فدمرهم » .

فصاحب الكشاف يرى أن مسارعتهم إلى وضع النعمة في غير موضعها يشبه مسارعة من يؤمر بشيء فيفعله، فكأن النعمة التي لم يحتملوها، ولم يطيقوا الابتلاء بها كانت دفعًا لهم إلى الفسق والفجور، كما يدفع من أمر بفعل شيء، وبهذا يتبين أنه لا أمر من الله تعالى بالفسق كما قد يبدو من الظاهر، وإنما الكلام على وجه المجاز، ويتبين أيضًا أن الترف وانصباب النعمة سبيل إلى الخروج عن حد الاعتدال، ويتفق هذا مع آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ (العلق : ٦، ٧)، كما يتفق مع قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ** ﴾ (الإسراء : ٨٣)، وتلك هي طبيعة الإنسان، وقلما ينجو من شرها إلا من أعانه الله، ولذلك يحسن أن يتجه المربون وأولو الأمر إلى حماية الشعوب من أن يسودها الترف إلى الحد المفسد المفضي إلى الفسوق وعصيان الله، والطغيان بالنعمة، وذلك بالتقريب بين طبقات الأمة، وتذويب الفوارق المطغية بين أفرادها، حتى لا تترك للترف والنعومة المؤديين إلى الإنحلال .

٢ ـ ويقول الله تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ (هود : ١١٦)، فوصفهم الله تعالى بالظلم، وبين أنهم قد اتبعوا الترف والمغالاة في متاع الحياة الدنيا ونعيمها دون مراعاة لحقوق أصحاب الحقوق فيها، وأنهم انتهوا إلى صفة الإجرام بما يرتكبونه من الآثام وانتهاك الحرمات، وإشاعة السيئات .

٣ ـ وقد بين الله لنا أن دعوات الإصلاح في كل عهد، قوبلت بالإنكار والمعارضة

من فريق المترفين أرباب النعيم الواسع والثراء العريض، والاستكبار عن قبول الحق، إذ يقول جل جلاله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (سبأ: ٣٤، ٣٥)، ويقول عز اسمه: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٣-٣٨).

وهكذا نجد في النص الأول تقريراً للحقيقة في شأن موقف المترفين في كل زمان ومكان وأنهم يتبعون قاعدة عامة لا يشذون عنها هي كفرهم بما جاء به المرسلون، ويعللون هذا الكفر، وهذا التكذيب بأنهم أرباب النعمة، وأصحاب الكثرة من الأموال والأولاد، فلا يمكن أن يعذبوا.

أما النص الثاني، فيتحدث عن الملأ من المستكبرين المترفين، ويصف ما قابلوا به رسولهم في المعارضة الجامحة، والمقاومة المسرفة المرجفة، وما كان ذلك إلا لقسوتهم وتحجر قلوبهم، وإطغاء النعمة والترف لهم.

٤ - وقد قرر الله تعالى في آية من كتابه الكريم، مبدأ التضامن بين أفراد الأمة، ثم اتبعه بموقف المستكبرين المختالين أصحاب الفخر بالمال والحسب والنعيم، وعرفنا أن من شأنهم أن يبخلوا ويأمروا الناس بالبخل.

وذلك حيث يقول جل جلاله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧).

وذلك أن الكبر والاختيال من عوامل غمط الحق وبطر النعمة، أما البخل فهو خلق يمنع صاحبه من العطاء ويجعله قابضًا على ما معه، ممسكًا به، حريصًا عليه، ومن شأنه أن يفسد صاحبه، وأن يجعله قاصرا عن التطاول والسمو إلى أية منزلة فاضلة، فهو أناني أثر منكمش ليس له في العادة ميول الاجتماعي، وإنما هو نفور من الناس وقد جرت عادة هذا الصنف بأنه لا يكتفي بأن يكون هو بخيلاً، ولكنه يأمر الناس بالبخل، لأنه لا يحب أن يتقرر مبدأ الجود والعطاء والنجدة في الناس، فهو يحب أن يكون البخل مبدأ مقررا في المجتمع كما هو متقرر عنده.

وكل ذلك من سلطان المال، ومن الرغبة الجامحة في الانفراد بالتمتع به، والبلوغ إلى مستوى الترف الفعلي في الحياة إن كان صاحبه متلافًا مسرفًا، أو الترف الحكمي إن كان ميالاً إلى كنز الأموال واختزانها متلذذا بهذا الكنز وبهذا الاختزان!

٥ ـ ويبين الله تعالى مصير هؤلاء المترفين الجاحدين فيقول: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**﴾ (المؤمنون: ٦٤)، أي يصيحون من شدة العذاب، ومن الأخذ الشديد الذي أخذوا به فيقال لهم: ﴿**لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ**﴾ (المؤمنون: ٦٥).

وقد رأينا بعض الطغاة في السنين الأخيرة بل في الأشهر الأخيرة، يؤخذون بعذاب الله على بغتة منهم، فإذا هم يجأرون ويصيحون ويسترحمون فلا يجدون من يرحمهم.

٦ ـ ويقول الله تعالى في وصف أصحاب الشمال: ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ**﴾ (الواقعة: ٤١-٤٦).

وهكذا نجد الترف سبيلاً إلى الهلاك والدمار في الدنيا، وإلى العذاب الشديد في الآخرة والملكية هي ذروة الترف، وهي حصن المترفين المفسدين في الأرض، فاليها يأوي كل مستكبر بماله وجاهه عن الحق والإصلاح، ومنها تنبثق المعارضات

والمناوآت لكل من يدعو بدعوة إصلاحية، وذلك لأن الملوك لا يعرفون أنه حين يكون صلاح لا يكون إسراف، ولا يكون ترف، ولا يكون تفاوت كبير في نعيم الحياة ومتعها، يسمح بأن تشيد القصور وتملأ بالأثاث والرياش، والجواهر واللآلئ والفضة والذهب في ركاب الخيل، وصحاف الأكل، ومقابض العصي، والفرش والسجاجيد، بينما الناس في شظف العيش، وفي كفاح شديد من أجل أدنى الطعام والشراب والمسكن.

أن بعض القصور يشهد ما لا يتصوره عقل، ولا يحرزه خيال، من ألوان المساخر والمفاجر .. أن هناك النساء والخمور والبذخ والسرف والفسوق والعصيان، فهل يرضى الله تعالى عن هذا؟ وهل يوجب على عباده أن يطيعوا أصحابه، ويؤثروهم على أصحاب الدعوات الإصلاحية، ودعاة المجتمعات التي تنعم بالعدالة الاجتماعية.

كلا والله، أنه لا يحب المسرفين، ولا يرضى عن المترفين، وقد كان رسول الله ﷺ تجبى إليه ثمرات كل شيء وما كان يحتجز لنفسه شيئًا منها، وعاش فقيراً ومات فقيراً ودرعه مرهونة، وكذلك كان أصحابه الراشدون من بعده يوم كانت الخلافة بيعة وانتخاباً من الشعب، لكل مؤمن حق فيها، وصوت فيمن يليها، فلما صارت ملكًا عضوضًا تغيرت على المسلمين أحوالهم وابتدأوا يضعفون، وظلوا كذلك حتى أصيبوا في بلادهم واستعمروا وصاروا أسلابًا لأوربا، بل لشذاذ الآفاق من الصهاينة المعتدين.

فلنعرف هذا، ولنعلم أن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، ولم يكن أوله ملكًا، وإنما كان بيعة واختياراً لمن هو أصلح وأقدر على تولي سياسة الأمة، والزود عن حياضها.

الرأي العام
في تعاليم الإسلام

من أهم الدعائم التي تقوم عليها عظمة الأمة، وتستقيم بها أحوالها؛ أن يكون فيها « رأي عام » ناضج مهيب، يستلهمه قادتها والقائمون بأمرها، ويخشاه من تحدثهم نفوسهم بالبغي عليها، أو الانحراف عن الصراط السوي في تدبير شئونها.

وأهل السياسة، ورجال الاجتماع، يحكمون للأمة أو عليها بحسب « الرأى العام » فيها، فإذا كان من عادة الأفراد أن يهتموا بالشئون العامة، ويحرصوا على أن يكون لهم توجيه فيها، ووزن لقيمتها، وتمييز بين الصالح والفاسد منها؛ كانت الأمة بخير، وكانت جديرة بأن تعيش وتكافح في معترك هذه الحياة، وتتبوأ بين الشعوب مكانة حسنة، وإذا كان الأفراد معنيين بشئونهم الخاصة فحسب، يقصرون عليها جهودهم، وينفقون فيها كان نشاطهم، ولا يعنيهم بعد ذلك أصلحت أحوال المجتمع الذي يعيشون فيه أم فسدت؛ فالأمة على خطر عظيم، وهي صائرة بخطى واسعة إلى الفساد ثم الانحلال ثم الهلاك!

وهذا الأصل العلمي له شواهد من واقع الأمم في القديم والحديث، وله في عصرنا الحاضر على وجه أخص أمثلة من الأمم القوية والأمم الضعيفة لا أحسبني في حاجة إلى الإطالة بذكرها، وإنما أريد أن أقول : إن هذا الأصل الذي آمن به علماء الاجتماع، وأصبح من الحقائق المسلم بها، قد جاء به الإسلام، فقرره الكتاب الكريم، وبينته السنة المحمدية في جلاء ووضوح منذ أربعة عشر قرناً!

يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران : ١٠٤).

وهذه الآية هي أساس المسئولية التضامنية بين جميع أفراد الشعب، إذ توجب على الأفراد أن يكونوا دعاة إلى الخير وآمرين وبالمعروف وناهين عن المنكر فيؤلفوا بذلك « رأيًا عامًا » يُلزم كل إنسان بالاستقامة على النهج، والتزام الصراط المستقيم،

فيما هو مولى عليه من شئون خاصة أو عامة.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن «من» في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ للتبعيض، وأن المعنى على ذلك وجوب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبًا كفائيًا، أي «أنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين، ولو أخل بها الكل، أثموا جميعا»، ورأى بعضهم أن «من» في الآية ليست تبعيضية، و إنما هي تجريدية، كما تقول: لقيت من فلان أسداً، وأنت تريد أن تقول لقيته هو، والمعنى على هذا، وكونوا أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وهذا الرأي الأخير هو الحق، وهو الذي نميل إليه، ونقول به وذلك لأمور: منها أن الله سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وفي هذه الآية أسند الفعل صراحة إلى ضمير الأمة.

ومنها أن الله ذكر المنافقين والمؤمنين في آيتين من سورة التوبة فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٧١).

جعل من صفات المنافقين ودأبهم الذي طبعوا عليه أنهم ملتوون عن سبيل الحق، يمقتون الصلاح والخير، ويميلون إلى الفساد والشر، فيأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم عن أعمال البر والتعاون فيبخلون، ولا يصح أن يكون الكلام على إرادة بعض من المنافقين دون بعض، فإنه في صدد ذكر خصائصهم وما يُعرفون به، وفي مقابل ذلك جعل من صفات المؤمنين ولاية بعضهم بعضاً، أي الأخوة والمحبة والتناصر والتعاون على البر والتقوى، وجعل من صفاتهم أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة

الله ورسوله، ولا يصح أن يكون الكلام هنا أيضًا على إرادة بعض من المؤمنين دون بعض، لا سيما وقد ذكر من الأوصاف إقامة الصلاة ومابعدها من الفرائض العينية التي تجب على كل فرد.

ومنها أن الله تعالى ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الفائزون بما قضت به سنته من النجاح في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وختم الآية الأخيرة بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي سيشملهم برعايته وتوفيقه وفضله، ولا يصح أن يكون الفلاح خاصًا بالقائمين بفرض الكفاية دون غيرهم، ولا أن تكون الرحمة مقصورة عليهم، مع أن الله قد أباح للآخرين أن يتركوا الفعل اعتمادا على كفاية حصوله ممن قام به، وإلا لكان بمثابة أن يبيح أمرًا لا يتصل به سبب من أسباب الفلاح والرحمة.

ومنها أن الله تعالى قال في سورة العصر: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فجعل الحكم بالخسارة تمامًا يشمل جميع الناس، ثم استثنى المؤمنين العاملين المتواصلين بالحق والصبر، والتواصي بالحق هو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن النكر، فمن لم يقم بها فهو في خسران، وهذا حكم عام لجميع الأفراد ، يقابل الحكم بالفلاح، والوعد بالرحمة في الآيتين السابقتين.

ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأن المؤمنين ودأبهم، وأن كل مؤمن مكلف به تكليفًا عينيًا كما هو مكلف بالصلاة والزكاة واطاعة الله ورسوله . وهذا طبعًا في حدود الاستطاعة والقدرة والأمن من ترتيب مفسدة أعظم ووقوع فتنة أكبر، وإلا سقط أو وجب الكف عنه.

وقد جاءت السنة المطهرة بما جاء به الكتاب الكريم، فمن ذلك ما رواه المحدثون عن أبي بكر رضي الله عنه من أنه قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٥)، وإنكم تضعونها غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله

بعذاب »، وفي رواية « ليس من قوم يعمل فيهم بمنكر، ويفسد فيهم بقبيح، فلم يغيروه ولم ينكروه ، إلا حق على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعًا ثم لا يستجاب لهم »، ومن ذلك ما رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي وغيرهم من قوله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وما رواه مسلم وغيره من قوله ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »[1].

والحديث الأخير يعم بالخطاب سائر المؤمنين، ويكلف بتغيير المنكر كلاً على حسب استطاعته : باليد أو باللسان أو بالقلب، والتغيير بالقلب عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله، وهو وسيلة صحيحة لردع أهل الفساد، فإن شعور المفسد بمقت القلوب له ونفور النفوس من فعله، واحتقار الناس إياه؛ كفيل برده عن الإفساد من قريب أو من بعيد، وهو أشبه بعلاج الإيحاء لأنه عتابه نهي صامت ملح يتمثله المرتكب للقبيح مدويًا في أذنه، مثابرًا على تبكيته وتأنيبه.

وقد مثل لنا رسول الله ﷺ حال المؤمن بالنسبة لأخيه فقال : « المؤمن مرآة المؤمن » كما مثل لنا حال الأمة بحال راكبين في سفينة أراد بعضهم أن ينقر فيها، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم، وإن تركوه هلكوا وهلكوا معهم.

هذا كله تربية للأمة، وتكوين لشخصيتها، وخلق القوة المقاومة فيها تحصينًا لها من الفساد، ودفعًا بها في سبيل الرشاد، وقد قص علينا القرآن أمر بني إسرائيل لما انهدم فيهم هذا الأصل، وسامحوا فيه وداهنوا، فقال : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (المائدة : ٧٨، ٧٩).

كما قصت علينا السنة النبوية ذلك لنعتبر به، فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل

(١) مسلم عن طارق بن شهاب ك / الإيمان ب / بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٧٠).

لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ وكان متكئا فجلس وقال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً[1] - أو تقصرنه على الحق قصراً - أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم».

وقد تحدث الله جل علاه عن ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ (الحج: ٤٠)، فقال وعداً، واشتراطاً عليهم: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (الحج: ٤٠، ٤١).

فبعث بذلك في كل فرد من أفراد المؤمنين رغبة النصر والقوة والعزة على شرائط يؤديها من بينها هذا الركن الأساسي العظيم، وقد وفى الله للمؤمنين بوعده حين وفوا له تعالى بما شرط عليهم، فلما كان شأنهم قول الحق، والإنكار على الظلم، وبذل النصح، وتقويم المعوج، والدعوة إلى الخير والمعروف، أصلح الله شأنهم، وأعز دولتهم، وأخاف أعداءهم، ولما جاملوا في الحق، وتسامحوا في درء المفاسد، ودفع المنكرات، وضعفوا عن مجابهة المبطلين، ضرب الله بعضهم ببعض، وأصابهم بالانحلال، وأصبحوا أفراداً ممزقين، يتجاورون في الأوطان، دون أن يجمعهم وصف الأمة المتعاونة المتكاتفة ذات «الرأي العام» الناضج المهيب.

﴿**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ (النحل: ٣٣).

---

(١) أطره يأطره - من بابي ضرب وكتب -: عطفه وثناه.

المثالية في نظر الإسلام

من معاني المثال والمثل في اللغة ما جعل مثالاً أي مقداراً لغيره يحتذى عليه.

وبعبارة أخرى هو في الماديات القالب الذي يقدر عليه مثله.

ويقال: هذا الرجل مثال أو مثل يحتذى أي أسوة وقدوة.

وقد اعتاد الناس في عصرنا الحاضر أن ينسبوا إليه فيقولوا «المثالية» يريد التزام أمثل الأشياء وأفضلها وأشرفها ويقابلون به «الواقعية» أي: التزام الواقع والرضا به كيفما كان.

ولذلك يقولون : فلان مثالي، أي يترسم في قوله وفعله المثل العليا، أي الصورة الأفضل، وفلان واقعي أي: من خلقه مجاراة الواقع دون أن يعبأ بما عسى أن يكون فيه مما يغمز أو يعاب.

وفي القرآن الكريم:

﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (النحل: ٦٠)، قال بعض العلماء في تفسير «المثل الأعلى» الذي أثبت في هذه الآية لله عز وجل: هو قول «لا إله إلا الله وكأن هذا المفسر يريد أن يقول: (أن لا إله إلا الله) هي الحقيقة الكبرى التي لا تعلوها حقيقة، وهي التي يجب أن تكون المرجع والمقياس الذي يقاس به كل شيء ليعرف، فما كان متمشيًا معها، ملائمًا لها من الأفعال والأحوال فهو حق وخير ونهج سوي، وما كان منافراً لها، غير متسق معها فهو باطل وشر والتواء عن الصراط المستقيم.

وهذا معنى صحيح، ولكنه إجمال يحتاج إلى تفصيل.

وعندي أن المثل الذي ذكر في هذه الآية مرتين، وهو ما يحتذى ويقاس عليه، وهو نوعان متقابلان:

أحدهما المثل السيء، وهو عبارة جامعة لكل معنى من معاني الشر والفساد، كأنه قالب لكل ما هو سوء، فمتى قيس عليه شيء من الأشياء وطبع به لم يأت إلا

خبالاً وخساراً وضلالاً وفساداً، وقد عبر عنه بعبارة فيها تركيب إضافي، فقيل «مثل السوء» لأنه مقياسه وقالبه فكأن «السوء» الذي هو جماع كل شر وفساد وضلال شيء له قالب يطبع عليه، ويمثل به.

ونسبته إلى «الذين لا يؤمنون بالآخرة»، سببها أن هؤلاء هم الذين لايرجون ثوابًا، ولا يخشون حساباً ولا عقاباً، فهم لذلك يستبيحون كل إثم، وكل شر، وكل ضلال أما الذين يؤمنون بالآخرة فمن شأنهم أن يترسموا ما ينجيهم من حسابها وعذابها ويدخلهم في رحمة الله ورضوانه.

وفي القرآن الكريم: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ (الكهف: ١١٠).

والنوع الثاني من المثل هو «المثل الأعلى» الذي يقاس عليه فعل الخير والصلاح وكل ما هو رشاد واستقامة، وذلك هو الفضائل والصفات الحميدة والأعمال الصالحة، فكل ذلك مرجعه ومقياسه وتقديره هو الله، لأن الله تعالى هو مجتمع المثل العليا -إذا جاز لنا أن نعبر بهذا التعبير- وهذا شبيه بقوله عز وجل في موضع آخر: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

ففي هذه الآية مقابلة بين «الأسماء الحسنى» التي أثبتها الله لنفسه جل وعلا، والأسماء التي يلحد فيها الملحدون، أي يميلون في شأنها عن النهج القويم، والوسط السوي، كمن يشق اللحد فيميل به إلى جانب الحفرة لا إلى وسطها وسوائها.

وقد وصف القرآن الكريم رب العزة بأن له الأسماء الحسنى، ومعنى ذلك أنه تعالى هو المبدأ الأكمل، والمثل الأعلى في كل ما هو سمو وفضل وجلال وجمال، وأن كل ما في الكون من ذلك صادر عنه وقبس منه، وقد قرب هذا المعنى حيث يقول: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (النور: ٣٥).

فالسموات والأرض تعبير عن الكون كله، علويه وسفليه، وما خلق الله من شيء الله نورها، والنور هو روح كل موجود وسره، فلو تصورنا موجوداً مظلما لا نور له لما كان في المعنى إلا صورة مساوية للعدم.

وقد أثبت العلم أن كل موجود لا بد له من النور على نحو من الأنحاء، وأن انقطاع النور انقطاعًا تامًا عن الموجود إنما هو مرحلة نهايته وفنائه، وهذا المعنى قد أشار إليه النبي ﷺ في بعض دعائه الذي توجه به إلى ربه، حيث يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك».

وقد وصفت الآية الكريمة هذا النور بوصف تمثيلي مداره على إثبات قوته وصفائه، وتكامله وتمام بهائه، فبلغت من ذلك الغاية، وقربت الأمر أعظم تقريب.

وقد جاء القرآن الكريم بكثير من أسماء الله الحسنى التي اشتهر أنها تسعة وتسعون استناداً إلى ما روى في الصحيحين وغيرهما من قول رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة»[1] .

وذلك مثل: الرحمن، الرحيم، الصبور، الشكور، الملك، القدوس، البارئ، المصور، القدير، العليم، الحليم، الغفور، الودود، الحميد، المجيد، الوهاب، الباسط، القابض، الرقيب، الحسيب، وغير ذلك.

والمؤمن البصير بربه، يتعلق بأسمائه ويتعشقها، ويترسمها، ويجعل منها مثله ومقاييسه وأفعاله وأخلاقه، ويرى فيها سلواه وهداه، ويستمد منها قوة في حياته، تيسر له الصعاب، وتهون عليه الشدائد، وتدفعه إلى القيام بما أقامه الله فيه دون تبرم أو ضعف.

وذكر الله تعالى بهذه الأسماء عن طريق التأمل فيها، ويعرف أخلاقه تعالى أو صفاته بها، وترسم ما توحي به من المثل العليا في أبوابها ومواطنها؛ من شأنه أن يعرفنا بالفضل والكمال وكل ما هو سمو وخير وجمال.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ التوحيد ب/ إن لله مائة اسم إلا واحداً (٦٨٤٣).

ذلك هو «المثل الأعلى» الذي أثبت لله جل جلاله، وتلك هي «الأسماء الحسنى»: كلاهما يوجه إلى الرجوع إلى الله تعالى وترسم مقاييسه ومناهج حكمه وتشريعه، وصفات علوه وكماله.

و«المثالية» في نظر الإسلام ليست هي الوصول الفعلي إلي هذه المثل، حتى لو أن إنسانًا قصر عنها خطوة، أو حاد عنها قيد شعرة؛ لما كان في نظر الإسلام «مثاليًا».

كلا، ولكن الله تعالى إنما يكلفنا بأن نترسمها ونتعشقها ونجعلها نصب أعيننا، نهدف إليها بقدر استطاعتنا، وندور في فلكها غير نادّين عنها عنادًا واستكبارًا ورفضًا وتخلصًا.

إن الله تعالى فطر بني آدم على نوع معين من الغرائز والطباع والوظائف الجسمية والعقلية، ومن شأن هذا النوع أن يجر إلى ارتكاب ما يعد خطأ أو انحرافًا أو ذنوبًا، ولم يشأ جل جلاله أن يخلقهم على النوع الذي خلق عليه الملائكة الذين **﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾** (التحريم: ٦).

ولهذا لا نستطيع أن نقول: إن الله تعالى ينتظر من عباده أن يكونوا طائعين طاعة تامة، متجنبين لاقتراف أي إثم، بعيدين عن ملابسة أي نوع من أنواع الشرور والمفاسد.

لا نستطيع أن نقول ذلك، لأن الله تعالى هو الذي خلقهم وغرس فيهم طبائعهم وملكاتهم، وركب فيهم الشهوات والرغبات والحاجات، فلا يمكن أن يتطلب منهم سجايا الملائكة وقد خلقهم بشرًا.

ولذلك نجد القرآن الكريم يرسم للمثالية خطوطًا فيها رحمة بالإنسان.

فهو يقول **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾** (آل عمران: ١٠٢)، ويقول مع ذلك: **﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾** (التغابن: ١٦)، ويقول أيضًا: **﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾** (آل عمران: ١٣٣)، ثم يصف هؤلاء المتقين بأوصاف تدل على اتجاههم إلى فعل الخيرات، واجتناب الإصرار على المعاصي إذا وقعوا فيها فيقول: **﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي**

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤-١٣٦).

هذه هي نظرة الإسلام إلى «المثالية» ولو أنه نظر إليها نظرة تشديد، وألزم بها الناس على معنى أنه أوجب عليهم تحقيقها كاملة غير منقوصة، لما استطاعوا أن يحققوها، ولكانوا كلهم خارجين عن أمر الله، مستحقين لعقابه.

ولو أنه تعالى خلق الناس جميعًا على طبيعة الملائكة، فلم يعص في الأرض ولا في السماء؛ لما تحقق وصف «العفو» ولا وصف «الغفور» تحقيقا عمليًا.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن «المثالية» التي يقررها الإسلام، إنما هي الاتجاه إلى مثل الفضيلة والخير والحق والجمال، وتعشق ذلك كله، وأن تهوى إليه أفئدة الناس مؤمنين به، مصدقين «الحسنى» أي بأن لهم مثلاً عليا يجب عليهم أن يعملوا على احتذائها ولا يكونوا كالذين يكذبون «بالحسنى» ويعتقدون أن كل شيء في الحياة مباح ومستباح، وهم الإباحيون الانحلاليون الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين لهم (مثل السوء) كما يقول القرآن الكريم.

وبذلك يكون للمثالية نظر إلى الواقعية ويكون للواقعية نظر إلى المثالية.

أو بعبارة أخرى، يكون الإسلام واقعيًا في مثاليته، ومثاليًا في واقعيته.

التكافل في الإسلام

لقد فرض الإسلام التكافل بين الناس على صورة واسعة النطاق نتناول جميع نواحي الحياة أدبية كانت أو مادية، وقبل أن نبين ما قرره الإسلام في هذه النواحي ونتبعه فرعًا فرعًا، نحب أن نلتفت إلى ظاهرة في أسلوب الإسلام الذي سار عليه في شأنها: ذلك أنه لم يفرض التكافل بمجرد الأمر به والنهي عما يخالفه ولكنه أقام المجتمع على أسس أصلية هي بذاتها تنتج التكافل وتنضج ثمراته وتجعلها دانية القطوف.

فأول هذه الأسس: ما قرره القرآن الكريم في غير موضع من أن المؤمنين أخوة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات: ١٠)، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وأسلوب القرآن في إثبات هذه الأخوة هو أسلوب من يقرر حقيقة واقعة ثابتة لا تقبل التغيير، فكل امرىء يعلم أنه أخ للمؤمنين وأنهم جميعًا إخوانه فيقول لنفسه: مادامت هذه هي حقيقة الصلة بيني وبينهم فلابد من أن ألاحظها دائمًا في كل تصرف من تصرفاتي.

وأن أنزل على مقتضياتها في كل حال من أحوالي، وقد قطع الإسلام كل صلة تتعارض مع أخوة الإيمان فنهى عن اتخاذ الآباء والإخوان من النسب أولياء - أي نصراء وحلفاء - إن استحبوا الكفر على الإيمان، وتوعد الذين يؤثرون أي علاقة نسبية أو منفعة مادية على الله ورسوله والجهاد في سبيله بالوعيد الشديد، والآيات في ذلك مشهورة معروفة ومنها قوله تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (المجادلة: ٢٢).

ونحب أن نقف قليلا عند هذه الآية الكريمة الحاسمة في معناها البعيدة المدى

فيما تقرره فهي تنفي أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر وهم مع ذلك يبادلون المودة من خرج عن حدود الله ورسوله، وهي تنفي أن يوجد هذا النوع حتى بين المتصلين بالصلات النسبية أو القومية من الأبوة أو البنوة أو العشيرة.

وبعد أن تنفي هذا بهذا الأسلوب الحاسم تلتفت إلى تقرير حالة المؤمنين الذين يسيرون على مقتضاه فيقطعون جميع الصلات إلا صلة الإيمان فتصفهم بأوصاف أو تقرر في شأنهم قرارات واضحة تقع في سبع جمل في هذه الآية الواحدة:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

بهذا يتبين إلى أي مدى وصل الإسلام في تقرير صلة الأخوة بين المؤمنين، ونفي كل ما ينافيها وهذا هو المنبع الأول الذي ينبع عنه التكافؤ في الإسلام.

المنبع الثاني هو ما يقرره القرآن الكريم في شأن الولاية والتناصر بين المؤمنين: فهو يقرر أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض كما يقرر أن المنافقين والمنافقات بعضهم أولياء بعض وينهى عن اتخاذ الكفار أولياء: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾** (الممتحنة: ١)، والأمر في ذلك كله منطقي تحكم به العقول السليمة، فما كان المنافق المذبذب المتأرجح بين الحق والباطل يصلح لأن يكون وليًا ونصيرًا وحليفًا للمؤمن الثابت الإيمان الذي يؤثر الله ورسوله على كل ما سواهما، إن كلاً من المنافق والمؤمن لا يمكن أن يتلاقى مع صاحبه لا في عقيدته وقرارة نفسه ولا في أهدافه ومثله ولا في أساليبه وطرق حياته فكيف يمكن أن تقوم بينهما محالفة أو مناصرة، وإذاً فالمؤمنون هم أحق الناس بولاية المؤمنين، ولذلك مقتضياته من التعاون والتكافل في الشدة والرخاء كما هو شأن الحلفاء والنصراء.

فهذا هو المنبع الثاني الذي ينبع منه التكافؤ في الإسلام.

والمنبع **الثالث** هو التكافؤ في الدماء فليس هناك مؤمن إلا ودماؤه غالية عزيزة كريمة وحياته من أجل ذلك مصونة محترمة، فكلهم سواسية في ذلك، وفي هذا

يقول الرسول ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

المنبع الرابع هو ما أمر الله به من المحبة، بين المؤمنين، وفي ذلك يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «أحب للناس ما تحب لنفسك»[1]، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

هذه هي الأسس أو الينابيع التي ينبثق منها التكافل بين الناس، وهي دوافع طبيعية يسوقها الإيمان في جميع المجالات الحيوية التي نرى فيها التكافل واضحًا بين المؤمنين.

بعد هذا نجول مع التكافل في مجالاته المختلفة إلى أجاله الإسلام فيها:

١ ـ فنجد التكافل في المجالات المادية واضحًا في الزكاة التي أمر بها الإسلام، لا الأغنياء فقط، ولكن جميع طبقات الأمة تقريبًا، وذلك أنه جعل لها نصيبا هو نحو عشرة جنيهات يحول عليها الحول فيجب فيها ربع العشر ومن ثم نجدها فريضة يقدر عليها العدد الخضم في كل مجتمع، بل الأكثرية أو ما يقرب من الأكثرية في الأمة، وفائدة ذلك أن يعم الناس شعور واحد في التضامن والتكافل وبأنهم في أكثر الحالات معطون باذلون لإخوانهم مما آتاهم الله، ولهذا الشعور لذة وعزة.

ونسبة الزكاة قليلة تسخو بها النفوس، ولا يكاد الشح يتسلط في شأنها على أحد يؤمن بالله ورسوله، ثم هي عامل من عوامل الألفة والمحبة بين الناس حيث يشعر الذين يأخذونها بالمحبة والارتياح والعاطفة المشتركة.

ونظرة سريعة إلى العلائق الطيبة التي تنشئها زكاة الفطر مثلاً، وهي التي تخرج في ليلة العيد عن كل نفس كبيرة أو صغيرة وإن لم تكن من الغنى بمنزلة مثل النصاب، نظرة سريعة إلى هذا اللون من التكافل الاجتماعي تعطينا فكرة عن المدى الذي يصل به الإسلام إلى تحقيق مبدأ التكافل والتضامن في المجتمع.

وقل مثل ذلك فيما يذبح من الأضاحي يوم عيد الأضحى، فالكثرة من الناس

---

(١) الترمذي عن أبي هريرة ك/ الزهد ب/ من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٢٢٧).

(٢) البخاري عن أنس ك/ الإيمان ب/ من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٢).

تذبح وتنحر، تأكل وتؤكل، ويبدو الناس يومئذ فقراؤهم وأغنياؤهم كأنهم مدعوون إلى مأدبة عامة شاملة أنزلها الله من السماء.

ونجد الإسلام يحقق التكافل في صورة أخرى جميلة هي صورة إكرام الضيف وأصل ذلك قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[1].

ولا شك أن هذا لون من ألوان التكافل كريم في مظهره ومقصده وقلما يعرف الأوربيون هذا اللون من الكرم فليس لهم حساب في الضيافة ولا الضيفان وليس في تقاليدهم أن ينزل إنسان على إنسان فيشاركه في طعامه وشرابه ويكون بذلك راضيًا مسرورًا معتقدًا أنه أرضى ربه وأرضى الشهامة والنخوة وما أبدع ما يقوله رسول الله ﷺ في شأن الضيف: «جائزته يوم وليلة»[2]، والضيافة ثلاثة أيام بعد ذلك ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»، وتفسير ذلك فيما ذكره العلماء أن الضيف له يوم وليلة يكرم فيها إكرامًا فوق العادة التي اعتادها أهل البيت وله بعد ذلك ثلاثة أيام يطعم فيها من طعامهم المعتاد ولا يحل له بعد ذلك أن يقيم في هذا البيت الذي استضافه أهله حتى لا يحرجهم، وحد الإحراج في كل بيت بحسب طاقة هذا البيت ومركزهم وظروف حياتهم، أي أن الضيف عليه أن يقابل ماله من حق بواجب التخفيف حتى لا يؤدي أمره إلى الإحراج.

ما أبدع هذا التكافل في المعاني المادية والأدبية، والقرآن الكريم ينعى على ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٦، ٧)، والماعون: هو ما يتبادله الناس بعضهم من بعض من الأواني والمنافع وقد جرت المجتمعات المتكافلة المتضامنة على تبادل مثل ذلك.

٢ ـ ونجد التكافل في المجالات الأدبية في صورة ما يسميه الإسلام فروض الكفاية التي يجب على المجتمع أن يهيئها، ولو أنه أهملها لكان كل أفراده مشتركين في الإثم.

فمن ذلك أنه إن وجد وباء وجب أن يتعاون القادرون على درء هذا الوباء فيقوم

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الأدب ب/ إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٥٦٧٣).

(٢) البخاري عن أبي شريح الكعبي ك/ الأدب ب/ إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٥٦٧٠).

منهم من يُطْعِم الناس ضدهذا الوباء ولو تطوعًا، ومن ذلك أنه يجب على المجتمع تجهيز الميت إذا لم يكن له من يجهزه وتغسيله والصلاة عليه ودفنه.

ومن ذلك كل ما يوجبه الإسلام من الأعمال النافعة للناس من إماطة الأذى وإصلاح الطرقات وإنارتها وعلاج الفقراء ونحو ذلك.

وقد أصبحت كل هذه الفروض الكفائية تقوم بها الحكومات والهيئات البلدية ونحوها وفي ذلك تحقيق للفروض الكفائية على الوجه الذي يبتغيه الإسلام.

٣- ونجد التكافل في مجال التعاون على الإصلاح ودرء الفساد وذلك هو ما يسميه الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن شأنه أن يحقق نوعًا عظيمًا من التكافل بين أفراد الأمة، وأن يكون مجتمعات راعية، فيها ما يعرف الآن بالرأي العام المهيب الوجه الذي يؤيد الحق ويشد أزره ويحارب الفساد ويقلم أظافره، ولأن المجتمع إذا استقام أمره على الخير والصلاح وطهرت أرجاؤه من الشر والفساد عم النفع في ذلك جميع الأفراد وأصبحوا محاطين بسياج يدرأ عنهم التفكيك والانحلال المفضين إلى الفناء والزوال، وما أبدع ما يصور به ﷺ المعنى حيث يقول «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم - أي منعوهم من خرق السفينة - نجوا ونجوا جميعًا»(١).

أما بعد فهذه مثل من التكافل في مجالاته المتنوعة التي أجاله فيها الإسلام ولم نرد الاستقصاء ولكن أردنا التمثيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) البخاري عن النعمان بن بشير ك/ الشركة ب/ هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٣٣١٣).

الوعي الصحي
في تعاليم الإسلام

١ - يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، وهذه الآية الكريمة تقرن بين تطهير النفس، وتطهير الجسم، فتطهير النفس يكون بالتوبة من الذنوب، إذ هي تغسل درن الآثام والمعاصي، وتعيد الإنسان إلى حظيرة الطاعة، وترد إليه اعتباره الروحي الديني، والتطهير الجسمي يكون بالنظافة والتحرز من النجاسة، بالوضوء والغسل، وبغسل اليدين قبل الأكل وبعده والاغتسال من الجنابة والحيض، وكل هذه مشروعة في الإسلام.

ويقول الله عز وجل : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨).

وفي هذه الآية إشادة بأول مسجد في الإسلام هو مسجد رسول الله ﷺ الذي أسس على التقوى من أول يوم.

وقد أشاد الله به من جانب يجب أن نلتفت إليه، هو جانب من فيه من العباد الذين ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ تطهيراً من الذنوب والآثام، ومن الأرجاس والأقذار فاللفظ شامل للأمرين، والمدح متعلق بهما.

ولينظر المؤمنون إلى قوله تعالى : ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقبله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، فإن الحب من الله دليل على الرضا، وفي التعبير به ترغيب شديد للناس في التطهر، فكأنه تعالى يقول لهم: ياعبادي: أنا أحب منكم التطهر وأرغب فيه، فافعلوا ما أحبه.

وقال الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة».

«اعلم أن الطهارة على ثلاثة أقسام : طهارة من الحدث، وطهارة من النجاسة المتعلقة بالبدن أو الثوب أو المكان، وطهارة من الأوساخ الثابتة من البدن، كشعر العانة والأظفار والدرن، ومن المعلوم أن الدين يأمر بالطهارة من هذه المعاني كلها، ولا شك في أن ذلك من أول واجبات الآدمي التي يسمو بها عن الحيوان».

٢ - ومن مظاهر حب الدين للتطهر والتنظف أنه ﷺ كان يحب «السواك» ويأمر بالمداومة عليه:

فعن زينب رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لولا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة كما يتوضؤون»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»(٢).

وعن شريح بن هانئ قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان يبدأ النبي - ﷺ إذا دخل بيته قالت: بالسواك!(٣)

فهذه الأحاديث مروية عن زوجتين من زوجات رسول الله ﷺ ولا شك أنهما عارفتان بعاداته، وما ألفه من الأعمال، وما قاله من الاقوال، وإذن فالسواك من عاداته الشريفة، وما هذا إلا لما فيه من التطهر، وقد عرف الطب قيمة ذلك وأثره في المحافظة على الأسنان ودرء الأمراض عنها، وعن سائر أجهزة الجسم تبعًا لها، وفيه إلى ذلك تنقية للفم من الرائحة الكريهة التي قد تؤذي الجليس، وتضجر المجتمع.

٣ - ومن هدي الإسلام في الوقاية من الأمراض:

قوله ﷺ: «اتقوا اللاعنين» قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»(٤).

فقوله ﷺ «اتقوا اللاعنين» يريد الأمرين الجالبين للعن، وذلك أن من فعلهما لعن ويشتم، فلما كانا سببًا للعن أضيف إليهما، فكأنهما هما اللاعنان، وقد بين رسول الله ﷺ أنهما «التخلي» في طريق الناس أو في ظلهم، ومعنى التخلي «التبرز» أي قضاء الحاجة .

ولا شك أن قضاء الحاجة في طريق الناس، أو في المواضع التي يلجأون إليها

---

(١) مسلم عن أبي هريرة ك/ الطهارة ب/ ما جاء في السواك (٢٢).

(٢) البخاري عن عامر بن ربيعة ك/ الصوم ب/ سواك الرطب واليابس للصائم.

(٣) مسلم عن عائشة ك/ الطهارة ب/ السواك (٣٧١).

(٤) مسلم عن أبي هريرة ك/ الطهارة ب/ النهي عن التخلي في الطرق والظلال (٣٩٧).

ليستظلوا بظلها، أمر مستقبح، مؤذ للناس، فإن كل من مر في الطريق أصابه من القذر شيء فتضرر به، وكذلك من لجأ إلى ظل ليستظل به، فربما أصابه القذر، فتنتشر بذلك الأمراض، ويتعرض الناس للعدوى، فوق ما يثيره ذلك من اشمئزاز النفوس، والدلالة على سخافة المجتمع الذي يقع فيه هذا الفعل القبيح المنكر الذي يستحق صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله، وإذا عم في مجتمع ما كان ذلك المجتمع ساقطًا راضيًا بالمنكر، ليس فيه رأي عام محترم.

وقوله ﷺ : «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل».

فالملاعن: موضع اللعن، أي أن التبرز في هذه المواضع يكون سببًا في لعن من يفعله، كما سبق توضيحه.

والمراد بالظل هنا: الظل الذي يتخذه الناس مقيلاً ومنزلاً ينزلونه.

وعن جابر عن النبي ﷺ «أنه نهى أن يبال في الماء الراكد»، وعنه قال: «نهى رسول الله أن يبال في الماء الجاري».

وبعض الناس يظنون أن البول في الماء الراكد هو المنهى عنه فقط، ولكن الحديث الثاني من هذين الحديثين يدل على النهي عن البول في الماء الجاري أيضًا.

والحكمة من ذلك واضحة وهي الوقاية من الأمراض التي تنتقل بواسطة تلويث الماء، ومنها أمراض «البلهارسيا» و«الانكلستوما» وغيرهما.

٤ ـ ولون آخر من ألوان الوقاية يعرفنا به الإسلام في مثل هذه الأحاديث النبوية:

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكثر الله خير بيته فليتوضأ إذا حضر غذاؤه وإذا رفع»، قال الحافظ المنذري «والمراد بالوضوء غسل اليدين» يريد أن غسل اليدين هو الغرض المقصود تحقيقه من الوضوء في هذا المقام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام وفي يده غمر ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه».

والغمر: هو ريح اللحم وزنخه.

وعنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان حساس، لحاس، فاحذروه على

أنفسكم من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه» .

ونحب أن نقف عند هذا الحدث وقفة نوضح فيها قوله ﷺ : «أن الشيطان حساس لحاس» فانه يرد في كلام الرسول ذكر الشيطان وما يفعله، وليس المراد دائمًا من الشيطان هو ذلك العدو الخفي للإنسان الذي هو إبليس، ولكن لفظ الشيطان قد يطلق ويراد به ما يأتيك متخفيًا من تلك الحشرات والهوام المؤذية بنفسها أو بنقلها للميكروبات، فالثعبان شيطان، و«البرص» شيطان، و«الصراصير» وأمثالها شياطين مؤذية، فهذا هو المعنى الذي يقصده رسول الله ﷺ من هذا القول، هو المناسب لوصفه الشيطان بانه «لحاس» و«حساس» فإن هذه الهوام والحشرات تحس برائحة الطعام فتأتي إليه وتلحس مواضعه، ومن هنا يتعرض من لم يغسل يديه وفمه بعد الأكل إلى ضررها وهو قائم سواء أكان هذا الضرر صادراً منها مباشرة أو بواسطة ما تنقله من الميكروبات.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من بات وفي يده ريح غمر فأصابه وضح فلا يلومن إلا نفسه» .

وقد سبق تفسير «الغمر»، أما «الوضح» فالمراد به هنا «البرص»، وقد ثبت عند الأطباء أن من أسباب التعرض لمرض البرص ـ والعياذ بالله ـ القذارة ولا سيما عند النوم، لأنها تجذب إليها بعض الهوام.

٥ ـ ومن هدى الإسلام في الوقاية أيضًا أنه أمر بتغطية الأواني والأسقية ، ومن ذلك قوله ﷺ : «غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء لم يغط، ولاسقاء لم يوك، إلا وقع فيه من ذلك الوباء» .

فأما تغطية الإناء فمعروفة، وأما «الوكاء» فهو رباط القربة ونحوها، لقوله ﷺ : «وأوكئوا السقاء» معناه : شدوا السقاء الذي يسقى به، أي القربة ونحوها بالرباط، حفظًا لها من أن يتصل بها شيء من الهوام ونحوها.

وفي هامش كتاب «الآداب الشرعية» عند إيراد هذا الحديث يقول (ص ٢٥٧ ج٣) :

«هذا الحديث يؤيده الطب الحديث المبني على أن للأوبئة نسمًا لا ترى بالأبصار ـ يريد الميكروب ـ إذا وقعت في ماء أو طعام كانت سبب إصابة كل من

أكل أو شرب منه، وهذه الوصية نافعة على كل حال ، فإن الأواني إذا لم يقع فيها الوباء وقع فيها غيره من الهوام والحشرات، أو أصابت منها» .

٦ ـ ومن هدى الإسلام في الوقاية أيضًا تحذيره من مخالطة ذوي الأمراض المعدية.

فالرسول ﷺ يقول: «لا يورد ممرض على مصح»[١]، رواه البخاري وغيره.

ويقول ﷺ: «فر من المجزوم فرارك من الأسد»، رواه البخاري.

وروى مسلم عن الشريد بن سويد قال: كان في وفد ثقيف رجل مجزوم، فأرسل إليه النبي ﷺ «أنا قد بايعناك فارجع»[٢].

ولأحمد وابن ماجه من حديث ابن عباس : «لا تديموا النظر للمجذومين» وزاد أحمد: «وإذا كلمتموهم فليكن بينكم وبينهم قدر رمح» .

وهذا هو الأساس في عزل ذوي الأمراض عن جمهور الناس.

ويخطىء بعض الناس فيظنون أن الحذر في مثل هذا المقام والأخذ بالحيطة مناف للتوكل على الله، ويروون في مقابل ما ذكرنا من الأحاديث مثل: «لا يغني حذر من قدر»، و«لا عدوى ولا طيرة»[٣]، و«ما كان لك سوف يأتيك» ونحو ذلك.

والحقيقة أن التوكل على الله لا ينافي أخذ الحذر من كل ما يضر، فالله تعالى هو الذي أمر بأخذ الحذر فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ (النساء: ٧١)، وهو الذي أمر بحفظ النفس فقال: ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وهو الذي جعل التيمم في الصلاة بدل الوضوء إذا لم يمكن استعمال الماء لمرض، وهو الذي أباح الفطر إن كان مريضًا، بل أوجبه عليه إذا كان الصوم يؤخر له شفاء، أو يجلب له مرضًا ـ وهو الذي أباح لمن كان برأسه أذى ألا يحلق رأسه عند التحلل من الإحرام في الحج أو العمرة، وجعل عليه بدل ذلك فدية من صيام أوصدقة أو نسك.

وإذن «فالحذر» بأمر الله، و«القدر» من أمر الله، وقد سمع عمر بن الخطاب أن

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الطب ب/ لا هامة (٥٣٢٨).

(٢) مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه ك/ السلام ب/ اجتناب المجذوم ونحوه (٤١٣٨).

(٣) البخاري عن أبي هريرة ك/ الطب ب/ لا هامة (٥٣١٦).

الطاعون منتشر ببلد كان يقصدها فرجع عنها، فسأله سائل: «أتفر من قدر الله ياعمر؟ فقال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب له مثلاً بما إذا كان له إبل بعضها جربى، وبعضها صحيحة، أفكان يخلط بينهما؟ أم كان ينزل هذه في مرعى وهذه في مرعى، ويكون نزول كل منهما في مرعاه سببًا في أن تسلم الصحيحة فلا تصاب، وعدم إصابتها حينئذ هو من قدر الله، كما أنهما لو نزلتا معًا فأصيبت لكانت أصابتها من قدر الله.

وقد روي في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ - أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أسامة بن زيد: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلاتدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه»(١).

ومعنى قوله ﷺ في بعض ما روى عنه: «لا عدوى»: لا عدوى مؤثرة بنفسها، أي أن الله تعالى هو الذي يؤثر بسببها، لا هي، وقد ثبت أن بعض الأجسام متهيء لقبول العدوى، وبعض الأجسام غير متهيء لها، كما ثبت أن مجرد وجود الميكروب لا يتحتم معه حدوث العدوى، فقد يكون هناك موانع من ذلك أو عوامل للتحصين، وتلك الموانع والعوامل هي أيضًا من أمر الله، فإذا وقعت العدوى فبأمر الله، وإذا لم تقع فبأمر الله.

فعلى المؤمن أن يجمع بين التوكل على الله، والأخذ بأسباب الحيطة والوقاية نزولاً على مبدأ «اعقلها وتوكل».

وقد ورد في السنة تطبيق كثير على هذا المبدأ، فالرسول ﷺ يقول: «اغلق بابك واذكر اسم الله، واطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله»(٢).

٧ - ومن تعاليم الإسلام الصحيحة المتصلة بالوقاية من الأمراض، حثه على القصد في الأكل وعدم الشبع إلى درجة الامتلاء، مما يؤدى إلى التخمة والتجشؤ الكريه.

فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) مسلم عن أسامة بن زيد ك/ السلام ب/ الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤١٠٨).

(٢) البخاري عن جابر ك/ بدء الخلق ب/ صفة إبليس وجنوده (٣٠٣٨).

«ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: تجشأ رجل عند رسول الله ﷺ أي تكرع فقال: كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها: الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم، سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم.

---

(١) الترمذي عن المقدام بن معدي كرب ك/ الزهد ب/ ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٠٢).

(٢) الترمذي عن ابن عمر ك/ صفة القيامة والرقائق والورع ب/ منه (٢٤٠٢).

فلسفة الوحدة في الإسلام
وحدة الهدف

سألني سائل فقال: ما رأيك في المبدأ الذي ينادي به أحد الرؤساء فيقول: «وحدة الهدف قبل وحدة الصف»، هل له أصل في كتاب الله، أو سنة رسوله، أو عمل السلف الصالح من المؤمنين؟

قلت: نعم أن له لأصلاً في كل من هذه الثلاثة، وأنه لمبدأ سليم متفق مع فلسفة الإسلام في الوحدة.

وذلك أن الأهواء الخاصة، والأهداف الشخصية، متفرقة متعددة، وليست كالمصالح العامة التي هي متعينة محددة، ولا كالحق الذي هو دائمًا واحد لا يتعدد، فإذا برئت النفوس من الشوائب والنزعات الشخصية، ولم يكن لها غاية إلا تحقيق هدف سام تؤمن به، وترنو إليه، وتتعشقه بإخلاص كان من السهل عليها أن تهتدي إليه، وأن تسير في طريقه المستقيم، وأن تتعارف وتتلاقى مع كل من هم على شاكلتها من المؤمنين بهذا الهدف، العاملين في صدق وإخلاص على تحقيقه.

وهذا هو المعنى الذي يرشد إليه النبي ﷺ حيث يقول: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» فالتعارف هو التوحيد على الهدف، وهو يؤدي إلى الائتلاف ووحدة الصف، والتناكر هو التفرق بالأهواء وتعدد الأهداف وهو يؤدي إلى الاختلاف وانحلال الصف.

ويرشد إلى ذلك من القرآن الكريم آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

روي الدارمي في مسنده بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو

إليها» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1] (الأنعام: ١٥٣).

ويتبين من هذا أن رسول الله ﷺ فسر هذه الآية تفسيراً واضحًا استعمل فيه أسلوب المعلم حين يقرب على المتعلمين بالرسم التوضيحي ما يريد أن يشرحه لهم، وأن حاصل المعنى في هذه الآية، وهذا التفسير هو أن هناك طريقًا مستقيمًا، واضح الاستقامة، محدد المعالم، لا يكاد يخفى على ذي بصيرة، وذلك هو طريق الإسلام السوي القوي الذي لا اعوجاج فيه، وقد شرعه الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ، وأمر بسلوكه وعدم الانحراف عنه، فطرفه الأدنى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وجادته ووسطه السوي: «فاتبعوه» ونهايته: «الجنة» وقد تشعبت على جانبيه طريق من يمين وشمال، هي طرق الأهواء والنزعات، فمن حاد إلى أي منها ضل وانتهى به إلى «النار» ولا يمكن أن يتوحد الناس إلا إذا ساروا على الجادة، والتزموا الطريق المستقيم، الذي هو طريق الله، وطريق الحق، وطريق العزة لأهل الإيمان، وطريق الخير والبر والرشاد في كل وجه من وجوه العمل والتصرف والسعي، أما إذا اختاروا الطرق الأخرى، فسلك كل منهم طريقًا منها، فإنها تتفرق بهم على سبيل الله الواحد، وتتجه بكل منهم إلى وجهة لا يمكن الالتقاء عليها، ولا التعارف والتعاون فيها.

وبذلك يتضح أن الهدف إذا كان واحداً مشى الجميع إليه صفًا واحداً في طريق واحد مستقيم لاعوج فيه ولا أمت، أما إذا اختلفت الأهداف، فإن المسالك تتعدد، وتعوج، ولذلك علم الله المؤمنين أن يدعوه كلما قرءوا «فاتحة الكتاب» - وهم يقرءونها عدة مرات في كل صلاة من صلواتهم اليومية - بأن يقولوا: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦، ٧)، فالصراط المستقيم هو صراط الحق والرشاد، والذين يتبعونه هم الذين أنعم الله عليهم من بين الناس أجمعين، بنعمة الهداية والتوفيق،

---

(١) الدارمي ك/ المقدمة ب/ في كراهية أخذ الرأي (٢٠٤).

أما الذين يتنكبونه فأما أن يكونوا عارفين بالحقيقة وقد انحرفوا عنها قاصدين، مستكبرين، وهؤلاء هم المغضوب عليهم، وإما أن يكونوا قد انحرفوا عنها جهلاً وعمى وأولئك هم الضالون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

وهذه الآية الكريمة تفيد أن الله تعالى يمنح حبه للواقفين صفًا واحداً كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضًا، ولكن بشرط أن يكون ذلك ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ فيتحدوا على هدف واحد، قبل وقوفهم صفًا واحدًا، فالهدف الواحد هو المراد بقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ والصف الواحد في ذلك البنيان المرصوص المتماسك أشد التماسك، وقد قدم الله الأول، وهو الهدف الموحد، إذا جعله قيداً في الثاني فقال: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾، ولو قال: يقاتلون، دون أن يقول: «في سبيله» لأفاد معنى غير مراد، وهو مجرد القتال في أي سبيل كان، وعلى أي هدف كان، ولا يمكن أن يكون هذا الإطلاق مما يتمشى مع مبادئ الإسلام.

وفي موضع آخر يقرر الله جل شأنه أن القتال في سبل الله له هدف إنساني تضامني هو إنقاذ الضعفاء، وإقامة العدل بإنصاف المظلومين، وإشعارهم بأن لهم أولياء ونصراء في الله، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا شكوراً.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

ويقرر على سبيل الموازنة بين أهداف المؤمنين وأهداف الكافرين من القتال، أن الأولين يقاتلون في سبيل الله ـ وسبيل الله كل فضيلة، وكل عدل وحق، وكل إنصاف وبر ـ أما الذين كفروا فيقاتلون في ـ سبيل الطاغوت ـ والطاغوت كل ميل وجنف، وكل جبروت وظلم، وكل سير مع الأهواء ودوافع الشر والإثم ـ كما يقرر على سبل الموازنة أيضًا، أن المؤمنين قوة لأنهم يقاتلون في سبيل الحق أعداء الحق، أولياء الشيطان، فهم يقاتلون قتالاً مكسوبًا معروف النهاية مضمون النصر، لأنهم

هم الجانب الأقوى بالحق، وبالله، وأعداؤهم هم الجانب الأضعف بالباطل، وبالشيطان.

وذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ (النساء: ٧٦).

وحوادث التاريخ التي مرت بنا معشر العرب والمسلمين تدلنا دلالة داحضة على صدق هذه الحقيقة.

فإنه لما كان العرب في جاهليتهم مختلفي الأهداف، ليس بينهم رابطة جامعة، عاشوا كما تعيش أية جماعة موزعة، فلم يكن لهم في العالم ذكر، وكانوا كما يقول شاعرهم:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

فلما توحد بالإسلام هدفهم، واستل الله بدعوته حفائظ نفوسهم، ودخائل قلوبهم، ورأينا «الخزرجي» من الأنصار، ينسى العداوة التقليدية بينه وبين مواطنه «الأوسى» إذا بهم يقفون صفًا واحداً، ويكونون دولة تملأ الأرض عدلاً، وتملأ الدنيا نظاماً، وتفتح آفاق العلم والنظر والتشريع والفلسفة أمام العقول في مختلف بقاع العالم.

وبذلك كانت الوحدة الكبرى التي لم يعرف التاريخ أكبر منها ثم توزعت الأهداف وأصبحوا غير متفاهمين ولا متلاقين على هدف واحد.

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ومن ثم أخذت قوتهم في الانحلال، فتحاربوا وضرب بعضهم رقاب بعض، وطمع فيهم أعداؤهم، وتمكنوا منهم فمزقوهم شر ممزق.

وهكذا نجد السلسلة التاريخية مكونة من حلقات واحدة طرداً وعكساً: تبدأ بصفاء القلوب، ثم بالتلاقي على الهدف، ثم بالتوحد في صف، فتكون القوة، ويكون العلو في الحياة فإذا انعكس الأمر انعكست النتائج.

ولما كانت أولى هذه الحلقات التي تؤدي إلى وحدة المؤمنين وقوتهم، هي «صفاء

القلوب» فقد حث الإسلام على هذا الصفاء ورغب فيه، وضرب لنا رسول الله ﷺ فيه أروع الأمثال:

فقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «لا يحدثني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا، فاني أحب أن أخرج إليهم سليم الصدر»(١).

وهو القائل: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تنافسوا - يريد التنافس السيء القاطع للمودة المفضى إلي الحسد والبغضاء - ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره - بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يابني أن قدرت على أن تصبح وتمسى ليس في قلبك غش لأحد فافعل»(٢).

وقد قص علينا أنس رضي لله عنه قصة طريفة يذكر فيها أنه كان يجلس في مجلس رسول الله ﷺ مع بعض الأصحاب، فقال ﷺ: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع الرجل من الأنصار - وهو سعد بن مالك رضي الله عنه - فلما كان اليوم الثاني قال النبي ﷺ للجالسين معه هذه العبارة نفسها: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فإذا هو أيضًا سعد بن مالك الأنصاري نفسه فلما كان اليوم الثالث حصل مثل ذلك أيضًا، فلفت هذا أنظار الصحابة واهتم به على وجه عملي واحد منهم هو عبد الله بن عمرو فإنه انتحى بالرجل جانبًا، وذكر له أنه راغب في أن يضيفه ثلاث ليال في بيته - وكان ابن عمر يقصد بذلك أن يبيت عند الرجل ليعرف أمره ويتبين ماذا يفعل من العبادة والتهجد حتى استحق هذه المنزلة، وان يذكرها رسول الله ﷺ لأصحابه ثلاث مرات في ثلاثة أيام متتابعة - فرحب الرجل بابن عمرو ضيفًا عليه، فكان ابن عمرو يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال، فلم يره

---

(١) الترمذي عن عبد الله بن مسعود ك/ المناقب ب/ فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٣١).

(٢) الترمذي عن أنس بن مالك ك/ العلم ب/ ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٠٢).

يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ثم عاد إلى نومه، حتى إذا طلع الفجر قام إلى الصلاة، فجاء في نفس ابن عمرو أن الرجل لا يفعل من العبادة شيئًا كبيرًا، وحينئذ صارحه بما في نفسه، وعرفه بما قال رسول الله ﷺ في شأنه وقال له: عرفني ما الذي بلغ بك هذه المنزلة فأقتدي بك؟ فقال الرجل: ما هو إلا ما رأيت، غير أنني أبيت كل ليلة وليس في قلبي غش لأحد من المسلمين، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه هي التي بلغت بك!

تلك فلسفة الإسلام في الوحدة: صفاء القلوب بين الأخوة، يسهل وصولهم إلى الحقائق والتفافهم حول هدف معين، وبذلك يكونون صفًا واحداً كالبنيان يشد بعضه بعضاً، في سبيل تحقيق هذا الهدف.

فرحة المؤمنين
بانتصار الحق على الباطل

سألني سائل - بمناسبة ما نزل أخيراً ببعض الطغاة المفسدين، والعتاة المستكبرين - قال: هل يجوز للمؤمن أن يفرح بما يصيب الظالم من الانتقام الإلهي، والتأديب الذي يجعله نكالاً لما بين يديه وما خلفه، وهل يعد هذا الفرح من باب الشماتة والتشفي المذمومين؟

فأجبته بما يأتي:

نعم يجوز للمؤمن أن يفرح بما يصيب المفسد، وأن يرى في ذلك شفاء لصدره، وراحة لنفسه.

ويدل على ذلك آيات من القرآن الكريم: منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الإسراء: ٩).

فهاتان الآيتان الكريمتان تقرران أمرين عظيمين في شأن القرآن الكريم، وتأتي بهما في نطاق واحد، لتدل بجمعهما على أنهما وظيفتان متساويتان من وظائف القرآن.

أحدهما: أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم من سنن الحياة والسعي والعمل الصالح، فما من تشريع جاء به إلا كان هو الصراط المستقيم الذي يهتدي من سلكه، ويضل من حاد عنه، وما من خلق أرشد إليه إلا وكان هو السلوك القويم الذي ارتفع به صاحبه إلى مصاف الأخيار، ومنازل الأبرار، وما من قصص قصه على الناس إلا وفيه عبرة لأولي الألباب: ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يوسف: ١١١).

والآخر: أن هذا القرآن يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ببشارتين مرتبطة إحداهما بالأخرى ارتباطًا وثيقًا، هما وعد المحسن بالأجر الكبير، ووعد المسيء

بالعذاب الأليم، فقد أتى الله تعالى بكلمة «يبشر» متعدية إلى وعد المؤمنين بأن لهم أجرًا كبيرًا، ووعيد الكافرين بأن لهم عذابًا أليمًا.

وأن واقع الفطرة الإنسانية ليقتضي الأمرين جميعًا، فإن الإنسان لا يستريح نفسًا ولا ينشط إلى سعي حميد، ولا ينصرف عن خطط السوء والإثم، إلا إذا عرف أن المحسن يجازى بإحسانه إحسانًا، وأن المسيء يجازى بإساءته سوءًا، ولا يكفي أن يعلم تحقق الأول فحسب، لأنه يقول في نفسه: إذا كان المسيء قد يفلت من الحساب، وينجو من العقاب، فما بالي أجهد نفسي، وأحاول أن أكون مثاليًا في جميع أعمالي؟

والقرآن الكريم خير طبيب للقلوب، ولذلك يعلن أن الله تعالى حكم عدل، يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء باساءته، ويجعل كلا م هذا وذاك بشرى يبشر بها المؤمنين لينزع من قلوبهم ما عسى أن يراودها من تصور إفلات المجرم من عدل الله.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تنفي التسوية بين المسلم والمجرم، والمفسد والمصلح: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم: ٣٥، ٣٦)، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١)، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٨).

وإذن فللمؤمن - كما تدل هذه الآيات أن يفرح ويستبشر بما يصيب أهل الفساد من عذاب الله ونقمته، لأن الفرح بذلك هو في واقع الأمر، فرح بانحسار موجات الفساد، وانقشاع غياهب الظلم والبغي في الأرض بغير الحق، وهو أيضًا تجاوب مع سنة الله تعالى في عدم التسوية بين المصلحين والمفسدين، وبين المسلمين والمجرمين.

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١٤).

وهاتان الآيتان الكريمتان أصرح في أفادة المعنى الذي نستدل على مشروعيته، فقد أمر الله المؤمنين بأن يقاتلوا المشركين. فقال: ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ وبين أهداف هذا القتال وثمراته المرجوة، فذكر أنها ستة أهداف يصح قصدها.

أولها: تعذيب الله للكافرين بأيدي المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ وقد جاء التعذيب فيها سندا إلى الله تعالى، على حد قوله في آية أخرى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ (الأنفال: ١٧)، لإفادة أن هذا التعذيب وإن كان بأيدي المؤمنين،إنما هو بقوة الله ونصره وتدبيره وتمكينه، و وأنه في أعلى ما يكون من المشروعية والصحة والجواز، إذ هو مسند إلى الله فاعله الحقيقي، وقد أظهره بأيدي المؤمنين حين أمرهم بقتال المشركين، وجعل من ثمرات هذا القتال تعذيبهم.

الثاني: إيقاع الخزي من الله بهم، بذل القهر والهزيمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ وهو منسوب إلى الله أيضًا، لإفادة ماذكرناه، ولا تجد شيئًا أفعل في نفس المجرم المفسد الطاغي من شعوره بالخزي والندامة بعد الطغيان والعتو والاستكبار: أنه يعيش بعدالهزيمة في خزي وانهيار نفسي يلازمانه، ويحكمان عليه بالانزواء، وتجنب المجتمعات، لكيلا يراه الناس في ثوب ضعفه واستكانته وذله، بعد كبريائه وعلوه.

والخزي - أعاذنا الله وإياكم - هو الإنكسار ووقوف موقف الندامة والحسرة، وقد تردد ذكره في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى فيمن يتجرون بانتسابهم إلى الدين، ويخالفون أحكامه:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٥)، وقوله فيمن تجرأ على بيوت الله فعطل رسالتها وسعى في خرابها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٤)، وقوله في الذين اتخذوا المنكر والكذب والمشاقة

والمجادلة بالباطل ميدانًا لهم: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (النحل: ٢٦، ٢٧)، وقوله في الجاهل الأحمق الذي لاعلم عنده ولا هدى ولا مرجع، وهو مع ذلك يكابر ويجادل في كبر وخيلاء: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الحج: ٨-١٠).

وفي الحديث الشريف: «اللهم احشرنا غير خزايا ولا نادمين» وهو دعاء دعا به جده إبراهيم الخليل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فيما يحكيه عنه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٧-٨٩)، وقد بشر الله رسوله باستجابة دعائه فقال: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

الثالث: نصر المؤمنين على الكافرين، وهي غاية سامية تقصد من القتال والحرب، فالمؤمنون هم الذين يحملون رسالة الحق ويعلنون مبادئ الحرية والعدل والمساواة، ويسلمون وجوههم لله الذي خلقهم وأمدهم ورباهم بنعمته وإحسانه، أما الكافرون فهم الجاحدون لله، المنكرون لنعمته، العابثون في الأرض بالفساد والظلم والبغي، فإذا انتصر المؤمنون فقد انتصرت المبادئ الخيرة الفاضلة التي تسعد بها الإنسانية، وإذا انهزم الكفر فقد انهزم الفساد والعبث والطغيان والاستغلال وكل معنى من المعاني الذي تفسد بها الحياة، ويشقى بها الناس وقد جرت سنة الله في خلقه، بأن ينصر المؤمنين أصحاب المثل والجهاد في سبيله، وأن يقطع دابر

الكافرين مهما أبرق كفرهم، وأرعد فسادهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٦، ١٢٧).

الرابع: شفاء صدور المؤمنين بما يصيب أعداءهم من الهزيمة والكوارث تأديبًا لهم، وعبرة لغيرهم، وهذا الهدف من أهداف القتال هو الذي نستدل به على جواز أن يتشفى المؤمنين بما ينزل من البلاء على أهل البغي والظلم والإفساد، فالله تعالى قد أذن للمؤمنين في أن يستهدفوا هذا الغرض، كما أذن لهم أن يستهدفوا غيره من أغراض القتال التي هي تعذيب المشركين وإخزاؤهم والنصر عليهم وما يأتي بعد ذلك.

وأن فرحة المؤمن بما يصيب الظالم، وشفاء نفسه، إذا رأى القوارع تنزل به، فإنما يرجعان إلى غرض شريف لا ينبغي أن يعد أنانية ولا انتصاراً شخصيًا؛ ذلك بأنه يفرح لغلبة الحق على الباطل، والصلاح على الفساد، ويشتفى مما عسى أن يراوده - كإنسان - حين يرى المبطل الظالم يعيث في الأرض فساداً ويظلم هذا، ويؤذي هذا بغير حق، وهو مع ذلك متسلط متمكن سادر في غوايته، مستكبر على النصيحة، ومستهتر لا يكاد يعبأ بأحد، فإذا احتمل المؤمن الأذى فترة ما، فإنه ربما تسرب إلى قلبه شيء من الحزن، وربما أصاب عزيمته شيء من الوهن، فإذا نزل بالظالم عقاب الله، شفيت القلوب مما أصابها من الحزن، وبرئت العزائم مما راودها من الوهن فهذا هو شفاء الصدور الذي ينعم الله به على المؤمنين، حين يأخذ المفسدين، ولا ينبغي أن ننسى أن الإنسان هو الإنسان، وأن الله تعالى يقول: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)، ويقول: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١١).

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ (التوبة: ١٥)، وهو عرض آخر غير شفاء الصدور، فإن شفاء الصدور كما بينا هو تطهيرها مما عسى أن يكون داخلها وراودها من شك وتزلزل حين يشتد سلطان الطاغي ويتمكن أمره على ظلمه وطغيانه، أما ذهاب غيظ القلوب فهو تخلصها من الحقد النفسي، والألم القلبي الذي كان مكبوتاً، وفيه مصلحة تبعية للظالم نفسه، لأنه بما نزل عليه من العقوبة قد استوفى جزاءه، فتهدأ النفوس بعض الهدوء عنه، وتنصرف عن توقع المكروه له انصرافًا مّا، وكان الناس يقولون: لقد لقي هذا المفسد جزاء إفساده، فنلكتف بهذا، ولنعتبر أن أمره قد انتهى، وليذهب بهذا ما في قلوبنا من غيظ كنا نحتفظ له به.

والواقع أنه لا شيء يطفئ نيران الغيظ على الظالم، إلا حلول العقوبة به، فلا يزال الناس متجهين إلى الرغبة في القصاص، والغيظ إذا تخلف الجزاء، حتى ينال المسيء جزاء إساءته، فحينئذ تقر النفوس، وتهدأ القلوب، ويذهب الغيظ.

الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ (التوبة: ١٥)، وهذا غرض يقصد أيضًا من مقاتلة المفسد، وإبطال سعيه، فقد جرت العادة أن كثيراً من الضعفاء يغترون بأوائل أمر الظلمة والمفسدين، ويؤخذون ببريقهم ولمعانهم، فيميلون إليهم، ويجرون في فلكهم، ويسايرون على أهوائهم، ويلتمسون منهم العلو في الأرض بغير الحق، فإنه لا يسلم من هذا البريق إلا أولو العزم، وأصحاب الهمم العالية، وقليل ما هم، فإذا أصابت الظالم كارثة، وحلت به عقوبة الله، تنبه الذين كانوا قد اغتروا به، وانجذبوا إليه، فربما اتعظوا بمصيره فتاب الله عليهم، وأعطاهم فرصة أخرى بعد أن تعلموا مصير الظالم، وعرفوا معرفة عملية معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود: ١١٣).

ولقد أنبأ الله تعالى أن فريقًا من قوم قارون قد أخذوا بعظمة موكبه وزينته

فتمنوا أن يكونوا مثله، فلما حل به العذاب أدركوا حقيقة الأمر : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٧٦-٨٣) .

عوامل النجاح في الحياة

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: ٥٠).

هل نسير في الحياة وفق خطة مرسومة، ونظام لا نحيد عنه أو الأمر يجري بمحض الصدفة دون قانون ولا نظام مرسوم؟

هذا سؤال كثيراً ما يراود الأذهان، ويشغل الأفكار، ولقد وردت إليَّ في معناه رسائل عدة من شبان ذوي ثقافة ودين، يريدون الكشف عن حقيقة الأمر فيه، حتى يذوقوا لذة المعرفة وتطمئن منهم القلوب الواجفة.

والواقع أن الناس في هذا الأمر مختلفون: فمنهم المتحيرون الذين إذا نظروا إلى واقع الحياة، لم يستطيعوا تفسيراً لمفارقاتها العجيبة كأن يروا الرجل الذكي المرن الجرئ في فعله، الفصيح في لفظه فقيراً معدماً لا يكاد يجد قوت يومه، بينما يجدون الرجل الذي لا يعرف بذكاء ولا علم ولا سعة حيلة، غنياً مرزوقاً تتوارد عليه وجوه المكاسب من حيث لا يحتسب، وتمتلئ خزائنه بالمال الذي يأتيه سهلاً ميسراً دون أي إرهاق أو تعب.

وكذلك يقولون: أننا نرى إنسانا ذا خلق كريم، وتعفف عن الحرام، وترفع عن كل ما يدنس المرؤة، ويخدش الشرف، ومع ذلك نراه بعيداً عن مجالات العمل والتقدم، مغموراً لا يكاد يعرفه أحد، وإذا عرف فإنه في كثير من الأحيان يكون محاطاً بالكيد والتآمر وكل ما من شأنه أن يقلقه ويرهقه ويكد ذهنه، ويفسد عليه الكثير من وجوه نشاطه وعمله، بينما نجد إنساناً آخر يصطنع ألوان النفاق، وأساليب الخداع والكذب والتضليل، ويقارف الحرام مجترئاً عليه غير عابئ بحساب الله، ولا بحساب الضمير، لا بحساب الناس، ومع ذلك نراه يقفز إلى الدرجات سباقاً إليها لا يكاد يتلبث أو يتعثر، ويترك من خلفه العشرات بل المئات من أقرانه ينظرون إليه مذهولين أو متحسرين، وهم العارفون بحقيقة أمره، وأخلاق نفاقه، وأساليب خداعه.

هذه المفارقات التي تحدث في واقع الحياة، هي التي تحير كثيراً من العقول، وربما جرت إلى الانحراف عن جادة العقيدة السليمة، باعتناق الإلحاد والزندقة، وكل ما هو خروج على الدين.

وفي مثل هذا يقول الشاعر مصوراً الحيرة التي تصيب الناس من جراء هذه المفارقات: كم عاقل، عاقل، أعيت مذاهبه

وجاهل، جاهل، تلقاه مرزوقـا!

هذا الذي ترك الأوهام حائــــرة

وصير العالم النحرير زنديقـــا

ويحاول آخرون أن يحلّوا هذا الإشكال فيقولون:

ان الرزق مقسوم، وأنه يجري بأمر الله، ولا يتبع ذكاء ولا غباء، ولا صلاحًا ولا فسادًا، فمن شاء الله أغناه، ومن شاء أفقره، ومن شاء رفعه، ومن شاء خفضه ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

وقانون المشيئة في هذا هو قانون المشيئة في كل شيء، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** ﴾ (القصص: ٦٨)، ويقول: ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا** ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠).

والله تعالى قد يخلق أخوين أو أختين من أب واحد وأم واحدة، ومع ذلك نرى أحدهما جميلاً يروع الأبصار جماله، وترى الآخر دميمًا تنبو عنه العيون، وتنفر منه الأذواق، فما الذي جعل كلاً منهما على ما هو عليه من صفات الجمال والحسن، أو الدمامة والقبح؟ ليس لهذا تفسير إلا أنها مشيئة الله.

ومثل هذا يقال فيمن يجود الله عليهم بالذكاء والفطنة، ومن يحرمون منهما فلا ينالون إلا الغباء والبلادة، فبأي قانون استحق كل منهما ما صار إليه، إلا قانون المشيئة الإلهية التي لا قيد عليها؟

ومن هنا يركنون إلى حل الأشكال عن طريق الإيمان بقانون المشيئة. ويقولون: هكذا أراد الله ولا راد لمشيئته.

وفي هذا يقول الشاعر، معبراً عما يجب من التسليم والإذعان وعدم التجرؤ على السؤال عن الأسباب :

ملك الملوك إذا وهب   لا تسألن عن السبب
الله يعطي من يشـا   فقف على حد الأدب

ويتلخص من هذا أن الناس فريقان :

فريق يسلمه التفكير إلى الحيرة والإلحاح في السؤال عن السبب .

وفريق يسلمه التفكير إلى الإيمان والتسليم، والوقوف عند حد الأدب .

ولكن : هل حلت المشكلة بهذا أو ذاك؟

ينبغي أن يكون هناك تفكير على نحو آخر كي تحل هذه المشكلة العويصة، على أساس يرضي العقول، ويبعث الاطمئنان إلى القلوب، إن المفكرين ليس من عادتهم أن يقبلوا أمراً ما،على سنة التسليم والإذعان، دون معرفة الأسباب والتعمق في الأصول .

والمؤمنون قد يحتاجون مع إيمانهم إلى منزلة اطمئنان القلوب كما حدث لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فيما حدثنا عنه القرآن : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

والمفكر الذين يطلب معرفة الحقيقة وسرها دون تعسف ولا شطط، هو كالمؤمن الذي يطلب درجة الأطمئنان في إيمانه، كلاهما إذا حسنت النية مقبول عند الله معان منه، لابد أن يصل بفضل الله إلى تحقيق مطلبه، وأما الذي يفسد العقائد، ويثير الشكوك هو سوء النية، وابتغاء الفتنة، والله تعالى يقول ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (آل عمران : ٧) .

ومنزلة الاطمئنان، أو منزلة التفكير للعرفان، في هذه المشكلة، يمكن الوصول إليها بملاحظة ما يأتي :

١ ـ كل ما خلقه الله تعالى قائم على سنن وقوانين شرعها الله له، وجعلها نظامه

الذي لا محيص عنه، ولا خروج على حدوده، يستوي في هذا عالم الإنسان، وعالم الحيوان الأعجم، والنبات، وعالم الجماد، وعالم الكواكب ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩).

وأظهر مثال لذلك هو الكائنات التي تشهدها، كالكواكب التي تسبح في الفضاء على قانون الجاذبية فيما بين بعضها وبعض، وعلى القوانين الخاصة بكل كوكب منها، وعلى مقتضيات حركاتها، كالليل والنهار اللذين يتبادلان كوكب الأرض نتيجة لدورانه حول الشمس، والصيف والشتاء وباقي الفصول السنوية التي تكون من حركة معينة للشمس إلى غير ذلك.

فكل هذا على أساس قانون لا يمكن لهذه الكائنات أن تحيد عنه ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠).

وهذا القانون المطرد الذي نراه في الشمس والكواكب الاخرى، ظاهر لنا لا يختلف فيه اثنان، ولا يمكن أن يشك عاقل في أنه قانون عظيم منضبط، وانه دال على عظمة الله تعالى ودقة صنعه وسعة علمه ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٣٨).

ولكننا إذا فرضنا أن حرارة الشمس مثلاً أفادت آلاف الفوائد التي لابد منها لنظام الحياة، والتي لا يمكن للبشر ولا لغير البشر من الكائنات الحية أو غير الحية، أن تستغني عنها، فلابد أن نفرض مع ذلك أن لهذه الحرارة مع تلك الفوائد الكثيرة غوائل وأضراراً تصيب كثيراً من الكائنات الحية، أو غير الحية، فتسئ إليها أو تقضي عليها.

وقد علم الله الإنسان كيف ينتفع بما للشمس من منافع، ويدرأ عن نفسه وعن كل ما يهمه أمره جوانب الضرر منها، وبذلك أصبحت الشمس نعمة، وعلم الله الإنسان كيف ينتفع بهذه النعمة، وكيف يتقي ما عسى أن يكون لها من مضار.

وإنما مثل هذا كمثل النار: هي في حقيقتها قوة إهلاك وتدمير، ولكن لها جوانب أخرى فيها نفع وصلاح، فإذا استفيد من جوانب النفع، وأخذت الحيطة

لجوانب الضرر والدمار كانت صلاحًا ونفعًا محضًا وأمن شرها.

ولا يقال: كان من الممكن أن تخلق الشمس على وضع تكون به منافع صرفة لا ضرر بجانبها، لأن هذه «الحالة» للموضوع - كما يقولون - فالفرض أن الشمس هي الشمس، ولو لم تكن هكذا ما كانت هي الشمس، ولكانت حقيقة أخرى غير حقيقتها التي هي عليها.

وإنما الحكمة هي أن توجد الشمس كما هي، وأن يعلم الإنسان كيف يسخر منافعها، ويدرأ مضارها، وتخلق له الإمكانيات العقلية والمادية التي تعينه على ذلك، والفرض أن الإنسان يظل ما بقي على هذا الكوكب يطلع من ذلك بجديد بعد جديد، استكمالاً لعلمه، ومتابعة لخطوات تقدمه، وجريًا على مقتضيات طبيعته التي خلقه الله عليها من أنه مخلوق طبعه يستنبط المجهولات من المعلومات، ويلاحظ القوانين الكونية فينتفع بها، ويصل منها كل حين إلى جديد يعرفه ويستفيد منه للوصول إلى جديد آخر - وهكذا.

وهذه هي طبيعة الحياة، وسنة الكون، وقانون استخلاف الإنسان في الأرض، وتسخير كل شيء له، وطبعه على المواهب والقوى والاستعدادات التي تمكنه من الانتفاع بهذا التسخير، وتطبيقه على خير وجه.

وإذا كان الإنسان لابد أن تمر به أحقاب بعد أحقاب لكي يصل إلى الذروة من هذا، فإن ذلك أيضًا هو سنة من سنن الله التي طبع عليها العالم، وهي سنة التدرج والتنقل من علم إلى علم، ومن عصر إلى عصر، ومن درجة في التمكين إلى درجة، ومن أسلوب المعيشة إلى أسلوب .. وهكذا ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ** ﴾ (الأعراف: ١٠).

ولو أن الناس أهملوا في الانتفاع بهذا التسخير، وتطاولت عليهم عصور من هذا الإهمال، وتبعها الجهل بحقائق الكون، والحرمان من الانتفاع بها، ماكان هذا عيبًا في الكون نفسه، أو قصورًا في خلقه وإبداعه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وقد يكون هذا تقصيرًا وإهمالاً من الإنسان لابد له من أن يتحمل نتائجه، ويذوق وبال أمره، ولو شاء الله لكشف ذلك كله للناس دفعة واحدة، ولكن المسألة حينئذ

لا تكون استخلافًا للإنسان بوصفه إنساناً ، والغرض أنه إنسان يعلم أشياء ويجهل أشياء وعليه أن يستوفى جهات العلم كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأنه قد خول ومكن، ووضع في الوقت نفسه موضع الاختبار والابتلاء والحساب.

وإذن فالحكمة التامة، والعدل التام هو فيما كان.

٢ ـ فإذا انتقلنا إلى قانون المشيئة في الاختيار والخلق، فإننا نجد المشيئة الإلهية حرة حقًا، لا يتصور أي قيد عليها، وهذا هو الشأن في خلق الإله، ولو كان الإله يقيد بأي قيد لما كان إلهًا.

غير أن المشيئة تتقيد بالحكمة، والرحمة وبالعدل، وبكل الصفات الأخرى التي هي لله تعالى، فليس الإله هو الذات صاحبة المشيئة الحرة فقط، ولكن هو الذات صاحبة المشيئة الحرة، وصاحبة الحكمة، وصاحبة الرحمة، وصاحبة العدل.. وهكذا، ولابد لهذه الصفات كلها من أن يرتبط بعضها ببعض، فإذا تصورنا مشيئته، فيجب ألا نتصورهما إلا مقرونة بحكمته، وإذا تصورنا مشيئته المقرونة بحكمته، فيجب ألا نتصورهما منقطعتين منفردتين عن رحمته... وهكذا، وإذن فالصفات الإلهية ممتزجة ـ إذا ساغ هذا التعبير الذي نذكره للتقريب والتوضيح ليس إلا.

فإذا قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى: ٤٩)، فينبغي ألا نفهم أن قانون المشيئة هذا هو قانون تحكمي أو مصادفي، بل يجب أن نفهم أن حكمته وعدالته ورحمته .. إلخ بجانب مشيئته، وأن المشيئة لم تكن وحدها، وإنما كانت مستمدة ـ إذا ساغ هذا التعبير التقريبي أيضًا ـ من ينابيع إلهية أخرى هي صفاته الأخرى.

فإذا وصلنا إلى هذه النقطة، آمنا بأن قانون المشيئة ليس قانونًا تحكميًا ولا مصادفيًا، وإنما هو قانون مرتبط بالحكمة والمصلحة والرحمة والعدل.

ثم نحاول بعد ذلك أن ندرك سر الحكمة فيما فعل بمقتضى قانون المشيئة، فإذا أدركناه فذاك، وإلا أتهمنا أنفسنا بأننا لم نصل بعد ذلك إلى إدراك السر، وأن علينا أن نجتهد فلعلنا ندركه فيما بعد، وفائدة هذا أن تستقر قلوبنا على الإيمان بما

علمنا وبما لم نعلم، فنستريح ونبتعد عما يزلزل العقيدة في الله جل علاه.

ـ وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً لما يصادفنا من العجائب التي تحير أرباب التفكير الظاهري المألوف، بينما هي مفسرة في واقع الأمر أي في عالم الحقيقة، وذلك بما قصه علينا من قصة موسى والعبد الصالح، ففي هذه القصة أمور لم يدركها موسى عليه السلام، وهو نبي ورسول كريم، فجعل يعترض عليها، ويتساءل عن سر الفعل فيها، حتى إذا حان موعد الافتراق بينهما، أنبأه العبد الصالح بما لم يستطع عليه صبراً، فعلم سر خرقه السفينة، وقتله الغلام، وإقامته الجدار الذي كان قد أوشك على الانقضاض.

وثمرة هذه القصة والعبرة منها، أن المؤمن يقول وهو مطمئن القلب: أن هناك أموراً أدرك سرها، وأموراً لا أُدرك سرها، وما دمت مؤمناً بأن المشيئة الإلهية لا تسير إلا على وفق الحكمة والرحمة وجميع صفات الكمال، فأنا واثق بها، مطمئن إليها، متأكد من أنها تحقق المصالح في هذا الكون أعظم التحقيق، وإن لم أعلم وجوه هذا التحقيق.

٣ ـ فإذا رجعنا إلى المفارقات التي وضعنا بعضها في عرضنا للمشكلة، والتي تكون عادة سبباً في حيرة بعض العقول، واضطراب بعض الأفكار، فإننا نستطيع ـ من حيث المبدأ ـ أن نعود إلى قصة موسى والعبدالصالح، ولكي نقرب الأمر فنقول: أن ما نراه في هذه المفارقات إنما هو بعض المظاهر، وهناك أسباب خفية في الحقيقة هي التي أدت إلى ما يحدث مما نعجب له، ولا نعرف تفسيره، فإذا أحطنا بالأسباب كلها بطل عجبنا وعلمنا حينئذ أن ما يحدث إنما يحدث بأسباب منطقية لا غرابة فيها، ولا ينبغي أن يظن أنه مفارقات، وأمكننا أن نؤمن بأن قانون الحياة بالنسبة للأفراد والمجتمعات والأمم، هو أيضاً يجري في إطراد كما يجري قانون الأشياء والكواكب، وأن نقول لأنفسنا: أن لعالم الكواكب قانوناً، ولعالم النبات قانوناً، ولعالم الجماد قانوناً، وكل هذه القوانين ثابتة مطردة لا تتبدل ولا تتحول ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الأحزاب: ٦٢)، ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر: ٤٣)، فلا يعقل أن يكون عالم الإنسان فقط ـ فرداً كان أو أمة ـ هو الذي

يجري على سبيل المصادفة المحضة، أو على سبيل المشيئة التحكمية التي لا ترتبط بأي قيد وهذا هو ما يفصح عنه القرآن الكريم بالنسبة للأفراد والأمم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (الجاثية: ١٥)، ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ (النجم: ٣٨-٤١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣)، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (الأعراف: ٣٤)، وأجل الأمم هو وصول الأمر فيها إلى نهاية الذروة في تجمع الأسباب المؤدية إلى الانهيار والفناء، كما أن أجل الأفراد هو وصولهم إلى نهاية الذروة في فساد ما به تكون الحياة ويكون امتدادها وسلامة أصحابها وكل ذلك في الظروف المعتادة، أما الظروف المفاجئة فلها أسباب أخرى لا ترجع دائماً إلى قاعدة الفساد والانحلال كما هو معروف.

وينبغي أن يفهم أننا لا نقصد بضرب المثل في قصة موسى والعبد الصالح هنا أن نقول للناس: أن السنن في عالم الباطن هي التي تتعامل على مصائر الأفراد والأمم، ولكننا أوردنا ذلك للتقريب والحقيقة أن الأمر فيه شيء ما، قد يبدو في الظاهر عجيبًا لأننا تعودنا ألا نأخذ إلا الطرف الظاهر لنا، أو القريب منا، ولو أننا أنعمنا النظر في كل الظروف والأحوال التي عاش فيها فرد من الأفراد مثلاً، أو أمة من الأمم، ودرسنا هذه الظروف، وهذه الأسباب في تتبع وإحاطة وتعمق، لتبين لنا أن القانون لم يضطرب، وأن الميزان لم يختل، وأن قانون الأسباب والسنن التي هيأ الله عليها العالم الكوني، هو قانون الأسباب والسنن التي هيأ الله عليها عالم الإنسان وجعلها سارية عليه.

٤ - ثم أن النجاح في الحياة، أواستقامة الأحوال قد يكون في كثير من الأحيان أمراً ظاهريًا لا أساس له من الواقع، وإنما مثله كمثل الأشياء التي نراها على غير حقيقتها فيما نسميه بخداع النظر، حيث نرى الشيء ساكنًا وهو متحرك، أو لونًا واحداً هو عدة ألوان، فربما رأينا أيضًا شخصا نظنه سعيداً في حياته لما نراه من

مظاهر هذه السعادة بينما هو شقي أعظم الشقاء، ولهذا الشقاء المستتر سر في حياته قد نعلمه أو لا نعلمه.

كما أن بعض النجاح قد يكون مؤقتًا إذا كان قائمًا على غير أساس، وإنما مثله كالفقاقيع التي تطفو على سطح الماء ولا تلبث أن تزول، وهذه سنة الله في الزبد الذي لا بقاء له بجانب ما ينفع الناس ويستقر ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ (الرعد: ١٧).

ومثل هذا يقال فيما إذا وجدنا صعوبات ومشاق تقابل العاملين الصادقين، فإن هذا هو شأن الحياة وليست الحياة بسطًا مفروشًا بالزهور والرياحين، ولكن النهاية السعيدة فيها دائمًا للصابرين المكافحين.

﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ (الكهف: ٣٠)، ولو كان من سنة الله أن يمنح النصر والفوز والفلاح بمجرد قانون المشيئة لمنحه لرسله وأنبيائه وأوليائه، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ ولكن سنته قد جرت بالابتلاء والدفع والمجاهدة والمصابرة والمرابطة لتكون النهاية فوزًا مبينًا له قيمته ولذته، وفي ذلك يقول القرآن الكريم للذين آمنوا: ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)، فيطالب المؤمنين بتحقيق أسباب الفلاح الأربعة، التي هي الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، مبينًا أنها هي السبيل المرجو للفلاح المنشود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل؟

التوكل على الله
بين النظرية والتطبيق

إن التوكل على الله ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، والثقة التامة بالإله الواحد الذي لا شريك له في ملكه، ولا تدبير فوق تدبيره وهو أرحم الراحمين بعباده.

ومن وصل إلى مرتبة التوكل الصحيح على الله فقد وصل إلى منزلة الأمن والرضى وسكون النفس، وعاش هادئ الأعصاب مطمئن القلب لا يتزلزل لشيء في الحياة.

ولكن: ما هو التوكل الصحيح؟

إذا أردنا أن نجيب على هذا السؤال، فلنرجع أولاً إلى القرآن الكريم، فإننا نجد أن الله تعالى قد جمع بين الإيمان والتوكل حيث يقول:

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا به وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (الملك: ٢٩).

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١).

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

فنعلم من ذلك أن التوكل والإيمان قرينان لا يفترقان، لأن المؤمن يعلم حق العلم أن الله تعالى هو المالك لكل شيء، المسيطر بأمره على كل شيء يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه فإذا امتلأ قلبه بذلك وثق بربه، وجعل اتجاهه كله إليه.

وهذه الثقة هي التي قص علينا القرآن الكريم نبأها عن النبي ﷺ وأصحابه، إذ علموا بما جمعه لهم أهل الباطل من عدة وعدد، ليقضوا عليهم، فلم يتزلزلوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا

﴿ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧١-١٧٥).

وهذه الثقة هي التي حدثنا بها القرآن الكريم أيضًا عن أم موسى، إذ يقول:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧).

فإن فعلها ما أمرها الله به، هو عن الثقة بوعده تعالى، ولولا ثقتها بربها لما ألقت بولدها، وفلذة كبدها، في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، دون أن تعرف مصيره.

وهذه الثقة أيضًا هي التي تجلت فيما دار بين إبراهيم الخليل وجبريل، عليهما السلام، حين قال جبريل لإبراهيم وهو في طريقه إلى النار التي أعدها له أعداء الله: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، وأما إلى الله فلي، قال جبريل: فسله حاجتك، قال إبراهيم: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي.

ثم نجد القرآن الكريم يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والتقوى، وذلك حيث يقول الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (المزمل: ٨، ٩).

وحيث يقول له أيضًا:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود: ١٢٣).

وحيث يقول له:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الأحزاب: ١-٣).

وحيث يقول للناس جميعًا قولاً حقًا، هو بمثابة قانون لا يختل، وسنة لا تتبدل:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

ثم تجد القرآن الكريم يجمع بين التوكل والهداية في مثل قول الرسل لأقوامهم:

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: ١٢).

وقوله لنبيه ﷺ:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (النمل: ٧٩).

فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب على هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له، مستدع لثبوته، وهو قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ فإن كون العبد على الحق يقتضي التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد؛ لأن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكاف من يقوم به، فما الذي يدعو صاحبه إلى ألا يتوكل على الله؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (الزمر: ٣٦).

وذلك كما قال الرسل لأقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ فعجبوا ممن يزين لهم ترك التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق، لعلمه بالحق، وعمله به، وثقته بأن الله ولي الحق وناصره؛ لا يجد بداً من توكله على الله، وسكونه إليه، وطمأنينته به، ورضاه بتصرفه، أما صاحب الباطل علماً أو عملاً؛ فإنه لا يمكن أن يكون مطمئناً إلى ربه؛ فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل، ولا ينسب إليه المبطلون، فهو الحق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، فمن لم يكن له تعلق بالحق لم يكن له تعلق بالله، ولا يمكن أن يكون متوكلاً عليه.

إذا ثبت هذا علمنا أن التوكل ليس موقفاً سلبياً يقتضى الإهمال وترك الأعمال، ولو كان كذلك ما قرنه الله تعالى بالعمل الموصول إلى رضى الله، من عبادته وسلوك سبيل هدايته، والتجرد بتقواه عن ملابسة الذنوب والآثام، وملابسة الباطل في أي لون من ألوانه.

إن موقف «السلبية» و«الانعزالية» والانكماش عن التجاوب مع الحياة في نطاق

ما أمر الله به، ونهى عنه، ورعاية ما أباحه وما حرمه، إنما هو موقف (التواكل) والتراخي والفرار من مسئوليات الحياة.

إن الله تعالى خلق النوع الإنساني، واستخلفه في الأرض، ليعمرها ويثيرها، وسخر له كل شيء ليسلط عليه عقله وعلمه وجوارحه، وينتفع به في نفسه؛ وينفع به غيره.

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر ظنوا فيه أن الله تعالى لم يأمرهم باعتناق مبدأ (التوكل) إلا نظريًا، دون أن يأخذوا بالأسباب والسنن التي هيأها الله تعالى؛ مع أن الذي أمرهم بالسعي والعمل هو الذي أمرهم بالتوكل؛ فهو يقول لهم: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦)، ويقول لهم مع ذلك: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، فإعداد القوة سبب من أسباب النصر العملية، أمر الله به، وهو مقتضى الحرث والزرع وإنشاء المصانع والمعامل وتهيئة جميع وسائل القوة والمنعة، وإلى جانب ذلك إعداد القوة الروحية بالتوكل على الله، والثقة بنصره، والرجاء في توفيقه، وإن وراء الأسباب المادية أسباب أخرى خفية هي في علم الله وقدرته؛ فنحن بحاجة إلى رجائه في أن يهيئها لنا بتوفيقه ورحمته وخفي لطفه.

ولقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه:

«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمرى إليك»[١].

ويقول مع ذلك لأصحابه وللمؤمنين:

«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[٢].

وقد كان عليه الصلاة والسلام - وهو سيد المتوكلين - يعمل مع أصحابه، ويعد العدة لغزوه، ويحمل الزاد والمزاد في أسفاره، ويتداوى، ويصف الدواء.

فمن ظن أن التوكل ينافي اتخاذ الأسباب؛ فقد ظن عجزًا، ومن ظن أن التوكل هو (غيبوبة) سهلة عن الأعمال والمسئوليات فإنه قد غاب عنه معنى التوكل.

---

(١) البخاري عن البراء بن عازب ك/ الدعوات ب/ إذا بات طاهراً وفضله (٥٨٣٦).

(٢) الترمذي عن علي ك/ القدر ب/ ما جاء في الشقاء والسعادة (٢٠٦٢).

السماحة هي سر السعادة

استخلف الله آدم وبنيه في الأرض، ليحقق ما أراده جل جلاله من عمارتها وإثارتها، واستنباط ما فيها، واستكشاف كنوزها، وتفجير مائها، واستنبات بذورها وأشجارها، ودراسة الآفاق التي تحيط بها، والانتفاع بالسنن الكونية فيها وفي غيرها، حتى يبلغ الكتاب أجله، و﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ (الرعد: ٣٨).

ومن شأن هذا كله أن يرى البشر في كل يوم جديداً، وأن يعلموا في كل حين علماً، وأن تتجلى لهم - مما يرون ومما يعلمون - تلك الحقيقة الكبرى الأزلية الأبدية، وهي وجود الإله الحق الصالح القادر العليم الحكيم ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ (فصلت: ٥٣).

وقد طُبع الإنسان على صفات وسجايا خلقية تتفق وما أريد له، وما أريد منه، وكان من أبرز ذلك أنه مخلوق لا يستغني بنفسه، ولا يمكنه أن يتخلى عن ملابسة ما هو ميسر له، ولا أن يميت في نفسه نوازع الرغبة فيما زين له، من حب المال والبنين والشهوات والجاه والمناصب ونحو ذلك فإن هذه الغرائز هي التي تبعثه إلى أن يشق الأرض شقاً، ويجوب أقطارها ووديانها وجبالها وبحارها، ثم يتطلع إلى ما فوقها من فضاء، وما بعد فضائها من كواكب وأفلاك.

لا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن ملابسة ذلك في صورة من الصور، أو طرف من الأطراف، ولو كان من أهل الزهادة ومن غلب عليهم التصوف، غير أن الناس في ذلك صنفان:

صنف يسلك سبيله إلى هذه الوجوه من ضروريات الحياة أو كمالياتها على نحو من البهيمية والإغراق في المادية، والحرص على استيفاء كل عنصر من العناصر التي تتطلبها الشهوة أو الرغبة دون اكتراث بأي معنى من المعاني السامية، فتراه يسعى إلى تحقيق ما يريد بكل وسيلة، ويسلك إليه من أي سبيل، ويحطم في سبيله كل ما يعترضه، ولا يعنيه إلا أن يصل إلى مبتغاه، فإذا فاته شيء - ولو كان

يسيراً - من آماله وما رسم لنفسه؛ غضب لذلك غضبًا شديدًا، وظل يعالج من الوجد والحزن والشعور بالشقاء والحرمان ما هو كفيل بتنغيص حياته وزلزلة صرح سعادته.

وصنف يأخذ سبيله إلى هذه الوجوه هونًا في غير تكالب ولا إغراق ولا نسيان لأشرف جانبي الإنسان: روحه التي كان بها شبيهًا بعالم الملائكة، فتراه ينظر إلى الآمال والرغائب نظرة قاصدة، فلا يجعلها هي الحياة كل الحياة، ولا يحسب فوتها الموت أو شراً من الموت، ولذلك يملكها ولا تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويرضاها ما رضيته، فإذا أعطاه شيء منها لم يكن به ضنينًا، ولا على استبقائه حريصًا،ذلك أنه لم يتشبث به على أنه بضعة من حياته، أو عنصر من مقوماته، ولكنه أخذه أخذ العوارى التي لا يلبث أصحابها أن يستردوها، وهل من الرأي والعقل أن يحزن المرء أو يجد مرارة اللوعة إذا استرد منه ما استعار إلى أجل محدود؟

هذان الصنفان على طرفي نقيض، وبينهما أوساط ودرجات، وأساسهما «السماحة» وضدها وإن اختلفت الأسماء في مواطن الأخلاق والأفعال فإن كان ذلك في المال سمى سخاوة أو شحًا، وإن كان في الشهوات سميَ عفة أو شرهًا، وإن كان في مواطن الاحتمال والمفاضلة، سميَ صبراً أو هلعًا، وإن كان في مجال الطاعة أو العصيان سمى تقى أو فجوراً.. وهكذا.

فما الجود بالمال إلا تصوير صادق لحالة نفسية في صاحبه نعلم منه أن المال لم يمتزج بروحه امتزاج شيئين اختلطا وتركبا حتى يصعب انفصال احدهما عن الآخر، ولكنهما اتصلا، ويسهل أن ينفصلا، فانفصالهما بيسر هو السماحة.

وصاحب الشهوة الذي ينصرف عنها التماسًا لكمال نفسه،أو احترامًا لبيئته ومجتمعه، أو نزولاً على أمر ربه، إنما صدر في ذلك كله عن ملكة السماحة، لأنه سمح بما يملك أن يمسك به ولا ينزل عنه.

وما الصبر إلا علامة على أن ما فاتك من الخير، أو أصابك من الشر؛ لم يخرج عن نطاق ما تستطيعه، وتسمح به.

وقل مثل هذا في أضداد هذه الأمور: فالشح لا يصدر إلا عن نفس كنزة

استعبدها المال، فهي لا تملكه حتى تسمح به، والاستجابة إلى الشهوات، والنزوات عبودية لها، والهلع والجزع أمارة على أن مافاتك أو أصابك كان له في حسابك قيمة أغلى من نفسك ومن صفو عيشك، فأنت تسمح بنفسك ولا تسمح به، وتذهب في شأنه مذهب ذلك الشاعر الذي يقول:

ودعته وبودي لو يودعني   صفو الحياة وأني لا أودعه!

وفي القرآن الكريم ما يدلنا على أن الأصل في الإنسان، هو النزوع إلى ماركب فيه من حب المال والشهوات، وأن الله جعل لمن يقاوم ذلك من نفسه ثوابًا عظيمًا، فهو جل جلاله يريد منا أن نتعود «السماحة» فننزل راضين عما تدعونا إليه النفوس لنكسب رضاه ونفوز بثوابه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ⑭ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ١٤، ١٥).

والذين ﴿اتَّقَوْا﴾ هم أولئك الذين سمحوا بتضحية ما زين لهم من المتاع في سبيل رضى ربهم، فلم يجعلوا شيئًا من ذلك مؤثرًا على الله، وأحب إليهم من الله.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف: ٤٦).

فالله تعالى يقرر حقيقة إنسانية طبيعية، هي أن المال والبنين فيما طبع عليه

الإنسان وركز في خلقه، زينة الحياة الدنيا،، ولا ينكر على الإنسان ذلك، ولكن يرشده إلى أن ينظر إليها نظرة مقترنة بالسماحة، وأن يتطلع إلى جانبها تطلعًا لا ينسيه جانب الباقيات الصالحات التي هي خير عند الله، أي في دار جزائه، بل هي خير عنده حتى في الدار الدنيا، لأنها هي عنوان: «السماحة» التي تهدى إلى البر، وتجزى بالحب.

وفي الحديث الشريف:

«رحم الله أمرأ سمحًا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى»[1].

وحسبنا في التعريف بقدر السماحة أن رسول الله ﷺ حين أراد أن يصف الشريعة الخالدة التي جاء بها من عند ربه؛ وصفها بوصف جامع مشتق من السماحة فقال: «بعثت بالحنيفية السمحة».

(١) البخاري عن جابر بن عبد الله ك / البيوع ب / السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن... (١٩٣٤).

العالم
من يعرف للعلم حقه

ثلاث كلمات من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه وقفت عندهن متأملاً وأنا في بعض مطالعاتي:

إحداهن قوله:

«ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ».

وهذه الكلمة تدل على شرف العلم في نفس هذا الإمام القرشي الجليل، وعلى حسن إدراكه لرسالة العالم.

فهو يقرر أن من واجب العالم أن ينسى نفسه أمام جلال العلم، وعظمة الحق، فإذا ناظر لم يكن هدفه من المناظر أن يهزم مناظره، وأن يظهره في مظهر المخطئ المتلجلج ليكون هو وحده الظافر المنتصر.

وهذا القول يرسم لنا أدبًا رفيعًا يجب أن يتحلى به أهل العلم، ولكننا نرى كثيراً منهم بمعزل عنه، فإذا تناظر اثنان كان هم كل منهما وأعظم ما يتمناه، أن يرتطم صاحبه في الخطأ، حتى يهوى أمام جمهور الناس من عليائه، وحتى يبقى السمو والشموخ لصاحبه.

أن هناك فرقًا بين «متناظرين» و«متناطحين»: فالمتناظران متساويان في تطلب الحق والإخلاص له، والغرض أن كلاً منهما نظير لصاحبه في هذا المعنى، وهذا موقف سام، ومطلب شرف، فإذا حدثت أحدهما نفسه بأن يشوه جمال هذا الموقف، وشرف هذا المطلب، بتذكره لنفسه، وتطلبه لحظ من حظوظها المادية الشهوية، فقد سقط في الواقع عن هذه المنزلة، ولم يعد نظيراً أو مناظراً شريفًا.

أما المتناطحان فهما كبشان أو ثوران هاجت في كل منهما طبيعته الحيوانية، وتمحض نضالهما للتحطيم والقهر، ولا يمكن أن يتصور منهما غير ذلك، فهذا هو شأن البهيمية التي رفع الله الإنسان بالعقل والروح عن مستواها.

والإمام الشافعي رضي الله عنه عرف منزلة الحق، وشرف العلم، فطلب الحق لقيمته الذاتية، ولم يشغل نفسه بغير هذا الطلب الأسنى، وتخلق للعلم بما يناسب شرفه، فارتفع عن تمني الخذلان لمناظره.

فأين هذا من الذين ينصبون الآن شراكهم وأحابيلهم ليقع فيها مناظروهم، ثم يصيحوا عليهم مهرجين نافخين أوداجهم كما تفعل الديكة بعد جولة من جولات نضالها الحيواني .

إننا نرى هذا أحيانا في الصحف والمجلات، وأحيانا في النوادي والمجتمعات، بل نرى من يأخذون على أنفسهم أن يتتبعوا إنسانا بعينه في أي قول يقوله، أو مقال يكتبه، فيلتمسوا ما استطاعوا وجوه تزييفه وأبطاله إرضاء لحقد في نفوسهم كامن، أو غرور غير متطامن، وقد يقع أحدهم من جراء هذا الخلق في ورطات من التناقض أو الإسفاف أو الخطأ، ولكنه مع ذلك لا يبالي.

فإذا كان العلماء هكذا، فعلى العلم العفاء. وثاني ما استوقفني من كلام الإمام الشافعي قوله:

«ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قط، وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه» .

وهذا القول ينبئ عن خلقين شريفين:

أحدهما: في شأن المناظر، حيث يسويه بنفسه ويحب له ما يحب لها، والآخر في شأن الحقيقة ذاتها، حيث يتطلبها من أي أفق ظهرت، لا يبالي أن يكون هو الذي أظهرها وجلاها، أو أن يكون صاحبه هو الذي فاز بالفضل في ذلك.

وكلا الخلقين مع هذا يدل على أدب مع الله عز وجل، إذ يبين أن صاحبه متوجه إلى الله في حق مناظره بما هو متوجه إليه في حق نفسه، وأنه راض بما يقسم الله بينهما من ظهور الحق على لسان أيهما شاء.

والأمور الأربعة التي أنبأ الشافعي رضي الله عنه أنه يحبها لمناظره، هي أركان النجاح الضرورية لأي باحث:

فالتوفيق هو مصادفة الحق ومطابقته، وهو أمنية كل باحث، وليس للعالم المخلص هدف أعز منه، والعالم الخبير بمسالك العلم ومداخله ومخارجه، يعرف أن التوفيق ثمرة من ثمرات الإخلاص وأنه هبة من الله تعالى يهبها للمخلصين جزاء وفاقًا، وليس بالأمر الذي نلتمس له الحيل، وينال بالتكلف والتعمل، وما كانت هذه بنظرة تصوف - كما قد يبدو لبعض القراء - ولكنها ثمرة تجربة يعرفها كل من اشتغل بالعلم وتصدى للبحث، فقد يجد الإنسان نفسه ذات يوم عاجزاً عن متابعة البحث والنظر في فكرة ما، ويجد أن أمرها ثقيل على نفسه، ثقيل على فكره ثقيل على قلمه وأسلوبه، فيعلم أنه غير موفق لها الآن، ثم لعله يرى نفسه بعد ذلك قد انبعثت إلى هذه الفكرة تخريجًا وتفصيلاً، فانثالت عليه المعاني في شأنها، وجري قلمه رطباً بها، وكأنما يمليها عليه مملٍ وأن لم يكن يراه أو يسمعه.

فما سبب ذلك؟

أن سببه هو مصادفته لنفحة من نفحات رحمة الله، وفترة من فترات التوفيق الذي لا يكون إلا بالله.

فالإمام الشافعي رضي الله عنه يحب لمناظره هذا الظفر الإيجابي، بأن يصادفه التوفيق، كما يحب ذلك لنفسه، ويكره له أن يغلق ويحجب ويبعد، كما يكره ذلك لنفسه، وهذا هو شأن المؤمن: «يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها».

أما السداد في هذا المقام فهو استقامة المنهج والخطة في البحث، ونحن نعلم أن كثيراً من العلماء يصلون إلى الحقائق، ولكن أسلوبهم في الوصول إليها لا يروق ولا يجذب، فالعالم في حاجة إلى استقامة الأسلوب والطريقة كما هو في حاجة إلى التوفيق والظفر بالثمرة.

وأما المعونة من الله والرعاية والحفظ، فهي أسباب يحرص عليها أهل الإيمان والطمأنينة بالله، وقد رأينا العلماء الأولين مستمسكين بهذه العروة الوثقى، لا نكاد نجد أحداً منهم مستكبراً أو مصابًا بالغرور وتصور أنه مستغن عن معونة الله ورعايته، وعباراتهم في كتبهم ومؤلفاتهم، وأساليبهم في مناقشتهم ومناظرتهم

شاهدة بذلك.

والكلمة الثالثة من كلمات الإمام الشافعي التي استوقفتني، هي قوله رضي الله عنه: «ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلهما مني، إلا هبته واعتقدت محبته، وما كابرني أحد على الحق، ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته».

وهذه الكلمة تنبئ عن دراسة عميقة للنفس الإنسانية، ولنفوس المنتسبين إلى العلم بالذات، فإن الحق والحجة لهما سيطرة على نفوس العلماء والعقلاء لا يمكن دفعها، وقد سمى الله البرهان والحجة «سلطانًا» في غير موضع من كتابه الكريم، كقوله جل ذكره ﴿**هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ**﴾ (الكهف: ١٥)، ﴿**فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ (الطور: ٣٨)، ﴿**أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا**﴾ (الروم: ٣٥) إلى غير ذلك.

فتقبل الحجة والبرهان دليل على تجاوب النفس وطواعيتها للحق إجلالاً له، وإكباراً لشأنه، وهذا أمر من شأنه أن يحمل الناس على احترام صاحبه وهيبته ومحبته.

فأما المهابة والاحترام فيرجع سرهما إلى إدراك مدى قوة المتخلق بهذا الخلق، ذلك المدى الذي بلغ إلى حد أنه يقهر نفسه، وينتصر عليها، ولا ينساق مع عاطفة الاستكبار التي تصاحب ضعفاء النفوس ومرضى القلوب، والانتصار على النفس أقوى مراتب الانتصار، لأن جهادها هو الجهاد الأكبر كما أخبر رسول الله ﷺ.

وأما سر المحبة لمن هذا خلقه، فيرجع إلى إدراك جمال نفسه، وصفاء فطرته وسماحة خلقه في الإذعان لسلطان الحق دون تلكؤ ولا تلبث، كما يفعل الكريم السمح في قضاء ما عليه من الحقوق، وأي حق أعظم من حق العلم على العالم في أن يذعن للبرهان؟

أما رفض الحجة ومدافعتها فلا يصدر إلا من أحد اثنين، إما جاهل بها، لم يفهمها ولم تنجل أمام عقله، فهو عنها بمثابة الأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع، وأما مستكبر على الحق، غير متجاوب معه، لغرض يصرفه عن ذلك، ويحمله على ارتكاب الشطط من دونه.

وكلا هذين الاثنين غير جدير بالاحترام، بل غير جدير بأن ينتسب إلى العلم، فلذلك يقول الإمام رضي الله عنه أنه يسقطه ويرفضه ولا يعده بين أهل الرأي والتفكير.

وقد صور القرآن الكريم هؤلاء الذين لا تأخذهم الحجة، ولا يذعنون للحق: تارة بصورة من لا يسمعون ولا يعقلون، فقال: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ (الفرقان: ٤٤).

وتارة بصورة الذين يستغشون ثيابهم، ويثنون صدورهم فراراً من الحق ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (هود: ٥)، وتارة بصورة من وضعت قلوبهم في أغلفة تحجبها عن التفكير والتدبر، أو أحيطت أعناقهم إلى الأذقان بما يضيق عليها ويجعلها متوترة متصعبة على حالة لا يستطيع معها أصحابها أن يتأملوا أو يدركوا، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾ (فصلت: ٥)، ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يس: ٨-١٠)، ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ (البقرة: ٧)، إلى غير ذلك من الصور المزدراة المستقبحة التي يصورهم بها القرآن.

فإذا كان أمثال هؤلاء يسقطون من عين الشافعي ويرفض الاعتداد بهم، فذلك هو ما رسمه القرآن في شأنهم، ومن المعروف أن الإمام الشافعي كان من أكثر الناس تأملاً في القرآن، واستخراجا للآداب والأحكام منه.

حتى أنه رضي الله عنه فطن إلى استخراج المصدر الرابع من مصادر الأحكام وهو «الإجماع» من آية كريمة هي قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ (النساء: ١١٥).

وقد عرف الأئمة وأولوا العلم عامة، فضل الإمام الشافعي في ذلك وتبحره فيه، وأنه كان أعلم الناس بمعانى القرآن.

وفي ذلك يقول الإمام داود بن علي الظاهري في كتاب «مناقب الشافعي» : «قال لي إسحق بن راهويه: ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة، فسألته عن أشياء فوجدته فصيحًا حسن الأدب، فلما فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن، وأنه قد أوتى فيه فهمًا، فلو كنت عرفته للزمته. قال داود ورأيته يتأسف على مافاته منه».

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة» .

وقد كان العلماء يفدون إلى مكة في الحج، يناظروه ويأخذون عنه، حتى في حياة شيوخه، وجلس معه أحمد بن حنبل مرة فجاء أحد اخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينة - شيخ الشافعي - ويجلس إلى هذا الأعرابي، فقال له أحمد«أسكت، إنك إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول، وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده، ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى».

وقال أحمد رضي الله عنه: «ما صليت صلاة منذ أربعين سنة ألا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى» - قال الغزالي تعليقًا على ذلك :

«فانظر إلى إنصاف الداعي، وإلى درجة المدعو له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار، وما بينهم من المشاحنة والبغضاء» .

ولكثرة ما كان أحمد بن حنبل يدعو للشافعي قال له ابنه: أى رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد: «يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى، كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس!» .

هكذا كان شرف العلم في نفس الإمام الشافعي، وهكذا كان مبلغ اعتزازه به، وتكريمه لأهله، وجدُه فيه منذ عهد الشباب.

وإذا كان الإمام الشافعي قد ضرب المثل في معرفة حق العلم وحق الزمالة فيه، فارتفع بمستواه عن ملاحظة بواعث الأنانية والشهوات الشخصية، والغرور

المُردي: فإن هناك لونًا آخر من الاعتزاز بالعلم ومعرفة قدره، يتجلى في صونه وتكريمه والسمو به عن أي مقام يغض منه، أو يزهد فيه.

فقد كان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، يبالغ في تعظيم العلم، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ، وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته واستعمل الطيب، وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة، ثم حدث! فقيل له في ذلك، فقال، أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

ودخل مالك رضي الله عنه على هارون الرشيد فقال له: يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك «الموطأ» فقال له: أعز الله أمير المؤمنين، أن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عز، وإن أنتم أذللتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتي! فقال: صدقت، أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس! .

هكذا كان العلماء.

لا تيأسوا من روح الله

أشد ما تصاب به الأمم والجماعات من نكبات، هو يأسها من نفسها، وشعورها بأن أمورها قد وصلت من السوء إلى حد لا يستطاع معه إصلاحها، وأن كبوتها قد وصلت بها إلى الحضيض، فلا نهوض لها من بعدها، وأن كل يوم يمضي عليها هو شر من سابقه، وخير من لاحقه.

شعور الأمة أو الجماعة بهذا، وامتلاء نفوسها به من شأنه أن يفت في عضدها، وأن يصور لها المستقبل في صورة قاتمة مظلمة، وأن يساعد على تقويض بنيانها، ويعجل بآخرتها، وزوالها من الوجود.

والأمر في الأفراد وإن كان كذلك، لكنه أقل خطرًا، وأضعف أثرًا وأيسر علاجًا؛ فإن الفرد إذا يئس لم تمت بموته الأمة، ولم تضطرب باضطرابه شئونها العامة؛ وها نحن أولاء نرى أفرادًا ييأسون؛ فيستسلمون للموت الأدبي، أو يقدمون على الانتحار، فيذهبون إلى حيث اختاروا لأنفسهم، ولا تكاد الأمة أو الحياة الاجتماعية تشعر بهم.

وقد يجد الأفراد من أمتهم، أو أسرتهم، أو أصحابهم، أو ذوي المروءة في مجتمعهم، من يأخذ بأيديهم، وينتزعهم من بين أحضان اليأس، ويفتح أمامهم مجال الأمل والعمل؛ أما الأمم والجماعات، فإنها إذا فقدت الثقة بنفسها، ويئستا من استقامة أحوالها وقدرتها على معالجة أمراضها، لم تلبث أن تدخل في سكرات الموت، وتعالج منها الكروب والأهوال حتى تموت، ولن تجد من يحول بينها وبين هذا المصير؛ ذلك بأن «عجلة الإنقاذ» لابد أن تأتيها من غيرها، ولم تعهد في تاريخ البشرية - إذا استثنينا عهود الفتح الإسلامي العادل - أمة تدفعها إنسانيتها إلى التقدم لغيرها من الأمم بنية صادقة، وباعث شريف مخلص، هو مجرد الرغبة في إنقاذها من الخطر الذي يتهددها، وإن زعم ذلك أهل السياسة من دهاقين أوربا وأمريكا وأشباههم من الطامعين.

لم يرتفع مستوى الإنسانية إلى هذا الحد، ولم يصل الضمير البشري بعد إلى هذه المرتبة، وما من أمة اليوم تمد عينيها إلى غيرها من الأمم، إلا وهي تبطن منفعتها هي ، ومصالح أبنائها أو المتسلطين فيها، وقل مثل ذلك في الجماعات أو الهيئات، فإن إحداها لا يمكن أن تمد يدها لإنقاذ سواها مما يعاني، إلا إذا كان ذلك لمصلحة تعود عليها هي، بأن تقوي من مبادئها، أو تضعف من قوة خصومها ومنافسيها؛ والأحزاب السياسية مثل لذلك واضح، فإننا لا نرى حزباً يتقدم لمؤازرة حزب آخر، بنية تقويته وتأييده وتخليصه مما يعانيه، إلا حيث يحسب أن ذلك قهر لخصمه، أو تقوية له، فيجعل ذلك قنطرة لأغراضه، ووسيلة ينال بها ما يهدف إليه.

لا شك إذن في أن التماس الإنقاذ من «الغير» إن صح أن يؤدي إلى خير في شأن الأفراد، فإنه لن يؤدي إلى خير في شأن الأمم والجماعات.

ولهذا كان الخطر شديداً حين تشعر الأمة والجماعة باليأس من إصلاحها، واستقامة شئونها، وتفقد الثقة بنفسها.

في أمم الشرق الآن غربان ما تزال تنعب في كل صباح ومساء، ونعيبها مقلق للنفوس، مميت للأمل في القلوب، يصور للناس حياتهم في صورة كريهة، ويخيل إليهم أن شئون العرب والمسلمين الأولين قد ذهبوا بالمثل الطيبة في الإيمان والخلق والتضحية والإيثار، فلم يتركوا وراءهم حظًا منها لغيرهم، وأن التي كانت للآباء قد زالت حيث لا رجعة، وأن الموت الزؤام هو نصيب اللاحقين، كما كانت الحياة السعيدة القوية هي نصيب السابقين.

لست أريد أن أحداً من الناس ينادي بذلك حرفياً، ويقوله لفظًا أو معنى، وإنما أصف شأنهم في تضخيم الأمور، وتفظيع المساوئ، والبكاء الملح على المجد الضائع، والعزة المفقودة، والكرامة الذاهبة، والأخلاق التي دنست، والتقاليد التي أهملت، والرزايا التي تتابعت، فهذه النظرة التشاؤمية بمثابة القول الصريح بأنه لا سبيل لأهل هذا الجيل أن يدركوا شأو الأجيال قبلهم، أو يدانوها؛ وفيها إيحاءٌ قوي بأننا ضعفاء وعاجزون، وأننا مهما حاولنا أن نعمل أعمالهم، أو ننهض كما نهضوا، فلن نصل إلى ذلك ولن نقارب.

إن هذا لن يكون داعيًا إلى ملاقاة النقص، ومضاعفة الجهد، وإنما هو دعوة إلى اليأس والإذعان والتسليم، فيه تثبيط للعزائم، وإرجاف على النفوس الوثابة الطلعة، ولو أن امرأ ظل يردد على مسامع ولده أنه قاصر متخلف، وأن عقله راكدًا، وجهده ضئيل، وأن فلانا من إخوته أو أبناء عمومته أو خؤولته خير منه عقلاً، وأذكى قلبًا، وأحرص على أداء واجبه، وأقرب إلى إدراك النجاح، في مستقبله القريب والبعيد؛ لو أن أحدًا ظل يقول ذلك لابنه وهو يربيه ويحاول أن يبعث في نفسه الرغبة والعمل والنشاط، لما كان إلا مسيئًا إليه، مميتًا مواهبه قاتلاً فيه الهمة والعزيمة والثقة بالنفس، ناشرًا اليأس في أقطار قلبه، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعًا.

إن المسلمين بخير وإن عدت عليهم العوادي، ونزلت بساحتهم الأحداث، وما كان ضعفهم وتخلفهم إلا تمحيصًا وتهذيبًا سيخرجون منه إن شاء الله أقوياء ذوي عزة ومنعة، وإن فيهم الآن لدلائل نهضة في العلم والقوة والسياسة والتضحية تبشر بمستقبل سعيد، وحياة طيبة، فليترفق الكتاب والخطباء والدعاة بأنفسهم وأهليهم، وليعترفوا بنواحي القوة والحيوية والنهوض في أمتهم، وليصوروا لهم المستقبل في صورة جميلة، تشرح الصدور، وتحيي ميت الآمال، وتثير العزائم والهمم إلى التدرج في مدارج الكمال، والانبعاث في طريق التقدم.

ولا يحسبن أحد أني أدعو إلى غض العيون، وسد الآذان عن نواحي النقص، فإن ذلك أيضًا من أسباب الضياع والانحلال، ولكن علينا أن نصف الداء، ونصف العلاج، فإننا إذا تعامينا عن الداء سرى فينا وأهلكنا، وإذا استسلمنا له، وهولنا فيه، وشغلنا أنفسنا باستفظاعه، وتأمل وجوه الخطر فيه، ضعفنا عن مقاومته، وأعانه علينا هزال يصيب الهمم، وضعضعة تسري إلى العزائم، وتتغلغل في الأعمال، وإجداب في الفكر يسرى من الكبير إلى الصغير، ومن الصغير إلى الكبير، ويمر في كل طبقة، ويجول في كل دائرة، وكفى في بيان شناعة ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (يوسف: ٨٧).

وإذا كنت أرجو من الكتاب وأهل القيادة والتوجيه في الأمة، أن يفطنوا إلى

ذلك، ويعملوا على إحياء الآمال في نفوس الناس، فإني أوجه ذلك أيضًا إلى أساتذتي وإخواني وأبنائي من الأزهريين، فقد سرى إليهم أن ضعفًا شديدًا قد استولى على العلم والدين والخلق، وأن الأزهر لم يعد يجد مكانًا له بين أهل الرأي والقيادة؛ فأصبح محصورًا بين كلياته ومعاهده، يدرس ما يدرس، ويهمل ما يهمل، ويجري في كل ذلك على سنن من التباطؤ والتكاسل، لا يدفعه عنه دافع، ولا يعبأ به عابئ، سرى إليهم ذلك، وظنوا أن مصلحة العلم والدرس مضيعة بين التراخي والإهمال، فيئسوا أو كادوا، وصار كبارهم يتحدثون بما كان من علم الماضين ودأبهم وقوة إيمانهم، ويشكون مر الشكوى من انصراف القلوب، وانحلال العزائم، وضعف الأخلاق، وصار المحدثون منهم يفعلون ما يشاءون، ويأتون من الأمر ما يأتون، ويدعون منه ما يدعون، لا يدفعهم إلى ذلك دافع من العلم والتكمل بالدرس والمعرفة، ولكن دافع من الرغبة في مستقبل مادى يضاهئون به غيرهم من أهل المعاهد والجامعات الأخرى، كأن المستقبل يضمن بالقوانين والقرارات، لا بالتمكن من العلم، وإقناع الأمة بكفاية الخريجين.

نعم صرنا إلى ذلك كله، والأمر فيه خطير إذا لم يتدارك، ولكن لا ينبغي أن نيأس، ولا ينبغي أن ننسى أن ظروف الحياة الدراسية والفكرية في البلاد قد تطورت، وخير لنا أن نعالج أسباب الضعف بالحزم والقوة والصبر وتوسيد كل أمر إلى من يصلح له، ويستقيم به، فإن أكبر الإصلاح أن يباشر الأمور أهل الإصلاح، أما أن نندب ونستغيث ونتصور الأمور تصور المشدوهين المغَلبين، ونتربص أن يصلح الله الأحوال، بأمر من السماء يتنزل به جبريل أو سواه من ملائكة الرحمن، فسيطول تربصنا، وتكثر متاعبنا، ولن يجدينا الصياح ولا العويل.

المحبة والإخاء
في هدى الإسلام ورسول الإسلام

من أهم الأسس التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامي: «المحبة والاخاء» فإنه ما توطدت المحبة والأخاء في مجتمع إلا رفرفت عليه أعلام السعادة، وارتقى في مدارج السمو والكمال، وعلى العكس من ذلك: ما فقد مجتمع من المجتمعات روح المحبة والإخاء إلا تخلخل واضطرب أمره، وشقي أعضاؤه، واحتملوا من ضروب المكاره والمفاسد ألواناً لا تطاق، وانتهى أمرهم إلى الانهيار والزوال.

أن المحب الصادق يكون عادة صافي الذهن يصدر عنه كل سمو نفسي، وكل تهذيب خلقي، لأن المحب حقًا هو الذي يبذل في سبيل من يحب، ولا يجعل كل همه في أن يعكف على نفسه فيحقق مطالبها ورغائبها غير عابئ بما سواها، وأن هناك فرقًا بين المحب ومدعي الحب، فالمحب يؤثر ولا يستأثر، ويجود ولا يطمع، ويقبل العذر ولا يكثر العتاب، ولا يلجأ إلى اللوم أو التأنيب، وأما مدعى الحب فإنه أناني، يحب أن يستأثر، وهو يتظاهر بالحب ليخدع ويخلب.

أن المحب الصادق يكون عادة صافي النفس، مرهف الحس، غير ظلوم ولا جهول، يكون عادة لين الجانب، حسن الخلق، لطيف المعشر، لا يصدر منه ما يكدر الصفو، أو يؤذي، أو يضجر أو يثقل .. إنه إنسان صهره الحب فأزال عنه كل شائبة الخبث والأثرة وسواد القلب.

فإذا تكون المجتمع من أفراد متحابين متعاطفين متجاوبين كان مجتمعًا سعيداً متفرغًا إلى العمل الصالح المثمر، غير مشغول بالمخاصمة والمشاحنة والملاعنة.

وقد وصف الله - عز وجل - رسوله الكريم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)، وكان من خلقه العظيم رحمته بأمته، ولينه لأصحابه وأهله، بل للبداة الجفاة الغلاظ من الأعراب، كما تنبئ عنه سيرته الشريفة، ولذلك يقول الله - عز وجل - فيه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، والرحمة واللين هما ثمرة المحبة، وشعار المودة، ولقد كانوا ربما آذوه وأساءوا إليه، فمن رحمته بهم، وحبه لهم، كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١).

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

«كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فادركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»(١).

ولا شك أن الذي بعثه على هذا الحلم والرفق، هو مافطر عليه من المحبة والرحمة والسماحة... ولذلك يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني وغيره:

«الا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون».

فإذا نظرنا إلى هذه الأوصاف التي أنبأ رسول الله ﷺ بأنها أوصاف أحب المؤمنين إليه، وأقربهم مجلسًا منه، وجدناها أوصافًا يرتبط بعضها ببعض وينتهي بعضها إلى بعض، أي أنها أوصاف متآخذة متشابكة تنتهي كلها إلى إيجاد مواطن صالح، يألفه الناس، ويألفهم، لأنه حسن الخلق لين الجانب، موطأ الاكناف كالفراش الممهد الذي يستريح إليه من التمس الهدوء والنعيم.

وفي ضد هؤلاء يقول رسول الله ﷺ: «أن أبغضكم إلى المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبراءة العيب».

وكان ﷺ يقول:

«لا يبلغني أحد عن أحد أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم سليم

---

(١) البخاري عن شقيق قال عبد الله ك/ استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ب/ إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ... (٦٤١٧).

(٢) البخاري عن أنس بن مالك ك/ فرض الخمس ب/ ما كان النبي ﷺ يعطي (٢٩١٦).

الصدر»[1].

وكان يحث على قبول عذر المعتذر، ومن قوله في ذلك:

«من أتاه أخوه متنصلاً - أي معتذراً بنفي ما أسند إليه - فليقبل ذلك محقًا كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض!».

وإنما حث رسول الله ﷺ على قبول عذر المعتذر ولو كان غير محق فيما اعتذر به، وتنصل منه، لأن اعتذاره نفسه كاف في بيان أسفه على ما وقع .. ورغبته في الصفح والصلح، فقبول ذلك منه أدعى إلى المحبة واستقامة الصلات في المجتمع.

وهناك حديث جامع في هذا المعنى يقول فيه رسول الله ﷺ :

«ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله قال: من نزل وحده، وجلد عبده، ومنع رفده - أي عطاءه - ثم قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يارسول الله قال: من يبغض الناس ويبغضونه، ثم قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنباً، ثم قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا إن شئت يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره».

وهكذا يرشد رسول الله ﷺ في هذا الأسلوب الرائع إلى العوامل التي تؤدي إلى البغضة والفرقة، ليتحاماها الناس، ويستبدلوا بها أضدادها التي تؤدي إلى المحبة والتعاون.

أما نظرة الإسلام إلى «الإخاء» فإنه يعتبر كل فرد من أفراد المؤمنين أخا للآخرين، وفي ذلك يقول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، ويقول رسول الله ﷺ : «المؤمن أخو المؤمن»[2].

فالإسلام يقرر هذا تقرير القواعد الثابتة، والحقائق المسلمة، فلا يقول: أني أنصحكم أن تكونوا كالإخوة، وبأن تحفظوا كل مظاهر الأخوة، ولكن يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فيحصر أمرهم في الأخوة، ويجعلها واقع حالهم، وحقيقة شأنهم، فلا يمكن أن يهدم هذه الحقيقة خلاف ينسب بين الأخ وأخيه ولا يمكن أن

---

(١) الترمذي عن عبد الله بن مسعود ك/ المناقب ب/ فضل أزواج النبي ﷺ .. (٣٨٣١).

(٢) انظر مسلم عن عقبة بن عامر ك/ النكاح ب/ تحريم الخطبة على خطبة اخيه (٢٥٣٦).

ينقلب الدم ماء، كما يقول عامة الناس، ولا يمكن أن يعتبر ما يصيب أحد الأخوين من هدم إلا هدمًا للآخر، فالدم الدم، والهدم الهدم، والمصير واحد، والحياة مشتركة.

فإذا عرف المسلمون ذلك، عرفوا حقيقة أمرهم، ولم يكن هناك سبيل إلى خديعتهم أو إزالتهم عن حقيقتهم، أو العبث بكل منهم منفردًا عن غيره، وحينئذ يكون شعارهم هو المحبة والإخاء: محبة تؤلف القلوب وتهذب النفوس، وتُقَوم الأخلاق، وإخاء يربط بين المتحابين برباط وثيق لا ينفصم ويدفعهم جميعًا إلى ملاقاة مصير واحد، هو مصير الفلاح والنجاح والعزة والكرامة.

وللإسلام أسلوب بارع في تركيز دعائم المحبة في المجتمع وهذا الأسلوب يتفق وقواعد الأدب الرفيع، والسلوك الراقي، ويربط بين الإيمان والذوق المهذب.

فمن ذلك أن النبي ﷺ يحث على طلاقة الوجه عند اللقاء ويعتبره لونًا من ألوان المعروف، وفعلاً من أفعال البر، فيقول:

«لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[1].

«من الصداقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه».

«تبسمك في وجه أخيك لك صدقة»[2].

أتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله: أنا قوم من أهل البادية، فعلمنا شيئًا ينفعنا الله به، فقال:

«لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقى - ولو أن تكلم أخاك ووجهك منبسط وإياك وإسبال الإزار - أي جر الثوب تكبراً كما كانوا يفعلون قديمًا - فإنه من المخيلة - أي من الخيلاء والتعالي على الناس - ولا يحبها الله، وإن امرؤ شتمك بما لا يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإن أجره لك، ووباله على من قاله».

والواقع أن طلاقة الوجه عند اللقاء، والبشاشة والتبسم، وإيثار الصفح عمن بدرت منه بادرة سوء، من شأنها أن تغرس بذور المحبة، وأن تستل كوامن الضغينة.

(١) مسلم عن أبي ذر ك/ البر والصلة والآداب ب/ استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٤٧٦٠).

(٢) الترمذي عن أبي ذر ك/ البر والصلة ب/ ما جاء في صنائع المعروف (١٨٧٩).

وهذا الأدب النبوي مستمد من القرآن الكريم، إذ يقول الله ـ عز وجل ـ .

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥).

فمنزلة الدفع بالتي هي أحسن، هي منزلة يشيد بها القرآن، ولا يصل إليها ويفوز بها إلا الصابرون، الذين يكظمون ويحلمون وأولئك هم أصحاب الحظ العظيم في الدنيا والآخرة، حيث يعرف الناس فضلهم فيحبونهم ويعرف الله ذلك لهم، فيدخلهم الجنة كرامًا.

وقد روى الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أن العبد ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم»، وعن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ :

«إذا جمع الله الخلائق نادى مناد :أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس. وهم عدد يسير بالنسبة إلى هذا الجمع العظيم فينطلقون سراعا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعًا إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولن: نحن أهل الفضل، فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا حلمنا. فيقولون لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين».

وينبغي أن يعلم أن الصبر على الظلم هنا وأن الحلم عند الإساءة في هذا، هما صبر المرء وحلمه على أخيه، وترفعه لله تعالى عن أن يرد الظلم بظلم، أو يقابل الإساءة بإساءة فذلك مما شرعه الله تعالى تركيزاً للأخلاق السامية في المجتمع وبين الإخوان بعضهم وبعض، وتوطيداً للمحبة والإخاء، وليس من ذلك الصبر على ظلم الطغاة والمعتدين والمتجبرين، فإن الله تعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الشورى: ٣٩-٤٢).

فالمؤمن أبيٌّ كريم على نفسه، عزيز لا يقبل الذل، يجاهد في سبيل كرامته وكرامة أمته ووطنه، ويرد البغي والطغيان وهو مع ذلك رحيم باخوانه، دمث في معاملتهم، يغفر لمسيئهم تفضلاً، يصبر عليهم تحلمًا، والحاذق من يعرف متى يكون أبيًا عزيزًا، ومتى يكون عفوًا كريمًا، ويضع كل شيء في موضعه على حد قوله تعالى : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الفتح : ٢٩).

ومن توجيهات النبوة فيما تتركز به دعائم المحبة والأخوة، قوله ﷺ :

« دب إليكم داء الأمم قبلكم : البغضاء والحسد، والبغضاء هي الحالقة، ليس حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك؟ أفشوا السلام بينكم »[١].

وهذا حديث عظيم، حافل بالخير، فهو ينبئنا أن للأمم داء يدب إليها، ويسري من الماضين إلى اللاحقين، وبه تشقى الأمم، وهذا الداء هو الحسد والبغضاء، ثم ينبئنا أن البغضاء تمحو الدين محوا، أي تمحو كل معني كريم من معاني الفضيلة والخلق والشهامة والعفة والمروءة والاستقامة، من كل ما يتطلبه الدين، ويرشد إليه، فإذا استحكمت البغضاء في مجتمع أتت على كل خير فيه، ثم ينبئنا أن فضل الله في الآخرة بدخول الجنة، لا يكون إلا لمن آمن، وأن الإيمان لا يتم ولا يكمل مفهومه إلا إذا تحاب الناس. ثم يرشدنا عليه الصلاة والسلام إلى ما يثبت لنا هذا التحابب بيننا، ويوطده، فيقول « أفشوا السلام ».

وليس السلام هو مجرد إلقاء التحية دون إرادة لمعناها، وتحقيق لمضمونها، وإنما هو قول باللسان، وعقد بالجنان : عبارة تلقيها على اخوانك وأصحابك حين تلقاهم، وتحقق مضمونها لهم بأن تكون سلمًا عليهم في باطنك، كما أنت سلم في ظاهرك، وفيما ينطق به لسانك، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[٢].

---

(١) الترمذي عن الزبير بن العوام ك/ صفة القيامة والرقائق والورع ب/ مه (٢٤٣٤).

(٢) البخاري عن عبد الله بن عمرو ك/ الإيمان ب/ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٩).

والسلام في الإسلام هو مفتاح المودة، وسفير المحبة، فإذا قلته لصاحبك، واقرأته أخاك، فرده عليك، فكأنما انعقد بينكما عقد يجب على كل منكما أن يوفي لصاحبه به بالا يؤذيه، ولا يمكر به، ولا يتلمس معايبه، ولا يتطلع إلى عوراته، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً** ﴾ (النور: ٦١)، والله تعالى يجعل تبادل التحية عنوانًا متسمًا بالذوق الرفيع في أدب التعامل بين أفراد المجتمع، ومظهرا من مظاهر الشكر والعرفان والعدل والإحسان، فيقول: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا** ﴾ (النساء: ٨٦).

سل نفسك

أيها القارئ الكريم:

سل نفسك. من أي نوع إيمانك؟ أهو مجرد تصديقك بأن للكون إلهًا واحداً مدبراً حكيمًا لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولكنك مع هذا التصديق القلبي، والإذعان النفسي، لا تنطلق إلى العمل الصالح، ولا تتحرج من الإثم والفحشاء وقول الزور وإيذاء الناس بلسانك أو بجوارحك، ولا تحس برقابة من داخل نفسك تجعلك متقنًا لعملك إذا عملت، مبتعداً عن كل ما يستحيا منه سواء رأتك العيون أم لم ترك؟

سل نفسك : إذا وقفت بين أمرين، أحدهما فيه إغراء مادي أو معنوي، والآخر فيه إرضاء لله الذي خلقك وأنعم عليك، أتختار ما تشتهيه نفسك ولو أغضب الله، أو تحارب شهوتك ورغبات نفسك حين تجدها متعارضة مع دينك وأمانتك وخلقك؟

سل نفسك: هل إيمانك بالفضائل ومقاييس الشرف والكرامة إيمان عملي له آثاره الإيجابية الخارجية الظاهرة في سلوكك وأسلوب معاملتك، أو هو مجرد إعجاب بالفضائل وإقرار لمقاييسها دون تطبيق لها، وأخذ بها؟

سل نفسك: هل تغار على الحق حين يعتدى عليه، وعلى العدل حين تهتز موازينه، وعلى الحرمات حين تنتهك؟

وهل تحزن إذا وجدت ظالًما يظلم كأنك أنت المظلوم؟

وهل تأسف إذا وجدت مخادعًا يخدع كأنك أنت المخدوع؟

وهل يقض مضجعك أن تجد اعوجاجًا لا تستطيع تقويمه، أو فساداً لا تقدر على إصلاحه، أو شراً لا تستطيع دفعه؟

أو أنت ممن يعيشون في عزلة عن مجتمعهم، لا يهتمون إلا بأنفسهم، ولا يأسفون إلا على ما يفوتهم، ولا يفرحون إلا بما أوتوا، ولا تهزهم مظاهر الظلم والفساد والشر وغلبة الباطل على الحق، وسيادة الرذيلة على الفضيلة؟

سل نفسك : هل تتأثر بصورة فعالة إذا رأيت فقيراً عضه بنابه، أو مريضاً يكاد يذيبه المرض في ثيابه، أو مكلوماً يفيض بالحزن قلبه، أو يسيل من الثكل دمعه، أو كادحاً يكدح على رزقه ورزق أولاده، وهو في أسمال بالية لا تكاد تستر عورته؟

أو أنت ممن لا تهزهم هذا المناظر المؤلمة، ولا تبعث في نفوسهم النخوة والمروءة لمحاولة تخفيف بؤس البائسين، وشقاء المحرومين؟

سل نفسك : هل أنت من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون؟

أو أنت من الذين يأخذون بالعدل، ويعطون بالعدل، ويطبقون موازين الحق على الناس كما يحبون أن تطبق عليهم؟

وهل تعلم أن التطفيف بالزيادة أو النقصان كما يكون في الكيل والميزان، يكون في الكلمة تقولها، وفي الرأي تراه، وفي الشهادة تؤديها وفي النصحية تدلى بها، وفي الجزاء على الإحسان بالإحسان، وعلى السوء بالسوء؟

أو أنت من الحرفيين الذين يقفون عند الألفاظ، ولا يتعدونها إلى نطاق المعنى، وروح التعبير، فتكتفي بالعدل في الكيل والميزان، وترتكب الجور فيما ينطق به اللسان، أو ينطوي عليه الجنان؟

سل نفسك: هل أنت من الذين يقولون ما لا يفعلون، ويتطلعون لما يصلحون، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ويعملون على اغتصاب ما ليس لهم، واقتناص ما ليس من حقهم، عن طريق التحايل بالباطل، أو الوساطة، أو الرشوة؟

أو أنت من المترفعين عن أمثال هذه الأساليب الذين يؤثرون أن يحتفظوا بشرفهم وكرامتهم وعزتهم، على أن يرتكبوا في سبيل تحقيق المآرب الفانية ما ليس لأصحاب الهمم والمروءات أن يرتكبوه؟

سل نفسك : هل أنت مادي حريص على الدرهم والدينار، بل على المليم والقرش، ولو خضت في سبيلهما الأوحال، وارتكبت ما يرتكبه الأنذال.

أو المادة لديك وسيلة لا غاية، وأنت المالك لها، وليست هي المالكة لك، وإذا تعارضت مع أي معنى كريم، ضحيت بها غير آسف عليها، على حد قول الشاعر:

أصون عرضي بمالي، لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض في المال
احتال للمال أن اودي فأجمعه   ولست للعرض أن أودى بمحتال

أو على حد قول الآخر «وهو حاتم الطائي» بقوله لزوجته «ماوية» :

أماوي: أن المــال غــاد ورائـــح
ويبقى من المــال أحاديث والذكـــر
أماوى: ما يغني الــثراء عن الفــتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر؟

سل نفسك : هل أنت شجاع في مجابهة الحوادث، تقابلها بثبات وتعالجها بحكمة وصبر؟

وهل أنت شجاع أمام النعمة، كما أنت شجاع أمام النقمة، فلا يستخفك الخير، كما لا يستخفك الشر؟

أو أنت هلوع: إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع؟

سل نفسك: هل أنت رفيق بزوجتك وأولادك وأهلك، ترتاد لهم سبيل الخير والصلاح، ولا تدخر وسعًا في إسعادهم. وهل ترحم ضعفهم، وتغفر زللهم؟

أو أنت في بيتك وبين أولادك وأهلك، عبوس الوجه، مقطب الجبين، صخاب سباب، تحاسب على النقير والقطمير، وتقسو على الكبير والصغير؟

ألم تعلم أن رسول الله ﷺ كان أكرم الناس مع أهله، وأرفقهم بزوجاته؟ وأنه ما رؤى متجهمًا في وجه إحداهن، ولا غاضبًا غضبًا يخرجه عن سكونه ورحمته، ولا سبابًا، ولا فاحشًا، ولا محتقرًا لطعام، ولا مؤثرًا نفسه بطعام، ولكن ما رضي عنه

أكله، وما كرهه تلطف في رده، وما غاب لم يسأل عنه.

وأنه قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»[1]، «وخيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2].

سل نفسك: هل أنت حقود تحتفظ بزلات أصحابك، ولا ترى إلا مثالبهم ومعائبهم، ولا تحب أن يسبقك منهم سابق، أو يلحقك لاحق؟

وهل ترى لنفسك حقوقًا عليهم، لا تراها على نفسك لهم؟

وهل تستريح في خفاء وخبث نية إلى ما ينزل بهم من حادث الدهر جل أو حقر؟

أو أنت هين لين، لا تحمل الحقد، ولا تضخم العيب، وتعذر الصديق، وتعرف حقوقه عليك أكثر مما تعرف حقوقك عليه، ويسرك دائمًا أن تراه في خير، فلا يفسدك الحسد أو التطلع لما آتاه الله من فضله، ولا تتربص به دوائر السوء، ولا تعاجله بالقطيعة إذا أساء إليك، وتعمل فيه بقول الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

ويقول الآخر:

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث: أي الرجال المهذب

وقول الثالث:

من ذا الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

سل نفسك هل أنت مغرور يزدهيك المدح ويغضبك النقد، ويحرجك النصح؟

أو أنت متواضع في غير ضعف، ملتمس للكمال، تخجل من الثناء، ولا تغضب من النصيحة.

سل نفسك: هل أنت تكذب إذا حدثت، وتخلف إذا وعدت، وتخون إذا ائتمنت؟

أو أنت من الصادقين إذا حدثوا، الموفين بعهدهم إذا عاهدوا، الذين يؤدون

---

(1) الترمذي عن أبي هريرة ك/ الرضاع ب/ ما جاء في حق المرأة على زوجها (1082).

(2) الترمذي عن عائشة ك/ المناقب ب/ فضل أزواج النبي ﷺ (3830).

الأمانات إلى أهلها، ولا يخونون الله ورسوله؟

سل نفسك : هل بكيت من خشية الله قط؟ وهل تحس بالندم إذا وقعت في الذنب؟ وهل تبادر بالتوبة وتعزم على عدم العودة؟

أو أنت من الذين قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ومن الذين يصرون على المعاصي غير نادمين ولا تائبين، ومن الذين يستحلون طعم الذنوب التي اقترفوها إذا ذكروها، كما يستحلي المرء ذكريات ماضيه الجميل، ويتمنون لو عادوا إليها أو عادت لهم، كذلك الشاعر الماجن الخليع الذي يقول:

هل الله عاف عن ذنوب تسلفت   أو الله إذا لم يعف عنها يعيدها

فهو يسأل الله: أما أن يعفو عن ذنوبه الماضية، وأما أن يعيد له عهدها ليتمتع باقترافها وتكرارها!

سل نفسك: هل أنت من الذين يلذ لهم أن يخوضوا في أعراض الناس بالحق أو بالباطل؟

وهل تستريح إلى مجالس القيل والقال؟

وهل أنت ممن يروجون الشائعات، ويبلبلون المجتمعات؟

وهل أنت من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؟

أو أنت عف اللسان، متحفظ من قالة السوء، تظن بالناس الخير، وتهجر مجالس الخائضين المفسدين، ومن الذين لا يقعدون معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين.

سل نفسك: هل تحب وطنك وأمتك؟ هل تفرح بعزتهما وكرامتهما حين تراهما عزيزين كريمين.

وهل شعرت بالفرق بين ماضيهما القريب، وحاضرهما الماثل؟

وهل أدركت أننا كنا نسام الخسف ونحمل على الذل، ونباع ونشترى كما يباع العبيد، وأن وطننا كان لا يعدو أن يكون منطقة من مناطق النفوذ يتنازعه المستعمرون والغاصبون، وأننا اليوم جرينا في مضمار السبق مع الأمم الحية

المتحضرة، وأننا هدمنا السدود التي كانت توضع في طريقنا، وتحول دون نهوضنا وأننا بنينا السد العالي بعزمنا وسواعد أبنائنا، وأننا نقول فيسمع لقولنا، ونغضب فيهتز الأقوياء لغضبنا، وأننا طبقنا بصورة عملية قول نبينا ﷺ فينا: «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» فانجدنا اليمن: وأعنّا الجزائر، وساعدنا تونس، وقمنا بحق الأخوة لسائر إخواننا في كل شعب؟

أو أنت من النائمين الذين لم يستيقظوا، ومن المكابرين الذين لم يعترفوا بالحقيقة، وممن غشت على قلوبهم وأبصاهم غشاوات الماضي ورواسبه، فهو لا يبصر ولا يسمع ولا يدرك؟

أيها القارئ الكريم:

سل نفسك عن هذا كله، واعمل على أن تجيب في صراحة، تحقيقًا لقول رسول الله ﷺ: «استفت قلبك وإن افتاك المفتون» فردك حينئذ ستعرف نفسك، وتعرف وضعك، وتعرف ما لك عند الله، وما أصدق قول رسولنا الكريم: «من أحب أن يعرف ما له عند الله، فليعرف ما لله عنده».

الشبهات والشهوات

في بعض الآثار الواردة : «أن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات» .

ولهذا الأثر توجيه يجب أن يحرص الناس على إدراكه والانتفاع به في حياتهم العامة والخاصة. فإن الإنسان إنما يفسد أمره في دينه أو في دنياه أو فيهما معًا من جهتين: جهة الشبهات، وجهة الشهوات، فالشبهات بمثابة ظلال أو ظلمات تحاول أن تحجب عن الإنسان نور اليقين وأن تؤدي به وترديه في مهاوى الضلال والحيرة، والشهوات بمثابة سواق محطم يدفعه إلى مخالطة الشر والإثم والفساد، وبذلك يفسد من جهة العقيدة ومن جهة العمل، أو بعبارة أخرى: يفسد من داخله ومن خارجه، فداخله هو الفكر والنظر، وخارجه هو السلوك والعمل.

ونحن نرى في عصرنا الحاضر قومًا تسلطت عليهم الشبهات فأفسدت عقولهم، وزلزلت إيمانهم، وجعلت أفئدتهم هواء من الدين، وخلاء من اليقين، لا هم للواحد منهم حين يلقاك، أو حين يكون في ناد من الأندية، أو مجلس من المجالس، إلا أن يثير أسئلة مصنوعة، عليها قشرة التفكير المزعوم، أو طابع الفلسفة المدعاة، كأن يقول: ما لنا نقيد أنفسنا بالعقائد الدينية والأحكام الشرعية؟ وهل هذا التقييد إلا تكبيل للعقول، وشل للإرادات؟ أو يقول: ما هي الفضيلة وما هي الرذيلة؟ وهل يؤخذ فيهما بمقياس الأولين، أو بمقياس اللاحقين لهم أو بمقياس المدنية الحديثة أو يقول: هل يصلح التشريع الإسلامي في القصاص والحدود لعصرنا الحاضر وهو إنما شرع في عصر البداوة والسذاجة؟ أو يقول: لماذا كتب الله عليَّ الشقاء وقد كان قادراً على أن يكتبني سعيداً، أو لماذا يعذب الله من عصاه وهو الذي كتب عليه العصيان، ولماذا يثيب من أطاعه وهو الذي وفقه إلى الطاعة ويسرها له، فليس العاصي عاصيًا إلا به، وليس المطيع مطيعًا إلا به، فكيف يثيب هذا ويعاقب ذاك؟ إلى غير ذلك من الشبهات التي يوردها الزائفون تشكيكًا في الدين، وزلزلة عن اليقين، وهي تختلف في الأسلوب باختلاف العصور، ولكن

حقيقتها في الواقع واحدة، وقد تلبس ثوبًا إلحاديًا إنكاريًا، وقد تتستر في ثوب الحرص على فهم الدين، واجتلاء الحقائق.

وما من عصر من العصور إلا قد عاش فيه أمثال هؤلاء الزائغين الضالين المضلين، ولكنهم دائمًا لا يثبتون على النضال، ولا يقوون على مواجهة نور الحق المبين، حين يسلط على شبههم الفاسدة فيبدد ظلامها، ويهتك حجبها.

ولسنا الآن بصدد الرد على هؤلاء وتفنيد شبههم لنقول لهم مثلاً: أن الإيمان قوة دافعة، لا عقيدة مثبطة ولا مخذلة، وأن الإيمان بالعقائد التي جاء بها الإسلام لا يحول بين الناس وعقولهم، ولا يمنعهم من أن يفكروا وينظروا، بل هو على العكس مما يقوله هؤلاء، يحث على التفكر والتدبر ويكرم العقل ويرفع شأن العلم، وأن التقيد بالأحكام والقوانين هو شرعة المتدينين، كما هو شرعة المتدينين، فإن الإنسان يمتاز عن الحيوان بتنظيم حياته في مجتمعاته، والارتباط في مختلف نواحي سلوكه بقواعد ونظم وأحكام لولاها لما اختلف شأنه عن الحيوان الأعجم، بل عن الوحش الضاري في الفلاة، وأن الفضائل والرذائل مما لا يختلف باختلاف العصور، أو بتلون المدنيات والحضارات، أو تعدد مقاييسه عند الأولين أو الآخرين، فالصدق فضيلة في كل عرف، والكذب رذيلة في كل عرف، والعفاف حسن في كل زمان، والفجور قبيح في كل مكان، وإنما يفسد الناس في مجتمع ما، فيرون الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، كما يقول الشاعر:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقد تنبأ بذلك سيد المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ إذا يقول في بعض حديثه لأصحابه: كيف بكم إذا رؤى المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؟

لسنا بصدد الرد على هؤلاء لنقول لهم ذلك، ولا لنقول لهم: لا تتهموا أحكام الشريعة في العقوبات والحدود، ولكن انظروا إلى الجرائم كيف تكثر، وكيف يستفحل في المجتمعات خطرها، وانظروا إلى عقوباتها الوضعية كيف أفلست في تطهير المجتمعات من شرها، ولا لنقول لهم: أن الله وهو الفاعل المختار قد أمرنا ونهانا وعرفنا بالخير والشر وجعل لنا عقولاً تميز، وإرادة تنجز، فلم يجبرنا على فعل، ولكن خيرنا ومكننا وطوى عنا ما يعلمه من أن فلانًا سيكون مطيعًا أو سيكون عاصيًا، وأن العلم الإلهي وإن لم يتخلف، ليس من صفات التأثير والجبر، وإنما هو

من صفات الكشف والعرفان.

لسنا بصدد الرد على هؤلاء لنقول لهم ذلك وما يشابهه من إبطال لتمويههم، ورد لزعمهم وشكوكهم، وإنما عقدنا هذا البحث لنبين أن الفساد يأتي على الإنسان من جانب الشبهات، ومن جانب الشهوات.

وليست الشبهات بمزلزلة للإنسان في الناحية الدينية فقط، ولكنها تزلزل عن الحقائق في أى ميدان عقلي أو نطاق فكري.

ولذلك يحرص أصحاب الدعوات الإصلاحية على محاربة أرباب الشبهات الذين لاهم لهم ألا أن يشككوا فيها، أو في أغراض أصحابها، فهم في الواقع ألد أعدائها، وهم لا يريدون خيراً، ولا يبحثون عن صلاح، ولا يعملون على درء فساد، ولكنهم إنما يقصدون بلبلة الأفكار وإيقاع الناس في غياهب الحيرة والضلال والذين يبتغون الفتن وبلبلة العقول لا يعوزهم أن يجدوا في أي ناظم أو في أى دعوة أو في أي نصوص دينية أو غيرها ما هو محتمل للتأويل والتحريف إذا ساءت النوايا وفسدت الطوايا، وقد عرفنا القرآن الكريم بذلك حيث يقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٧، ٨).

فالقرآن نفسه يعرفنا أن من أراد أن يتلمس من آياته ما يتخذه موضعًا للزيغ والفتنة وتشكيك الناس، وجد ملتمسه عن طريق تتبع الآيات المشتبهة والخوض فيها، وتأويل معانيها على وجه من التحريف أو التخريف، وأن منهج الراسخين في العلم إرجاع المتشابه إلى المحكم، والتسليم بما يذكره الله في كتابه كله، دون تفريق بين ما خفي عليهم أمره، وما انكشف لهم وجهه، وأنهم بهذا المنهج المستقيم واقفون موقف الملتجئ إلى الله في أن يعصمه من الزيغ بعد الهدى، وأن يمنحه الرحمة بالثبات على الحقائق دون التزلزل عنها بالشبهات.

هذا هو شأن الشبهات في إفساد العقول وصرفها عن الحق، وهذا هو موقف أهل

الإيمان الثابت منها.

وكما أن الشبهات لها هذا الخطر في زلزلة الناس عن الإيمان واليقين، ترى أن الشهوات لها خطرها في الاعوجاج، فكم من الناس من يأتيهم الفساد من جهة شهواتهم، وعدم قدرتهم على التحكم فيها، فيندفعون إلى الشر والسوء وهم يعلمون أنه شر وسوء، ولكنهم ينساقون وراء شهواتهم الجامحة، فمنهم من تفسده شهوة المال، ومنهم من تفسده شهوة الجاه والسلطان، ومنهم من تفسده شهوة الظهور والشهرة، ومنهم من يندفع وراء شهوته الجنسية، أو شهوة الشراب، أو شهوة القمار، أو اللعب أو العبث، فيفسد بذلك سلوكه في حياته وفي مجتمعه، ويضطرب عليه الأمر فيهما، فينتهي إلى خسران نفسه، وخسران دنياه، وخسران آخرته.

ويسهل علينا أن نرى في كل مجتمع أفراداً من هؤلاء، لا في حاضرنا فقط، بل كان منهم كثير من الماضين، وسيكون منهم كثير من الآتين، فالناس هم الناس في كل زمان ومكان.

وربما وجدنا صنفاً من الناس اجتمعت عليه الشبهات والشهوات، وهذا يكثر فيمن فسد اعتقاده، فقلما يفسد اعتقاد إنسان إلا ويفسد عمله، وتطغيه شهواته، فإن الإنسان إنما يحارب الشهوات إذا كان له رصيد من الإيمان الثابت، وحظ من الحرص على الحق والذود عن حياضه، فإذا فقد ذلك لم يكن له ما يحجزه عن تلبية شهواته ورغباته.

وإذا كنا قد قلنا: أن الفساد بالشبهات قد يكون في ميادين الدعوات كما يكون في ميدان الدين والعقيدة، فإن الأمر كذلك في اتباع الشهوات وفساد الأعمال والأشخاص بها، فلا يمكن أن تنتظر من إنسان مزلزل العقيدة في مبدأ من المبادئ أو دعوة من دعوات الإصلاح، أن يكون قوياً في عمله من أجلها، وسعيه في نطاقها، ذلك بأن فاقد الإيمان بالشيء قد فقد الحافز والدافع، ولم يبق له اتجاه قلبي يقيني، فيسهل أن تتلقفه الشهوات بما لها من إغراء وقوة دفع، دون أن يبدي لها أية مقاومة.

ولذلك تعتبر أن الأفراد الذين ينساقون في مجال الأعمال وراء الدوافع الشخصية، والشهوات الخاصة، فلا يقومون بأعمالهم قياماً صالحاً، ولا يراقبون فيها

عهد الأمانة والثقة، إنما هم أفراد كافرون بالوطن، غير جديرين بأن تقلهم أرضه، أو تظلهم سماؤه ومثلهم كمثل الذين تزلزلهم الشبهات عن الدين، فيندفعون إلى أحضان الشهوات مفسدين.

وهذه الفكرة التي نقررها عن الشبهات والشهوات، وأنهما أصل كل فساد وشر، قد جاءت في كتاب الله عز وجل إذ يقول: ﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (التوبة: ٦٩).

فالخلاق: هو حظهم ونصيبهم من المال الكثير والأولاد، كان لهم بذلك قوة يقدرون بها على عمل الخير وعلى عمل الشر، ولكنهم صرفوا قواهم في عاجل شهواتهم الدنيوية مستمتعين بها متبعين داعي الأهواء والرغبات.

وقوله تعالى: ﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ﴾ تعبير عما كانوا عليه من الخوض في الشبه والحرص على الجدل والإضلال بها.

فيتبين بهذا أن فساد الناس إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به، وهو الخوض الذي ذكرته الآية، أو يقع بالعمل الفاسد، وهو المعبر عنه بالاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع والشوك والشبهات، والثاني اتباع الهوى وغلبة الشهوات.

ومما يفيد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى في وصف أئمة المتقين:

﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة: ٢٤).

فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ **وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ (العصر: ١-٣).

فتواصيهم بالحق مظهر من مظاهر استمساكهم به، وعزوفهم عن الشبهات التي تحاول الزلزلة عنه، وتواصيهم بالصبر مظهراً من مظاهر حرصهم عليه، واتخاذه درعاً حصيناً يحول بينهم وبين الاندفاع وراء الشهوات وأهواء النفوس الباطلة.

وبذلك تتوفر لهم الحصانة من جانب الشبهات، والحصانة من جانب الشهوات.

والأثر الذي بدأنا به هذا الموضع يشيد بالبصر الناقد عند ورود الشبهات، وبالعقل الكامل عند حلول الشهوات.

وكلاهما علاج للداء في موضعه، فالبصر الناقد هو البصيرة التي من شأنها أن تفحص وتنقد، ولا تتقبل كل ما يقال، وكل ما يفاجأ به من الشبه والأضاليل، وذلك لأن المؤمن بشيء ما، في جانب الدين، أو في أى جانب آخر من الحقائق والمبادئ، قد ركن إلى يقين، ورسا على حقيقة، وليس من شأن الراكن الراسخ أن يهتز أو يتزلزل عن موقفه بسهولة فهو يتأمل فيما يقال له، وينظر فيه نظرة الفاحص الناقد، وحينئذ لا بد من أن يتجلى له زيفه، ويظهر له فساده، فيثبت على ما هو عليه، ويرفض أن ينساق مع المتشككين المضلين.

وكذلك نرى العقل الكامل هو الذي يقف أمام ما يعرض من الشهوات موقف المقدر للعواقب، الحذر من الانزلاق في طريق لا يأمنه، ولا يعرف كيف يعود منه، فمن غلب عقله على شهوته فذلك هو ذو الحصانة والرزانة، ومن غلبت شهوته على عقله، فذلك هو ذو الطيش والمهانة.

وقد وصف الله بعض رسله الكرام بأنهم: ﴿**أُولُوا الْعَزْمِ**﴾ وأوصى نبيه وخاتم رسله - وهو منهم - فقال: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ (الأحقاف: ٣٥)، فأنبأ بذلك أن الصبر درجات، وأن أعلاها صبر أولي العزمات، وهم الذين يتحصنون به عن الاندفاع إلى الشهوات، فاستعجال العذاب للعصاة الكافرين قد يكون شهوة أو رغبة ولكن الصبر دون ذلك عزمة، وقد كان نبينا ﷺ متأدبًا في ذلك بأدب ربه، وهو القائل حين جرحوه وكسروا ثنيته «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

كما وصف الله تعالى جماعة من رسله بقوله:

﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**﴾ (ص: ٤٥).

لم يرد أنهم ذو أيد يبطشون بها، وأعين يبصرون بها، ولكن أراد - والله أعلم - أيدي القوة والعزيمة، وأبصار الفكر الثاقب، والنظر الفاحص الناقد، فبالوصف الأول كانوا أقوياء في مجابهة الشهوات، وبالوصف الثاني كانوا ثابتين في مقاومة الشبهات.

الباب العاشر

ما يقال عن الإسلام

١ ـ الإسلام دين الرحمة .
٢ ـ الإسلام بين المستشرقين والمستغربين .
٣ ـ من مغالطات المستشرقين .
٤ ـ بمناسبة الحكم في قضية كتاب «الفرقان» .
٥ ـ تحقيق في قضية مشهورة عن رواية الحديث .
٦ ـ أسئلة وأجوبتها بمناسبة صدور كتاب «وسطية الإسلام» .

الإسلام دين الرحمة

قرأت لأحد رجال التبشير بحثًا مقارنًا بين الإسلام والمسيحية جاء فيه ما معناه: أن الصورة التي يتصورها كل من المسيحي والمسلم عن الإله الخالق تختلف اختلافاً واضحاً، فبينما المسيحية تصور الإله الخالق بصورة تتجلى فيها الرحمة بالإنسان إلى درجة أنها تسميه بالأب، ذلك اللفظ الدال على الحنو والحب والعاطفة العميقة، كما يتجلى فيها الحرص على تخليص الإنسان من ذنوبه وآثامه إلى درجة التضحية بالمسيح الذي هو في نظرهم ابن الله تعالى، حيث تركه يصلب تخليصاً لابن آدم من خطاياه - بينما تعتقد المسيحية هذا في حق الإله الخالق، ترى الإسلام يصور الإله بصورة فيها كثير من الجبروت وكثير من القسوة وشدة العقاب وصرامة الحساب، ولذلك نرى الإله يوصف أحيانًا بأنه «القهار» أو «الجبار» أو «المنتقم» أو «شديد العقاب» أو «سريع الحساب» إلى غير ذلك من أوصاف البطش والجبروت. فأين هذا من ذاك؟ أين إله المسلمين من إله المسيحيين؟

هكذا قال المستشرق الذي قرأت بحثه في بعض ما نقل إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية من مقالات المتعصبين على الإسلام .

ولولا أن هذا الكلام قد يدخل على بعض شبابنا فيغتر بظاهره وينخدع ببريقه، لما أعرناه التفاتًا ولا ألقينا إليه بالاً، فإننا نعرف أن كثيراً من هؤلاء المستشرقين لا يقولون ما يعتقدونه، بل يغمضون عيونهم عن الحقائق عمداً لكي يرجعوا عن الإسلام أمام الذين يخشون عليهم أن يعرفوه على حقيقته، أو لكي يفتوا في عضد المسلمين ويشعروهم بأنهم ليسوا على شيء، وأن دينهم مناف للصفات الإنسانية العليا من الرحمة والتسامح والمحبة والسلام.

إننا نقول لهذا المستشرق:

هل يختلف الإله في المسيحية عنه في الإسلام، حتى يصح أن يقال أن المسيحية

تصوره بكذا، والإسلام يصوره بكذا؟

أن الذي بعث الرسل في كل أمة هو الله جل جلاله، فلا يمكن أن يصدر عنه في وصف نفسه ما يكون به إلهًا رحيمًا عند أمة تلقت عن رسول ، وإلهًا قاسيًا جبارًا عند أمة أخرى تلقت عن رسول آخر.

ولكن الذي يقال ولا ينبغي أن يقال سواه: هو أن الله تعالى له صفات وأسماء متعددة هي التي تنبئ عن وجوه تصرفه في ملكه، فهو السميع، وهو البصير، وهو الغفور، وهو الودود، وهو الجبار، وهو العزيز الحكيم. . إلخ.

فإذا أردنا أن نعرفه جل جلاله بصفاته فلا ينبغي أن نأخذ بعضًا وهذا المستشرق يتلاعب ويحاول أن يخدع فيبرز - وهو في مجال الموازنة - بعض الصفات التي جاءت بها المسيحية، وبعض الصفات التي تقابلها في الإسلام. وعلينا أن نسأله هل المسيحية تعتقد أن الله تعالى ليس له إلا صفة الرحمة، فليس بذي جبروت يعامل به مستحقيه من أهل الظلم والطغيان وليس بذي عزة، وليس بذي حكمة. . إلخ؟ فإن زعم ذلك تمخضت صفات الإله الخالق في الرحمة فليس له صفات تقابلها أو توائمها، وإذن فالمسيحية تصور الإله ناقصًا، بل تصوره بما لا يحب أحدنا أن يكونه، فمن منا يرضى بأن يكون خلقه هو الرحمة وحدها، دون أية صفة أخرى تحميها، وتجعل له شخصية تخشى كما ترجى؟ وإن اعترف بأن لله تعالى صفات أخرى، كان لنا أن نقول له: أن الإسلام كما يقرر صفة الجبار وصفة القهار لله تعالى، يقرر له أيضًا صفة الغفور، وصفة الرحيم وصفة الودود، وصفة العزيز الحكيم، وغير ذلك من الصفات التي هي تعبير عن وجوه تصرفه جل جلاله في خلقه، ومادامت المسيحية لا تنكر هذا الذي يقرره الإسلام، فليس معنا إذن صورة مسيحية للإله، وصورة إسلامية له سبحانه.

والخلاصة: أن لله صفات كثيرة هي المعبر عنها في القرآن الكريم «بالأسماء الحسنى» فلا ينبغي أن ينظر إلى صفة واحدة، أو نوع من الصفات بخصوصه، فيجعل هو المعرف بالله، ولكن ينبغي أن ينظر إلى جميع صفاته لتكمل وجوه عرفانه.

ثم نقول له:

إذا كانت المسيحية تصور الله تعالى في صورة الرحمة، فإن الإسلام قد وصل في ذلك إلى المدى الذي ليس وراءه زيادة لمستزيد.

أن الله تعالى في القرآن الكريم هو ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ٣)، وهو ﴿الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج: ١٤)، وهو ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر: ٣)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (الشورى: ٢٥).

والله تعالى فيما تعرف به السنة المطهرة إله تواب «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تشرق الشمس من مغربها»، ومتجاوب مع عباده «إذا تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً، وإذا تقربت إليه ذراعاً تقرب إليك باعاً وإذا أتيته تمشي أتاك يهرول»، وهو «يحب الرفق في الأمر كله، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة».

وليس معنى هذا الوصف الذي جاء في القرآن والسنة، أن الله تعالى ليس له أوصاف سواه، فلا يمكن أن يقول بهذا عاقل، فهو مع رحمته شديد العقاب، ومع غفرانه يجازي المسيئين الذين ليسوا أهلاً لغفرانه، وللرحمة مواضعها، وللعقاب مواضعه ولا يخلط بين هذا وذاك إلا ناقص، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإذا كان الشاعر يقول في شأن البشر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

فما بالنا بالإله الحكيم العليم المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقصان؟

وبذلك تبدو المغالطة واضحة في كلام هذا المبشر، فلا ينبغي لأحد أن يخدع به.

وبهذه المناسبة نستطرد في بيان مدى الرحمة الإلهية التي يصورها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، فنذكر بعض المثل من هذه الرحمة الواسعة التي طبقت في تعاليم الإسلام، لا على الإنسان فقط، ولكن على الحيوان الأعجم أيضاً، فكانت أساساً لما يعرف عن أهل الحضارة الحديثة بالرفق بالحيوان.

١ - ففي السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ، حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ، فمسح عليه فهدأ وسكت، فقال: من صاحب هذا الجمل؟ فقال فتى من الأنصار: هو لي يارسول الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا

إليَ أنك تجيعه وتدئبه» .

وهذا الحديث الشريف يوحي إلينا بمعان شريفة :

منها : أن رسول لله ﷺ عظيم الرفق، رقيق القلب حتى أنه استجاب لحنين الجمل، ورحم دموعه التي سالت حين رآه، وذهب إليه مبديًا له عاطفته، ماسحًا على رقبته وظهره كأنه يواسيه .

ومنها : أن مظهره ﷺ كان مظهر الإنسان الهادىء الطلق المحيا، وهذا أمر يأنس به الحيوان كما يأنس به الإنسان، وله شواهد كثيرة فيما نراه من تبادل المحبة بين إنسان وحيوان كأنهما من جنس واحد، ولذلك أنس به الجمل وحن إليه، وذرفت عيناه رمزًا لشكواه .

ومنها : أن رسول الله ﷺ قد فهم عن هذا الحيوان ما أراده بطريق الفراسة والنظر في حاله وجسمه، كأنه رآه مع حنينه وبكائه هزيلاً ضعيفًا فأدرك أنه متعب مُجَوع، وأن هذا إنما كان نتيجة لعدم تقوى صاحبه في شأنه ولذلك سأل عن صاحبه وقال له ما قال .

٢ - ورأى رسول الله ﷺ قرية نمل قد أحرقت فقال : من أحرق هذه؟ فقال من معه : نحن، قال : أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار .

ولعل في هذه الجملة القصيرة القوية ما يجعل البشر يرحمون أنفسهم من هذه النيران التي يوقدونها على أنفسهم، بل من هذه الذرة التي عرفوا سرها فأصبحوا يهددون جنسهم البشري بها .

٣ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ فدخل رجل فأخرج بيض حمرة - وهي ضرب من الطيور أحمر اللون - فجاءت الحمرة ترف على رأس الرسول ﷺ ، فقال الرسول ﷺ لأصحابه : أيكم فجع هذه؟ فقال رجل : أنا يا رسول الله أخذت بيضها - وفي رواية - أخذت فرخها، فقال ﷺ : « رده ، رده - رحمة لها » .

٤ - وفي سنن أبي داود من حديث عامر قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء قد لف عليه طرف كسائه، فقال يا رسول

الله أني لما رأيتك ، أقبلت فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارات على رأسي، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن فلففتها معهن، وها هن فيه معي، فقال ﷺ : ضعهن عنك فوضعتهن، وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أتعجبون لرحمة أم الفراخ فراخها؟ قالوا: نعم : يا رسول الله، قال: فو الذي بعثني نبيًا، لله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن. فرجع بهن وأمهن ترفرف عليهن.

وهذا الحديث فوق دلالته على رقة قلب الرسول، وقوة رحمته يدل على أمور:

منها: أنه هو وأصحابه ظلوا يتأملون أم الفراخ وهي تلزم أفراخها، وتأبى أن تفارقهن ولا ترضى أن تنجوا بنفسها دونهن، فعرفوا جميعًا أن ذلك راجع إلى ما أودع الله قلبها من الرحمة لأفراخها ، ورأوا فضل الله في ذلك وبديع صنعه، وعجيب سره، وهذا شأن المؤمنين يتدبرون في كل ما يمر بهم، ولا يعرضون كالذين قال الله فيهم ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥).

ومنها أن رسول الله ﷺ قد انتهز الفرصة في براعة عظيمة، وسرعة خاطر، فذكر أصحابه بمعنى من شأنه أن يبعث في قلوبهم الاستبشار والتفاؤل والحب لله عز وجل، وذلك حين ذكر لهم بعد أن عرف تعجبهم من رحمة أم الفراخ أن الله أرحم بعباده منها بأفراخها، وهذا مثل للداعية وصاحب المبدأ، يتلمس له الفرصة أينما أمكنت، وذلك خير له من خطبة يحبرها، أو رسالة يحررها.

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه فسقي الكلب فشكر الله له فغفر له.

قالوا: يا رسول الله وأن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[١].

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ المساقاة ب/ فضل سقي الماء (٢١٩٠).

٦ - ويقابل هذا الحديث فيما ذكره رسول الله ﷺ من جزاء الإحسان إلى الحيوان حديث آخر فيه جزاء عكسي على الإساءة إليه.

وذلك قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»(١).

وهكذا يقرر رسول الإسلام: إن إحسان رجل إلى كلب انتهى بهذا الرجل إلى أن شكره الله وغفر له ذنوبه، فصار من أهل الجنة، وأن إساءة امرأة إلى هرة انتهت بهذه المرأة إلى غضب الله عليها ودخولها النار.

فأي سمو في رحمة الحيوان أعظم من هذا السمو؟

وقد اقتدى أصحاب رسول الله ﷺ بخلقه الشريف في الرفق بالحيوان:

فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لعامله على الصدقات، في ضمن وصية يوصيه بها: «فإذا أخذها أمينك - يريد ماشية الصدقة - فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وفصيلها، ولا يمص لبنها - أي لا يحلب ما في الضرع جميعه - فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدنها ركوبًا، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليرفه على اللاغب، وليستأن بالنقب - وهي الرقيقة الخف - والطالع - وهي التي في مشيتها عرج، ويوردها ما تمر به من الغدر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض، وليروحها في الساعات وليمهلها عند النطاف - أي المياه الصافية - والأعشاب .. إلخ.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يضرب جمالاً بدرته ويقول: حملت جملك ما لا يطيق، وهذا أبو بكر رضي الله عنه، يوصي أمير الجيش فيقول: «... ولا تقتل هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا ما أكلت ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامرًا».

أما بعد: فهذا لون من الرحمة في شريعة الإسلام أيها المستشرق المتجني على الإسلام.

---

(١) البخاري عن ابن عمر ك/ بدء الخلق ب/ خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣٠٧١).

الإسلام
بين المستشرقين والمستغربين

نشرت جريدة «الأخبار» المصرية في بعض أعدادها خبراً هامًا خطيراً يتصل بالدراسات الإسلامية بالعنوان الآتي: «تعيين قسيس دير الدومينكان بالعباسية أستاذاً للتصوف الإسلامي بجامعة كابول» .

وجاء في هذا الخبر: أن السيد وزير التربية والتعليم بافغانستان «أصدر قراراً بتعيين القسيس سيرج دي بوروكي، قسيس دير الدومينكان بالعباسية أستاذاً للتصوف الإسلامي بجامعة كابول، وأن القسيس المذكور سيطير ليباشر عمله في أول مارس، وهو بدء العام الدراسي هناك، وأنه كان في زيارة لكابول منذ ثلاثة أشهر بدعوة من الحكومة الأفغانية لحضور ذكرى وفاة المتصوف الإسلامي الكبير عبد الله الأنصاري.. إلخ» .

وقد كتب السيد محمد رفعت مفتش ري بني سويف إلى السيد الاستاذ الكبير محمد توفيق عويضة رئيس تحرير مجلة «منبر الإسلام» بكتاب موجز طواه على قصاصة الصحيفة التي نشر فيها هذا الخبر، يقول فيه: «تحية طيبة وبعد فأرجو التكرم مشكوراً بعرض السؤال الآتي على أئمة المسلمين، وهو ألا يوجد في المسلمين جميعًا من يصلح لتدريس التصوف الإسلامي، لترشيحه لجامعة كابول بأفغانستان بدلاً من السيد قسيس دير الدومينكان؟» .

وقد رأى السيد الأستاذ الكبير رئيس التحرير تحويل هذا الموضوع إليّ، لإبداء رأيي فيه:

والموضوع متصل بقضية من أهم القضايا في تاريخ المسلمين العلمي، تلك هي قضية «المستشرقين الذين يزعمون التخصص في الدراسات الإسلامية، سواء أكانت دينية أم لغوية أم تاريخية، والذين أخرجوا تحت راية الاستشراق مئات الكتب،

وأنشأوا آلاف البحوث والمقالات في مختلف نواحي التفكير الإسلامي، أحياناً بلغاتهم الأصلية، وأحياناً باللغة العربية، وهم يعتمدون في كثير من الأحيان على دولهم، أو على الجمعيات ذات الأهداف السياسية أو التبشيرية غالباً فيما يدرسون ويصدرون وينشرون عن الإسلام.

ولقد عرف هؤلاء باسم «المستشرقين» لأنهم غربيون نزعوا إلى الدراسات الشرقية، وزعموا أنهم يتطلبون التعمق فيها لأغراض علمية أو تاريخية، ولكن الذي دفعهم إلى ذلك هو الرغبة في الاستكشاف لكل ما هو شرقي، حتى يمكن الإحاطة بأفكار المسلمين وتاريخهم ودينهم، كما أحاطوا ببلادهم وأرضهم، وطبائع شعوبهم، وإنما حرصوا على هذا الاستكشاف ليتسنى لهم زلزلة المسلمين عن دينهم وتاريخهم ومواطن عزهم ومجدهم، ولكي تبقى لهم السيطرة عليهم، والتأثير فيهم.

وهم من هذه الناحية خدام مخلصون لبلادهم، وعمال ناشطون في كل ما هو من صالح شعوبهم وسياستهم.

وكما وجد هؤلاء المستشرقون في حياة الأمة الإسلامية وجوداً واضحاً، ووجدت لهم الآثار الكثيرة على ماذكرنا، وجد في مختلف الشعوب الإسلامية فريق كبير منبث في كل ناحية من النواحي التي تمثل ألوان الثقافات العربية والإسلامية، استهواهم هؤلاء المستشرقون بمناهجهم وبحوثهم ومعارفهم، فصاروا منجذبين إليها أشد الانجذاب، متأثرين بها أعمق التأثير، لا يكادون يحيدون عنها، أو يرضون بسواها، أو يحسون بأي التواء أو زيغ فيها.

ومن الممكن أن نسمي هذا الفريق ـ «بالمستغربين» دلالة على نزوعهم هذا المنزع الغربي في أسلوبه المنهجي، ولونه الدراسي، ومعارفه المتصيدة المقتنصة من أي مصدر كان، والتي تسيطر على إنشائها وافتعالها أهواء العداوة للإسلام.

وكلا الفريقين فيما نرى يستحق منا الدراسة، كما يستحق الحذر والحيطة في كل ما يصدر عنه، ليس في الدين فقط، ولا في اللغة فقط، ولا في التاريخ السياسي أو العلمي ولكن .. حتى في الآداب والفنون وأفلام السينما، وروايات

المسرح، وكل ما هو من وسائل الإعلام والتثقيف والدعاية.

أن كلاً من «المستشرقين» و«المستغربين» يعاون الآخر في أهدافه - ولا أقول من حيث يدري أو لا يدري، لأني اعتقد أن الاستشراق له خطة ومناهج مدروسة منسقة تطبق في كل بيئة بمقدار، وفي كل شعب بحساب، وفي كل زمان بأسلوب، فإذا كان المستشرقون يتعاونون مع بعض العلماء أو الأدباء أو المؤرخين أو غيرهم، في أي شعب، فإنهم يفعلون ذلك عن إرادة وقصد وتوقيت وترقب لثمرات ونتائج، أما إخواننا «المستغربون» فهم وحدهم الذين يقال فيهم: أنهم متعاونون مع المستشرقين من حيث يدرون أحياناً، ومن حيث لا يدرون في أكثر الأحيان، ذلك بأن هناك قوماً اصطنعوا أو صنعوا لتحقيق أهداف معينة وهم يعلمون، كما أن هناك أقواماً يسيرون في طريق تحقيق هذه الأهداف وهم لا يعلمون.

وبذلك نرى لكل من المستشرقين والمستغربين نصيباً من الخطر المهدد لأمتنا وبلادنا وثقافتنا.

ونقول أيضاً في تصوير مرادنا: أن هؤلاء المستشرقين يصدرون لنا بضائعهم، فيأتي المستغربون فيروجون هذه البضائع، ويبذلون جهودهم الخائنة، أو الخاطئة، في الدعوة إليها، والإغراء بها.

وهؤلاء المستشرقين هم أبداً - ولا يكاد واحد منهم يفلت من هذا الحكم - قوم يصدرون عن عداوة وحقد متأصلين ضد الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، فتراهم يلوون الأمور افتعالاً، ويجتهدون في تصيد المعايب، فإذا سمعوا ريبة طاروا بها فرحاً، وإذا رأوا صالحاً غضوا عنه أبصارهم، والروايات الصحيحة عندهم سقيمة إذا تضمنت غير ما يزعمون أما الروايات الضعيفة أو الموضوعة فهي القوية الدقيقة مادامت تخدم فكرتهم، وتعين على وقيعتهم، وهم مع ذلك متضاربون في أحكامهم بعضهم مع بعض، وبعضهم مع نفسه.

وإذا أردنا أن نضرب بعض الأمثلة على الهراء الذي يأتي به هؤلاء، فأننا:

* نرى المستشرق (دوزي) يقرر أن رسول الله ﷺ كان صاحب خيال في حين

أن العرب مجردون عن الخيال، وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك، بينما نرى مستشرقًا آخر هو «القس لامانس» يقول: أن محمد رغم معايبه كان يفتن البدوى الذي يرى ذاته في شخص النبي العربي، كما يدعوه القرآن، وفي هذا التفاعل، أو في هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته.

فأيهما نصدق؟ أذلك الذي يصور النبي ﷺ بصورة الفذ المنفرد عن بيئته بصفة الخيال والتدين، أم هذا الذي يصوره مثلاً يرى فيه كل عربي ذاته، وتبدو فيه المطابقة التامة والتفاعل الكامل مع بيئته؟

* ونرى القسيس لامنس يقرر: أن محمداً ﷺ كانت له شهية قوية جيدة، وقد كثفت جسمه الملذات، وخدرت أعضاءه فأصبح مهدداً بداء السكتة.

بينما نرى مستشرقًا آخر هو «بينيه سنغلة» يقرر أن رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع.

فأيهما نصدق؟ أهذا الذي يصوره ضعيفًا مهزولاً من شدة الجوع والفاقة، أم ذلك الذي يصوره سميناً ذا شهية قوية جيدة، كثفت جسمه الملذات، حتى أصبح مهدداً من كثرة الشبع بداء السكتة؟

* ونرى القسيس لامانس هذا يتهم محمداً بأنه كان نؤومًا، وينسى أن الله تعالى يقول له على مسمع من المؤمنين والمشركين جميعًا: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ** ﴾ (المزمل: ٢٠)، وقد نقلت الأخبار الصحيحة أنه ﷺ كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، لطول وقوفه في الصلاة، فهل ظن لامانس أن العرب من أصدقائه أو أعدائه كانوا يسكتون على هذا التقرير القرآني الذي جاء مؤكداً بعبارة صريحة: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ** ﴾، وهم يعلمون أنه نؤوم؟ أفما كان الأعداء ينتهزونها فرصة لتكذيبه وإثبات ادعائه عن الله تعالى علم ما يخالف حاله؟ أو لم يخف محمد إذا كان مدعيًا ذلك حتى من أصدقائه أن يفقدوا ثقتهم به.

ولكن أين النقد، وأين المنطق عند هؤلاء المستشرقين الحاقدين؟

* ولامانس هذا هو الذي يقرر أن الرسول ﷺ لم يكن شجاعًا، وأن العرب

عامة قوم لا يعرفون بالشجاعة وأن عمر بن الخطاب لم يكن إلا جنديًا مسكينًا أدنى مرتبة من الوسط، أي أنه ليس بذي شخصية قوية، ومع ذلك يتضارب ونفسه حين يقرر أن عمر هو وأبو بكر كانا يسيطران على الرسول ﷺ، والحقيقة أن لامانس المسكين حين يتحدث عن عمر لا يطيق الاعتراف بقوة شخصيته؛ لأنه يكره أن يكون في الإسلام شخصيات من نوع شخصية عمر، وحين يريد أن ينتقص الرسول ينسى حكمه على عمر فيصفه بأنه كان متسلطًا على الرسول ﷺ، أي أنه كان من قوة الشخصية بحيث يتسلط على الرسول ﷺ، فأي خلط هذا؟

* والمنافقون عند هذا المستشرق الحاقد على الإسلام هم أبطال الوطنية القومية، و«الردة» في نظره العليل معناها «الانفصال»، و«المرتدون» هم «الانفصاليون»، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)، على تفسير لامانس: «إن الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة»، هذا ولو شئنا أن نعد لهؤلاء المستشرقين آلافًا من المزاعم الباردة، والأباطيل المتعمدة، والتحريفات الجاهدة، لاستطعنا، ولعلنا نؤلف - إذا يسر الله - كتابًا جامعًا لما أتوا به من الإفك والزور والبهتان على الإسلام، والله المستعان.

لقد بكرت على الإسلام حروب الهدم الفكري التي استخدمت فيها أحط الوسائل، وإذا كان من الطرق الخبيثة المنافية للشرف والإنسانية في الحروب المادية الحديثة، ما يسمى بحرب «التلويث» أو «حرب الميكروبات» فإن الحرب الفكرية التي مني بها الإسلام منذ أول عهده بالحياة، فيها أيضًا ما نستطيع أن نطلق عليه حرب التلويث الفكري أو حرب الميكروبات العقلية.

ولولا أن الإسلام دين حصين حصانة ذاتية، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، لاضطرب أمره على هذه الحروب الفكرية أو الثقافية المتتابعة الملحة التي درس أعداؤه خططها، وعكفوا في كل عصر من العصور التي مرت به على تحسينها ونهذيبها وتغذيتها بكل عناصر الهدم والتخريب.

إن أعداء الإسلام عرفوا أن من المحال القضاء عليه بالحروب المادية؛ لأن الحروب المادية لا تقضي على الأفكار، ولا تجتث المعاني والمبادئ، لذلك عمدوا من أول

الأمر إلى حرب الإسلام عن طريق النضال الفكري والعلمي، فلما وجدوا أنه في هذا الجانب قوي الحصاة، بما فيه من حقائق لا يوهنها الكذب، ولا يخلخلها التلبيس، وبما فيه من مبادىء الحياة الصحيحة، التي لا تصلح الأمم إلا عليها، ولا يستقيم الناس إلا بها، لجأوا إلى الافتراء عليه، والدس على معارفه، وإدخال كثير من المبادئ المنافية له على عامة أهله، ولا سيما في عهود الضعف السياسي، وتقلص السيطرة، وانتشار الجمود العقلي بين المسلمين.

ومن هنا وجدنا التفاسيرالكثيرة والمرويات المنتشرة التي تعد بالآلاف، وكلها مشحونة بما سماه العلماء الواعون المخلصون «بالإسرائيليات» فأينما توجهت في بحث علمي أو عقلي صادفك في طريقك لون من ألوانها كأنها أشواك وعقبات وألغام خطرة في طريق لابد من سلوكه.

ولأمر ما سميت هذه الأشواك أو العقبات باسم «الإسرائيليات» منذ القدم، فإن اليهود الذين كانوا يخالطون المسلمين، ويعيشون بينهم في المدينة، قد ذلوا سياسيًا، وخضعوا حربيًا، ولكنهم قرروا الانتقام بوسيلة (التلويث) لأفكار المسلمين فأسلم الكثيرون منهم تظاهرًا بالاقتناع ثم دسوا على المسلمين في كل جانب من الجوانب الدينية أفكارًا في صورة الرواية والنقل من شأنها أن تزلزل عن الإسلام، وتصد أرباب العقول عنه، وزوروا في التاريخ، واقتسموا الناس، فجعلوا من هؤلاء شيعة، ومن هؤلاء سنة، ومن هؤلاء معتزلة، ونشطت معامل الوضع والاختلاق فوضعت الأحاديث كذبًا على رسول الله ﷺ وعلى كبار أصحابه، واجتلبت الفلسفات وقلدت وأحكم تقليدها .. إلى غير ذلك من أساليب المخادعة والمخاتلة، والدس على العلوم والأفكار، حتى أصبح التراث الإسلامي مشوبًا بكثير من الشوائب محتاجًا إلى التزام مناهج تقوم على التنقية والغربلة والتطهير أكثر مما تقوم على التعلية والتقوية، وهذا هو السر في أن العصور التي تلت ذلك اتسمت بإغلاق باب الاجتهاد، واعتبرت عصور ركود للعقلية الإسلامية، وما عقم المسلمون في الواقع ولا ركدوا ولكنهم شغلوا إلى حد بعيد بتخلية الطريق ، فكان هم علمائهم وجهابذتهم أن يقفوا محذرين عن الأخطار، منبهين إلى العقبات

والصعوبات وما دسه الأعداء، فألفوا في تمييز الأحاديث الموضوعة، وبيان الصحيحة ودرسوا الرواة دراسة تجلو شخصياتهم ، وتعرف بهم أتم تعريف، كما درسوا قواعد القبول والرد، وهكذا.

وإذا كنا نحس في عصورنا الحديثة بمن سميناهم «المستشرقين» و«المستغربين» فقد كان الأمر كذلك من قديم، فهناك الذين بنوا الأكاذيب واجتلبوا ما لم يكن، وهناك الذين تقبلوا وروجوا بقصد وتدبير في بعض الأحيان، وعن غفلة في كثير من الأحيان، ولكن الأمة ظلت متيقظة في مجموعها، سليمة في ملامحها التفكيرية الإسلامية، وظل فيها من ينهض لرد هذه الغوائل عنها، فينقون تراثها من زيغ الزائغين، وتحريف المحرفين وضلال المضلين.

ولقد عرفنا من تاريخ الحرب التي أثيرت على الإسلام والمسلمين أن عصابات من اليهود أدخلت على تركيا التي كانت دولة الخلافة الإسلامية، فأسلم كثير منهم ظاهراً وتعلموا مختلف العلوم والصناعات، ليتسنى لهم أن يداخلوا المسلمين في كل شأن من شئونهم ، ويختلون ما استطاعوا إلى ختلهم سبيلاً، بل كان منهم من اتجهوا إلى الدراسات الحربية وداخلوا المسلمين في وظائفهم العسكرية، حتى كان منهم الضباط والقادة ، فتمكنوا من بث أفكارهم الهدامة في كل جانب من جوانب حياة المسلمين وهم لا يشعرون.

والآن نرى لوناً آخر من ألوان حرب التلويث، يقوم به أساطين الصهيونية في مختلف الجامعات الغربية والأمريكية قسماً للدراسات الإسلامية يرأسه صهيوني شديد العداوة للإسلام ، ويعاونه واحد أو أكثر من هؤلاء المعروفين بالمستشرقين، وهم يدرسون الإسلام على طريقتهم التقليدية التي لا يمكن أن تكون تجلية للإسلام في وضعه الصحيح، والدراسة التاريخية على وجه من الإنصاف والعدالة، ولكنهم يجتهدون في الهدم وتسميم الأفكار ضد الإسلام وتلويث مبادئ الإسلام.

من مغالطات المستشرقين

من المعروف أن الإمام محمد بن مسلم، المشهور بابن شهاب الزهري، وهو أول من استجاب لدعوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حين عزم على تدوين السنة النبوية المطهرة، وكتب بذلك إلى عماله في الأقاليم الإسلامية، وكان ممن كتب إليهم بهذه الدعوة عامله على المدينة يومئذ : أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وقد جاء في كتابه إليه «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنة ماضية، فاكتبه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله» دروس العلم أي اندراسه.

وفي بعض الروايات التي تذكر هذا الكتاب : أن عمر بن عبد العزيز نبه أبا بكر ابن حزم هذا إلى اثنين من كبار حملة الحديث خاصة ، هما : عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وكلاهما كان من تلاميذ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانا من أعلم الناس بأحاديثها عن رسول الله ﷺ .

ولكن أبا بكر بن حزم لم يدرك عمر بن عبد العزيز بما كتبه عنهما، لأن عمر وافته المنية قبل تمام ذلك، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وإنما حقق رغبة عمر، ولبى نداءه في حياته : ابن شهاب الزهري، الذي دون له من أحاديث رسول الله ﷺ ،ومن سننه المتبعة، وأقوال الصحابة، وفتاوى كبار التابعين، كتاباً لم يقصر فيه على ما روي عن عمرة ومحمد بن القاسم، بل جمع ما روي عنهما وعن غيرهما، فكان عمر بن عبدالعزيز يبعث إلى كل إقليم بدفتر من دفاتره ليعرفوه وينتفعوا بما فيه، وقرت عين عمر بن عبد العزيز بذلك، إذ رأى أمنيته تتحقق قبل أن يلحق بربه، واطمأن على تدوين السنة، ولم يكن الصحابة والتابعون من قبل يتحمسون لهذا التدوين إلا قليلاً منهم، خوفاً على القرآن من أن يختلط به غيره، ومن أن يعكف الناس على ما سواه مشتغلين عنه، كما فعل أهل

الكتاب من قبل حيث تمكنوا على أخبار أنبيائهم وأقوال حوارييهم حتى نسوا الكتاب الذي أنزل عليهم.

ومع أن هذه النظرة المحافظة كان يعتنقها عمر بن الخطاب، ومع أن عمر بن عبد العزيز كان يتتبعه في أعماله ويتشبه به في أخلاقه وعدله، ويجرى على خطته، نراه في شأن تدوين الأحاديث يخالف جده ابن الخطاب، لإدراكه أن الظروف قد تغيرت، وأن الحديث الذي كان من قبل محفوظًا في الصدور، مرويًا بألسنة حفاظه والناقلين له شفاهًا، يوشك أن يذهب بذهاب هؤلاء العلماء كما صرح في كتابه إلى عماله، فرأى من الخير ومن مصلحة المسلمين أن يفعل ذلك ولو خالف جده عمر بن الخطاب في رأيه ونظريته، وخالف كثيراً من العلماء الذين كانوا يتحرجون من التدوين، ومن العجيب أن ابن شهاب الزهري كان منهم، ولكن عزيمة عمر بن عبد العزيز، وشدة رغبته في ذلك، واجتهاده في إقناع العلماء برأيه، كل ذلك جعل ابن شهاب يرجع عن رأيه الأول، ويقبل رأي عمر بن عبد العزيز، ويسرع إلى تلبية دعوته، ويكون هو أول من يستجيب لها استجابة عملية تنفيذية، وبهذا ثبت له الفخر العلمي في هذا الشأن، وسجل تاريخ تدوين الحديث أنه هو السابق في إحراز هذا الشرف.

ولكي نتبين شدة حرص عمر بن عبد العزيز على التدوين، وشدة معارضة بعض علماء الحديث في عصره لذلك، نورد ما روى من أن عبيد الله بن عبدالله ـ وكان من كبار رجال الحديث ـ دخل على عمر بن عبد العزيز، فأجلس عمر جماعة من الكتاب يكتبون ما يقوله عبد الله، فجعل يروي الأحاديث عن رسول الله ﷺ وهم يكتبون ما يقول دون أن يعلم، فلما أراد أن يقوم رأى عمر بن عبد العزيز أن الأمانة تقضي بأن يخبر الرجل بأنهم كتبوا عنه ما قال، وبأن يستأذنوه في نشر ذلك، فقال له عمر:

لقد صنعنا شيئًا. قال عبيد الله: وما هو يابن عبد العزيز؟ قال: كتبنا ما قلت. قال: وأين هو؟ فجاءوا إليه بالصحف التي كتب فيها فتناولها بيده وخرقها وأتلفها.

فهذا يدل على أن العلماء لم يكونوا كلهم يوافقون عمر على التدوين، لما وقر في نفوسهم من عظم هذا الأمر، وأنهم لم يسبقوا له، أي بالتدوين على وجه رسمي عام يكون للناس جميعًا، وإلا، فقد كانت هناك صحف تكتب من قبل، كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي تعرف بالصحيفة الصادقة ولكنها لم تكن إلا خاصة به وبما سمعه أو رواه هو عن رسول الله ﷺ وهذا شيء غير التدوين الذي يراد به أن يحل من الناس محل الكتب العامة التي من شأنها أن يعتمد عليها ويرجع إليها.

ولقد استغل أعداء الإسلام من المستشرقين هذه الوقائع التاريخية وغيرها مما اتصل بتدوين السنة ومن دونها وفي أي عصر دونت، كما هو رأيهم في تصيد الشبه ومحاولة العثور على ما يفيدهم في حملة التشكيك والفتنة عن الدين، وزلزلة عقائد الشباب والمثقفين منهم خاصة بالثقافات الغربية مع بعدهم عن المعارف الإسلامية الأصيلة، فكان من خطتهم أن يهاجموا ابن شهاب الزهري ويتهموه باختلاق الأحاديث تأييدًا لبني أمية الذين كانوا يقربونه إلى حد أنه كان مربيًا لبعض أبنائهم.

وإنما عنيَ المستشرقون أولو الهوى ولاغراض خبيثة بتحطيم ابن شهاب، أو بمحاولة تحطيمه، لأنه هو أول من دون السنة على ما ذكرنا، فإذا رأى المثقفون من شباب المسلمين أن الرجل الأول في تدوين الحديث به الشبه، وتتقاذفه التهم، علموا أن علم الحديث كله إنما هو علم قائم على غير أساس - ألا ساء ما يحكمون.

ونحن لا نعرض في هذا المقال إلى تاريخ ابن شهاب الزهري، وإجماع العلماء على جلالة شأنه في علمه وخلقه وفضله وصدقه وجرأته في الحق وأمانته في الحديث، ولا نعرض لمواقفه التي وقفها مع بعض الخلفاء نصحًا لهم، أو عتابًا، أو لومًا، أو غضبًا، ولا نتحدث عن شيوخه الأجلاء الذين عاصرهم وروى عنهم وكانوا يشهدون له بالصدق، ويراقبون ما يرويه فلا يجدون فيه إلا الصدق، ولو علموا فيه اختلافًا أو تزلفًا إلى الحكام، أو اتجارًا بالحديث لأنكروه وتنكروا له.

لا نعرض لذلك كله، فإن كتب الحديث، وتراجم الرجال مملوءة بالكثير منه، وكلها تشهد لهذا الإمام العظيم أعظم شهادة، تعرف له صدقه وإخلاصه وكبير جهاده في خدمة السنة المطهرة، وحسبنا هذه الكتب شهادة بيننا وبين هؤلاء المفترين للكذب من المستشرقين، فما علمنا أن أحداً من السابقين، أو أن مصدراً من المصادر الإسلامية الصحيحة، ذكر ابن شهاب إلا بالخير والإخلاص والدقة.

ولكننا نكتفي بإيراد مثالين من مغالطات هؤلاء المستشرقين الخبثاء في شأن الزهري، ونورد مناقشات أهل العلم لهذين المثالين، ليتبين للناس أن هؤلاء المستشرقين لم يكتبوا بروح الإنصاف أو التحقيق العلمي، ولكنهم كتبوا ويكتبون بروح العداء والتحريف، وأكثرهم من اليهود الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ (المائدة: ١٣).

المثال الأول: اتهام شيخ المستشرقين جولد تسيهر يقول فيه ما خلاصته:

«أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج أيام فتنة ابن الزبير، وبنى قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها بدلاً من الكعبة ويطوفون بها، ثم أراد - أي عبد الملك بن مروان - أن يحمل الناس على الحج إليها بعقيدة دينية، فوجد الزهري وهو ذائع الصيت في الأمة الإسلامية مستعداً لأن يضع له أحاديث في ذلك، فوضع أحاديث منها حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى» ومنها حديث: «الصلاة في المسجد الأقصى تعدل ألف صلاة فيما سواه».

وأمثال هذين الحديثين، والدليل على أن الزهري هو واضع هذه الأحاديث: أنه كان صديقًا لعبد الملك وكان يتردد عليه، وأن الأحاديث التي وردت في فضائل بيت المقدس مروية من طريق الزهري فقط.

المثال الثاني: وهو من اتهامات جولد تسيهر للزهري أيضًا: يقول فيه:

«ولم يكن الزهري يستطيع دائمًا - مع تقواه - أن يتحاشى تأثير الدوائر

الحكومية، وقد تحدث معمر عن الزهري بكلمة مهمة، وهي قوله:

«أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب أحاديث» .

فهذا الخبر يفهم منه استعداد الزهري لأن يكسو رغبات الحكام باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية، ولم يكن الزهري من أولئك الذين لا يمكن الاتفاق معهم».

هذان هما المثالان، وقد أجاب عنهما المرحوم الشيخ مصطفى السباعي خريج كلية الشريعة أحسن إجابة، إذ يقول ما خلاصته:

أ ـ في قصة الصخرة :

أولاً: أن المؤلفين الثقات لم يختلفوا في أن الذي بنى قبة الصخرة هو الوليد بن عبد الملك ـ وليس عبد الملك كما زعم المستشرق ـ ذكر ذلك ابن عساكر والطبري، وابن الأثير، وابن خلدون، وابن كثير، وغيرهم، ولم يذكر أحد أن عبد الملك بناها إلا الدميري في كتابه (حياة الحيوان) نقلاً عن ابن خلكان، وعبارته هكذا.

«بناها عبد الملك، وكان الناس يقفون عندها يوم عرفة» .

فنسبة بنائها لعبد الملك رواية ضعيفة كما ترى، ولو صحت فمن أين له أن عبد الملك بناها ليحج الناس إليها ويطوفوا بدلاً من الكعبة؟ أن الرواية التي رواها الدميري لا تقرر أكثر من أن الناس كانوا يقفون عندها يوم عرفة، وهذا شيء تجري العادة بمثله، فإن بعض الذين لم يتيسر لهم الحج قد يخرجون إلى بعض المساجد، ويدعون الله تعالى بما شاءوا، لإحساسهم بأن هذا الوقت هو وقت الفيض الإلهي على أهل عرفة، فهو في نظرهم وقت مبارك، فأين هذا من الزعم بأنها بنيت ليحج الناس إليها ويطوفوا بها بدل الكعبة.

ثانياً: إن بناء شيء ليحج الناس إليه ويطوفون به بدل الكعبة هو كفر صراح، فكيف يقدم عليه عبد الملك بن مروان، وقد كان يلقب بأنه «حمامة المسجد» لكثرة تردده عليه ولو أن ذلك حدث لما تركه خصومه ولا خصوم الدولة الأموية، بل لشنعوا عليه به أعظم تشنيع، وهذا ما لم يعرف في التاريخ.

ثالثاً: أن من الثابت تاريخياً أن الزهري لم يعرف عبد الملك إلا بعد قتل ابن

الزبير ببضع سنوات، فكيف يصح أن يكون قد طلب منه وضع حديث القبة أو الصخرة وقد انتهى ابن الزبير ولم يعد هناك ما يمنع من ذهاب الحجاج إلى البيت الحرام الذي كان ابن الزبير صاحب السلطة عليه قبل أن يقتل.

رابعًا: أن هذا المستشرق يكذب حين يزعم أن حديث (لا تشد الرحال) لم يرد إلا من طريق الزهري، فإنه في الواقع مروي من طرق مختلفة غير طريق الزهري فقد أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري من غير طريق الزهري، ورواه مسلم من ثلاث طرق أحداها من طريق الزهري، وثانيتهما من طريق جرير عن ابن عمير عن قزعة عن ابن سعيد، وثالثتهما عن طريق ابن وهب دون دخل للزهري في هذا الطريق أيضًا ـ وإذن فهو مروي من غير طريق الزهري أيضًا.

خامسًا: أن الزهري روى هذا الحديث عن شيخه سعيد بن المسيب، فهل من الممكن أن يسكت سعيد بن المسيب عن الزهري لو أنه كان قد وضع هذا الحديث على لسانه إرضاء للأمويين وهو الذي كان في الشجاعة والمعارضة لبني أمية معروفًا.

٢ ـ قول الزهري أن هؤلاء أكرهونا على كتابة أحاديث :

أن هذا النص الذي نقله جولد تسهير فيه تحريف يسير، ولكنه تحريف قلب المعنى رأسًا على عقب، وأصله كما في ابن عساكر وابن سعد: أن الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس، فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يملي على ولده، أملى عليه أربعمائة حديث، ثم خرج من عند هشام وقال بأعلى صوته:

«أيها الناس إنا كنا منعناكم أمرًا قد بذلناه الآن لهؤلاء، وأن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث، فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة حديث».

هذا هو النص التاريخي لقول الزهري، ولكن المستشرق الخبيث غير كلمة الأحاديث فجعلها «أحاديث» وكم من فرق بين هذا وذاك، فإن الزهري كما تفيد عبارته الأصلية يقول للناس: أننا كنا نمتنع عن كتابة الأحاديث، كمبدأ لنا

لاعتبارات قامت لدينا، لكن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث، أي على أن نكتب الأحاديث التي نعرفها والتي صحت لدينا، فالإكراه إنما هو على الكتابة لا على كتابة أحاديث بعينها، فالزهري يريد أن يبذل للناس ما كان قد منعه عنهم، لئلا يكون قد آثر الأمراء بالعلم دون أن يبذله للشعب عامة، لكن المستشرق خيل للناس بتحريفه المقصود من غير شك أن الزهري يعترف بأنه اكره على كتابة أحاديث أي أنه رضى بالكذب على رسول الله وكتب ما لم يصح عنه خضوعاً لهؤلاء الأمراء - وتلك مغالطة كبرى كالمغالطة الأولى .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥).

بمناسبة الحكم في قضية كتاب « الفرقان » : علموهم يكونوا لكم

في الشهر الماضي أصدرت « محكمة القضاء الإداري » بمجلس الدولة حكمها في قضية كتاب « الفرقان » الذي ألفه محمد عبد اللطيف أفندي وكانت الحكومة قد صادرته بناء على طلب مشيخة الجامع الأزهر؛ لما تضمنه من مطاعن في القرآن الكريم رسمًا وتلاوة، وفي السنة المطهرة متنًا وسندًا، فطلب مؤلفه من المحكمة أن تلغى هذه المصادرة، وأن تحكم له بتعويض كبير قدره بما أصابه من ضرر أدبى ومادى نتيجة لهذه المصادرة .

وقد كان لكاتب هذه السطور وزميلين كريمين له جهد في فحص هذا الكتاب، ورفع تقرير عنه، ثم في الاتصال بالقضية ومتابعة أطوارها، ويهمنى أن أبادر بتسجيل شكري باسم الدين والعلم والأزهر لحضرات أعضاء هذه المحكمة العادلة، ولا سيما رئيسها الجليل سامي مازن بك، فقد لمست عنايتها الفائقة بالموضوع، وحرصها الشديد على تتبع كل ما يتصل به ليتجلى لها الحق، ويسفر أمامها الرأي واضحًا في هذا الموضوع الخطير، حتى لقد علمت أن حضراتهم قرأوا في موضوع الرسم والقراءات عشرات من الكتب المؤلفة قديمًا وحديثًا، ووقفوا عند كل موضوع من الموضوعات المتصلة بالقضية موقف الناقد البصير، والفاحص الخبير، وإن سعادة الرئيس لم يكن يكتفى بهذا، ولكنه كان يتناقش شفويًا مع العلماء في كل نقطة يرى وجوب استجلائها قبل الحكم، وقد زار الجامع الأزهر واتصل ببعض علمائه باحثًا منقبًا حتى اطمأن قلبه .

وكذلك فعل حضرة الأستاذ الكبير عبد الحليم بك الجندي المحامي عن الحكومة والأزهر في هذه القضية، بل المحامي عن القرآن الكريم، فقد كان مثال المؤمن بالله وكلماته، الغيور على كتابه، الحريص على تجلية الحق، والظفر له بحكم يسجله

التاريخ، ولست أنسى ما حييت موقفه يوم الدفاع عن كتاب الله، وقد أخذته حمية الإيمان، وهزت مشاعره الحماسة الدينية، فتدفق بيانًا بالبراهين الدامغة، وصدع صوتًا بالحق في إخلاص عميق مؤثر، حتى لكأن نبراته يومئذ نداء من السماء أن خذوا على يد هذا المسيء، وعلموه أن كتاب الله لا تنال منه الترهات، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فاللهم أشكرهم على ما سعوا، وأجزهم بالخير على ما رعوا، وأكثر في المسلمين أمثالهم ممن يغارون على الحق، وينصفون في الحكم.

كتبت هذا الكلام اعترافًا بفضل أصحاب الفضل، وتسجيلاً له، وأقول بعد هذا:

لقد كثر في هذا العصر التطاول على الدين، والتجرؤ على حقائقه وأصوله المسلمة، وأصبحنا نرى كثيراً ممن يريدون الشهرة، ويلتمسون الرواج، يجعلون سبيلهم إلى ذلك ما يحاولونه من التشكيك في الدين في قدرة أحكامه وتشريعه على النهوض بحاجات الناس، وكفالته لسعادتهم، وما هكذا تلتمس الشهرة، ولا بمثل هذا يكون الظهور، قد كان سلفنا يقضون أعمارهم في البحث والتعمق والنظر الصائب، ويصبرون على متاعب العلم، ومصاعب التفكير، ويجعلون لأنفسهم حدوداً لا يتعدونها، فهم في فلك الكتاب والسنة يدورون، وعلى أساس من العقل السليم، وأصول الشريعة يحكمون، لذلك كانت تآليفهم موفقة، نافعة، راشدة، وكانت أخطاؤهم إن أخطأوا مغفورة، لأنها أخطاء المخلصين الذين لا يبتغون إلا الحق والمعرفة، فإن أصابوا أجروا، وأن أخطأوا أجروا، ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ (الأعراف: ١٦٩، ١٧٠).

ومن الخير أن نتعرف العوامل التي دعت إلى أن يكثر فينا هذا الصنف من المؤلفين ذوي الدعاوي العريضة، والأقلام الطائشة.

وأحسب أن الأزهر إذا اكتفى بأن يصادر كتابًا أو كتابين في كل عام، فإنه غير مستطيع وقف هذا التيار الذي إن بدا اليوم هادئًا بعض الهدوء، فسيكون غداً جارفًا مكتسحًا.

وفي اعتقادي أن الناس لم يجدوا غذاء دينيًا صالحًا يقدم لهم، فأقبلوا على مثل هذا الغذاء الذي تضوى به العقول، وهذه سنة الله في كل مجتمع، فإن أي تقصير في بث الأفكار الصالحة فيه، يستتبع بقدره إقبالاً على الأفكار الفاسدة، أو المخطئة، فلو أن الأزهر أخذ بوسائل العصر الحاضر في تنوير العقول، وتجلية الحقائق أمامها، ومدها بزاد طيب لا خبث فيه ولا نكر، لكانت الأمة كلها كأهل الأزهر، ولكان بعض أفرادها دعاة ذوي غيرة، ولوُجد المجتمع الحفيظ بعضه على بعض من الزلل والضلال.

وقد علمتنا تجارب الأمم في العصور الأخيرة، أن الشعوب تصاغ، وأن العقول تحشد وتجند، وأن زعيمًا مخلصًا لفكرة، مؤمنًا بعقيدة، يستطيع أن يقنع بها جيلاً بأسره، أو أجيالاً، إذا أحسن الدفاع عنها، وتوجيه العقول إليها.

ونحن في أيدينا أقوم المبادئ، وأثمن الشرائع، وليس فيما عرفته البشرية من الأديان، ما يقف أمام ديننا موقف المنافسة أو المنازعة، وبين ظهرانينا كتاب الله وسنة رسوله، وفي مكتباتنا خير ما أنتجته العقول، وجادت به القرائح وقد أوتينا قسطًا عظيمًا من السلطان في الأمة، والقدرة على توجيهها بما في أيدينا من مناصبها وأموالها، وبما لنا من نفوذ روحي ديني لا يتمتع به حزب، ولا تنافسنا فيه جماعة، ولكن ينقصنا حسن الانتفاع بهذه المزايا، وأننا قد شغلنا عن رسالتنا بأشخاصنا، وتفرغنا للمنازعات والمخاصمات، من سرية وعلنية، فأرهقنا بذلك أعصابنا وعقولنا، وصار الكلال والتخاذل والتراخي من أبرز الصفات في محيطنا.

يجب أن نعمل، بل أن نشقى ونحفى في العمل، حتى نستطيع أن نربي ناشئة

منا على فهم الدين والعلم فهمًا صحيحًا، وعلى عشقهما العشق الذي يجعلنا نفنى فيهما، ونتلذذ بما يصيبنا في سبيل تحصيلهما وترويجهما في الناس.

يجب علينا أن ننير العقول بما عندنا من العمل، فقد جربت بنفسي أن كثيرًا من المثقفين ثقافة مدنية يقابلون بعض أفكارنا مقابلة فيها جفوة وتنكر، بل فيها أحياناً سخرية وتهكم، ثم لا يلبثون إذا شرحت لهم شرحًا دقيقًا، أن يتبينوا الحق، ويفيئوا إليه، ويكونوا من دعاته.

وليس هذا على المجتمعات بغريب، فإنه لسنَّة الله فيها منذ القدم، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قبل أن يؤمنوا أساطين الشرك، وأسانيد الكفر، فاستطاع فرد واحد، ثم أفراد معه أن يغزوا بهم العالم، ويغيروا وجه التاريخ.

إننا نشكو من انصراف الأمة عنا، ونغضب حين نرى رجال الحكم فيها يغضون عن مطالبنا، ولا وسيلة إلى مداواة هذا وذاك إلا بأن نعمل ونعمل ونعمل، يومئذ يأتي إلينا الدهر معتذراً، ويطرق أبوابنا الذين نطرق اليوم أبوابهم فلا يجيبون.

تحقيق في قضية مشهورة
عن رواية الحديث

اشتهر عن كثير من العلماء : أن بعض الخلفاء الراشدين كانوا لا يسارعون في قبول رواية الحديث، بل يدققون ويشترطون أن تؤيد الرواية التي تصل إليهم من أحد الصحابة برواية أخرى تشد أزرها وتوثقها، أو بيمين يحلفها ذلك الراوي الصحابي أنه سمع ما سمع من رسول الله ﷺ .

والخلفاء الراشدون الذين يروى عنهم ذلك هم :

أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ـ فأما أبو بكر الصديق؛ فقد روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ وهو بصدد الترجمة له : أنه كان أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث ـ أي أن تأخذ نصيبًا من الميراث من تركة ميت هي جدته ـ قال أبو بكر : ما أجد لك في كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال : كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له أبو بكر : هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بذلك، فأنفذه لها أبو بكر .

ويؤخذ من هذا أن أبا بكر رضي الله عنه توقف في قبول رواية المغيرة، مع أنه صحابي، ولم يسارع إلى الحكم للجدة بنصيب من الميراث كما طلبت حتى علم بهذه السنة النبوية من محمد بن مسلمة مضمومًا إلى المغيرة .

ـ وأما عمر بن الخطاب؛ فقد أخرج مسلم عن أبي سعيد : أن أبا موسى سلم ـ ذات يوم ـ على عمر من وراء الباب ثلاثًا، فلم يؤذن له، فرجع، فأرسل عمر في أثره

فقال: لم رجعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سلم أحدكم ثلاثًا فلم يجب فليرجع، قال عمر: لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك ـ أي لأعاقبنك ـ قال أبو سعيد: فجاءنا أبو موسى ممتقعًا لونه ونحن جلوس؛ فقلنا: ما شأنك، فأخبرنا وقال: فهل سمع أحد منكم؛ فقلنا: نعم، كلنا سمعه، فأرسلوا معه رجلاً منهم فأخبره.

وروي أيضًا عن هشام عن أبيه عن المغيرة ابن شعبة: أن عمر استشارهم في إملاص المرأة ـ أي في التسبب من إسقاطها جنينها من ضربة أو نحوها ـ فقال المغيرة: قضى فيه رسول الله ﷺ بغرة ـ وهي العبد أو الأمة، أي أن رسول الله ﷺ قضى على من تسبب في إسقاطها بأن يقدم عبداً أو أمة على سبيل الدية أو التعويض للمرأة المجهضة أو لوالد الجنين الذي أسقط ـ فقال عمر للمغيرة: إن كنت صادقًا فائت بواحد يعلم ذلك: قال: فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ قضى بذلك ـ في مثل هذه القضية.

وأما علي بن أبي طالب؛ فقد روى عن أسماء بنت الحكم الغزاري أنه سمع عليا رضي الله عنه يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا، نفعني الله بما شاء أن ينفعني به، أي أخذت به دون تردد فنفعني الله به وكان إذا حدثني غيره استحلفته، فإذا حلف صدقته وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: ما من عبد يذنب ذنبًا ثم يتوضأ ويصلي ركعتي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له.

وبذلك يتبين أن كلاً من عمر رضى الله عنه، وعلي كرم الله وجهه، كانا يتوثقان كما كان أبو بكر يتوثق في رواية الحديث وقبوله: هذا باستحلاف الراوي، وذاك بطلب الشاهد المؤيد للرواية.

وقد أدى ذلك بكثير من الباحثين إلى أن يقرروا أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة كانت لهم خطة خاصة في قبول الرواية لم تكن لغيرهم، وأن هذا لون من ألوان الحرص على الدقة في رواية الحديث، ودفع الناس عن التجرؤ في شأنه دون توثق وتحفظ، ولا شك أن التأكد من صدق الحديث بالتثبت في الرواية أمر محمود يجب على

كل مؤمن، ولكن هذا الاشتراط من الخلفاء الثلاثة يثير منافسة في أمرين هامين:

أحدهما: هل يجوز التردد في قبول رواية الصحابي؟

الثاني: أليس جمهور أهل العلم متفقين على العمل بخبر الواحد؟ فما بال أبي بكر وعمر وعلي لا يقبلونه حتى من الصحابي؟

وتحقيق القول في ذلك يتبين مما يأتي:

١ ـ من المعروف أن الصحابة جميعًا عدول، لأن الله تعالى شهد لهم بالعدالة في كتابه كما هو رأي أهل السنة، ومن المعروف أيضًا أنهم كانوا يتقبلون رواية الواحد منهم دون أن يخالجهم شك في صدق روايته، وإن كان بعضهم قد يناقش متن الحديث المروي أحيانًا، ودراسة المتن شيء، وإنكار الرواية شيء آخر.

٢ ـ وقد رويت أحاديث كثيرة رواية آحادية لكل من هؤلاء الخلفاء الأجلاء رضي الله عنهم فقبلوها دون تردد، ولم يطبقوا عليها ذلك الذي قيل: إنهم يشترطونه من شهادة راو آخر، أو من يمين يحلفها الراوي الواحد.

فأبو بكر رضي الله عنه ، كان ـ كما يقول ابن القيم ـ إذا ورد إليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما قضى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن النبي ﷺ قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، وإن لم يجد سنة سنها النبي ﷺ جمع الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به.

ويقول المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) :

« .. وقد عرضت على أبي بكر حوادث كثيرة رجع فيها إلى سنة رسول الله ﷺ ، وليس فيها أنه طلب ممن أخبره عن رسول الله راويًا آخر يشهد له إلا هذه الحادثة، بل ذكر الرازي في المحصول: أن أبا بكر قضى بقضية بين اثنين فأخبره بلال أنه عليه السلام قضى فيها بخلاف قضائه فرجع ».

وقد قبل عمر رضي الله عنه الحديث الذي رواه له عبد الرحمن بن عوف من أن

النبي ﷺ قال في شأن الوباء: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»(١).

وأخرج البيهقي عن هشام بن يحيى المخزومي أن رجلاً من ثقيف أتى عمر بن الخطاب فسأله عن امرأة حاضت وقد كانت زارت البيت، ألها أن تنفر قبل أن تطهر؟ فقال: لا، فقال له الثقفي: إن رسول الله أفتاني في مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت، فقام إليه عمر فضربه بالدرة وهو يقول: لم تستفتونني في شيء أفتى فيه رسول الله ﷺ؟

فقد عمل عمر رضي الله عنه برواية آحادية هي التي رواها له عبد الرحمن بن عوف عن الوباء، وفي ذلك يقول ابن شهاب: وأخبرنا سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر إنما انصرف بالناس ـ فلم يمض بهم إلى الشام يومئذ، بل عاد أدراجه من الطريق ـ وذلك لما سمع حديث عبد الرحمن بن عوف.

وقد قبل عمر رواية الثقفي من الخبر الثاني، وإنما ضربه بالدرة لأنه وهو يعلم أن لرسول الله ﷺ فتوى في ذلك، ما كان ينبغي له أن يستفتي غيره.

وهناك أحاديث غير ماذكرنا قبلها عمر من راويها الصحابي دون أن يشترط أن يؤتى له براو آخر.

وأما علي رضي الله عنه فقد قبل رواية المقداد بن الأسود في حكم المذي من غير تحليف له، ونرى في الخبر الذي روى عنه أنه كان يستحلف، ومع ذلك لم يستحلف أبا بكر، بل قال في لغة رقيقة مهذبة: «وحدثني أبو بكر ـ وصدق أبو بكر ـ، فالخبر نفسه يدل على أنه كان يقبل رواية الآحاد، وإن كان يستحلف الراوي في بعض الأحيان.

بهذا كله يتبين أن الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم كانوا يقبلون خبر الآحاد ويعملون به كغيرهم من الصحابة، لا يشترطون راوياً آخر أو توثيقاً بالحلف إلا في بعض الأحيان.

وقد صح أن عمر رضي الله عنه عوتب في شأن أبي موسى حيث طلب منه أن يأتيه براو آخر يشهد بما قال، فأجاب عمر: إني لم أتهمه ولكني رأيت أن أتثبت

---

(١) البخاري عن عمر بن الخطاب ك/ الطب ب/ ما يذكر في الطاعون (٥٢٨٨).

وصرح بذلك لأبي موسى نفسه فيما بعد، إذا قال له: أما إني لم أتهمك لكنه الحديث عن رسول الله ﷺ .

- ولما كان ما روى عن الخلفاء الثلاثة من الجري على خطة الاستشهاد والاستيثاق متعارضًا مع ما روى عنهم من قبول رواية الواحد من الصحابة دون تردد؛ رأينا العلماء يحاولون تأويل مواقف هؤلاء الخلفاء فيما انفردوا به من هذه الخطة في بعض الأحيان عن غيرهم، وعن أنفسهم في أكثر الحالات.

فالشافعي رحمه الله تعالى يعرض للأخبار التي رويت عن عمر في التثبت ثم يقول: إن عمر قد رويت عنه أخبار بقبوله خبر الراوي الواحد، فلا يجوز أن يقبل مرة خبر الراوي الواحد، ولا يقبله مرة أخرى.

ويذكر أن موقفه مع أبي موسى إنما كان على سبيل الحيطة وزيادة التأكد، فإن أبا موسى ثقة أمين، ويستدل لذلك بقوله لأبي موسى: «إني لم أتهمك ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ » .

والغزالي في المستصفى يقول:

«أما توقف أبي بكر في حديث المغيرة في توريث الجدة، فلعله كان هناك وجه اقتضى التوقف، وربما لم يطلع عليه أحد، أو لينظر أنه حكم مستقر أو منسوخ، ، أو ليعلم: هل عند غيره مثل ما عنده ليكون الحكم أوكد، أو خلافه فيندفع، أو توقف في انتظار استظهار بزيادة كما يستظهر الحاكم بعد شهادة اثنين على غرم الحكم إن لم يصادف الزيادة، لا على غرم الرد، أو أظهر التوقف لئلا يكثر الإقدام على الرواية عن تساهل، ويجب حمله على شيء من ذلك، إذ ثبت منه قطعًا قبول خبر الواحد وترك الإنكار على القائلين به» .

وبالأرجح في نظرنا أن الخلفاء الثلاثة فيما رويَ عنهم من الاستيثاق على الحديث، إنما كانوا يفعلون ذلك في الأحوال التي تشبه أحوال الفصل في القضاء بالبينة، والبينة تكون بشهادة اثنين، أو بدعوى مؤيدة باليمين إذا لم تجد معارضة.

فأبو بكر كانت أمامه امرأة تطلب نصيبًا من الميراث، فإذا حكم لها بذلك فقد أنقص حق الوارثين الآخرين بمقدار ما أعطاها، فلما أخبره المغيرة بما علم من سنة رسول الله في ذلك نزل هذه الرواية منزلة الشهادة، ومن المعروف أن الرواية يقبل فيها الواحد، لكن الشهادة لابد فيها من اثنين - فلما نزلها منزلة الشهادة - لاعتبار

قام لديه، كأن يكون المغيرة له صلة قرابة بالمرأة المطالبة بالميراث ـ طلب راويًا آخر ليكون بمثابة الشاهد الآخر في قضية، ليحكم فيها بالبينة، ولا شك أنه كان يسعه رضي الله عنه الاعتماد على المغيرة رضي الله عنه، كراو لا كشاهد، ومن ثم لا يكون محتاجًا إلى غيره، ولكنه لما عسى أن يكون قام لديه عند النظر في الأمر، أراد أن يحتاط أتم الاحتياط فنزل الرواية منزلة الشهادة.

ويمكن أن يقال مثل ذلك في قضية أبي موسى مع عمر، فإن أبا موسى كان مدعواً من أمير المؤمنين لسؤاله عن بعض الشئون، فلما ذهب إلى عمر وطرق بابه فلم يجب، وعاد، حتى إذا سأله أمير المؤمنين روى له الحديث الذي رواه، رأى عمر أن حق أمير المؤمنين في الاستجابة إلى دعوته يجب أن يكون مؤكداً، وأن من دعي إليه ثم انصرف دون لقائه لمثل ما علل به أبو موسى، إنما يكون في موقف المدافع عن نفسه في تصرف متصل بحق ولي الأمر، وحق النظام العام في الطاعة وعدم اتخاذ مظهر مناف لهما كان صاحبه معذوراً، فأراد عمر أن يحد من مثل ذلك، فجعلها شهادة ولم يجعلها رواية، وكأنه يقول لأبي موسى؛ إني لا أتهمك بالكذب على رسول الله ﷺ، وحاشاي أن أتهمك بذلك فأنت صاحب رسول الله وأنت الثقة الأمين، ولكنك جئت بقول اعتذرت به عما فعلت، فموقفك أقرب إلى موقف الشاهد منه إلى موقف الراوي فائتني بآخر يروي ما رويته، وإلا فعلت بك وفعلت.

ويرجح ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل كلمة «البينة» فيما قاله لأبي موسى، وذلك إذ يقول: «لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك وأفعلن».

فالأمر إذن في نظر عمر أمر تحقيق في واقعة، ومحاسبة على صنيع معين، قبل أن يكون أمر رواية يكتفي فيها براو واحد.

وعلى مثل هذا يحمل كلام الإمام علي كرم الله وجهه، فإن ما نسب إليه من الاستحلاف أشبه بأن يكون في القضايا التي يكون فيها دعوى تحتاج إلى بينة، ثم لا توجد البينة، فتؤازر الدعوى بيمين من المدعى، ولم يذكر الظروف الذي قال فيه الإمام علي ذلك، فالأرجح أنه قال في مثل هذا الظرف القضائي.

وبذلك نعلم أن الصحابة كلهم عدول في نظر بعضهم إلى بعض، وأن الخلفاء الثلاثة لم يكن لهم خطة خاصة تشترط شرطًا كالذي ذكروه في قبول خبر الواحد،

أسئلة وأجوبتها
بمناسبة صدور كتاب
«وسطية الإسلام»

(١) السؤال الأول :

من السيد / صلاح درديرالقطان المدرس بمدرسة الأشراف الإعدادية للبنين - ببلقاس دقهلية .

يقول : أما بعد فقد قرأت كتابكم الجديد (وسطية الإسلام) فانتفعت بما فيه من أفكار نيرة ومباحث ناضجة وتناول بارع لما في الكتاب من أبحاث وموضوعات.... غير أنني لاحظت أن فضيلتكم تقررون - عند الكلام على الشهادة أن الإسلام لم يجعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل لنقص في المرأة، وذهبتم إلى أن هذا لا يعد انتقاصاً للمرأة أو تمييز للرجل .. وإني مع إعجابي ببحثكم وتقديري للدور الخطير الذي تلعبه المرأة في حياتنا الخاصة والعامة - أقرر أن الإسلام جعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل لما فيها من نقص في العقل والرأي والتدبير، وقد أوضح نبينا محمد ﷺ فيما روى البخاري وغيره هذه الحقيقة فقال عليه السلام مخاطباً النساء : «أنكن ناقصات عقل ودين» - وفسر عليه السلام هذا النقص، فقال ما معناه : أما نقص العقل فشهادة إحداكن بنصف شهادة الرجل، وأما نقص الدين فإن إحداكن إذا حاضت تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة» صدق من لا ينطق عن الهوى!

هذا وقد كنت أحب لفضيلتكم ألا تجاملوا المرأة أو تحابوها على حساب الحقيقة التي قررها الإسلام وجلاها بنبيه عليه السلام ولكن ... ؟

وتقبلوا تحياتي وإعجابي .... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* **الجواب :**

إني لمغتبط بما يبدو في خطابكم من روح الغيرة على العلم والدين أكثر من اغتباطي بثنائكم على كتابي، ولا شك أن لكم وجهتكم فيما ذكرتم من نقد لرأينا في شهادة المرأة غير أني أظنكم لم تلتفتوا إلى أننا فسرنا النص القرآني الكريم الذي جاء فيه ما يدل على أن شهادة المرأة على نصف من شهادة الرجل وأن ذلك في رأينا وفي رأي كثير من العلماء الأقدمين إنما هو في وقت تحمل الشهادة لا في وقت أدائها، وقد قبل الإسلام شهادة امرأة واحدة في بعض الحالات كالأمور التي تنفرد برؤيتها النساء، بل أجاز بعضهم شهادة امرأة واحدة إذا اطمأن القاضي لشهادتها ولو في الحقوق المالية، وروى ابن حزم أن معاوية بن أبي سفيان قدم شهادة أم المؤمنين أم سلمة وحدها في دار ادعاها أحد الخصوم، وقد بينت في كتبي أن عدم قبول شهادة المرأة أحيانًا من بعض الخصومات أو اشتراط اثنين عند إرادة التوثيق ليس مرجعه إلى قلة ذكاء المرأة أو نقصها وهذا الذي تذكرون الحديث الشريف : «أنكن ناقصات عقل ودين» في الاعتراض عليه وأني أذكركم إن هذا الحديث له تفسير غير ما يبدو منه لأول وهلة وأذكر لكم خلاصته :

(١) أن أسلوب النبي ﷺ يأتي في بعض الأحيان مزاحًا وتأنيبًا ولكنه لا يكون مع ذلك إلاحقًا، ومن أمثلة المزاح قوله ﷺ للمرأة العجوز التي طلبت منه أن يدعو لها بدخول الجنة : «لن تدخل الجنة عجوزاً»، وقد اضطربت المرأة عندما سمعت هذا وهالها الأمر لأنها أخذت ما يبدو من الكلام لأول وهلة ولم تتأمل فيما وراء ظاهره، فلما رأى رسول الله ﷺ جزعها واضطرابها قال لها ما معناه : ألم تقرئي قوله تعالى في نساء الجنة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ (الواقعة : ٣٥-٣٧)، وهناك أمثلة أخرى مروية عن رسول الله ﷺ تمثل ذلك ومن أمثلة ما ذكره الرسول ﷺ على سبيل التأنيب ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ : «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار»،

فقالت امرأة منهن جزلة (أي فصيحة بليغة): وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن!» قالت يارسول الله: وما نقصان العقل والدين قال: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين»(١).

فهذا القول له ظاهر يدل على نقصان عقل المرأة ودينها نقصانًا ينزلها عن مرتبة الرجل باعتباره أكمل منها عقلاً ودينًا، ومن شأن هذا الظاهر أن يؤثر في النساء السامعات له من الرسول ﷺ لأول وهلة تأثيراً معينًا أراده الرسول ﷺ تأنيبًا لهن، ثم جاء بعد ذلك شرح الرسول ﷺ بكلمته هذه بأن بيّن نقص العقل مرجعه إلى أن شهادة احداهن بنصف شهادة الرجل، ونقص الدين مرجعه إلى أن احداهن تحيض فتقضي الصوم ولا تقضي الصلاة .. إلخ وليس في كلام الرسول ﷺ أن نقص الشهادة هو في حالة الأداء أو في حالة التحمل. فإذا قلنا أن الآية إنما تتحدث عن حالة التحمل التي هي حضور المرأة وشهودها الواقعة من الوقائع حتى يمكن أن تشهد لها في المستقبل بين يدي القاضي فلا نكون معارضين للحديث في هذه النقاط.

وقد بينا في كتابنا أن هذا النقص ليس نقصًا مرجعه إلى أن المرأة لها مستوى من الذكاء أدنى من مستوى الرجل، وإنما مرجعه إلى أن المرأة باعتبار تقاليد الإسلام ومجتمعه المتحفظ لا تشترك في المعاملات ولا تباشر بنفسها شئونها؛ ومن ثم فهي ليست بذات حافظة تعي هذه التصرفات وتحتفظ بتفاصيلها فأراد الإسلام أن يجمع امرأتين في هذه الأحوال في مقابل رجل واحد كي يسد هذا النقص الذي لا يرجع إلى الذكاء كما قلنا وإنما يرجع إلى عدم الاشتغال بهذه الشئون.

وبذلك يتبين أن الرسول ﷺ ساق لفظ النقص في مقام التأنيب ليصلح ظاهره لأداء هذا الفرض بينما هو عند التأمل ليس نقصًا تعاب به المرأة وإنما هو نقص تجربة

(١) صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ك/ الإيمان ب/ بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (١١٤).

لعدم الاختلاط ومباشرة ألوان من المعاملات يغلب أن يباشرها الرجل.

(٢) بقي أن الرسول ﷺ يذكر نقص الدين في حق المرأة ثم يفسره بأنها لا تصلي في بعض أوقاتها بسبب الحيض، وظاهر أن هذا ليس نقصاً يرجع على المرأة بالعار لأنها لم تفرط حتى تلام وإنما ذلك أمر كتبه الله على بنات حواء - كما قال رسول الله ﷺ لعائشة، وهو الذي نهاهن عن الصلاة أثناء الحيض فإذا انتهين فإنما انتهين بأمر الله فإن ذلك الانتهاء هو كمال في دينهن، وليس نقصاً كما هو واضح، ولو أن امرأة أصرت على الصلاة في زمن الحيض لكانت خارجة على حدود الله .

ولكان هذا هو عين النقص فيها من وجهة نظر الدين. وبذلك يتبين أن النقص في الدين ليس مراداً به ظاهره في هذا الحديث، وإنما هو مسوق لخدمة غرض معين يقتضيه المقام، وهو التأنيب فلا يصح حمله على النقص الذي يلام به الناقص حيث يقصر من فعل شيء أو يقصر عنه.

وأخيراً يتبين لكم أنني إنما قررت رأي من درس وبحث لا عن مجاملة للمرأة ولا محاباة على حساب الحقيقة كما ذكرتم، والله يهديني وإياكم سواء السبيل.

السؤال الثاني :

وجهه إلينا أحد طلاب كلية الشريعة، قال فيه: ألا يدل قوله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ (النساء: ٣٤) على أن الرجل في اعتبار الإسلام أفضل من المرأة؟

أساس التفاضل بين الرجل والمرأة هو الاختصاص

الجواب على هذا السؤال يتبين من دراستنا لآيتين وردتا في سورة النساء احداهما قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ (النساء: ٣٢) .

والكلام في هذه الآية في شأن يرجع إلى الرجال والنساء على وجه المقابلة، فهو توجيه للرجال والنساء أساسه لفت الأنظار إلى طبيعة كل منهما وما فضل الله به

بعضهم على بعض، فالرجال مخلوقون لغرض، ولهم وظيفتهم الطبيعية في الحياة، وقد هيئوا على وضع خُلُقي وخَلْقي يلائمها ويساعد على أدائها، والنساء كذلك خلقن على وضع جسمي ونفسي يلائم ما قصد منهن، وكل في ناحية مفضل بمزايا اكتسبها بحكم الطبيعة، أي بحكم السنن الإلهية العادلة الحكيمة، فلا ينبغي أن يتطلب الرجال ما هو من خصائص النساء ومافضلن به وميزوا، فإن ذلك تمن والتمنى هو طلب ما لا يكون، وهو خروج على الطبيعة ومحاولة للخلط في نتائج لا تبررها المقدمات الواقعية.

فإذا ساد هذا التوجيه في المجتمع كان له إيحاء في كثير من جوانبه، وكان جدير بأن يحل كثيراً من المشكلات المعقدة، وأن يصلح كثيراً من الأوضاع الفاسدة، وأن يحفظ على المجتمع طبيعته وفطرته.

والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (النساء: ٣٤) وهي موضع السؤال.

وفيها توجيه آخر له صلة بالتوجيه السابق وهو نتيجة من نتائجه، إن الأسرة مجتمع صغير يتألف منه ومن أمثاله المجتمع الكبير، ولابد لكل مجتمع من رياسة وسلطة إليها يرجع، وبها يحسم وألا تعرض المجتمع للغوص وتصادم الآراء والرغبات، فالأسرة بحاجة إلى أن تسند هذه السلطة إلى أحد أعضائها، والرجل أولى الزوجين بأن يعهد إليه بذلك:

أولاً: لأن هذا حكم الطبيعة، إذ هو الأقوى على تحمل الأعباء، وتقبل التبعات، والأقوى هو الأجدر بالتقديم.

ثانياً: لأنه هو المكلف بالإنفاق، وباذل المال من حقه أن يكون صاحب القول الفصل فيما يستند إلى ماله وبذله.

وفي التعبير بقوله: ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ**﴾ هنا، وبقوله ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ في الآية السابقة ايحاء بإن الزوج والزوجة يكونان شيئاً

واحداً هو كل، الزوج بعضه، والزوجة بعضه، وتفضيل بعض أعضاء الجسم الواحد على بعض ليس معناه الأفضلية بمعنى أنه أعز وأغلى ولكن معناه فضل الاختصاص بشيء، فجسم الإنسان مثلاً كل له أجزاء، العين جزء، اليد جزء، والأنف جزء، والرأس جزء وهكذا.

ولكل جزء مزيته ووظيفته الخاصة التي لا يغني عنه فيها جزء آخر، فالفضل هنا بمعنى المزية، والتفضيل بمعنى التمييز والتخصيص، فالأنف من حيث وظيفته ومزيته له قيمته، وفضله حاجة الإنسان إليه، والعين من حيث وظيفتها ومزيتها لها مثل ذلك . وفضل هذا لا يعارض فضل ذاك، ولكن إذا أراد الإنسان أن ينظر فإنه لا يوجه أنفه للنظر، وإنما يوجه عينه. وإذا أراد أن يشم فإنه لا يوجه إلى الشم اذنه، ولكن يوجه أنفه، وإذا أراد أن يسعى سعى برجليه لا بيديه.. وهكذا .

فإذا عرف المجتمع للرجل والمرأة وضعهما الطبيعي وأذعن لهذا الوضع، استراح: فاستراح الرجال من النساء، والنساء من الرجال، على سنة الإذعان لتوزيع الاختصاص.

السؤال الثالث :

من السيدة سوسن شمس الدين - بالدقي تقول: « قرأت الفصل الممتع الذي كتبتموه في (وسطية الإسلام) عن تحديد الوضع الاجتماعي لكل من الرجل والمرأة فلا شك أنكم وفقتم إلى بيان هذا الوضع بحسب المهام الطبيعية التي أسندها الله تعالى لكل منهما، غير أنه بقي في النفس شيء من تفضيل الرجل على المرأة في الميراث، فالرجل بطبيعته أقوى من المرأة وأقدر على الكسب فإذا كان لابد من مضاعفة نصيب أحد منهما فإن المرأة الضعيفة أولى بأن يضاعف لها النصيب، فكيف جاء الإسلام بعكس ذلك؟

أني مؤمنة بالله وبما جاء في كتابه العزيز ولكن ليطمئن قلبي! .

توزيع الميراث يراعي إعفاء المرأة من الإنفاق.

الجواب:

أنني أشكرك أيتها السيدة الكريمة على اعترافك بأن الفصل الذي كتبته يحدد الوضع الاجتماعي للرجل والمرأة حسب وضعهما الطبيعي.

وأشكرك على أنك إنما تسألين عن الحكمة في تفضيل الرجل على المرأة في الميراث مع إيمانك بما جاء في كتاب الله تعالى، ولا بأس على أحد أن يطلب الإطمئنان بالعرفان، فمن قبل قال إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ولقد كانت إشارتك إلى هذه الآية في ختام سؤالك تدل على ذكائك كما تدل على إيمانك، وأعلمي أيتها السيدة الكريمة أن الله تعالى قسم الحظوظ في الميراث على وجه من الحكمة والدقة والعلم يشير إليه قوله تعالى من الآية الأولى من آيات الميراث في سورة النساء: **﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** (النساء: ١١).

وهذا التقسيم ظاهر العدالة إذا نظرت إليه بإنصاف، فإن المرأة قد أعفيت في حياتها كلها من أي التزام نحو أسرتها قبل الزواج وبعده، بل أعفيت من أي التزام نحو نفسها! فالمرأة قبل زواجها تعيش في ظل أبيها أو أخيها أو وليها ينفق عليها ويقضي جميع حاجاتها وليس عليها في مقابل ذلك أن تكلف بكسب مال تستعين به الأسرة كما يكلف أخوها، ثم إذا تزوجت تقدم إليها الزوج بالمهر والهدايا وتعاون هو وأهلها في التجهيز لها وإعداد بيت تسعد فيه.

وهي في ظل الزوج ليست مكلفة بأية نفقة ولا بأي كسب هو الذي يكسب وهو الذي ينفق، وقد وصل الأمر بالإسلام إلى حد أنه لا يكلف المرأة في بيتها إلا شئون العمل المنزلي المعتاد بين الناس، فإذا زاد هذا العمل على المعتاد، كان لها أن تطالب الزوج بخادم، وكان على الزوج أن يجيبها إلى ماطلبت، بل وصل الأمر

ببعض علماء المذاهب في الإسلام إلى أن الرجل الذي لا يقدر ماليًا على الإتيان بخادم لزوجته عليه هو أن يساعدها ويحتمل قسطًا من الشئون المنزلية، ولا سيما ما تعجز عنه الزوجة بحسب قوتها، وقد قرر أهل العلم أيضًا أن الأم إذا أرضعت ابنها فهي تفعل ذلك مختارة فإذا أبت أن ترضعه، كان على الأب أن يستأجر له مرضعة، أو أن يعطي أمه أجرًا على إرضاعه، وذلك قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ** ﴾ (البقرة : ٢٣٣)، وفي بعض الآيات : ﴿ **وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى** ﴾ (الطلاق : ٦)، ومعناها وإن كنتم أيها الآباء في عسر أو تظاهرتم بالعسر المادي الذي يقصر بكم عن إعطاء الأم ما تستعين به على الإرضاع، فاعلموا أن الأمر لازم لكم وسترضع الولد امرأة أخرى غير الأم وستأخذ أجر إرضاعها فالأم أولى.

وهكذا يتبين إلى أي حد أعفى الإسلام المرأة من الأعباء المالية والتكاليف المعيشية، وإلى أي حد ألقى هذه الأعباء وغيرها على كاهل الرجل، أفيكون من العدل بعد هذا أن تتطلع المرأة إلى مساواة الرجل في الميراث؟ وهل يرضي النساء بأن يكون عليهن ما على الرجال من أعباء الحياة وأن يعفي الرجال من هذه الأعباء كما أعفى النساء على أن تأخذ المرأة ضعف نصيب الرجل .

لا شك أن النساء العاقلات المتصفات سيقلن بملء أفواههن : «لا يارب، وسبحان الحكيم العليم».

الفهـــرس

الموضــــوع	الصفحــة

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـــــوع	الصفحـــة

* * *